كاثرين سنتر

أشياء ننقذها من النيران

مكتبة

قائمة نيويورك تايمز
لأكثر الكتب مبيعاً

رواية





كاثرين سنتر

أشياء ننقذها من النيران

الكتاب

أشياء ننقذها من النيران

تأليف

كاثرين سنتر

ترجمة

أنس غ. الغريب

الطبعة



الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9920-657-43-3

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Katherine Center

Things You Save in a Fire

نُشِر بالاتفاق مع

St. Martin's Publishing Group

16 1 2025

كاثرين سنتر

أشياء ننقذها من النيران

رواية

ترجمة: أنس غ. الغريب



الليلة التي أصبحتُ فيها أصغر شخصٍ، وأولَ امرأةٍ في التاريخ، يتمُّ توشيحها بوسام الشجاعة من قسم مكافحة الحرائق في مدينة أوستن، عرض عليَّ زميلي مشاركتَه الفراش.

عرض عليَّ زميلي،

في الحفل، داخل قاعة الرقص، خلال العشاء،

مشاركتَه الفراش.

كنَّا هناكَ، جميعنا، كل أعضاء «المناوبة ب» من مركز الإطفاء الحادي عشر، في لباسنا الرسمي، نستعمل شَوكات السَّلطة، وكنتُ هناك، بربطة عنقي المُتصالِبة، وتوتُّري يزداد أكثر فأكثر لاحتمال أن أُضطرَّ لاعتلاء خشبة المسرح، أمام كل هؤلاء الناس، وتحت كل هذه الأضواء.

خلال فصل الشتاء السابق، انزلقت حافلة نقلٍ مدرسيٌّ بفعل طبقة ثلجٍ تشكَّلت على الطريق، وقد كانت مَلأى بالأطفال، واستقرَّت أسفل وادٍ، فاضطررتُ للزَّحف داخلها، ودفع الأطفال خارجاً عَبْرَ نافذةٍ، واحداً تِلْوَ الآخر، بينما كان مستوى الماء يرتفع.

لهذا السَّبب كنَّا هناك تلك الليلة، كانَتِ الجرائد تدعوني: «المَلاك المنقِذ لحافلة النقل المدرسيّ».

ومن بين الجميع، اختار هيرنانديز هذه اللحظة بالذَّات ليُقدِم على فعلته.

هيرنانديز، زميلي لمدة ثلاث سنواتٍ، هيرنانديز الذي لم أنظر إليه يوماً بعيونٍ أنثويَّةٍ تشاهد رجلاً، هيرنانديز الوسيم على نحوٍ مثاليٍّ تماماً، وبطريقةٍ ميكانيكيةٍ، إلى حدِّ أنَّني ما عُدتُ أحسِبه وسيماً.

كان أشبه بدمية كين[1] لأمريكيٍّ لاتينيٍّ في زيٍّ رجل إطفاءٍ، كامل الأوصافِ بطريقةٍ تُشتِّتُ الحواسَّ، ولم يكن حقيقيّاً حتى. كان يرفع الأثقال، وينظِّف أسنانه بالخيط، ويُلمِّع صورته الاجتماعية، ويستعمل عضلات بطنه المشدودة مثل لَوْحِ الغسيل، وأسنانه النَّضيضة المثالية، للإيقاع بآنساتٍ غافلاتٍ بأعدادٍ ما كنتُ قادرةً على إحصائها. ولا تَظهر صورتُه على الروزنامة الخاصَّة بقِسم الإطفاء فحسب، بل تَظهر صورتُه كبيرةً على الغلاف الرئيس.

هيرنانديز، الذي خُلِقَ من أجلِ أنْ تُؤخَذَ له صورٌ تتحدَّى الكمال، وآخر رجلٍ على الأرض سأفكِّر فيه بطريقةٍ غير كونِه رجلاً يأكل طعاماً صحِّيّاً ويعمل مدرِّب لياقةٍ بدنيةٍ للسيدات، انحنى نحوي، وباتجاه أذني، ونحن على طاولة الوليمة الطويلة، وطلب منِّي أنْ أقضيَ الليلة معه.

«ربما الليلةُ هي اللّيلَةُ المنتَظرة»، قال لي.

---

(1) دمية أزياءٍ تم عرضها من شركة «ماتل» الأمريكية منذ سنة 1961 بوصفها نسخةً ذكوريةً من دمية «باربي» التي تمَّ طرحها في الأسواق قبل ذلك بسنتين - المترجم.

واصلتُ مَضْغَ الطَّعام، فلم أكنْ أتوقَّع حدوث ذلك يوماً، لذا أخذني على حين غَرَّةٍ: «الليلةُ المنتظَرةُ! من أجل ماذا؟».

نظر إليَّ وعيناهُ تَشِيان بمعنى «أَلَيسَ الأمرُ واضحاً؟»:

«... لنقومَ بشيءٍ حيال هذا الانجذاب والتَّوتُّر الجِنسيِّ بيننا».

نظرتُ حولي لأتحقَّق إنْ كان أيٌّ من الرفاق غيري قد سمِعه.

لا بُدَّ من أنَّه يمزح.

لا بدَّ أنَّ أحدَهم يقوم خِلسةً بتصوير فيديو، أو أخذ صورةٍ، أو أنه متربِّصٌ على أُهبة الاستعداد لينقضَّ عليَّ ويَشرَع في الضحك مستهزئاً، فلم يكن هناك تفسيرٌ آخرُ عدا كونِه أحدَ برامج الكاميرا الخفيَّة الذي يصوِّرُ إحدى حلقاته الأسطورية تحت عنوان: مَقلبٌ في قسم الإطفاء. فجُلتُ ببصري أتفقَّد وجوه باقي أفراد طاقمنا.

متواطئون جميعُكم معه في هذا المقلب، أيها اللعينون.

لكنَّ كلَّ ما رأيتُه أنَّهم كانوا جميعاً منهمِكين بقَطعِ الدَّجاج بسكاكينهم المنشاريَّة.

قرَّرتُ أنْ أكشفَ خدعتَهُ، «حسنٌ»، قلت، «إنَّها فكرةٌ رائعةٌ».

رفعَ حاجبيه وبدا مغتبِطاً: «حقّاً؟».

نظرتُ إليه بطريقةٍ مفادُها بحقِّك يا رجل، ثمَّ قلتُ: «لا، ليس حقّاً».

«أنا جادٌّ» قال، قبل أنْ ينحنيَ نحوي أكثر.

«لا، لستَ كذلك».

رمقَني بتلك النظرة التي تُسائلني مَنْ أكون حتَّى أحكُمَ عليه وعلى صِدقه، فأبدلْتُها بأخرى تردُّ بأنَّه يعرف تماماً مَنْ أكون.

قلت: «أنتَ لستَ جادّاً أبداً بخصوص أيِّ شيءٍ، ولا سيَّما حين يتعلَّق الأمر بالنساء».

«ولكنَّكِ لستِ امرأةً، أنتِ إطفائية».

«وهذا سببٌ آخرُ يمنعني من مرافقتك إلى المنزل».

«أظنُّ أنَّكِ ترغبين في ذلك».

أومأتُ برأسي، لا.

«في أعماقك...».

«لا».

«أستطيع أنْ أتحدَّاك وأُثبِتَ عكس ذلك»، قال هيرنانديز.

لم يسبقْ لي أنْ تراجعتُ أمام تحدٍّ من قبل، ولكنَّني أومأتُ بالرفض، ولسان حالي يقول: **ولا ذلك حتى، يا صاح**. «أنا لا أواعد الإطفائيين، ولا أنتَ يجب أنْ تفعل»، قلتُ بصرامةٍ هادئةٍ.

«يكاد هذا لا يكون موعداً غرامياً».

دفعتُ رأسي نحو الأمام، وأخفضْتُه قليلاً: «يا رجل، أنتَ مثلُ أخٍ بالنسبة إليَّ».

«أستطيع تدبُّر أمري والعمل مع هذا».

وسَّعتُ فتحتَي أنفي: «أنتَ مقرفٌ».

«بحقِّكِ، لِمَ لا؟».

ضيَّقْتُ عينيَّ ونظرتُ إليه مليّاً، هلْ كان جادّاً؟ أيمكن أنْ يكون جادّاً؟ رمقتُ الخشبة بنظرةٍ خاطفةٍ، فبعدَ دقائقَ قليلةٍ سيبدؤُون احتفالية تسليم الجوائز. كانت تلكَ ليلةً عظيمةً بالنسبة إليَّ، ليلةً هائلةً، أهمَّ ليلةٍ في مسيرتي المهنيَّة. أكانَ يجب علينا حقّاً أنْ نقوم بذلك في تلك اللحظة؟

«نحن نعمل معاً، يا رجل»، قلتُ، برغم أنَّه لم يكنْ يجب أنْ يصل بي الأمر إلى أنْ أُضطرَّ إلى قول ذلك.

الإطفائيون لا يواعدُ بعضهم بعضاً، ليس الأمرُ مُنافياً للقواعد فحسب، بل هو مُنافٍ للثقافة.

لم يكترث البتَّة، وقال: «لن أخبرَ أحداً».

«ذلك لا يغيِّر من واقع الأمر شيئاً».

ألقى عليَّ نظرة جادَّةً وفاحصةً: «عليكِ أنْ تسمحي لنفسك بالحصول على بعض المرح».

أومأتُ: «لستَ نوع المرح الذي أحبِّذه».

انحنى ليَدنوَ منِّي أكثر: «أنتِ لا تواعدين أحداً، كيف يُعقَلُ أنَّ ذلك ممكنٌ حتَّى؟ يا له من تبذيرٍ لامرأةٍ من نوعٍ جيِّدٍ، أطلقي العنان لجموحك».

قلت بنبرةٍ محايدةٍ كأنَّنا كنَّا نخوض محادثةً عن حالة الطقس: «أنا لا أمنع نفسي عن أيِّ شيءٍ، أنا فقط غير مهتمَّةٍ».

ألقى نظرةً سريعةً فاحصةً على جسده، باستحسانٍ، ثمَّ نظر إلى عينيَّ.

«بل أنتِ مهتمَّةٌ».

أومأتُ بالرفض.

«لقد فكَّرتِ في الأمر»، قال.

«متأكِّدةٌ تماماً من أنَّني لم أفعلْ».

خفض صوته: «لكنَّكِ تفكِّرين في الأمر الآن، أليس كذلك؟».

«ليس بطريقةٍ إيجابيةٍ، كما قد تتصوَّر».

«يجب أنْ تتوقَّفي عن عيش حياتك كراهِبَةٍ»، قال، قبل أنْ يضيف: «ماذا لو كنْتُ أنا علاجَ وحدتك الكبيرة هذه؟».

نجح في شدِّ انتباهي بما قاله، فصببْتُ جامَّ غضبي من دون أنْ أنتبه، وطعنتُ قطعة جَزرٍ في سَلَطتي: «أنا لستُ وحيدةً».

عبس في وجهي كأنَّني امرأةٌ مجنونةٌ رسمياً: «أتعلمين أمراً؟ أنتِ أكثرُ شخصٍ وحيدٍ أعرفُهُ».

لِأكونَ صريحةً هنا، لقد نجح في أنْ يصيبَ وتراً بكلماته الحادَّة تلك، وأحسسْتُ أنَّ مِخلباً اخترق جلدي، مُحدثاً ألماً طفيفاً. وجَّهْتُ شوكةَ الطعام التي كانت في يدي نحوه.

«أنا أكتفي بذاتي»، قلتُ، قبل أنْ أتدارك: «أنا مستقلَّةٌ، أنا أملك زمام أمري».

«وأنتِ أيضاً في حاجة إلى بعض...»، ثمَّ، وبعد صمتٍ معبِّرٍ، أضاف: «الرِّفقة».

رفضتُ تقبُّل هذا المعنى الذي يقترحه: «لا وقتَ لدي للرِّفقة».

كانت لديَّ مناوبتي في مركز الإطفاء، ووظيفتي الثانية كمدرِّبةٍ لفنون الدفاع عن النفس، وعشر ساعات أسبوعيّاً من العمل التَّطوُّعيِّ رفقة بيغ سيسترز[1]، وماراتونٌ يجب عليَّ أنْ أتدرَّبَ استعداداً له، ونهاياتُ أسبوعٍ أُمضيها في مساعدة والدي على أشغال توسيع بيته. أكادُ لا أملك الوقت الكافي للنوم، فما بالك بـ«الرفقة».

«خطأُ مَنْ هذا في رأيكِ؟» سأل هيرنانديز.

أيُّ نوعٍ من الأسئلة هذا؟ «'الرفقة' ليست أولويةً بالنسبة إليَّ، فأنا، ببساطةٍ، لستُ شخصاً رومانسياً».

---

(1) حرفياً «الشقيقات الكبيرات» وهو شِق من تحالف دولي «Big Brothers Big Sisters (BBBS)» يهدف إلى التوجيه المجتمعي عبر ربط فتيان (6-18 سنة) - يكونون غالباً من أُسَرٍ ذات دخل منخفض أو ذات أب وحيد - بمرشد بالغ متطوع يكون شاباً (20-34 سنة) ومتعلماً تعليماً جيِّداً (خريج جامعة في أغلب الأحيان) - المترجم.

«الأمر لا علاقة له بالرومانسية، الأمر يتعلَّق بالدفء، بالاتِّصال، بالتقارب الإنسانيّ».

«يبدو ذلك كالرومانسية بالنسبة إليَّ».

«سمِّها ما شئتِ، أنتِ في حاجةٍ إلى بعضٍ من ذلك».

ما الذي كان يحصل؟ كان ذلك هيرنانديز. لا يمكن بأيِّ شكلٍ من الأشكال أنْ يكون جادّاً، ومع ذلك فقد بدا على وجهه الإخلاص فيما يقول. واصلتُ عملية المسحِ بحثاً عن أيِّ معلومةٍ مفيدةٍ: ابتسامةٍ صغيرةٍ جانبيةٍ ربَّما، أو شرارةِ مكرٍ في عينيه، لكنَّ كلَّ ما وجدْتُه كانت تلك النظرةَ المكثَّفة والثابتة، الموجَّهة نحوي بصدقٍ غريبٍ.

تردَّدْتُ: «لا بدَّ أنَّك تمزح، أليس كذلك؟».

لا بدَّ أنّه كان يمزح.

غمرني فجأةً توجُّسٌ من هذا الشخص الذي كنت معه في علاقةٍ من عدم الانجذاب المتبادل لوقتٍ طويلٍ، ليقوم ويدَّعي فجأةً، ومن دون سابق إنذارٍ، أنَّه مهتمٌّ بي. كان الأمر كأنَّنا اتَّفقنا على أنْ نلعب لعبة الداما، ليعلنَ فجأةً أنَّنا كنَّا نلعب الشطرنج طوال هذا الوقت، ومنذ البداية.

رفع يده باتِّجاه حافَّة الطاولة، وبذهنٍ غائبٍ، لمس بإصبعه مقبض سكِّيني التي لم تُستعمَل بعدُ: «ماذا لو كنتِ مُخطئةً بخصوص الحياة برمَّتها؟» سأل، ثمَّ أضافَ بصوتٍ خفيضٍ يكاد يكون همساً: «ماذا لو كنتُ أنا ما تحتاجينه بالضبط طوال هذا الوقت؟ ألا تودِّين اكتشاف ذلك؟ ألن تتساءلي طوال حياتك عمَّا كان سيحدث؟».

أكرِّر: كان هذا هيرنانديز.

كانتْ أَحَبُّ مزحةٍ إليه هي أنْ يُلقِي بي على الأريكة، لا لشيءٍ

إلا ليُطلقَ ريحاً في وجهي. لم تمضِ لحظةٌ واحدةٌ بيننا يمكنُ أنْ يُقالَ عنها إنَّها كانت تحمل شيئاً من المغازلة أو التلميح، ولا أيُّ لحظةٍ ذاتُ طبيعةٍ شخصيةٍ حتى، ولكنَّه الآن يحتجزني في هذه المحادثة المخبولة.

جاذبيَّته مع النِّساء كانتْ قوَّةَ تنويمٍ مغناطيسيٍّ مشهوداً لها، رأيته يستعملها على أعدادٍ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى من الأهداف، بنسبة نجاحٍ تقارب الكمال، والأمر فقط أنَّه لم يجرِّبِ الأمر عليَّ من قبلُ.

كان يجبُ أنْ أكونَ مُحصَّنَةً ضدَّه، لكنَّني كنْتُ غيرَ متوازنةٍ شيئاً ما، وأنا في هذا الفندق الباذخ، أترقَّب اعتلائي الخشبةَ. إنَّه لأمرٌ عظيمٌ لعينٌ أنْ يتمَّ تقديرُك والاعترافُ بمجهوداتك وتشريفك، وكانَ ذلكَ يُبعثر مشاعري بطرقٍ لم أتوقَّعْها البتَّة. كما أنَّ هيرنانديز، وللأمانةِ، لم يكن مخطئاً مئةً في المئة بخصوصي، فبرغم كلِّ ما كنتُ أعلمه عنه، وعن الحياة، وعن الإطفائيِّين، وعن نفسي، فأنا أعترف: شيءٌ ما بخصوصِ هذه الخدعة، في هذه اللحظة، يبدو أنَّه بدأ ينفُذُ إلى دواخلي.

أظنُّ أنَّه لا يمكن للمرء أنْ يُبقيَ دفاعاتِهِ قائمةً طوال الوقت.

ربَّما كنتُ وحيدةً أكثر ممَّا أعي. ربَّما كنْتُ في حاجةٍ إلى المزيد. ربَّما لم يكنْ أيُّ شيءٍ في حياتي يسير على النهج الذي كنتُ أظنُّ.

كانت المشكلةُ أنَّهُ قد قال للتَّوِّ كلماتٍ تحمل في طيَّاتها الحقيقة على نحوٍ غريبٍ، الأمر الذي بدا لي غير عادلٍ: أنْ تعرفَني جيِّداً ثمَّ تستخدم ذلك ضدِّي.

عالقةً في شَرَك هذه اللحظة الغريبة، وجدتُ نفسي فجأةً أطرِفُ بعينيَّ على حياتي كلِّها عبر عدستين جديدتين. أكانَ محقّاً؟

ربَّما لم أكنْ أرغب في لعِبِ الداما يوماً.

كانت أغربَ لحظةٍ قَطُّ أُمضيها برفقته. أغربَ من الحفل الراقص، وأغربَ من مسابقة تناوُل الفطائر، بل أغربَ حتى من ليلة الكاريوكي التي خرجت عن مسارها.

هيرنانديز، من بين كلِّ الناس.

راقب كلانا إصبعَهُ المائِل على مقبض السِّكِّين.

دفع بها باتِّجاهي ليقرِّبها: «أنتِ تشعرين بالإغراء».

لم يكن ذلك صحيحاً، أو ربَّما، وبطريقةٍ ما، كان يحمل بين طيَّاته شيئاً من الحقيقة. ثمَّ في لمحةٍ خاطفةٍ كرؤيةٍ تجلَّت في ذهني وأمام عينيَّ، شرعْتُ أفكِّر في شقَّتي الإسبارطيَّة الحزينة المتقشِّفة، والنباتات على الرَّفِّ أمام زجاج نافذة المطبخ. فكَّرْتُ في سريري المُعَدِّ دوماً بدقَّةٍ عسكريَّةٍ، والملاءة البيضاء الملفوفة والمدسوسة تحت جنباته بطريقةٍ مثاليةٍ كأسِرَّةِ المستشفى. فكَّرْتُ كيف أنَّني، وخلال كلِّ هذه السنين، نِمْتُ دوماً من دونِ مؤنسٍ يشاركُني السرير. فكَّرْتُ في الهدوء التَّامِّ الذي يخيِّمُ على شقَّتي، سكونٌ لا يخدشه إلا الصَّوتُ الرتيب لدقَّات ساعة المطبخ.

أعرفُ بالضَّبطِ كيفَ سيكون شعوري لدى رجوعي إلى البيت هذه الليلة، وأعرف كيف وبِمَ سأحسُّ. ذاك الشعور المزعج كلَّما غسلْتُ وجهي بالصابون، ونفحة مطهِّر الملابس التي تبلغ خياشيمي حين أضع القطعة العُلوية من ثوب نومي على رأسي قبلَ أنْ أُخرجَه من ياقتها، والصوتُ الذي يُحدثُه الاحتكاكُ الخفيف لملاءات السَّرير البارد وأنا أجرُّها عليَّ نحو صدري ثمَّ أدسُّها تحت ذراعيَّ بعنايةٍ كي ألفَّ نفسي داخلها، وروتين النوم نفسه... الأمر ذاته يُعاد بحذافيره

مرَّةً بعد مرَّةٍ، ويتكرَّر إلى ما لانهاية... بطريقةٍ آمنةٍ، وآليَّةٍ، وخاليةٍ من المشاعر... وباستقامةٍ ميلِّيميتريَّةٍ لا تتزعزع.

أستطيع أنْ أعرض شريط الأحداث بذهني، وأستظهِرَه دقيقةً بدقيقةٍ، بل أستطيع أنْ أرى الآن في هذه اللحظة ما سأراه بُعيدَ إغلاق عينيَّ، والاستسلام للنوم، الشيء ذاته كلَّ مرَّةٍ: سيُخيَّل إليَّ أنَّني أخبز الحلوى، وكلُّ مرحلةٍ بتفصيلاتها الدقيقة والانسيابية، من مَزْجِ الزبدة بباقي العجين حتَّى يصير متجانساً، مروراً بكَسْرِ البيض على حافَّة الوعاء، وإضافتِهِ إلى العجين، ثمَّ تخليط كلٌّ ذلك في حركةٍ دائريةٍ بالملعقة الخشبية، وصولاً إلى آخر مرحلةٍ، وهي إضافةُ نكهة الفانيلا، وسأشاهد شفرات الخلَّاط تدور، سأكْشط جنباتِ الوعاء بالملعقةِ المطَّاطية، وسأستعمل مِغْرَفاً ما ليكون قالباً للعجين، وأضع قطع العجين نصفَ الدَّائريَّة، واحدة تِلْوَ الأخرى، في صفوفٍ مرتَّبةٍ، تتماثل فيها المسافةُ بين كلٌّ قطعتين، على أرضيَّةٍ من ورقٍ للطبخ يغطِّي صَينيَّة الفرن المعدنية السوداء.

لم أخبزْ منذ سنواتٍ طويلةٍ، لكنَّني فكَّرت في القيام بذلك كلَّ ليلةٍ.

ما الذي سيحدث لو أنَّني زعزعْتُ هذا الروتين عن مساره؟

«**أنتِ أكثرُ شخصٍ وحيدٍ أعرفُهُ**»، قال هيرنانديز.

فجأةً، أدركتُ أنَّ ذلك صحيحٌ.

لكنَّه ليس سبباً يدفعني إلى أنْ أُجامعَه. يكاد الجنس لا يستطيع أنْ يخفِّفَ عن المرء شعوره بالوحدة، بل العكس تماماً هو ما يحدث في معظم الأحيان.

هيرنانديز... ما قام به أشبه بأنْ يعرض عليك شريكُكِ في

حصّة الكيمياء بالثانوية فجأةً مطارحَتَه الغرام... أو يأتي العرض من عامل المصبنة... أو من طبيبكِ الشخصيّ.

لم أكن بتاتاً... قَطعاً... لأشاركَ هيرنانديز فراشَه، هذا لن يحدث أبداً.

ربَّما، من دون أنْ أدركَ ذلك، كتمْتُ أنفاسي.

ثمَّ بعد ذلك عن يميني، وعلى بعد ثلاثة كراسيَّ من الجهة المقابلة للطاولة، سمعتُ صوتاً خفيضاً، لكنَّه بدا مألوفاً، ويسهُل تمييزه، كانت قهقهاتٌ مكتومةٌ تحت شفتين مزمومتين، تشبه صوت محرِّكٍ مختنقٍ، وقد كانت صادرةً عن بيغ توم[1]، حيث إنَّها القهقهات ذاتها في كلِّ مرَّةٍ يقع فيها أحدُهم ضحيَّةً لحيلةٍ.

وجدْتُ نفسي أحدِّقُ إليه، وصار تحت مرمى نيران بصري.

هو ذاك هناك، بيغ توم، بيده التي تغطِّي أنفه وفمه، يحاول كتمَ ضحكةٍ تستحيل إلى قهقهةٍ لم يستطعْ كَتْمَها، ثمَّ ينفجر ضاحكاً، مقهقهاً، حتى تبدوَ نَواجِذُهُ، شاهدتُ ذلك يحدثُ مئات المرات، كان هو دوماً أوَّل مَنْ ينهار، فتُكشَفُ الخدعة.

«يا إلهي»، قلت وأنا ألتفت نحوهم.

جُلْتُ ببصري أتفقَّد الوجوه حول الطاولة. كان الرجال من مناوبتي جميعهم هناك ليهتفوا لي بليلتي الكبيرة هذه. كانوا على درجةٍ كبيرةٍ من اللباقة طوال الليلة، حتى إنَّهم مضغُوا الطعام وأفواههم مغلقةٌ، وأحسنُوا التصرُّف، ولكنْ مع انهيار بيغ توم، انهارُوا جميعاً، لتسقط أقنعة الهدوء، ويسمحُوا لأنفسهم بإطلاق الضحكات التي اصطخبَتْ حول الطاولة. وبنظرةٍ سريعةٍ واحدةٍ،

---

(1) حرفياً: توم الضخم، أو توم ضخم الجثة - المترجم.

رأيْتُهم جميعاً، وجهاً بوجه، وقد ارتسم على وجوههم الألق، ألق النصر اللذيذ بعد حيلةٍ جدِّ مُتقَنةٍ.

حسنٌ، لقد نالوا منِّي.

التفتُّ إلى هيرنانديز ثمَّ لكمْتُه على كتفه بقوةٍ: «لماذا أيها الحقير؟».

لم يسبقْ لهم قطُّ أنْ نالوا منِّي بهذه الطريقة، وليس الأمر أنَّهم لم يحاولوا كفايةً.

ماذا عسايَ أقول؟ لا أحد منَّا يخلو من نقصٍ.

ولمَّا انهار الرفاق، أطلقوا الضحكات التي كانت مُقَيَّدةً منذ بعض الوقت، وتعالَتْ أصواتُهم، وبدَؤُوا يشيرون ويرفعون أذرعهم في الهواء علامة النَّصر، وأحدثوا جَلَبَةً عظيمةً جعلَتِ الطَّاولة الطويلة تهتزُّ. رايكمان، ونولان، وتراي، وبيغ توم، وعلى وجه الخصوص هيرنانديز يصيح ويقهقه، ويميل إلى الخلف طلباً للهواء، وقد يَنَعَ وجهه واحتقن بالدماء.

تركتهم يستلذُّون بالأمر دقيقةً، لقد استحقُّوا ذلك.

ثم شرغتُ أضحكُ أنا أيضاً، مع شعور الارتياح الذي غمرني، لأنَّ العالم عاد إلى سِيرته القديمة ونَمَطِه المألوف مجدَّداً، فأخذتُ شهيقاً عميقاً وأنا أُفهِم نفسي الأمر: هيرنانديز لم يعرضْ عليَّ مشاركته الفراش، لقد خدعني.

الأمر لا يعدو كونه مجرَّد مُزحةٍ، حمداً لله.

وحين صار هيرنانديز قادراً على ضبط نفسه أخيراً، والكلام، أشار إليَّ.

«لقد انطلى عليكِ الأمر تماماً».

لكمْتُه على كتفه: «لقد أفزعْتَني يا رجل! اخترتَ هذه الليلة من بين كلِّ اللَّيالي».

«ظننَّا أنَّ حصولك على إلهاءٍ سيخفِّف توتُّركِ»، قال قبلَ أنْ يُشير إلى بيغ توم: «لقد نسَفْتَ الخُدعة يا رجل! كانت تهمُّ بالموافقة».

«لا، ما كنتُ لأفعلَ ذلك أبداً»، أجبْتُ.

«بل كنتِ ستفعلين»، قال هيرنانديز قبل أنْ يضيف: «إذا كان هناك أمرٌ أعلم تمام العلم أنِّي أجيدُهُ فهو قدرتي على جعل النساء يوافقْنَ...».

«أنا لسْتُ امرأةً، أنا إطفائيةٌ».

«... وقد كنتِ على بُعْدِ ثانيةٍ واحدةٍ من أنْ توافقي».

رشقْتُه بقطعة خبزٍ: «في أحلامك، أيها اللعين».

لكنَّه نجح في لمسِ عدَّة أوتارٍ حسَّاسة في داخلي، أعترف بذلك، وقد كانت نقاطاً عديدةً تلك التي أثارها.

دسَّ هيرنانديز يده في جيبه وأخرج حافظة نقوده: «تبّاً، لقد خسرْتُ عشرين دولاراً للتَّوِّ».

أخرج باقي الرفاق حافظاتهم أيضاً.

«إيَّاكَ أنْ تقامرَ ضدَّ هانويل»، قال بيغ توم وهو يغمز لي.

ظهرتِ النقود على الطاولة وتفرَّقَتْ بين الرجال الذين شرعوا في عدِّ الأوراق النقدية وجمعها.

رأيتُ هيرنانديز يدفع بعد أنْ خسر الرهان، ولكمْتُه على الكتف مرَّةً أخرى، بطريقةٍ أقوى هذه المرَّة: «قامرْتَ ضدِّي أيها الساقط؟».

ارتسمَتْ على محيَّاهُ ابتسامةٌ خبيثةٌ: «أنا أعلم ما أعلم... أنا، مع النساء، لا أُقاوَم».

بعيداً منَّا، على خشبة المسرح، كان العرض يبدأ.

ألهبَ مقدِّم الحفل المكان، بينما تولَّى طاقم الخدمة إفراغ الطاولات وتنظيفها، فتحوَّل انتباه الناس نحو المسرح: «إنَّه لمِنْ دواعي سروري أنْ أكون جزءاً من حفل تكريم أبطال الإطفاء والإنقاذ في مدينتنا هذه الليلة».

تعالت الصيحات والهتافات الصاخبة المبتهجة من كلِّ أرجاء الغرفة، ثمَّ شرع الرجال على طاولتي يهتفون باسمي، «كاسي! كاسي! كاسي!».

أسكتُّهم، ثمَّ قمتُ بإيماءة «قطْع» أمام عنقي.

لكنَّني ابتسمْتُ على أيَّةِ حالٍ. ثلَّةٌ من الحمقى.

رمقْتُ هيرنانديز مرَّةً أخيرةً. مجرَّد مُزحةٍ. وقد كان إلهاءً مسلِّياً.

ثمَّ جلسْنا جميعاً في صمت، وجلستُ منتصبةً على كرسيِّي، وما لبثَ توتُّري القديمُ أنْ عاد، فشبكْتُ يديَّ ووضعتُهما في حجري فانتبهْتُ إلى برودتِهما، ثمَّ بعد ذلك، أخذتُ ثانيةً لأستشعرَ امتناني الكبير لعدم وجود أيِّ شيءٍ يُشعرني بالخوف باستثناء اعتلاء خشبة المسرح خلال حفلٍ ولائميٍّ.

ثبَّتُّ نظري على المنصة وهم يقومون باستدعاء المكرَّمين، ترقُّباً للَّحظة التي سأسمع فيها اسمي، والخوف يملؤُني.

كنتُ يومها، ومن بين كلِّ الاحتمالات، أنتعلُ حذاءً بكعبٍ عالٍ مع لباسي الرسميِّ، وكنتُ أجدُ صعوباتٍ في الحفاظ على توازُني؛ إذْ لم أكن شخصاً يستهويه أنْ تُسلَّط عليه الأضواء، كما أنَّه سيتوجَّب عليَّ أنْ أتكلَّم، فقدْ تمَّ مَنْحُ دقيقتين لكلٍّ منَّا للتعبير عن شُكرنا خلف المايكروفون، وقد بدَتِ الدقيقتان قصيرتين وطويلتين في الآن ذاته، وعلى نحوٍ يكاد يكون مُعجِزاً.

كنتُ قد كتبتُ فقرةً بتفانٍ وفكَّرْتُ في قراءتها بصوتٍ مُرتفعٍ. **ليسَتِ القراءةُ صعبةً إلى ذاك الحدِّ**، قلت في سرِّي، ولكن مع رؤيتي لمَنْ سبقني إلى الخشبة من المكرَّمين يقرؤون كلماتِهم المعدَّة سلفاً، بدأتُ أفكِّر في أنَّ الأمر أصعب ممَّا أعتقد، فقدْ تلعثموا، وغمغموا، وفقدوا انسجام كلامهم، وأخطؤوا في نطق كلماتٍ بسيطةٍ، مرَّةً بعد أخرى، ووجدْتُ نفسي أتمنَّى لو تمرَّنْتُ سلفاً في البيت.

ولأنَّني كنتُ أصغر مَنْ تمَّ تكريمُه بهذه الجائزة، ولا سيَّما لكوني امرأةً، ولكونِ هذه الجائزة هي الأرقى بقسم الحرائق، ولأنَّ المَلاك المنقِذ لحافلة النقل المدرسيِّ كان على كلِّ صفحات الجرائد ونشرات الأخبار، فقد قرَّرُوا أنْ أكونَ آخر مَنْ يظهر على الخشبة. كنتُ الخاتمة الكبيرة المُنتظَرَة لتلك الليلة، والعمدة شخصيّاً سيظهر ليسلِّمَني الجائزة ويستحمَّ برفقتي تحت شلَّالات المجد والأضواء التي ستنهمر على الخشبة.

عددْتُ الباقين وهم يعتلون الخشبة، ثمَّ يترجَّلون عنها ويرجعون نحو مقاعدهم، وصدري يضيق أكثر فأكثر بفعل التَّوتُّر.

وأخيراً، جاء دوري. يكاد كلُّ شيءٍ ينتهي. يجب عليَّ فقطْ أنْ أتماسك خلال الدقائق الخمس القادمة، ثمَّ بعدها أستطيع العودة إلى البيت، إلى نباتاتي، وملاءات سريري الناعمة، وشقتي الهادئة المغلقة.

«والآن، أعزَّائي الحضور، نصل إلى ختام هذه الأمسية... وختامها مسكٌ»، قال المقدِّم بينما شرع رفاقي في التصفير والتطبيل على الطاولة بابتهاجٍ واهتياجٍ شديدين: «آخر المُكرَّمين لهذه الليلة هي الأفضل بين الأفضل، ولتسليم هذه الجائزة، سينضمُّ إلينا أحد كبار الشخصيات... كنَّا نأمل أنْ يكون العمدة برفقتنا هذه الليلة إلَّا

أنَّه، وفي آخر لحظةٍ، اضطرَّ إلى تلبية نداء الواجب، ولكنْ لا تقلقوا، لدينا ثاني أفضل شيءٍ! فاسمحوا لي بأنْ أتركَ المنصَّة لابن مدينة أوستن، عضو المجلس المحلّيِّ...».

ثمَّ التفت المُقدِّم إلى جانب الخشبة، وخلال تلك الثانية التي توقَّف فيها كلُّ شيءٍ، سمعْتُ نفسي أقول بصوتٍ مسموعٍ: «اللعنة! لا، ليس هو».

لم يكن العمدة.

كان ذلك سيِّئاً.

لأنني ببساطةٍ - وبطريقةٍ ما - عرفتُ الاسم الذي كان سينادي عليه. انتابني إحساسٌ بذلك.

وقد كنتُ محقَّةً.

«هيث تومسون!»، قال مقدِّم الحفل بصوتٍ مرتفعٍ يشبه صوت مقدِّم برنامج من سيربح المليون، كأنَّ أحدهم فاز للتَّوِّ بنصف مليون دولارٍ.

ثمَّ بعد ذلك، بدا أنَّ كلَّ شيءٍ خبا نحو تشغيلٍ متباطئٍ، فصارت الكلمات ثقيلةً، قادمةً من بعيدٍ، يتردَّدُ صداها داخل رأسي كأنَّنا في كهفٍ، واستحال صوت التصفيق إلى صدى خمسمئة شخصٍ يضربون على طبولٍ جانبيَّةٍ، ثمَّ شاهدْتُ، وأنا أكاد لا أصدِّقُ عينيَّ، هيث تومسون اللعين يظهر على جانب الخشبة قبل أنْ يعتليَها، أو بعبارةٍ أدقَّ، يختالُ في صعوده، لينضمَّ إلى مقدِّم الحفل.

ما كنتُ لأخطئ ذاك الزَّهْوَ إذا ما لمحْتُه في أيِّ مكانٍ، المشية المُغيظة لرجلٍ يؤمن أنَّ العالم سيمنحه دوماً أيَّ شيءٍ وكلَّ شيءٍ يريده، ولمْ يحدث أنْ قام أحدهم بشيءٍ يخالف إرادته.

أكان يجب عليَّ توقُّع حصول ذلك؟ أكان يجب عليَّ أنْ أكون

أفطَنَ من أنْ أجرُؤَ على الرغبة في شيءٍ من أجل نفسي؟ أكان يجب عليَّ أنْ أتوقَّع، منذ البداية، أنَّ القدر سينجح في إيجاد طريقةٍ ليفسدَ بها عليَّ هذه اللحظة؟

لأنَّني لم أفعل أيّاً من ذلك. كنت مصدومةً لرؤية هيث تومسون يعتلي المسرح، لدرجة أنِّي نسيتُ أنْ أتنفَّس كلِّيّاً، حتى رآني هيرنانديز مجمَّدةً في مكاني فضربَني على ظهري.

ثمَّ بعد ذلك استحال كلُّ شيءٍ في رأسي إلى نقطةٍ ضئيلةٍ تشبه رأس إبرةٍ، فخلال اللحظة الأكثر فخراً في حياتي كلِّها، اللحظة التي من المفترض فيها أنْ يتمَّ تكريمي على كلِّ ما عملْتُ بجدٍّ وإخلاصٍ على تحقيقه، وما صبَرْتُ عليه، عليَّ أنْ أتسلَّم جائزتي من هيث تومسون.

هيث. تومسون.

الشخص الوحيد على هذا الكوكب الذي يستطيع إفساد هذه اللحظة.



ومع اعتلائِهِ الخشَبةَ، أو بالأحرى امتلاكِها، تعالَتْ صيحات الجمهور واصطخبَتْ، لتغمرَ أذنيَّ كرياحٍ برِّيَّةٍ قويَّةٍ تسافر فوق السهول، وتطغى على ما سواها من أصواتٍ، فلا يُسمَعُ شيءٌ عداها.

كان التغيير الذي طرأ على الصوت كبيراً، فتساءلت في البداية هل وقع عطبٌ ما بنظام الصوت؟ نظرتُ في الأرجاء، ولكنْ لم يبدُ لي أنَّ أحداً غيري كان منزعجاً، لم يبدُ على أيٍّ من الحضور أنَّ أمراً جنونياً، جنونياً إلى حدٍّ رهيبٍ، يقع أمام ناظريه.

كان الجميع على أحسنِ ما يُرامُ.

لحظتَها توصَّلْتُ إلى استنتاج أنَّه لا بدَّ أنْ يكون كابوساً. لم يكن ممكناً أنْ تكون تلك اللحظة حقيقيّة. ومع اعتناقي هذه الفكرةَ، صار صوتُ الرياح الغريب - الأقرب إلى عواءٍ - في الغرفة دليلاً صريحاً على أنَّه لا بدَّ أنْ أكون قد غططْتُ في النوم منذ وقتٍ قصيرٍ في سريري الدافئ، أختلق كلَّ ذلك داخل رأسي... كالعادة.

لم أكنْ في الحقيقة هنا، في صالة الرقص، في هذا الفندق، في

أبهى لحظات حياتي، على وشك أن أتسلَّم أرفع وسام خدمةٍ يمنحُه قسم إطفاء أوستن... وأتسلَّمَه من هيث نومسون.

لا يمكن أنْ تكون الحياة جائرةً إلى هذا الحدِّ.

لكنه ها هو ذا، على الخشبة، تحت الأضواء، هادئاً، يتحدَّثُ عبر المايكروفون، كأنَّ الواقعَ أحدُ حقوقِه الطبيعية الممنوحة لدى الولادة. رمشْتُ بعينيَّ مجدَّداً، كأنَّني أحاول جعلَهُما أكثر حدَّةً. كان يبعُد عنِّي ألفَ ميلٍ. أحسسْتُ بالنبض يرتفع داخل طبلتَي أذني، ثمَّ سمعت صوته البعيد المشوَّه الذي ميَّزتُ مضمونه بصعوبةٍ، ينادي على اسمي، أو ظننْتُ أنَّني سمعْتُه، فغمرني شعورٌ بالدُّوار ابتدأ من معدتي ثمَّ انتشر عبر كامل جذعي إلى قفصي الصدري، فعظمِ الترقوة، ليستقرَّ في حلقي.

وخزَني هيرنانديز مجدَّداً، على كتفي هذه المرَّة.

التفتُّ نحوه ببطءٍ، وعبر رؤيتي المهتزَّة، أشار إلى المسرح ثمَّ أشار إليَّ أنْ أمضي نحوه.

نظرتُ حولي. كانَتْ وجوه كلِّ الحاضرين في الغرفة مشدودةً باتِّجاهي، يبتسمون، ويصفقون، ويهتفون، وقدْ وقف رفاقي، وسرعان ما اتَّبعَهُم الباقون. كانَتْ خطوتي الآتية جِدَّ واضحةٍ، لقد فزْتُ بجائزةٍ، وكلُّ ما يجب عليَّ القيام به هو أمرٌ شديد البساطة: التَّقدُّم نحو الخشبة لأتسلَّمَها.

بلعْتُ ريقي وقمْتُ من مكاني، وأنا أثق بأنَّ عقلي سيتحكَّم في جسدي. فقط قفي، تقدَّمي، خُذي الجائزة. إنَّه أمرٌ بسيطٌ، **بسيطٌ للغاية**.

بلعْتُ ريقي مجدَّداً، ثمَّ تقدَّمْتُ وسط الحضور وأنا ألعن هذا

الكعب العالي، وأسلك فجاجاً بين الطاولات كسمكةٍ تطرف بعينيها وهي تعبرُ شعاباً مرجانيةً.

وفي مكان ما، بين مقعدي والخشبة، أسقطتُ الورقة التي كنتُ قد أعددْتُها من أجلِ الكلمة التي سألقيها، فقد أحسسْتُ بانزلاقها على سطح أصابعي المرتخية، لكنَّ الأمرَ بدا كأنَّه حدث لشخصٍ آخرَ غيري. حسنٌ، قلت في نفسي، **لا خطاب إذاً**، ذاك أقلُّ مخاوفي.

كانت هناك درجةٌ أمام الخشبة، ثمَّ درجةٌ أخرى تليها، ثمَّ أخرى. أحسسْتُ برسغَيَّ يلتويان شيئاً ما بسبب هذا الكعب الأحمق، ثمَّ بدأتُ أقترب من المنصَّة، ومعدتي تصير أثقلَ فأثقل داخل جذعي، كأنَّها بالونٌ ثقيلٌ مملوءٌ بالماء، ومربوطٌ إلى قفصي الصدري.

لن أنظر إليه، هذا كلُّ ما في الأمر. لن ألمسه، ولن أتوقَّفَ عن الحركة. سأتحرَّكُ طوال الوقت مثل سمكة قرشٍ، وسأتفادى أنْ تتلاقى نظراتنا مهما كلَّفني ذلك.

ادخلي ثمَّ اخرجي. لا تنظري خلفك. تظاهري أنَّ هذه الأحداث لا تقع الآن. خذيها وانصرفي. خذيها واذهبي باتِّجاه مؤخَّر المسرح.

وجَّهت نفسي عَبْرَ تلقيني هذه الإرشادات كما أفعل دوماً إذا ما اعترضتني إحدى صعوبات الحياة بالطريقة ذاتها التي أضيف بها ميلاً آخر بعد مسافة العشرة أميال التي أقطعها جرياً، أو التي أضيف بها مجموعةَ رفعاتِ أثقالٍ أخيرةً في صالة التدريب. لقد مضيتُ عبر سلالم وهي تنهار وسط مبنًى يحترق، وقمتُ بجمع جمجمةٍ مفتوحةٍ لرجلٍ يحتضر بيديَّ، وقفزتُ عن سطحٍ مُنهارٍ. فأستطيع فعل هذا.

وقفت أمام المنصة، عيناي مثبَّتتان على الجائزة وحدها، أحاول

تشغيل برنامج فوتوشوب داخل رأسي، لأحذف وجه الشخص الذي يحملها من مجال رؤيتي.

أيتوجَّب عليَّ أنْ أصافح يد هيث تومسون؟

لا، هذا لا يُعقَلُ.

بإمكاني أنْ أحمل نفسي على القيام بعدَّة أشياءَ، ولكنْ لا يمكنني أنْ أدفعها إلى فعل ذلك.

رأيت الجائزة تقترب منِّي بالعرض البطيء، فتلقَّفْتُها، وأحاطت أصابعي بها، في محاولةٍ للتركيز على ملمسها الماديِّ الصلب ووزنها. **أيُّ نوعٍ من الخشب هذا؟ بلوط؟ جوز؟** كانت ثقيلةً للغاية.

خُذيها وانصرفي، قلتُ لنفسي. لكنْ، وقبل أنْ أتمكَّن من فعل ذلك، قام هيث تومسون - **هيث تومسون** - بإمساك يدي الطليقة... كي يصافحني. كذلك فعل كلُّ مَنْ سبقونا مِنْ أولئك الذين قدَّمُوا الجوائز، والذين استلموها.

باستثناء أنه لم يكن أيَّ مقدِّمٍ آخر، وأنا، طبعاً، لم أكنْ أيَّ مستلِمٍ.

هيث تومسون حرص على أنْ يتمَّ ذلك بتلك الطريقة.

كانت صدمة ملامسته لي أشبه بحرقٍ ناتجٍ عن سلكٍ كهربائيٍّ حادٍّ، ولئيمٍ، وسريعٍ. سجَّلها دماغي بطريقةٍ ما على أنَّها ألمٌ، ثمَّ، وبردَّةِ فعلٍ غريزيةٍ، سلَّطْتُ نظري نحو وجهه.

ها هو ذا. أكبر سنّاً، وأكثر بدانةً، وبرذاذٍ مثبِّتٍ للشعر أكثر ممَّا كان عليه الأمر قبل عشر سنواتٍ، في بذلةٍ مُتعجرفةٍ لعُضْوٍ مجلس المدينة، كأنَّ العالم برمَّتِه قد خُلِقَ من أجله، من أجل أنْ تُسلَّط الأضواء عليه.

أدركْتُ في تلك اللحظة أنه استطاع التَّعرُّف عليَّ.

لقد قرأ اسمي للتَّوِّ أمام ثلاثمئة شخصٍ من الحضور، لذلك بدا لي الأمر معقولاً.

لكنَّني تغيَّرْتُ كثيراً، فقدْ صار لون شعري داكناً أكثر ويصل إلى كتفي، وقد كنتُ أُسدله حين كنت أصغر، إلا أنَّني الآن أفتِله في ضفيرةٍ أو أجمعه أعلى رأسي على شكل كعكعةٍ. وصرتُ أضع العدسات اللاصقة. وصارت كتلتي العضلية ضِعف ما كانت عليه خلال فترة الثانوية، ثمَّ بذلتي الرسمية بسترتها المزرَّرة حتى العنق، وأكتافها المحشوَّة، وربطة العنق المتصالبة على ياقتها.

شيءٌ ما بخصوص تلك التركيبة: وجهه السمين، ونظرة الإشباع الذاتيِّ التي تعلوه، وابتسامته الفخورة، ووضعية جسده، ثمَّ أخيراً بريقُ الإقرار داخل عينيه.. فلْنقلْ إنَّ ذلك بعثر مشاعري، وفي لمحةٍ خاطفةٍ، تحوَّلَتْ دواخلي من صدمةٍ باردةٍ إلى غيظٍ يَغلي.

لا بدَّ أنَّ هناك مصوِّراً محتجباً في مكانٍ ما؛ لأنَّ هيث ترمسون كان يعتصر يدي، مثبِّتاً إيَّاي في مكاني، مبتسماً على خشبة المسرح، وفي وضعيةٍ توحي بأنَّ صورةً تُؤْخَذُ له.

من مكانٍ قصيٍّ في القاعة بلغني صراخ بيغ توم البعيد وهو يقول: «أذيقيهم الأمرَّين يا كاسي!».

ثمَّ بعد ذلك، وفي اللحظة التي بدأتُ أهنِّئ فيها نفسي على تماسُكي، على مجاراة هذا الاختبار الصعب بكياسةٍ تحت ضغوطٍ رهيبةٍ، أحسسْتُ بشيءٍ ما يضغط على مؤخِّرتي.

لم يكن يضغطها فقط، كأنَّني تراجعْتُ لأنضغط نحو حائط المنصَّة خلف ظهري، بل **يُمسك بها**.

الأمر الوحيد الذي كان يمكن أنْ يفسِّر ذلك كان يد هيث تومسون الثانية.

صعقَتْني الفكرة حين تبدَّتْ في ذهني، وبينما تتالت أضواءُ كاميرات التصوير، إذا باليد تمسك بأحد شِقَّي مؤخِّرتي، ثمَّ تعصرها بكلِّ جرأةٍ... وثقةٍ... وتمكُّنٍ.

فقدْتُ زمام نفسي.

بالنظر إلى كلِّ الظروف والملابسات، إنَّها حقّاً معجزةٌ أنَّني لم أقتلْه، بالمعنى الحرفيِّ للكلمة.

لم يكن هناك شيءٌ آخر أفعله سوى ما فعلت، فقد استدرْتُ وانهلْتُ على هيث تومسون بالضرب على رأسه بجائزتي المصنوعة من خشب البلوط والمعدن، بكلِّ قوَّةٍ، حتى فقدَ وعيَهُ، وتسبَّبْتُ له بارتجاجٍ في المخِّ.

لَمْ أرغبْ قطُّ في أنْ أكون إطفائيَّةً.

بعضُ الناس يحلمون طوال حياتهم بأنْ يصيرُوا إطفائيين، وهناك أطفالٌ يحدِّقون في شاحنات الإطفاء بانبهارٍ، ويرتدون قبَّعات رجال الإطفاء، ويرتدون عتاد النزول إلى القبو في هالويين.

ويكونون فِتيةً غالباً.

في الحقيقة، خلال يوم اختيار المهنة في روضة الأطفال، أعلنتُ عن هدفي في أنْ أكبرَ لأصيرَ جنِّيَّةَ أسنانٍ[1]، وهو عملٌ ما يزال رائعاً في نظري حتى هذه اللحظة.

---

(1) جنية الأسنان: كائن أسطوري في ثقافة العالم الغربي والثقافات المتأثرة به. ويقال إنَّها تأتي ليلاً وتزور غرف الصغار الذين سقطَتْ أسنانهم فوضعوها تحت المخدة، لتأخذ الأسنان وتضع أوراقا نقدية بدلها - المترجم.

لم أفكِّرْ قَطُّ حتّى في أنْ أصيرَ إطفائيَّةً إلى أنْ حدث ذلك فجأةً.
وقد حدث أساساً بفعل مصادفةٍ.

كنتُ أعتزمُ الانِضمام إلى كلِّيَّةِ الطِّبِّ في الحقيقة، وكنتُ أودُّ أنْ أصيرَ طبيبةَ طوارئ، وكنتُ في سنتي الأولى حينها، أبحث عن عملٍ في الحَرَمِ الجامعيِّ، وقد وظَّفني أحد الشُّبَّان اللُّطفاء للعمل مسعفةً تابعةً للجامعة. كانت صفقةً سريعةً ورابحةً، فكنت في حاجةٍ إلى التَّدرُّب في مجالٍ طبِّيٍّ، وكنتُ كذلك في حاجةٍ إلى عملٍ، وقد تمَّ ذلك.

وحينَ بدأتُ العمل مسعفةً، لم أرغبْ في التَّوقُّف عن ذلك، حتّى إنَّني لم أكن أرغب في أنْ تنتهيَ مناوبتي. أحببْتُ كلَّ شيءٍ بخصوص هذا العمل: من التدريب الطِّبِّيِّ، إلى صوت صفارات الإنذار، إلى لحظات الحياة أو الموت.

لم يكن الأمر مقتصراً على الأدرينالين فحسب، فهنالك أمرٌ مُرْضٍ جدّاً بخصوص مساعدة الآخرين، وبخصوص التَّدخُّل السريع خلال لحظاتٍ حرجةٍ، وجعل الأمور أفضل ممَّا كانت عليه. فقد كان الشعور بأنَّكَ تفعل شيئاً ذا قيمة شعوراً يسهل إدمانه. تدرَّجْتُ عبر مِهَنٍ عديدةٍ خلال السنوات الماضية: غاسلةُ أطباقٍ في محلٍّ للبيتزا، ومنقذةٌ في مسبح، وجليسةٌ، وحاضنةُ كلابٍ... لكنَّني لم أحظَ بعملٍ شبيهٍ بهذا من قبل.

أمَّا زميلةُ سَكَني، وعلى النقيض تماماً، فقد عملتْ في الحرم بائعةَ مثلّجات.

لا أبتغي المقارنة هنا.

أنْ يكون المرء مُسعفاً فهذا كان عالَماً جديداً أدخله، عالَماً

مَجيداً. وخزتُ الناس بالإبر، وضغطْتُ على صدورهم خلال الإنعاش القلبيّ الرئويّ، وأعدْتُ العظام المُنزاحة إلى مواضعها. فخلال أسبوعي الأوَّل بالعمل ساعدتُ في إنقاذ أستاذِ فيزياءٍ توقَّفَ قلبه، باستعمال جهاز الإنعاش المُزيل للرَّجَفَان.

ليس سيِّئاً مقابل عشر دولاراتٍ للساعة، هاه.

ماذا يَسَعُني القول؟ لقد اتَّضح أنَّني برعْتُ في ذلك فشَغَفَني وتملَّكني.

حين لم أكنْ في مُناوَبَةٍ، كنتُ أنتظر على أحرَّ من الجمر أنْ تأتيَ المناوبة التالية. عملتُ خلال العُطَل، وغطَّيْتُ مكان زملائي حين تغيَّبوا، وحلمتُ بالأضواء وصفَّارات الإنذار.

سِرْتُ على المنوال ذاتِهِ مدَّةَ سنتين إلى أن اقترح المشرف عليَّ أنْ أتقدَّمَ للحصول على شهادةِ المسعف الطِّبِّيّ، وأعمل مع سلطات المدينة، فكلُّ الإطفائيين مسعِفو طوارئَ أوَّليِّين. في الحقيقة، إنَّهم يستجيبون لاتِّصالاتٍ تستدعي إسعافاً طبِّيّاً أكثر بكثيرٍ من تلك التي تتعلَّق بحرائقَ. ولكنْ ليسُوا جميعهم مسعفين طبِّيِّين، فالأمر يتطلَّب سنةً إضافيةً من التدريب للحصول على شهادة المسعف الطِّبِّيّ، كما يجب عليك أنْ تحبَّ الطِّبَّ فعلاً كي تنجحَ في ذلك... أو أنْ تكونَ «مدفوعاً» إلى ذلك؛ لأنَّ قسم الحرائق في حاجةٍ إليك.

كنتُ أحبُّ الطِّبَّ حقّاً.

عملتُ مسعفةً طبِّيَّةً مدَّةَ سنةٍ، ولاحقاً، بعد تخرُّجي من الجامعة، أقنعني مشرفٌ آخرُ هذه المرَّة بالتَّقدُّم إلى أكاديميَّة الإطفاء.

ثمَّ بعدها أخذَتِ الأمور تتطوَّرُ، وتتدحرج مثل كرة ثلج.

وفي نقطةٍ ما على ذلك المسار، اكتشفتُ أنَّ هذا العمل بالذات هو ما خُلِقْتُ لأقوم به.

هناك عدَّة خصالٍ تجعل المرءَ إطفائياً جيِّداً. لا يَضير أنْ يكون ضخماً وقويّاً؛ لأنَّ ذلك يسهِّل حَمْلَ المعدَّات والتعامل معها. ولطيفٌ أنْ يكون خَلوقاً، وبشوشاً، وهادئاً؛ لأنَّها الطريقة الوحيدة - حسب كتيِّب الإرشادات - للعمل تحت ضغطٍ لا يُطاق. والرغبة في مساعدة الناس مَزِيَّةٌ إضافيةٌ. وإذا كنتَ تتعامل مع التَّوتُّر بالجَرْيِ في المكان عارياً إلَّا من ملابسك الداخلية، أو رشِّ المياه فوق رؤوس الناس، أو لفِّ كراسيِّ المراحيض بورق التَّغليف... فذلك أفضل حتى.

ستشعر بأنَّكَ في مكانكَ الطبيعي.

وإذا كان بمقدورك أنْ تكون ذكراً، فلْيكنْ كذلك، فتلك حتماً ميزةٌ كبيرةٌ.

أمَّا أنا، فلمْ أكنْ ذكراً.

لكنَّني كنْتُ إطفائيَّةً جيِّدةً جدّاً.

قد يبدو في جملتي شيءٌ من التَّباهي، لكنَّ الواحد منَّا يعلم أنَّه يُجيد شيئاً ما حين يفعل، أليس كذلك؟

أوَّلاً، تخرَّجتُ على رأس دفعتي في الأكاديمية، وكنتُ الطالبة المتصدِّرة، رقم واحد. وكنتُ قد حفظتُ كتيِّبَ ميرك[1] من الاتِّجاهين، من الأول إلى الآخر، وفي الاتِّجاه المعاكس. وكانَ بإمكاني إعطاء حقنةٍ وريديةٍ في منامي، كما كنتُ قويَّةً بالنسبة إلى فتاةٍ، بل حتى بالنسبة إلى العديد من الرجال، ولم يكن يَسهُل أنْ تتمَّ

---

(1) كتيبات ميرك: هي كتب مراجع طبية أنشئت من قبل شركة الأدوية «ميرك أند كو»، وتغطي عدة أطياف من المواضيع الطبية، من ضمنها الاضطرابات، والفحوصات، والتحاليل، والأدوية - المترجم.

إهانتي أو الإساءة إليَّ. كنتُ أعيش بارتياحٍ كبيرٍ داخل قسم الإطفاء برفقة باقي الرجال. لم أكنْ خجولةً، ولم تكن تسهلُ إخافتي، ولم أقعْ ضحيةً للذُّعر قطُّ.

كان لي أبٌ أعزبُ، مُدرِّبُ فريق كرة سلَّةٍ في الثانوية، وبذلك نشأت على القفز نحو طوق السلَّة باستمرارٍ، أتبادَلُ الشتائم والكلام البذيء، وأهزم الفتيان في كلِّ شيءٍ.

كلُّ ذلك ساعدني، لكنَّ ما جعلني إطفائيَّةً جيِّدةً كان أحدَ تفاصيل شخصيَّتي، والذي لم أكنْ على درايةٍ به حتى وجدت نفسي أشرع في استعماله. يتطلَّب الأمر أعصاباً قويَّةً كي يدخل المرء إلى مبنًى يحترق، أو يُوقِف نزيفاً شريانيّاً، لا جِدال في ذلك. لكنَّ الأمر يتطلَّب كذلك نوعاً خاصّاً من الأدمغة، فالإطفائيون يفكِّرون بطريقةٍ مختلفةٍ عن باقي الناس، والأمر صحيحٌ جدّاً بخصوصي؛ لأنَّه حين يُصابُ الجميع بالذعر، وحين يفقد العالم أجمع رباطة جأشه... تلك اللحظة بالذات هي التي أُصبح فيها هادئةً كسطح بُحيرةٍ تداعبها رياحٌ خفيفةٌ.

يبدو الأمر كأنَّ إحدى الدَّارات الكهربائية في دماغي تعمل في الاتجاه المعاكس.

كلُّ مَنْ يعمل في الإطفاء يتمتَّع بهذه «الدارة المعكوسة» إلى حدٍّ ما، وحين تجري القطعان البشريَّة المذعورة خارجةً من مبنًى يحترق، فنحن آنذاك نتمشَّى بهدوءٍ نحو قلب اللهب.

ولَمْ يحدث أنْ صادفْتُ أحداً تعمل الدَّارة المعكوسة في دماغه بذات الطريقة التي يحصل بها الأمر معي.

الأناس العاديون يَرون الانفجار، أو اللَّهب، أو السَّيَّارات الأربع والعشرين المتكدِّسة فوق بعضها، فيفكِّرون: اهرب!

أمَّا دماغي فيفكِّر: هاه، اهدئي.

الجميع يَغدُونَ بكلِّ ما أُوتُوا من رعب، وأعينُهم ذاهِلةٌ مسعورةٌ؛ لأنَّ التَّطوُّر أرادَنا أنْ نقومَ بذلك: أنْ نُخلِيَ المكان اللعين وننجوَ بحياتنا. أمَّا أنا فأُبطئ سرعة عقلي إلى توقُّفٍ، ثمَّ أجول ببصري في الأرجاء.

لا بدَّ كذلك أنْ أحصل على رَشْحِ أدرينالين، ولكنْ بالمقدار المناسب، المقدار الذي يجعلني متنبِّهةً بطريقةٍ بَهيَّةٍ مُبهِرةٍ. يصبح كلُّ شيءٍ واضحاً وهادئاً، ويخيِّم السكون بداخلي، فأرى كلَّ ما يحدث من حولي بدقَّةٍ متناهيةٍ. باقي الناس تصير رؤيتهم مشوَّشةً مضطربةً، أمَّا أنا فأرى تفاصيل التفاصيل: الأنسجة، والألوان، والترابطات، وأتبصَّر.

لطالما خُيِّلَ إليَّ أنَّه الوقت الوحيد الذي أرى فيه كلَّ شيءٍ بوضوحٍ تامٍّ.

على كلٍّ، هذا هو السبب في عدم كوني طبيبة طوارئ. فأنت لا تحتاجني فقط بعد حالات الطوارئ، بل تحتاجني خلال حالات الطوارئ.

إنَّه أحد الأمور الغريبة التي قد يدركها المرء بخصوص نفسه، ولكن إليكَ الآتي: أكون في أفضل أحوالي حين يكون كلُّ شيءٍ على أسوأ حالٍ.

إذاً، برغم أنَّ والدي كان متأكِّداً من أنَّ «مسألة الإطفاء» كانت «مجرَّد مرحلةٍ عابرةٍ»، ها أنا ذي الآن، وبعد أربع سنوات، هنا في المحطَّة الحادية عشرة في أوستن، ما أزال الفتاة الوحيدة في «المناوبة ب»، باستثناء رئيستنا حادَّة الطباع، وما أزال أعشق كلَّ دقيقةٍ أتذوَّق فيها طعم المستحيل.

لهذا كان يجب أنْ تكون تلك الليلة التي أتسلَّم فيها جائزتي خطوةً سهلةً وحتميَّةً أخرى في مسيرتي الإطفائيةِ الصادقةِ ناصعةِ البياضِ.

ولكن يجب أنْ أعترفَ بشيءٍ، فأنا لم أضرب عضوَ المجلس هيث تومسون باستعمال الجائزة الخشبية حينَ أمسكَ مؤخِّرتي.

لقد أبرحْتُه ضَرْباً.

سدَّدْتُ إليه لكماتٍ قويَّةً. هَرَسْتُه. وحتَّى بعد أنْ فتحتُ رأسَهُ بضربةٍ من الجائزة الخشبية، أرسلتُ إليه بعدها مباشرةً لكمةً على الوجه، ثمَّ ضربةً من مِفصل معصمي على قصبته الهوائية، إضافةً إلى لكمةٍ خاطفةٍ واحدةٍ على الأقلِّ إلى معدتِهِ، قبلَ أنْ أضيفَ بضعَ ركلاتٍ على ضلوعه بكعبي العالي بعدما سقط على الأرض. ما كان لأحدٍ أنْ يتنبَّأَ بذلك، ولا حتى أنا، لذا فقد كانت استجابته بطيئةً، وهو الأمر الذي عمل لصالحي.

جرحْتُ يدي على أسنانه، لكنَّ الأمر كان يستحقُّ.

لا أذكر هذا الجزء، ولكن - حسب هيرنانديز - كنتُ أصرخ طوال الوقت، «المسْني مجدَّداً يا حثالة الأرض! المسْني مجدَّداً ولنرَ كمْ من الوقت ستعيش بعد ذلك!».

لم يلمسْني مجدَّداً.

كنتُ محظوظةً أنَّه لم يتمَّ توقيفي تحت مخالفة الاعتداء. كان يمكن، أو كان من المفترض، أنْ أقضيَ الليلة في السجن، فليس أمراً هيِّناً أنْ «تهرس» أحد الرجال البارزين في المدينة وتحوِّلَه إلى عجينٍ دامٍ مرتجِفٍ، أمام ثلاثمئةٍ من أبطال المدينة، وخدَمِها الشجعانِ. فمثل هذه الأمور لا تحدث كلَّ يومٍ. أو لا تحدثُ مطلقاً.

بالتأكيد ليس أمراً هيّناً، هو الآخر، أنْ تمسِكَ بمؤخّرة إطفائيةٍ.

تمَّ نقل كلينا بعيداً عن الخشبة، وضمَّدُوا وجهه ويدي، بينما كان المقدِّم يحاول جعل الحضور يأخذون مقاعدهم ويتناولون تحليَتَهُم. ثمَّ حضر رجال الشرطة، لكنَّ هيث تومسون رفض أنْ يرفع دعوى ضدِّي: «لا بأس، لا بأس»، قال من تحت شفتين مُتورِّمتين: «دعوها تذهبْ».

طبعاً أرادهم أنْ يسمحوا لي بالذهاب لحال سبيلي. كانت عدسات الأخبار متربِّصةً متمركزةً في الرَّدهة، وأراهن بألف دولارٍ أنَّني لم أكن الشيء الوحيد الذي يودُّ طمسَهُ، بعيداً عن نور العدسات.

في النهاية، أخرجوا كلينا من الباب الخلفي، ولا أعلم ماذا فعل وكيف تدبَّر الأمر، ولكنْ لم يظهر أيُّ شيءٍ بخصوص ذلك على أيٍّ من الصحف. ولست متأكدةً، في نهاية المطاف، إذا كان ذلك شيئاً جيِّداً.

لاحقاً تلك الليلة، بعد أنْ وصلت إلى بيتي، واستحممْتُ، وضمَّدْتُ يدي مجدَّداً في شقَّتي الهادئة، ظهر هيرنانديز أمام بابي.

رأيْتُهُ من خلال ثقبِ عدسةِ الباب: يحمل هاتفي الخلويَّ بِيَدٍ والجائزة بالأخرى، ففي خضمِّ كلِّ تلك الضَّجَّة، نسيْتُ أمرهما تماماً.

أخذَ منِّي الأمر زهاء دقيقةٍ حتى أتمكَّنَ من فَتْحِ كلِّ أقفال الباب، وحين انزلق الباب أمامي، مدَّ إليَّ الجائزة، وسط غلافٍ بلاستيكيٍّ.

«إنَّها مُضمَّخةٌ بالدماء»، علَّق.

أومأتُ وأنا أتسلَّمها منه، ثمَّ مددْتُ ذراعي من أجل الهاتف، لكنَّه قام بإرجاع ذراعه نحو الخلف ليبعدَهُ عن متناولي.

«ما الذي حدث للتَّوِّ؟» سألني من دون أنْ يطأَ عتبة الباب.

نظرتُ إلى هاتفي المُحتجَز في يده، واستهجنْتُ الأمر.

«أأنتِ بخيرٍ؟» سألني.

أومأتُ.

«أتودِّين أنْ أبقى لبعض الوقت؟».

أدرْتُ رأسي يمنةً ويسرةً.

«هلْ عرفْتِ ذلك الشخص خلال مرحلة الثانوية؟».

أومأتُ مجدَّداً.

تفحَّصني هيرنانديز فترةً بدا لي أنَّها امتدَّتْ بعضَ الوقت، ثمَّ قال: «هل أُخمِّن تخميناً صحيحاً أنَّ له علاقةً بكونِكِ لا تواعدين أحداً؟».

نظرتُ إلى عينيه حتَّى قرأ الجواب داخلهما.

ثمَّ بعد ذلك أومأ بما يعني: حسنٌ، وأخرج تنهيدةً نهائيةً: «عملٌ جيِّدٌ، بالمناسبة، لقد أخذُوه إلى المستشفى».

سمحْتُ لابتسامةٍ صغيرةٍ ضيِّقةٍ بالارتسام على شفتيَّ: «أنا أقوم بجهدي».

بعد وهلةٍ، قال: «عرضي ما زال قائماً».

«عرضُكَ بخصوص ماذا؟».

لمحْتُ على وجهه ابتسامةً ممتعِضةً: «بخصوص الرفقة... رفقة حقيقيَّةٍ».

علمْتُ أنَّ نيَّتَهُ كانتْ طيِّبةً، لكنَّني أومأتُ إليه رافضةً: «أنا دوماً أفضل حالاً لوحدي».

بعد ذلك، والهاتف ما يزال بيده، فتح ذراعيه ليعرض عليَّ عناقاً.

«هيّا، تقدَّمي، إذا كان هناك أحدٌ ما في حاجةٍ إلى عناقٍ، فهو أنتِ».

كنتُ سأجيب بالرفض على ذلك أيضاً، ولكنْ في تلك اللحظة بالذات رنَّ هاتفي، وكان ذلك كلَّ ما في الأمر، انتهت اللحظة. مدَّ إليَّ الهاتف، فأخذته، وبعد ذلك استعملْتُهُ لأُلوِّح له وداعاً، قبل أنْ أعيدَ إغلاق الأقفال وأفتح الخطَّ.



كان المتَّصلُ والدتي، على الطرف الثاني من الخطّ:

«شكراً لك لإجابتِكِ على اتِّصالي»، بَلَغَني صوتُها.

أغمضْتُ عينيَّ: «لقد كان مجرَّدَ حادثٍ».

«أحتاجُ إلى التَّحدُّث إليك».

«خمَّنْتُ ذلك».

كانتْ تلاحقُني منذُ أسابيع، وكنت أحاول جاهدةً أنْ أتجنَّبَها، وأنا أُسِرُّ وأُصرُّ على نفسي بأنَّني مشغولةٌ جدّاً بانشغالاتٍ مشروعةٍ لا تسمح لي بالحديث إليها.

تصادف اتِّصالها الأوَّل مع وجودي في العمل، خلال إحدى أكثر مناوباتي انشغالاً منذ أسابيع، وكالعادة كنَّا منشغلين بالاستجابة لاتِّصالاتٍ متتاليةٍ لا تتوقَّف: محاولةُ انتحارٍ في حمَّامِ إحدى الثانويات (فاشلةٌ)، احتراق هيكلِ مستودعٍ مهجورٍ (حريقٌ متعمَّدٌ)، طبَّاخُ «سوشي» قُطِعَ طرفُ أحدِ أصابعه (تمَّ إرجاعه وتخييطه في غرفة الطوارئ)، وبقرةٌ حرَّةٌ طليقةٌ وسط مجمعٍ سكنيٍّ كبيرٍ (أمرٌ لطيفٌ).

حين انتهت نوبتي على الساعة السابعة من صباح اليوم التَّالي،

لـمْ أكن قد ألقيتُ ولو نظرةً على هاتفي، فما كان لي أنْ أستمع إلى رسائل والدتي نصفِ المُبعَدة.

كان ينتظرني الكثير لأقوم به.

ثمَّ إنِّي لم أكن أرغب في التَّحدُّث إليها.

إذا كانت حاجتها للاتِّصال بي مُلحَّةً، قلتُ في نفسي، فستَّصلُ مجدَّداً.

وقد فعلَتْ ذلك.

اتَّصلَتْ في اليوم التَّالي حينَ كنتُ أقوم بطيِّ الغسيل، لكنَّني تركتُ الاتِّصال يمضي نحو البريد الصوتي.

اتَّصلَتْ مجدَّداً حين كنت في الخارج أجري، ثمَّ مرَّةً أخرى حين كنتُ في محلِّ البقالة.

صدقاً، عند نقطةٍ ما، بدأ الأمر يأخذ طابعاً تَعَقُّبِيّاً.

«ماذا تريدين؟» سألتُ، بعد أنْ نجحتْ أخيراً في الوصول إليَّ.

أخذتْ نفساً قبل أنْ تُجيب: «أحتاج إلى خدمةٍ كبيرةٍ، كبيرةٍ جدّاً، منك».

استجمعْتُ رباطة جأشي استعداداً لسؤالها، أيّاً كان الطلب فجوابي هو لا.

«سيبدو الأمر مباغِتاً... وسأقوله دفعةً واحدةً»، قالتْ، قبل أنْ تُضيف: «لكنَّ مَردَّ ذلك، جزئياً، إلى صعوبة الوصول إليكِ عبر الهاتف، كما أنني أخشى أنْ تُقفلي الخطَّ في أيَّةِ لحظةٍ».

كانتْ محقَّةً، فقد أُنهي المكالمة في أيَّة لحظةٍ.

أخذتْ نَفَساً، ثمَّ اندفعتْ تقول: «أريد منك أن تأتي إلى ماساشوستس، وتعيشي معي».

رمشْتُ في محاولةِ استيعاب الأمر.

«فقط لمدَّةٍ. . .»، أضافت. «ليس إلى الأبد، سنةً على أكثر تقديرٍ».

«سنةٌ؟».

«على أكثر تقديرٍ».

وقفتُ ذاهلةً من وقْعِ السؤال، ذاهلةً من أنَّها طلبَتْ منّي ذلك، أو فكَّرَتْ فيه حتى. فلم نكنْ مُبعَدتَين إحدانا عن الأخرى تماماً، لكنَّ المؤكَّد تماماً، كما يعلو الدخان النار، أنَّنا لم نكن مقرَّبتين. كان اقتراحاً سخيفاً لنْ يَحدثَ مُطلقاً. لم أصدِّقْ أنَّها نطقتْ تلك الكلمات فعلاً.

«لنْ أنتقلَ إلى ماساشوستس، يا ديانا، هذا جنون».

لم أنادِها «ماما» منذ سنواتٍ - عشر سنواتٍ، لأكون دقيقةً - منذ اليوم الذي قرَّرَتْ فيه الرحيل تاركةً إيايَّ ووالدي خلفها، وقد كان اليوم ذاته الذي بدأتُ أدعو فيه والدي باسمه «تيد».

في البداية، كان ذلك بغرضِ إزعاجِهما، فقدْ أردْتُ بذلك أنْ أقولَ إنَّه إذا ما رَغِبَا في أنْ أعاملَهما كأبوين، فيجب عليهما التَّصرُّف بأبويَّةٍ والبقاء معاً في تعاسةٍ. ولكنْ، بقدر ما طال الوقت وهما مفترقان، صارتْ تلك طريقتي لتحويلهما إلى بالغَين ليسا ذوَي أهمِّيَّةٍ بالنسبة إليَّ، بالغَينِ قُدِّر لي أنْ أعرفَهُما، وذلك كلُّ ما في الأمر.

في هذه المرحلة، كانا مجرَّد «ديانا» و«تيد» بالنسبة إليَّ، وأكادُ لا أستطيع تخيُّل أنَّهما كانا أكثر من ذلك يوماً.

واصلتْ ديانا إلحاحَها: «أنا جادَّةٌ».

«لا يمكن أنْ تكوني كذلك حقّاً».

«لا تجيبيني الآن» قالَتْ، قبل أنْ تضيفَ: «خذي بعضَ. . .».

«لا»، قاطعْتُها بحزمٍ.

تردَّدَتْ وهلةً.

«لا». كرَّرْتُها بتأكيدٍ أكبرَ هذه المرة، كأنَّها كانت تُناقشني.

«لم تسمعي باقي الفكرة حتّى».

«باقي الفكرة لا يهمُّ».

«سنةٌ واحدةٌ...». الآن بدأَتْ تساومُني، كأنَّ لها أيَّة إمكانيةٍ في إقناعي، «... ثمَّ بعدها تعودين إلى تكساس كأنَّ الأمرَ لم يحدثْ قَطُّ».

«لا تسير الأمور هكذا. سيتوجَّب عليَّ البقاءُ هناكَ بضعَ سنواتٍ، والحصول على ترقيةٍ قبل أنْ أتمكَّنَ من الحصول على وظيفةٍ جديدةٍ».

«لا أعلم ما يعنيه ذلك».

«يعني أنَّه إذا ما وافقتُ على ما تطلبين، فيجب أنْ أتخلَّى عن حياتي برمَّتِها... عن كلِّ شيءٍ».

«حين تقولينها بهذه الطريقة، لا يبدو الأمر جذَّاباً البتَّة».

«لذلك بالذات، فالأمر بسيطٌ جدّاً: لا».

«أَتَفَهَّمُ ذلك»، تابعتْ، «لقد فكَّرْتُ في ذلك مليّاً، واجترَرْتُه. أنتِ لم ترغبي في الانتقال إلى هنا حين كان عمرُكِ خمسَ عشرة سنةً...».

«ستَّ عشرةَ»، صحَّحْتُ.

«حينَ كنتِ في حاجة إليَّ فعلاً»، تابعَتْ كلامَها، «ولِمَ قد ترغبين في المجيء الآن، وقد صرْتِ امرأةً ناضجةً، كما أنَّكِ تكرهينني...».

«أنا لا أكرهُكِ»، قلتُ امتثالاً لمبادئي، لكنَّها لم تكنْ تَروقني كثيراً كذلك.

«لديكِ الآن دوافعُ أقلُّ للقدوم، وكنتُ أعلم قبل أنْ أتَّصلَ أنَّك سترفضين، ولكنْ كان يجب أنْ أحاولَ».

أغمضْتُ عينيَّ: «لماذا؟».

«لأنَّني أحتاجُكِ».

شيءٌ ما بصوتها كان مُختلفاً.

كنتُ أكلِّمُها ربَّما أربعَ مرَّاتٍ سنويّاً، على مدار العقد الماضي، منذ انتقالها إلى الطرف الآخر من البلاد: الاتِّصالات التي لا مناص منها خلال الكريسماس، وعيد الشكر، وعِيدَيْ ميلادنا. لكنَّني كنتُ قادرةً على قراءة صوتها بطريقةٍ جيِّدةٍ للغاية، لقد كبرْتُ مع ذلك الصوت. كنتُ أعرف طبقاته، وميزانه، وإيقاعه. ذاك الصوت كان النموذج الذي صُمِّم صوتي تبعاً له، ما كنتُ لأنساه أبداً، حتى ولو حاولتُ.

«ما الخطب؟» سألتها.

«أعاني من مشكلةٍ في عيني، ولا أستطيع أنْ أرى كما كنتُ أفعلُ في السابق».

«أيُّ نوعٍ من مشاكل العين؟» سألتُ، وكنتُ أعلم الكثير عن العيون... وعن المشاكل: «هل ستصيرين عمياء أو ما شابه؟».

أطلقتْ تنهيدةً، كأنَّني كنتُ أطلب معلوماتٍ أكثر من اللازم: «شيءٌ من ذاك القبيل».

«ماذا تقصدين؟».

«عينٌ واحدةٌ فقط، والأمر ليس أنَّني سأصيرُ كذلك، بل هو أقرب إلى كوني صِرْتُ بالفعل».

قلَّبْتُ الملفَّات الطِّبِّيَّةَ المتعلِّقة بأمراض العيون داخل رأسي،

أيمكن أن يكون السّاد[1]؟ التّنكُّس البُقعيُّ[2]؟ اعتلال الشبكية السُّكّريُّ[3]؟ «أصابَكِ العمى في عينٍ واحدةٍ؟ واحدةٍ فقط؟».

«إنَّه الغلوكوما[4]، أو شيءٌ آخر ينتهي بـ'أوما'. لقد أجرَوا لي جراحةً، وكان هناك احتمالٌ كبيرٌ أنْ أفقدَ بصري، وقد كنتُ على تمام العلم بذلك قبل دخولي غرفة العمليات، ثمَّ اتَّضح لاحقاً أنَّ الرُّؤيةَ بعينٍ واحدةٍ فقط أصعبُ بكثيرٍ ممَّا قد تظنِّين، ولا سيَّما حين تكونين مُدلَّلةً طوال حياتك بالرؤية من خلال عينين اثنتين».

لم أكن متأكدةً من كون استعمال عينيك كلتيهما للرؤية يجعلك «مُدلَّلاً»، ولكن ماذا عسايَ أقول؟

«لِمَ لمْ تخبرني بهذا من قبل؟».

سمعتُ صمتاً ساخراً على الطرف الثاني من الخطّ، مَفادُه بحقّك.

«تسمحين لهم بإجراء عمليَّةٍ على عينك، ولكنْ لا تستطيعين إخباري عن خَطبها، هاه؟».

---

(1) الساد أو إعتام عدسة العين (Cataracts): مرض يصيب عدسة العين الطبيعية القائمة خلف الحدقة فيعتمها ويفقدها شفافيتها مما يسبب ضعفاً في البصر - المترجم.

(2) التَّنكُّس البقعيُّ (المرتبط بالسن) (Macular degeneration): حالة طبية تُصيبُ عادةً كبار السن وتؤدي إلى فقدان البصر في مركز المجال البصري (البقعة) بسبب التلف الذي يلحق بالشبكية - المترجم.

(3) اعتلال الشبكية السكري (Diabetic retinopathy): يكون الاعتلال بسبب الأضرار التي تلحق شبكية العين (الناجمة عن مضاعفات مرض السكري)، التي يمكن ان تؤدي في النهاية إلى العمى - المترجم.

(4) غلوكوما (Glaucoma): مرض ينشأ نتيجة ارتفاع الضغط في العين فيحصل نتيجة ذلك تلف في أنسجة العصب البصري - المترجم.

أطلقتْ تنهيدةً حادَّةً: «أنا لستُ شخصاً يهوى التفاصيل، يا كاسي».

ومضةُ الانزعاج تلك في نبرتها سمحتْ لي فجأةً بأنْ أنزعج أنا أيضاً. أكنْتُ أتوقّع الكثير منها بافتراض أنها مدركة لأساسيات حالتها الصحية؟ كانت المرأة بمنتصف خمسينيَّاتها، لكنَّها تتصرَّف كمُسنَّةٍ مراهِقةٍ.

لكنَّني لم أستطع السماح لانزعاجي بالاستمرار أكثر، وبرغم أنه أسهل بكثيرٍ أنْ نحكم على المرء عوضَ أنْ نحاول أنْ نُحسَّ بما يمرُّ به، لم يسعْني إلَّا أنْ أشعرَ بالتعاطف. لا بدَّ أنَّه أمرٌ عصيبٌ أنْ يفقد المرء نصف بصره، وهذا ينطبق على الجميع، ولا سيَّما الفنانُ، من بين كلِّ الناس. كلُّ حياتها العمليَّةِ كانَتْ تتعلَّق بالنظر، والإبصار، والإدراك. بالطبع هي منزعجةٌ، بل ربّما مذعورةٌ أيضاً.

سألْتُها بنبرةٍ أكثرَ رقَّةً: «كيف حال العين الثانية؟».

«بحالٍ جيِّدةٍ... في الوقت الراهن».

ليس أمراً جيداً أنْ تتعاطفي مع مرضاك، لكنَّها لم تكن مريضتي، ذكَّرتُ نفسي، كانت والدتي.

«على كلِّ حالٍ...» تابعَتْ كلامها، «ليس الأمر بذاك السوء. يبدو أنَّني ما عدْتُ قادرةً على إدارك العلاقات بين الأشياء في الفضاء. أسكبُ القهوة فلا تقع داخل الفنجان، أتعثَّر وأسقط أيضاً... راحتايَ، ورُكبتايَ، كلُّها مخدوشة، سقطتُ عن السلالم قبل أيامٍ. ثمَّ، ليستْ هناك قيادةٌ بعد الآن، أشكُّ في أنَّني قد أقود مجدَّداً يوماً».

«سقطتِ عن السلالم؟».

«أنا بخيرٍ، ما أريد قوله هو أنَّني أحتاج بعض المساعدة، ولكنْ ليس إلى الأبد».

«سنةٌ على أكثر تقديرٍ»، كرَّرْتُ.

«تماماً!» قالَتْ، كأنَّنا اقتربْنا خطوةً من التَّوصُّل إلى اتِّفاقٍ.

«ريثما أتأقلمُ، فهناك حِصصُ علاجٍ وترويضٍ يمكن متابعتها لتسريع الأمور، تعلُّمُ استعمال عينٍ واحدةٍ بطريقةٍ احترافيةٍ، ولكنَّ الأمرَ يأخذ بعض الوقت».

«سنةٌ؟».

«تسعة أشهرٍ إلى سنةٍ، بعد ذلك ننتهي».

لم يسعْني إلَّا أنْ أنبهرَ بتفاؤلها.

دفعتُ بشعورِ التعاطف جانباً. ما كنْتُ لأستسلمَ لشعور الشفقة عليها. فالناس يعانون من أمورٍ شنيعةٍ طوال الوقت. الأسبوع الماضي مثلاً، نقلْنا رجلاً بَتَرَ جزءاً من يده وهو يحاول قَطْعَ ألواحٍ خشبيةٍ ليصنع بيتَ ألعابٍ بالفِناء لأطفاله.

لكنَّ دماغي كان مُتنبِّهاً الآن. كان الأمر يحدث فعلاً. كانَتْ تطلب منِّي سنةً. كان الأمر كأنَّها تطلب منِّي عُمراً، فلم تكنْ لديَّ سنةٌ زائدةٌ لأمنحها.

«ألا يمكنكِ توظيف مُقدِّمِ رعايةٍ[1]؟».

انفجرَتْ ضاحكةً، كأنَّني أمازحها: «يا حلوتي، أنا فنانةٌ!»، ثمَّ بعد ذلك لم تكن مضطرَّةً لأنْ تشرحَ البديهي: «أنا مفلسةٌ حتى النخاع».

«ألا يستطيع تيد مساعدتك؟».

«ولِم بحقِّ السماء قد يفكِّر في ذلك حتى؟».

---

(1) مقدم رعاية (Caregiver): شخص يقوم بمساعدة شخص عاجز عن إتمام أنشطة حياته اليومية - المترجم.

كانت تلك نقطةً وجيهةً.

حاولْتُ مجدَّداً: «لكنَّكِ تملكين تغطيةً صحِّيَّةً، أليس كذلك؟».

«الأمر رهيبٌ، أسوأ من عدم توفُّركِ عليها إطلاقاً».

«أليس لديك أصدقاءُ؟»، سألتُ.

«بالطبع لديَّ أصدقاء!»، أجابَتْ بنبرةٍ قويَّةٍ تشي بانزعاجها من سؤالي الذي بدا مُهيناً: «ولكنْ لكلٍّ منهم عائلةٌ يعتني بها».

«لكنَّني أقطن في تكساس!»، قلت وأنا أحسُّ بأنَّ حُجَّتي صارتْ واهيةً نسبياً.

«أنتِ لا تَبعُدين سوى يومين سفراً بالسيارة»، قالت وكأنها تعني: سهلٌ، سهلٌ جدّاً. «يمكنك أنْ تمكُثي معي، مجَّاناً! لديَّ غرفةٌ إضافيةٌ في العُلِّيَّة بستائرَ بيضاءَ مُزيَّنةٍ بِكُريَّاتٍ صوفيةٍ ملوَّنةٍ، ونافذةٍ تطلُّ على الميناء».

انتظرتْ آملةً ربَّما أنَّ الكريَّات الصوفية الملوَّنة ستفي بغرض إقناعي.

بعد وهلةٍ أضافت: «فكِّري في كلِّ الأموال التي ستدَّخرينها من عدم دَفْعِ الإيجار! سنةٌ فقط... أو أقلَّ».

حرَّكتُ رأسي بالنَّفي: «لديَّ حياةٌ هنا... وأصدقاء».

«حبيبٌ؟» سألَتْ.

«لا، لا حبيب».

«شخصٌ تشاركينه الفراش من دون ارتباطٍ؟».

«ماما!»، صرخْتُ، من دون أنْ أُدركَ أنَّني ما عدْتُ أدعوها بذلك.

«أنا آسفةٌ».

«أنا جدُّ منشغلةٍ لأحظى بذلك، على أيَّة حالٍ».

«جدُّ منشغلةٍ لتحظَي بماذا؟».

«جدُّ منشغلةٍ لأواعد، لا وقتَ لديَّ».

خيَّمَتْ لحظةُ صمتٍ قصيرةٌ، بعدها قالتْ: «أنا لا أفهم...».

«حسنٌ، أنا لا أقوم بأمور الحبِّ»، قلتُ. يا إلهي، كيف ألقَتْ بنا أمواج المحادثة إلى هذا الموضوع؟

كان بإمكاني إدراك التجهُّم في صوتها: «لا تقومين بأمور الحب؟».

لا يوجد من الأمر مَخرَجٌ إلا عَبْرَ اختراقه: «الأمر فقط لا يستهويني».

«لا تقومين بأيِّ نوعٍ من أمور الحُبِّ؟ على الإطلاق؟».

«لا أقوم بأمور الحبِّ الرومانسيِّ»، حدَّدْتُ، «النوع التَّافه».

توقَّفَتْ ثانيةً، وخمَّنْتُ أنَّها كانَتْ بصددِ أَخْذِ قرارِ مواصلة النقاش من عدمه. «رائعٌ، إذاً»، قالَتْ أخيراً، وقد قرَّرَتِ السماح للأمر بالمرور: «أمرٌ أقلُّ يستوجب بقاءك هناك».

كان ذلك أقرب شيءٍ إلى موضوعٍ فعليٍّ ناقشناه خلال محادثاتنا طوال هذه السنين.

ثمَّ قلتُ لأُعيدنا إلى سكَّة المحادثة الرئيسة: «لكنَّني أحبُّ عملي». ربَّما كانت هذه هي اللحظة المناسبة لأخبرها أنَّني حصلتُ على وسام الشجاعة، لكنَّني لم أفعل.

«هنا أيضاً، لدينا رجال إطفاء».

«إطفائيون»، صحَّحْتُ.

«ولدينا الكثير من النيران»، قالتْ بما يشبه الفخر، «الكثيرُ الكثيرُ منها، هذا الجزء من البلاد عبارةٌ عن برميل بارودٍ ينتظر أنْ يشتعل لهيباً في أيَّة لحظةٍ».

ما كان قصدها؟ أكانت تلك حقّاً 'محاولة إقناعٍ' جادّةً؟

«مراكز الإطفاء منتشرةٌ في كلّ ركنٍ هنا...». واصلَتْ كلامَها: «ربَّما بإمكانِكِ أنْ تطلبي نوعاً من التَّبادُل الوظيفيِّ لتلتحقي بإحدى المراكز هنا».

«الأمور لا تمضي بهذه الطريقة، يا ديانا، سيتوجَّب عليَّ أنْ أتخلَّى عن وظيفتي».

«لمدَّة سنةٍ فقط».

«أنا لستُ طالبةً أجنبيَّةً في برنامجِ تبادلٍ، لنْ يحتفظوا بمكاني إذا رحلْتُ».

تركَتِ الأمر يمضي، ثمَّ، وبإصرارٍ جديدٍ، قالتْ: «متى كانت آخر مرَّةٍ طلبتُ منكِ شيئاً؟».

أطلقتُ تنهيدةً.

«مطلقاً»، أجابتْ بدلاً منِّي، وأكَّدتْ: «لم يسبقْ لي قطُّ أنْ طلبتُ منكِ شيئاً».

كانَتْ مُحقَّةً... تقريباً، فقد طلبَتْ منِّي مرَّةً أنْ أسامحَها، عبرَ رسالةٍ لم أُجِبْ عليها، لكنَّ ذلك لم يكنْ أمراً تحدَّثْنا بخصوصه.

«هذه المرَّة فقط، أعدُكِ أنَّني لنْ ألجأ إليكِ مجدَّداً أبداً... على الإطلاق... طلباً للمساعدة».

فاق ذلك قدرتي على التحمُّل. وأحسستُ شيئاً ما بالدوار، وببعض آلام الرأس، فقدْ كان يوماً طويلاً، وكنتُ بحاجةٍ فعلاً إلى طَيِّ صفحتِه بأسرع ما يمكن. فكَّرْتُ في الأمسية، وفي رفاقي، والطريقة التي ردَّدُوا بها اسمي وترنَّموا به خلال المأدبة. فكَّرْتُ في الإحساس الذي يمنحني إيَّاه وجودُهم في حياتي، ثمَّ قلْتُ شيئاً صادقاً حدَّ اللؤم.

«بوُدِّي أن أساعدك، يا ديانا، لكنَّني لا أستطيع ترك عائلتي».

لـم تـمضِ عشـرُ دقائقَ بعد أنْ أقفلتُ الخطَّ، حيثُ كنتُ قد أنهيْتُ للتَّوِّ غَسْلَ الجائزة وتنشيفها في حوض المطبخ، حتى رنَّ هاتفي مجدَّداً. ظننتُ أنَّها والدتي، تحاول مجدَّداً، وقد عزمْتُ على أنْ أتجاهلَها... لكنَّه كان والدي.

لم يسبقْ لي قطُّ أنْ تجاهلْتُ والدي.

قال لمَّا فتحتُ الخطَّ: «اتَّصلَتْ والدتُكِ للتَّوِّ... وأخبرَتْني أنَّكِ قلتِ لا في وجهها».

ماذا الآن؟ أهما متواطئان؟ «هل علمْتَ؟» سألتُه.

«حين لم تستطع الوصول إليك الأسبوع الماضي، اتَّصلَتْ بي».

«ولِمَ قامت بذلك؟ ألستُما مطلَّقَين؟».

«هذا الأمر يعني الأسرة برمَّتها».

«ليس فعلاً».

«كيف استطعتِ أنْ تقولي لا في وجهها؟» سألني، «إنَّها في حاجةٍ إليكِ».

«أيمكننا الحديث بخصوص ذلك لاحقاً؟».

«لا يهمُّ متى نتحدَّث»، قال والدي بنبرةٍ حازمةٍ آمرة: «أنتِ ذاهبةٌ».

«لقد سبق أنْ قلتُ لا».

«غيِّري رأيكِ إذاً».

«لنْ أغيِّرَ رأيي»، أجبْتُه كأنَّني أحدِّثُ شخصاً فقد عقلَه تماماً.

«إنَّها والدتك، وهي في حاجةٍ إليكِ، وأنتِ ستلبِّين النداء».

«أتقول إنَّ عليَّ تركَ عملي، وشقَّتي، وحياتي... وكلَّ شيء خلفي، وأرحلَ ببساطةٍ؟».

«أنتِ ما زلْتِ شابَّةً، ستدبِّرين أموركِ».

«تيد»، رفعْتُ صوتي قليلاً، «أنا لا أريد تدبُّر أموري».

«لا علاقة لرغبتِكِ بالأمر».

«أكادُ لا أعرفها، هي بالنسبة إليَّ شخصٌ شبه غريبٍ».

«هراءٌ، تلك المرأة صنعَتْكِ، هي مَنْ أخرجَكِ إلى هذه الحياة».

«لقد هجرَتْني، وهجرتْكَ أنتَ أيضاً، يا صاح، بالمناسبة!».

«أما زلتِ حانقةً بسبب ذلك؟».

«نعم، لا، كلاهما».

«لا يمكنكِ أنْ تظلّي حانقةً إلى الأبد».

«أتودُّ الرِّهان على ذلك؟».

«يجب أنْ تمضي قُدُماً».

«أنتَ مضيْتَ قُدُماً مع زوجةٍ جديدةٍ، أمَّا أنا فلا يمكنُني أنْ أحصلَ على أمٍّ جديدةٍ».

«صحيح، ولكنْ ها هي ذي أمُّك القديمة تطرق بابك».

بطريقةٍ ما أحسسْتُ بالهجران مجدَّداً حين بدأ مواعدة كارول. لن أقولَ إنَّ كارول كانَتْ رهيبةً؛ لأنَّها، تقنيّاً، لم تكنْ شخصاً سيِّئاً، برغم أنَّها كانَتْ - بالنسبة إلى ذوقي - مُتعفِّفةً أكثر من اللازم.

بيت القصيد هو أنَّني ووالدي كنَّا وحيدَين لسنواتٍ، كأنَّ ذلك كان أمراً يخصُّنا نحن الاثنين. كان الأمرُ كأنَّنا كنَّا في نادٍ خاصٍّ بشخصين: **الشخصين اللذين هجرَتْهُما ديانا هانويل**. وبعد ذلك وجد كارول، موظَّفةٌ إداريَّةٌ بمدرسته، مُطلَّقةٌ، في سراويلها الفضفاضة وأحذيتها القماشية، ثمَّ، وخلافاً لكلِّ التَّوقُّعات، قرَّرَ أنْ يتزوَّجها. ثُمَّ قُضِيَ الأمرُ، ما عاد بإمكانه بعد ذلك أنْ يبقى عضواً في نادي الوحيدين.

لقد ترك النادي.

أو ربَّما طردْتُه.

لكنَّ جزءاً منِّي، صراحةً، رفض ترك ذلك النادي. كانَتْ مسألةَ مبدأٍ، بطريقةٍ ما، طريقةٍ غريبةٍ إلى حدٍّ كبيرٍ. كنتُ ما أزال أقفُ دفاعاً عن «أنايَ المراهِقة».

لأنَّني إذا لم أفعل ذلك، فمن سيقوم به بدلاً منِّي؟

والآن، كان والدي بصدد التَّحوُّل إلى صفِّ والدتي. «لِمَ تساندها؟» سألته، «لقد هجرَتْكَ! أحببْتَها، وأحسنتَ معاملتها... وهي خانَتْكَ».

كان يعرف كلَّ ذلك، بالتأكيد.

صمتَ ثانيةً قبل أنْ يقول بهدوءٍ: «مثلُ هذه الأمور تحصل يا كاسي، فالحياة فوضويَّةٌ، وستفهمين يوماً حين يتقدَّم بك العمر».

حقيقة أنَّه لم يكن غاضباً جعلَتْني أستشيط غضباً: «أتمنَّى ألَّا يحصل ذلك».

«الكمال للخالق وحده، لا أحد منَّا كاملٌ».

ما الذي كان يحاول فعله؟ أكان بصددِ عرض السلوك النموذجي أمامي لأتَّبعه؟ أكان يفترض بها أنْ تكون لحظةَ نموٍّ وتغييرٍ؟ بدا أنَّ ذلك يحمل بين طياته شيئاً من التعالي. قد لا أعرف كلَّ شيءٍ عن المغفرة، لكنَّني أعرف تمام العلم أنّنا لا نصل إليها عبر التظاهر بأنَّ الخيانات التي تقلب عالمنا رأساً على عقبٍ لم تكن بالأمر الجَلل.

أنْ تخونَكَ زوجتُكَ هو أمرٌ جَلَلٌ. أنْ تتخلَّى عنْكَ والدتُكَ هو أمرٌ جَلَلٌ.

ما كنْتُ لأُهينَ نفسي المراهِقة، وكلَّ ما مرَّتْ به عبرَ هزِّ كتفَي قائلةً، لا أحدَ منَّا كاملٌ.

«أظنُّكَ نسيْتَ السوءَ الذي كانَتْ عليه الحال، تناوَلنا السباغيتي سنةً كاملةً».

«على الأرجح فعلتُ».

«أما أنا، فلم أفعل».

«ألا تعرفين تلك المقولة، 'أفضلُ انتقامٍ هو النسيان'؟».

«يبدو لي أنَّ أفضلَ انتقامٍ هو الانتقام».

«أخبريني أنَّكِ لا تحبكين خطَّةَ انتقامٍ ضدَّ والدتِكِ».

كيف كان ذلك ليبدوَ حتى؟ كان الوقت أكثر من مُتأخِّرٍ من أجل الانتقام: «بالطبع لا» قلتُ، برغم أنَّه، وبطريقةٍ عمليةٍ، كنْتُ أفعلُ ذلك، عبر الحفاظ على المسافة بيننا لكلِّ هذه المدَّة: «أنا فقط أرفض أنْ أمنحها تنازُلاً».

«حبيبتي...» قال أبي بصوتٍ حنونٍ: «دعي الأمر يمضي».

«كانت هي مَنِ اتَّصل بي!».

«مضى على ذلك عقدٌ من الزمن».

«عقدٌ أمضيْتُهُ في محاولةِ صُنْعِ حياةٍ صغيرةٍ لطيفةٍ لنفسي، هنا في تكساس».

«إنَّها في حاجةٍ إليكِ».

«لن أقوم بتفكيك حياتي برمَّتها لأنتقلَ إلى الطرف القصيِّ من البلاد من أجل امرأةٍ لسْتُ مُقرَّبةً منها حتى».

«أظنُّ أنَّها تودُّ أنْ تكون مقرَّبةً منْكِ».

«ذلك مؤسفٌ، فلا يمكنها أنْ تأتي ببساطةٍ هكذا وتطالبني بالقرب. لقد تخلَّت عن حقِّها في طلب ذلك حين رحلَتْ».

«هي لا تطالبُكِ، وإنَّما تطلب منْكِ».

«لا أستطيع أنْ أصدّقَ أنّكَ تدافع عنها!».

ظلَّ أبي صامتاً لحظةً، ثمَّ قال، «أتعلمين أمراً؟ هناك الكثير من الناس الذين لا خيارَ لهم سوى إمضاء حيواتهم بعيداً عن أمَّهاتهم، أُناسٌ أمَّهاتُهُم لئيماتٌ، أو سامّات... أو سكّيراتٌ. أُناسٌ تؤذيهم أمَّهاتُهم كلَّما أرخَوا دفاعاتهم. لكنَّكِ لسْتِ أيّاً من هؤلاء الناس. والدتُكِ في الحقيقة سيّدةٌ لطيفةٌ».

كان ذلك إسهاباً لغوياً لوالدي الذي عهِدتُه قويّاً لكن صامتاً عموماً، كان من حيث الشكلُ خطابَ مناجاةٍ. «كيف يتسنَّى لَكَ أنْ تقولَ ذلك بعدَ كلِّ ما فعلَتْهُ بكَ؟».

«الناس يقترفون الأخطاء».

«لا تستطيع حملي على مسامحتها»، قلتُ، وأنا أكادُ لا أصدِّق كيفَ أنِّي بدوْتُ طفلةً شقيةً فَظَّةً.

«أنتِ مُحقَّةٌ»، قال أبي، «لا أستطيع إرغامكِ على فِعْلِ ذلك».

لجزءٍ من الثانية، ظننْتُ أنَّني فزْتُ.

ثمَّ أتمَّ كلامه: «لكنَّكِ ستذهبين على كلِّ حالٍ».

«أنتَ مخطئٌ».

«بل أنا محقٌّ»، قال بثقةٍ، «لأنَّكِ رُبِّيْتِ على القيام بالأمر الصائب، وهي مَن ربّتكِ».

في اليوم التّالي، ابتدأَتْ مناوبتي عند الساعة السادسة والنصف صباحاً، وقد كنْتُ هناك، بجرحي المضمَّد، على أتمِّ الاستعداد للمضيِّ قُدُماً في حرثِ مسار حياتي.

ولكنْ لا بدَّ أنَّ الكابتن كانَتْ تنتظر قدومي؛ لأنَّني حين اجتزتُ عتبةَ الباب نادَتْ عبْرَ مكبِّرِ الصَّوتِ، «هانويل. إلى مكتبي. الآن».

كنتُ مارَّة أمام هيرنانديز حينها، فقام بحركة الصليب الثلاثية على إيقاع صوتها.

تقدَّمْتُ نحو مكتبها يغمرُني إحساسٌ بتطهيرٍ[1] وشيكٍ سيحلُّ بي، ورأسي مائلٌ قليلاً نحو الأمام، ثمَّ حين وطئْتُ عتبةَ باب المكتب انطلق صوتُ هاتفي.

كانَتْ والدتي مجدَّداً. وتبيَّن لي أنَّ رفاقي قد غيَّرُوا رنَّة هاتفي إلى أغنية «مؤخّرةٌ كبيرةٌ» لفرقة الميتال **سباينل تاب**[2]. لمَ قامُوا بذلك؟ لأنَّ ذلك ما يفعله الإطفائيون.

---

(1) كفّارة عن ذنب ما – المترجم.

(2) Big Bottom from *Spinal Tap*

رمقَتْني الكابتن هاريس بنظرةٍ مفادها: **بحقّك**، بينما هرعْتُ في ارتباكٍ إلى خَنْقِ الصَّوتِ القادم من جيبي.

«أغلقي الباب خلفكِ»، أمرَتْني.

أغلقْتُه.

«خُذي مقعداً».

امتثلْتُ.

أخذتْ تبحث في ملفَّاتٍ مُبعثرةٍ فوق مكتبِها وتركَتْني أنتظر. الكابتن هاريس كانت إحدى أولى النساء اللاتي انضممْنَ إلى فوج إطفاء مدينة أوستن، في الثمانينيات، وقد كانَتْ أيضاً أوَّل إفريقيَّة-أمريكية تصبح كابتناً. كنْتُ أتطلَّع إليها بإجلالٍ، وأعظِّمها، وأخشاها كذلك. لقد عاصرَتْ ورأَتْ كلَّ شيءٍ، ثمَّ قليلاً بعدُ، بعدَ ذلك.

كانتْ أقربَ ما يمكن أن يبلغه إنسان عاديٌّ إلى أن يكون بطلاً.

ثمَّ أتدري ماذا بعد؟ لم تكنْ تتحمّل الهراء.

انتظرتُ أنْ توجِّهَ نظرَها وانتباهَها إليَّ، انتظرْتُ أنْ تخبرَني بكلماتٍ باردةٍ، ومن دون محاباةٍ أو تلطيفٍ، كيف أنَّني أهنْتُ قسم الإطفاء برمَّتِهِ بسلوكي المشين ليلة أمسِ. انتظرْتُ أنْ تُعاقبَني بطريقةٍ ما: توقيفٌ عن العمل، أو خفضُ رتبةٍ. شيءٌ ما.

لكنَّها أبقَتْ عينيها على الأوراق أمامها وتركَتْني أنتظر.

ثمَّ رفعَتْ رأسها أخيراً: «كم مضى على عملك هنا، يا هانويل؟».

«أتممْتُ أربع سنواتٍ الشهرَ الماضي».

تفرَّسَتْ فيَّ بأعينٍ فاحصةٍ. «أنتِ تلائمين هذا العمل ويلائمُكِ، أليس كذلك؟».

«بلى، أظنُّ ذلك».

«الرفاق يحبُّونَكِ، برغم أنَّك رفعْتِ السروال الداخلي لبيغ توم أعلى ساريةِ العَلم».

«أعتقدُ أنَّهم يحبُّونني لأنّني رفعتُ سروالَ بيغ توم الداخلي أعلى سارية العلم».

«يبدو أنَّك تحظَين بالكثير من الاحترام والتقدير بالنسبة إلى كونِكِ امرأةً».

رمشْتُ. «شكراً».

«طلبْتُ حضورك هنا لعدَّة أسبابٍ، ليس فقط بسبب جنونِكِ المؤقَّتِ ليلة أمس. لكن لا تقلقي، سنتطرَّق إلى ذلك لاحقاً».

انتظرتُ.

«أولاً، يجب أنْ نناقش أداءك في امتحان الملازمين. لقد وصلَتِ النتائج. كانَتْ هذه المرَّة الأولى لكِ، صحيح؟».

حافظتُ على هدوئي ورباطة جأشي. «هذا صحيح، كابتن».

«أنتِ تَعِيْنَ أنَّ معظم الناس لا يجتازون ذلك الامتحان من محاولتهم الأولى، أليس كذلك؟».

«نعم، كابتن». كان الجميع يعلمون ذلك جيِّداً بالطبع.

«بعض أفضل رجالنا حاولوا ثلاثَ مرَّاتٍ أو أربع قبل أنْ يتمكَّنُوا من اجتيازِه».

أحسسْتُ بانكماشِ قلبي، متوقِّعةً أخباراً سيِّئةً. لقد درسْتُ لأشهرٍ طويلةٍ تحضيراً لذاك الامتحان. «نعم، كابتن».

«قد يفاجئُكِ أنْ تعلمي إذاً أنَّكِ لم تنجحي في الامتحان فحسب، وإنَّما حصلتِ على أعلى نقطةٍ على مستوى المدينة. كان ما حقَّقْتِه أقلَّ بنقطتينِ فقط من أدائي».

انتصبْتُ في مكاني.
رفعَتْ حاجبَيها قليلاً لتعبِّرَ عن إعجابها: «عملٌ قويٌّ».
لم أعرف بماذا أردُّ. «شكراً، كابتن».
«عادةً، كان ذلك يعني ترقيَتَكِ إلى رتبة ملازمٍ».
أومأْتُ.
«لكنَّ ظروفَكِ الحاليَّة ليسَتْ بالعادية البتَّة».
خفضْتُ رأسي فوقع نظري على يدي التي كانَتْ عروقها تنبض قليلاً. قد أحتاج إلى وضع مقوِّمٍ لإصبعي.
لكنَّ الأمر كان يستحقُّ ذلك.
رفعْتُ رأسي مجدَّداً نحو الكابتن.
«أريدكِ أنْ تعلمي أنَّ الرئيس والعمدة كانا يتابعانك منذ بعض الوقت».
«حقّاً؟».
أومأتْ إليَّ بالإيجاب. «لقد برزْتِ على رادار المدينة منذ قام رجلُ السياسة بمقالٍ كنْتِ موضوعَهُ في الصيف الماضي، ثمَّ جاء أداؤك العالي في الامتحان ليحسمَ الأمر». بدأَتْ تنظر إلى قامتي. «حتى الليلة الماضية، كنتِ الممثِّلة المثاليَّة لكلِّ محاسن قِسمِنا: أنتِ يافعةٌ، وفي لياقةٍ عاليةٍ، ورصينةٌ، كما أنَّه لا توجد عليك وشومٌ ظاهرةٌ». تفحَّصَتْ وجهي ثانيةً قبل أنْ تضيف: «جميلةٌ، ولكنْ ليس أكثرَ من اللازم».
عبسْتُ وأنا أردُّ: «شكراً».
«أخبريني، يا هانويل»، قالت، «لمَ أخرجْنا خراطيم المياه لدى استجابتِنا الشهر الماضي لإطفاء نيران المستودع المُستعِرة، برغم علمِنا أنَّ الماء لن يجديَ نفعاً؟».

علمَتْ كلتانا الجواب، فقدْ كان جمعٌ من مئة شخصٍ، أو ما يزيد، قد تحلَّقُوا لمشاهدتنا، ثمَّ بعد ذلك ظهرَتْ مروحيَّةُ الأخبار. كانَتِ الطريقة الوحيدة لانتهاء الحريق هي أنْ تلتهم النار نفسَها بعدَ أنْ تأكلَ كلَّ شيءٍ، وتنتهي بحطامٍ منبسطٍ فوق سطح الأرض. وبرغم ذلك رشَشْناها بالماء، لأنَّ ذلك ما أراد الناس أن نقومَ به.

«من أجل العلاقات الهيدروليكية العامَّة، كابتن»، أجبْتُ.

أومأَتْ بالإيجاب: تماماً. «الصورة تهمُّ كثيراً. حين يرانا الناس قادمين، يجب أنْ يعلمُوا أنَّنا الأخيار، ويجب أنْ يسمحُوا لنا بالدخول والقيام بعملنا».

أومأْتُ.

«أتعلمين ما الخطب بخصوص النساء، يا هانويل؟».

حرَّكْتُ رأسي بالنفي.

«النساء لا يَبدوْنَ إطفائيين».

لا جدال بخصوص ذلك.

ثمَّ أضافت: «لكنَّ قِسمَ إطفاء أوستن قسمٌ تقدُّميٌّ للغاية».

كنتُ أعلم ذلك، بالطبع. أيُّ شخصٍ رأى عَلَمَنا ذا ألوان قوس قزح الذي يرفرف، أو تبضَّع من أحد محلَّاتنا التي تبيع المنتجات الفيجان[1] أو الكوشير[2]، أو رأى رئيسنا سارحاً في سيَّارة برِيُّوس كهربائية، كان يعلم أنَّنا كنَّا قسماً تقدُّمياً.

«تريد المدينة أنْ تقوم بتحديثِ صورتنا العامَّة»، قالتْ، قبل أنْ تضيف: «ثمَّ - مجدَّداً، حتى الليلة الماضية - كنتُ سأقول إنَّكِ

---

(1) Vegan: طعام نباتي صِرف، لا يحتوي على أي منتج حيواني - المترجم.
(2) Kosher: الأطعمة الموافقة لقوانين الطعام اليهودي - المترجم.

المرشَّحة المثاليَّةُ لشقِّ الطريق. أنتِ ذكيَّةٌ وقويَّةٌ ولا يبدو أنَّكِ تخشَيْنَ شيئاً».

«شكراً».

«لا أقول إنَّكِ طائشةٌ. أقصد، لديك ثباتٌ يناسب طبيعة هذا العمل على وجه الخصوص».

أومأتُ.

«ما أحاول قوله... هو أنَّك لسْتِ مجرّد امرأة يعرضها قسم الإطفاء... تفهمين قصدي أليس كذلك؟ أنت في الحقيقة جيّدةٌ جدّاً».

لقد افترضْتُ أنَّ ذلك بديهيٌّ، ولكنْ لا ضير.

«بعد أنْ أعلنَّا حصولك على وسام الشجاعة، قام العمدة والرئيس بجعل الأمر رسميّاً»، تابعَتِ الكابتن، «لقد قرَّرَا أنْ يضمَّاكِ إلى حملة العلاقات العامَّة التي تهدف إلى تحسين صورة قسم الإطفاء: لوحاتٌ إعلانيةٌ ضخمةٌ، حِواراتٌ تلفزيونيةٌ، مُلصقاتٌ على جوانب الحافلات. أنتْ وبضعةُ أفرادٍ آخرين. لقد قاما بتكوين فريق كاملٍ، من مُختلف الأعراق».

أوه وااااو، اللعنة.

«لكنَّ ذلك...»، دفعت نظَّارات القراءة لتنزلق أسفل أنفها، «... كان قبل ليلة أمس».

أومأتُ مجدَّداً من دون أنْ أنبسَ بكلمةٍ.

شرعَتْ تفحصني بنظراتها من جديدٍ: «ما الذي حدث بحقِّ السماء، يا هانويل؟».

ماذا حدث بحقِّ السماء؟ من أين أبدأ حتى؟ نظرْتُ إلى يديَّ.

«أريد مساعدتَكِ لا غير، لكنَّني لا أستطيع مساعدتك إذا لم تتحدَّثي إليَّ».

لم يكن الأمر أنَّني لن أتحدَّثَ إليها. لم أعرف إنْ كنتُ أستطيع ذلك.

أخذْتُ نفساً: «عضوُ المجلس؟» بدأتُ الكلام، «من الليلة الماضية؟ أعرفُه من المدرسة الثانوية. كان في سَنَتِهِ الرابعة بينما كنتُ أنا في الثانية».

انتظرَتْني، بصبرٍ مُلِحّ. «نعم...؟».

ولكن بدا أنَّني لم أستطع صياغة أفكاري، وترتيبها عبر كلماتٍ في جُمَلٍ: فعلٌ، فاعلٌ، ومفعولٌ به. لا يمكن أنْ يكون الأمر بهذه الصعوبة. فتحتُ فمي، ولكنْ، لم تخرجْ منه أيَّةُ أصواتٍ.

حرَّكَتْ رأسَها ببعض الضيق. «لا بدَّ أنْ تعطيني شيئاً».

أومأْتُ. شيءٌ حسنٌ. مِلْتُ قليلاً نحو الأمام ونظرْتُ داخل عينيها. «إنَّهُ شخصٌ سيِّءٌ»، قلتُ أخيراً.

انتظرَتْ منِّي أنْ أواصل، ثمَّ حين لم يَتبعْ ذلكَ شيءٌ، رفعَتْ يديها. أهذا كلُّ شيءٍ؟

أومأْتُ. ذلك لخَّص كلَّ شيءٍ. انحنيْتُ نحوها قليلاً أكثر.

«إنَّهُ شخصٌ سيِّءٌ جدّاً، جدّاً».

ثمَّ تغيَّر وجهُها. بدا أنَّها، بطريقة ما، قد فهمَتِ الأمر. ليس كأنَّها فهمَتْ فجأةً - عن طريق قِوى التَّخاطُر - كيف أنَّه شخصٌ سيِّءٌ، لكنَّها فهمَتْ أنَّه، على مستوًى ما، لم تكنِ التفاصيل ذات أهمِّيَّةٍ. كانَتْ تعرفُني حقَّ المعرفة، كانَتْ تثقُ بي، فقدْ أثبتُّ مرَّةً تلوَ الأخرى أنَّني شخصٌ أخلاقيٌّ، وشجاعٌ، وإيثاريٌّ. في تلك اللحظة، وبناء على عبارتي تلك، عرفَتْ.

عرفَتْ بالطريقة التي تعرفها النساء.

ما كنْتُ لأمزحَ، أو أعبثَ بالأرجاء، أو أتصرَّف بلا اكتراثٍ، كما أنَّني لم أفقد رُشدي، والأهمَّ من ذلك أنَّ لديَّ أسبابي. ولمْ تكنْ في حاجةٍ إلى معرفة تفاصيل أكثرَ، ولم تكن لتضغطَ عليَّ من أجل الحصول عليها. إذا قلتُ إنَّهُ سيِّئٌ، فهو إذاً سيِّئٌ. أُغْلِقَتِ القضيَّةُ.

تنهَّدَتْ وأَرْخَتْ كتفَيها.

«إنَّهمْ يعتزمونَ غَضَّ الطرف عن الأمر».

رمشْتُ في صمتٍ.

«لا يستطيعونَ وضعَكِ ضمن فريق حملة العلاقات العامَّة طبعاً؛ لأنَّ ذلك سيخلق طامَّةً إعلاميَّةً كُبرى، لكنَّهم يعتزمون ترقيَتَكِ إلى رتبة ملازمٍ، وسيَعزونَ الحادث إلى 'نِزاعٍ شخصيٍّ'. أنتِ بالتأكيد لستِ أوَّلَ إطفائيٍّ يدخل في عِراكٍ بقبضاتِ اليد...». لمحْتُ جانب فمِها يحاولُ كَتْمَ ابتسامةٍ لطيفةٍ. «... برغم أنَّكِ قد تكونين أوَّلَ آنسةٍ إطفائيةٍ تُبرحُ رجلَ سياسةٍ متبجِّحاً ضرباً حتى يسقط طريحاً على الأرض».

طأطأتُ رأسي لأنظرَ إلى يديَّ.

تابعَتْ. «سمعتُ أنَّهُ تعرَّض لارتجاجٍ في المخِّ».

قمْتُ بهزِّ كتفيَّ قليلاً. «لقد استحقَّ ذلك».

لم أكنْ متأكِّدةً ممَّا يجب استنباطه من كلامها. كنتُ متأكّدةً في الليلة الماضية، وأنا وحيدةٌ في شقَّتي، أنَّني أواجه توقيفاً عن العمل، على أقلِّ تقديرٍ.

لم أكنْ أتوقَّعُ ترقيةً.

«يمكنُنا...»، تابعَتْ كلامها بعد تردُّدٍ، «... انتظارُ أنْ تهدأ

الأمور وتُنسَى... فلنقلْ بعدَ سنةٍ أو ما شابه... ثمَّ نمنحُكِ ترقيتَكِ بهدوءٍ. كيف يبدو لكِ ذلك؟».

التقَتْ نظراتُنا، والحق يُقالُ، لمْ تكنْ هذه المحادثةَ التي توقَّعْتُها.

«يبدو الأمر جيِّداً إلى حدٍّ يصعب أنْ يكون حقيقياً»، أجبْتُ.

«بيتُ القصيد أنَّنا لن نسمحَ لليلةٍ واحدةٍ سيِّئةٍ أنْ تحدِّدَ باقي مسيرتِكِ». صمتَتْ قليلاً قبل أنْ تضيف: «... أو حياتَكِ».

أومأْتُ لها، مستحضرةً سُخرية القدر.

ثمَّ، وهي تغلقُ الملفَّ أمامَها كأنَّنا أوشكْنا على طيِّ الموضوع والمضي قدماً، قالَتْ: «يتبقَّى لكِ أمرٌ بسيطٌ سريعٌ، يتوجَّب عليكِ القيام به، بناءً على طلبهم».

«وما يكون ذلك؟».

«أنْ تقدِّمي اعتذاراً».

رمشْتُ. «أعتذرُ لمَنْ؟ للرئيس؟».

عقدتْ حاجبيها كمن يقول كوني يقظةً. «لعضوِ مجلسِ المدينة».

بدأتُ أهزّ برأسي قبل حتى أنْ أصوغَ الكلمات. «أخشى أنَّني لا أستطيع القيام بذلك».

أطلقَتْ تنهيدةً عميقةً، كأنَّها تُخبرني أنَّني صرْتُ لحظتَها صعبةَ المِراس، وأظنُّ أنَّني كنْتُ كذلك فعلاً. «اعتذارٌ رسميٌّ لا غيرَ، ولا يتوجَّب عليكِ أنْ تعنيه، يجب فقط أنْ يُضافَ إلى السِّجلِّ».

«لنْ أعتذرَ»، قلتُ مجدَّداً، لأوضِّحَ نفسي، وأتفادى أيَّ لُبسٍ. «هو وأصدقاؤهُ في المجلس يتحكَّمون في ميزانيَّتِنا». حرَّكَتْ

رأسَها كأنَّها تنفض عنْه تلك الفكرة الثقيلة، ثمَّ أضافَتْ: «قد يرفع دعوى بالاعتداء».

لكنَّني لمْ أكنْ أظنُّ أنَّهُ قد يفعل، فقدْ كان لنا ماضٍ مشتركٌ حافلٌ، كما كان له الكثيرُ ليخسرَهُ: «لنْ يرفع دعوى».

«أنتِ لا تعلمين ذلك حقَّ اليقين، والأهمُ أنَّ الرئيس لا يعلم ذلك، وهو يريد ضمانةً تامَّةً على أنَّ الموضوع سيدخل طيَّ النِّسيان. الصَّفقة التي يعرضُها هي الآتي: اعتذري، ثمَّ نمضي جميعُنا قُدماً».

«لا أستطيع الاعتذار»، قلتُ. «... ولنْ أفعل».

بدأَتْ تتفرَّسُ في ملامحي. أكنْتُ حقّاً سأمضي بذاك الطريق؟ أكنْتُ حقّاً سأتشبَّثُ برأيي من دون أنْ أَحيدَ عنه؟

بدا لها أنَّني ثابتةٌ كصخرةٍ، ترتطم بي الأمواج فتعود من حيث أتتْ.

«إذا لم تعتذري، سيتوجَّب عليَّ إنهاءُ عقدِكِ»، قالَتْ بهدوءٍ. «إنَّها أوامر الرئيس».

إنهاءُ عقدي. كان القرار بِيَدي إذاً: أعتذرُ فتتمُّ ترقِيَتي، أرفضُ الاعتذار فيتمُّ فَصْلي من العمل.

«لن أعتذرَ».

مالتْ أكثرَ نحوي وهي تحرِّكُ رأسَها. «فقط افعلي ذلك، انتهي منه، ولنمضِ قدماً. أنتِ إطفائيَّةٌ استثنائيةٌ، تستحقِّينَ أنْ تُواصِلي القيام بعملٍ ما تحبِّينَ. أنتِ تحتاجينَا ونحن نحتاجك. لا تسمحي لأمرٍ كهذا بأنْ يحيدَ بكِ عن مسارِكِ».

«لا أستطيع»، قلت. أيُّ شيءٍ آخرَ عدا هذا.

حافظتُ على ثباتي.

رجعتْ إلى الخلف، ثمَّ سمحَتْ لتنهيدةٍ عميقةٍ بالخروج، تنهيدةٍ

امرأةٍ عاشَتْ، ونجَتْ من أشياءَ عديدةٍ. دقَّقَتْ فيَّ النَّظرَ من فوق نظَّاراتِ قراءَتِها، كأنَّها تقول حسنٌ.

«أأنتِ متأكِّدةٌ من أنَّ هذا ما تريدين؟».

أومأتُ إليها بالإيجاب.

نظرتْ مجدَّداً إلى الملفّ الماثل أمامها، ثمَّ شرعَتْ في الإجراءات.

«إذاً ومنْ هذه اللحظة، أنتِ مفصولةٌ عن العمل بسببِ عصيانِ الأوامر والسُّلوك غيرِ اللائق».

مفصولةٌ.

إلهي الرَّحيم، أنا مفصولةٌ.

غمرَتْ جسمي حالةٌ من الهلع. ما أكونُ إنْ لم أكنْ إطفائيةً؟ ماذا أفعل إنْ لم أفعل ذلك؟ كانَتْ هذه هي الحياة التي عملْتُ من أجلِها، الحياة التي تدرَّبْتُ من أجلها وحلمْتُ بها. كان ذلك الشيءَ الوحيدَ الذي أردْتُ. كان ذلك دافعي للذهاب إلى صالة الدياضة، ولأكل البروكولي، وللحياة. كانَتْ تلك هويَّتي برمَّتها.

مفصولةٌ.

ولكنْ برغم مواجهتي كلَّ ذلك، لم أكنْ لِأُغيِّرَ رأيي وأعتذرَ.

لم يكنْ هناك خيارٌ آخر أمامي، وكانَتْ تلك عواقبه.

ثمَّ فجأةً الْتمعَتْ في ذهني احتماليَّةٌ بديلةٌ... احتماليةٌ كانَتْ حتَّى الماضي القريب - وأعني بالماضي القريب ليلةَ أمس - شنيعةً ومُستبعَدةً كلِّيّاً، لكنَّها غدَتِ اليومَ أفضل، وخياراً وارداً.

قلتُ: «ماذا لو كان هناك خيارٌ آخر؟».

«مثل ماذا؟».

«ماذا أنْ أنتقلَ؟ إلى قسمٍ آخر؟».

عبسَتْ في وجهي.
«والدتي مريضةٌ. . .» تابعْتُ، «كانَتْ تسألُني منذُ مدَّةٍ أنْ أنتقلَ إلى ماساشوستس لمساعدتها ورعايتِها. ربَّما أستطيعُ الانتقالَ، والعملَ في مركز إطفاءٍ آخر، وبذلك أَختفي بعيداً عن الأنظار».
ربَّما كان ذلكَ قدْ ينجح. أيُّ شيءٍ آخرَ عدا مفصولة يفي بالغرض. ثمَّ تبادر شيءٌ آخرُ إلى ذهني: لنْ تكون هذه المرةَ الأخيرة التي أصادف فيها هيث تومسون. كان الرجل في كلِّ مكانٍ من المدينة.
ربَّما حان الوقت أخيراً كي أرحلَ عن هذا المكان اللَّعين.
عقدَتِ الكابتن حاجبيها. «إذا خرج الخبرُ إلى العلن. . . إذا تَمَّ تسريبُهُ إلى الصحافة أو قامَ برفع دعوى، فسيتمُّ فصلُكِ في جميع الأحوال».
«لنْ يرفعَ دعوى».
حدَّقَتْ إليَّ وهي تعرِّجُ على خياراتي المتبقِّية داخل رأسها. كنتُ أستطيع رؤيتَها وهي تقوم بتقييمِها جميعها، واحداً واحداً. إنّها تحبّني، أنا متأكِّدةٌ من ذلك. فلم أكنْ إطفائيةً جيِّدةً فحسب، بل كنتُ إطفائيةً رائعةً، ولم تكن ترغبُ في رؤيتي مفصولةً. بدأَتْ تومِئُ إليَّ أنَّ الأمرَ قد ينجح، وأخيراً قالت: «لم أكنْ أعلمُ أنَّ لكِ أمّاً».
«أحياناً، أنا نفسي أنسى ذلك أيضاً».
«حسنٌ إذاً، سنجرِّبُ خطَّتَكِ البديلة، ولكنَّ الترقيةَ لم تَعُدْ على الطاولة، سيتوجَّبُ عليكِ أنْ تبدئي من جديدٍ. ابقَي هناكَ بضعَ سنواتٍ على الأقلِّ، وشُقِّي طريقَكِ نحو أعلى السُّلَّم».
البداية من الصِّفرِ أمرٌ أستطيعُ تولِّيه، أمَّا الفَصْلُ فليسَ أمراً أستطيع تحمُّلَهُ بسهولةٍ. أغمضْتُ عينيَّ. «شكراً لكِ».

فتحَتِ الكابتن ملفّي مجدَّداً لتُضيفَ بعضَ الملاحظات. «أينَ تقطنُ والدتُكِ؟ على حدِّ عِلمي هناك بعض المناصبِ شاغرةٌ في بوسطن».

«إنَّها تقطنُ في روكبورت الساحلية، على بُعدِ ساعةٍ شمالاً من كيب آن».

«ربَّما يوجَدُ شيءٌ أقربُ. سأقوم ببعضِ البحث، وأرى ما يُمكنُني القيام به».

ستقومُ ببعضِ البحث.

لستُ مفصولةً.

لوهلةٍ أحسستُ بالارتياح. ثمَّ على أعقاب تلك الوهلةِ، نشأ شعورٌ بغصَّةٍ في حلقي، وأدركت برعبٍ أنَّهُ الشُّعور الذي يسبق امتلاء عينيك بالدموع. سعلْتُ في محاولةٍ لطردِهِ خارجَ حلقي، ثمَّ سعلْتُ مجدَّداً، فأنا لم أذرفْ دموعاً منذ سنينَ، ولم أكنْ لأشرعَ في ذلك الآن. لكنَّ هؤلاءِ الرفاقَ - طاقمَ هذه المناوبة في هذه المحطَّة - كانوا عائلتي، وفكرةُ أنَّني سأضطرُّ إلى التَّخلِّي عنهم جميعاً والرحيل بعيداً خلقَتْ شيئاً من الرطوبة داخلَ قفصي الصدريِّ.

هذا ليسَ جيِّداً. لم أكنْ يوماً من مُساندي أنْ يقعَ المرءُ تحتَ رحمةِ عواطفهِ. وفي الحقيقة، لقدْ هَيْكَلْتُ حياتي حولَ غيابِ العواطف. بَنَيْتُها حول الروتين، والسلامة، والنظام، فالمشاعر تخلقُ مشاكلَ جمَّةً، وقد كنْتُ أتجنَّبُها كلَّما أمكنَني ذلك.

بلعْتُ ريقي، وحافظْتُ على استقامة ظهري، وأمرْتُ نفسي بالحفاظ على صلابتي. أردْتُ أنْ أهرع نحو مقبض الباب، لكنَّني خشيْتُ مع حركتي أنَّني قد أفقدُ زمام نفسي.

اللعنة، أكنْتُ حقّاً على وشك البكاء أمام الكابتن، فوق كلّ تلك المصائب؟

لم أكنْ أبدو بصورةٍ جيّدةٍ.

ثمَّ فجأةً، جاء الفرج.

انطلقَتْ صفّاراتُ الإنذار: نداءٌ للاستجابة إلى انحراف مقطورةٍ ذات ثماني عشرة عجلةً على الطَّريق السريع رقم 71.

لطالما كان العمل مُنقِذي.

انتصبْتُ واقفةً، فأحسسْتُ بكلّ تلك العواطف الجامحة تخبو، وتحوَّلْتُ إلى «نظامِ العمل بتركيزٍ تامٍّ».

«هانويل»، نادَتْني الكابتن بعدَ أنْ بلغْتُ الباب.

التفتُّ نحوها ويدي على المقبض.

نظرَتْ إليَّ من فوق نظّاراتِ قراءتها: «كنْتِ ستصيرين ملازماً عظيماً».

7

في غضون أسبوعٍ، تمكَّنَتِ الكابتن من إيجاد منصبٍ شاغرٍ في مدينةٍ صغيرةٍ تُدعَى ليليان، على بُعدِ نحو عشرينَ دقيقةً من منزلِ والدتي في روكبورت. مناوَبَةٌ في المركز الثاني صار بها وظيفتان شاغرتان لأنَّ أخوين كانا قد عملا مدة ثلاثين سنةً معاً قرَّرا أنْ يتقاعدا ليَمضيا جنوباً إلى فلوريدا، ويَقضيا ما بقي من حياتهما في صيد السَّمك وشُرب الجعة. وقد شَغل محلَّ أحدِهما أحدُ المبتدئين، في حين أرادُوا شخصاً ذا خبرةٍ ليَحلَّ محلَّ الثاني.

دعَتْني الكابتن هاريس بعد اجتماع عملٍ عبر الهاتف مع كلٍّ من رئيس قسم الإطفاء ورئيس المركز، وقد كان الأخير شخصاً يُدْعَى مورفي.

«قدَّمْتُكِ لهما على أنَّكِ شخصٌ ذو شأنٍ»، افتتحَتِ الكابتن هاريس كلمتَها، ثمَّ استرسلَتْ: «تحدَّثْتُ عنْكِ مطوَّلاً، وأخبرْتُهُما عن نتيجة امتحانِ الملازمين، وكيف أنَّنا لا نوَدُّ أنْ نُفرِّط فيكِ، وعرضْتُ لهما بعضَ أفضلِ إنجازاتك: التَّوقُّف القلبيُّ المزدوَج، والطفل الذي أخرجْتِه من السَّيَّارةِ المشتعلةِ حين لم يسمعْ صراخَهُ أحدٌ سِواكِ، وما فعلْتِه بأولئك الصِّبيةِ الأشقياء الذين أضرمُوا النار

في حوض السباحة، وأخبرْتُهما عن كونِكِ أصغرَ شخصٍ يتمُّ تقليدُهُ وسامَ الشجاعة، وارتأيْتُ أنَّه من الأنسب ألَّا أشيرَ إلى قيامِكِ بإسقاطِ مُقدِّمِ الجائزة على أرضيةِ الخشبة طريحاً، مصاباً بارتجاجٍ في المخِّ».

«شكراً لك».

«ما أقصد قوله هو أنَّني حرِصْتُ - عَبْرَ تلك المقدِّمة المستفيضة والمفصَّلة - على أنْ أجعلهما مقتنعَين بكِ تماماً قبل أنْ أزفَّ لهما الخبرَ السَّيِّئَ».

«الخبر السَّيِّئ؟».

ظننْتُ أنَّها كانَتْ تلمِّحُ إلى قُدرتي المُقلقة على الإفراط في عنفٍ عشوائيٍّ، لكنَّها بدل ذلك، رفعَتْ كتفيها وكأنها تقول: **أوَليس الأمر واضحاً!؟**، «. . . أنَّك أُنثى».

«أووه»، أومأتُ، مع شعورٍ بين الصدمة والاكتشاف الجليِّ أمام ذلك. «وماذا قال؟».

«صدقاً، مورفي ذاك له لكنةٌ ثخينةٌ، فلم أستطع الْتِقاطَ كلِّ شيءٍ قالَهُ، ولكنَّني أكيدةٌ من أنَّه قال إنَّ النساءَ هُنَّ الأسوأ، ولا مكانَ لهُنَّ في خدمة الإطفاء، وإنَّه خلال المئة والعشرين سنةً من تاريخ قسم ليليان للإطفاء، لم يسبقْ لهم قَطُّ أنْ وظَّفُوا 'سيِّدةً'. ثمَّ أضافَ بعد ذلك: 'ليس من أجل إطفاء النيران، على أيَّة حالٍ'».

«أقال حقّاً إنَّ 'النساءَ هُنَّ الأسوأ'؟».

أدارَتْ مُقلتَيها نحو الأعلى. «يبدو أنَّ كلماتِهِ تخرج من دون انتقاءٍ».

«أكانَ يَعِي أنَّهُ يتحدثُ إلى امرأةٍ؟».

«حتَّى لو فعل، فما كان ليبالي».

«أكان يَعِي أنَّ ذلك تميزٌ؟».

«حتَّى لو فعل، فما كان ليبالي».

أخذْتُ كلَّ ذلك بعين الاعتبار، ثمَّ أطلقتُ تنهيدةً عميقةً. بدأ عقلي بتصفُّح خياراتي. كان بإمكاني رَفْعُ دعوى قضائيةٍ بتهمة التمييز ضدَّ قسم إطفاء ليليان، لكنَّ ذلك لن يُيسِّرَ ذهاب إلى روكبورت. بالإضافة إلى أنَّه لم يسبق لي أنْ رفعْتُ دعوى على أيٍّ كان من قبلُ؛ إذْ إنَّني من مناصري تقليل الدعاوى القضائية لا زيادتها.

لا أريد أنْ أحارب من أجل العدالة. أريد فقط أنْ أحارب النيران.

أطلقتُ زفيراً وقلْتُ: «ربَّما أستطيع البحث في بوسطن، فساعةُ سَفرٍ ليسَتْ بالأمر المستحيل».

نظرَتِ الكابتن إلى السقف: «أخشى أنَّ ذلك لنْ يحصل، فَهُمْ يريدونك في ليليان».

عقدْتُ حاجبَي: «يريدونني؟».

«أجل، كابتن مورفي أنهى محاضرته، التي تناولت كيف أنَّ 'النساء في خدمة المطافئ سيكنَّ السببَ في انهيار الحضارة البشرية'، بالاعتراف بالأمر الواقع، وهو أنَّهم في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى سَدِّ النقص، وبما أنَّ الشَّحَّاذين لا يحقّ لهم الانتقاء، فهم سيأخذون - وهنا أقتبس - 'أيَّ شخصٍ يستوفي الخبرة اللازمة، وبنبضٍ في عروقه، حتى لو كانَتْ سيّدةً».

أبغضُ تلك الكلمة شيئاً ما، 'سيّدة'، فهي تجعلني أبدو كأنَّني أمشي مرتديةً تنُّورةً، بجدائل شعر متدلِّيةٍ.

«ثمَّ إنَّ الرئيس وافق»، قالت، قبل أنْ تضيف: «لقد تمَّ الأمر بالفعل».

«إذاً. . .»، حاولْتُ أنْ ألخِّصَ، «لا يريدونني، لكنَّهم يائسين لدرجة أنَّهم سيقبلون بي على أيَّة حالٍ».

«هذا تقريباً هو واقع الحال. . .».

فكَّرْتُ ثانيةً. «أظنُّ أنَّني يائسةٌ أيضاً، لذا أعتقدُ أنَّنا متوافقان جيِّداً».

«لستما متوافقَين أبداً»، قالت الكابتن. «لكنَّ خيارَكِ الآخرَ الوحيدَ هو بوسطن، ولا أتخيَّلُ أنَّهم قد يريدون سيِّدةً هناكَ أيضاً».

أومأتُ فيما يشبه القبول بالأمر الواقع.

«حسنٌ إذاً. . . أَستَقْبَلين الوظيفة؟».

أومأتُ إليها مجدَّداً بمعنى: وهل لديَّ خيارٌ آخرَ؟

«وماذا ستفعلين؟».

لم أكنْ متأكِّدةً من قصدها بالسؤال، فعقدْتُ حاجبيَّ. «سأحصل على خريطةٍ للمدينة وأدرس المنطقة جيِّداً قبل أنْ أصلَ إلى هناك. سأحضُرُ في الوقت مُستعدَّةً للعمل، وسأعمل بجدٍّ. . .».

أوقفَتْني الكابتن. «ليس ذلك ما قصدْتُ». انحنَتْ نحوي، من الجهة المقابلة للمكتب، وسلَّمَتْني ورقةً بيضاءَ.

أخذْتُها.

ثمَّ وجدَتْ قلماً في أحد أدراجها فرمَتْه نحوي.

أمسكْتُه.

«كيف انتهى بكِ المطاف هنا؟»، سألَتْني بعد ذلك.

«تمَّ توظيفي بعد تخرُّجي من الأكاديمية مباشرةً».

«بعدَ تخرُّجك الأولى على رأسِ دفعتك»، تابعتْ، «بعد أنْ مررْتِ بِيُسرٍ عبر الاختبارات الكتابية والجسمانية، ثمَّ انتقيْتُكِ شخصياً

لتعملي هنا. ومنذُ ذلك الحين وأنتِ إحدى الرَّكائز القيِّمة: محارِبةٌ لا تكلُّ، ونجمٌ ساطعٌ».

انتظرَتْ منِّي أنْ أفهم مرادها من الكلام.

لكنَّني لم أفلِحْ في ذلك.

دنَتْ منِّي أكثرَ، لتتكلَّم بوضوح. «لا فكرةَ لديك عمَّا يكون عليه العمل في مكانٍ لا يريدونَكِ فيه. فلقد تمَّ توظيفك والتَّرحيبُ بكِ في كلِّ عملٍ سبق أنْ حظيْتِ به».

لم تكُن مخطئةً.

«لكنَّ كلَّ ذلك انتهى الآن. ففي اليومِ الذي تغادرين، سيَضمحلُّ كلُّ ذلك».

«أسيكونُ الأمر بهذا السوء؟».

«بل سيكون أسوأ».

وجَّهتُ نظري إلى الأسفل نحو الورقة. «ما الغرض من الورقة؟».

رجعَتْ إلى الخلف واتَّكأَتْ على مقعدها. «سأعطيْكِ بعضَ النصائح القيِّمة التي دفعْتُ في كسبِها النفائس، وستقومين بتدوين بعض الملاحظات».

«حسنٌ». أزلْتُ غطاء القلم وانتظرتُ.

توقَّفَتْ ثانيةً، كأنَّها حائرةٌ من أين وجبَ أنْ تبتدئ، ثمَّ بدأت: «أوَّلاً: لا تتوقَّعي أنْ تَروقيهم. إنَّهم يُبغضونَكِ مُسبقاً، قبل أنْ يلتقوكِ حتَّى. هؤلاء لنْ يكونوا أصدقاءَكِ أبداً».

وجَّهَتْ نظرها نحو الورقة البيضاء تحت يدي. «اكتبي ذلك».

كتبتُه.

تابعَتْ كلامها: «لا تَضعي مساحيق التجميل، والعطور، أو أيَّ

روائحَ ذات صبغةٍ أنثويَّةٍ. لا بأس بمرطّب الشّفاه، أمّا ملمِّع الشّفاه فممنوعٌ. تجنَّبي أيَّ شيءٍ برّاقٍ، لا ألوانَ كذلك. ولا تَطلي أظافرَكِ، ولا ترتدي أيَّ مجوهراتٍ، ولا حتى أقراطاً صغيرةً. ثمَّ قُصّي شعرَكِ، أو أبقيهِ خلفَ ظهرِكِ، ولا تطلقيه، أو تحرّكيه، أو تلعبي به... مطلقاً، لا تفكّري في لمسِهِ حتى».

لم أكنْ لأقصَّ شعري، فذاك خطٌّ أحمرُ.

«إذاً، الفكرة هنا أنْ أجعلَهم يظنُّون أنّني رجلٌ؟».

«سيعلمون أنَّكِ امرأةٌ، ثدياكِ ظاهرانِ بجلاءٍ».

صحَّحْتُ: «أن أجعلَهم **أقلَّ وعياً** بأنّني فتاةٌ؟».

أومأتْ لي. «متى ما أمكنَكِ ذلك»، تابعَتْ كلامها، «لا تقهقهي، ولا تضحكي بصوتٍ عالٍ، لا تلمَسي أيّاً كان، ولأيِّ سببٍ. لا تحملي حقيبةَ يدٍ. لا تستعملي الطبقات العليا من صوتك، ولا تسمحي بصوتٍ صَحلٍ كذلك. وإذا ما نظرْتِ إلى عينَي أحدِهم فانظري باستقامةٍ وحِدَّةٍ... كحيوانٍ مفترسٍ».

«أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟».

رفعتْ أحد حاجبيها وحدَّقَتْ بي ولسانُ حالها يقول: **هل سبق لي أن مزحْت؟**

لا، لم تكنْ تمزح. كان سيتوجَّبُ عليَّ البحث عن معنى «صوتٍ صَحل».

«اتبعي التعليمات... ولا تطرحي أسئلةً، واعرفي القواعد. امضي أكثر وأعلى كلَّما أمكنَكِ ذلك. إذا طلب الكابتن الجريَ لمسافة ميلٍ واحدٍ، اجعليهما اثنين. وإذا طلب رفع سبعين كيلوغراماً، اجعليها ثمانين. كم تستطيعين أن ترفعي من الأثقال؟».

«تسعين كيلوغراماً».

«هذا مثيرٌ للإعجاب حقّاً. كمْ مرَّةً تستطيعين القيام بتمرين العقلة[1]؟».

«عشرون»، وهو عددٌ كبيرٌ، حتى بالنسبة إلى رجلٍ.

«يجب أنْ تقومي بثلاثين، على الأقلّ... وبيُسرٍ. اعملي على ذلك، أربعون تكون أفضل. ثمَّ احرصي على القيام ببعضها بيدٍ واحدةٍ».

كتبْتُ على الورقة: 40 من تمارين العقلة.

«لا تُبدي لهم خوفَكِ أبداً. لا تتردَّدي أبداً. لا تقولي إنَّكِ لم تفهمي... أبداً».

«ماذا لو لم أفهم فعلاً؟».

«جِدِي طريقةً لتفهمي. كما كان رجلٌ سيفعل مكانكِ».

لم تكنْ لديَّ أدنى فكرةٍ عن معنى ذلك، لكنَّني كتبْتُهُ أيضاً.

«لا تتراجعي أبداً عن أيِّ تحدٍّ»، بدأَتْ من جديدٍ. «وإذا ما حدث أنْ وجدْتِ نفسَكِ في مواجهة أحدهم، فاحرصي حرصاً لعيناً على أنْ تخرجي فائزةً. لا تُبدي علاماتٍ تنمّ عن الخوف، وإذا بدأَتْ يداكِ ترتجفان فاجلسي عليهما. إذا تعرَّضْتِ لإصابةٍ، فتجاهليها».

«لكنَّكِ لطالما أخبرْتِنا **ألَّا** نتجاهل الإصابات».

«قواعدُ جديدةٌ: لا تعترفي أبداً بأنَّكِ مصابةٌ، فالألم للضعفاء».

كتبْتُها أيضا: **الألم = للضعفاء**.

«سيتجاهلونَكِ، وسيبعدونَكِ، وسيحقدون عليكِ، ولن يُجدي أنْ تكوني لطيفةً، وعملُكِ بجدٍّ لن يهمَّ. فبمجرَّد وجودك هناكَ، أنتِ

---

(1) تمرين العقلة أو Pull-up - المترجم.

تهاجمينهم، أنتِ تحاولين سرقة أحد حقوقهم الحَقَّة، أنتِ تحاولين التَّسلُّلَ بينهم وتفكيكَ أخويَّتِهم. ستكونين مثل دجاجةٍ بين مجموعةٍ من الذئاب، وسيأكلونك مثل وجبةٍ خفيفةٍ في أوَّل فرصةٍ يتسنَّى لهم فيه ذلك».

توقَّفَتْ لوهلةٍ، فتساءلْتُ عن مصدر كلِّ هذه النصائح.

كانتْ تحاول مساعدتي على مواجهة مستقبلي، ولكنْ كان جليّاً أنَّها تتحدَّث عن ماضيها، عن المسار الذي اضطرَّتْ لشقِّه بنفسها لتصلَ إلى مكانها الحاليِّ. ارتفعَتْ نسبةُ إجلالي لها ألفاً في المئة، برغم أنَّ ثِقتي بنفسي بدأَتْ تهتزُّ.

حاولْتُ استجماع شتات نفسي. ربَّما تغيَّرَتِ الأوضاع. لقد انضمَّتْ إلى الإطفاء منذ قرابة ثلاثين سنةً. كانُوا قد اخترعُوا حمَّالات الصَّدر الرياضية وقتَها للتَّوِّ. فكَّرْتُ في الزمالة والإخاء الصادقَين اللذين عرفْتُهما في مركزنا. كمْ كانَتْ أخوَّتُنا قويَّةً: إخوةٌ وأخواتٌ.

بدَتِ الكابتن كأنَّها تصفُ عصوراً سوداءَ غابرةً.

وبرغم ذلك، تساءلْتُ إنْ كانَتِ الأمور ما تزال بهذا السوء.

«لا يمكنُكِ السَّماح لأيِّ شيءٍ بإزعاجك»، تابعَتْ. «لا يمكنكِ أنْ تَشعُري بالإهانة. لا يمكنك أنْ تتصرَّفي بأنوثةٍ. سيختبرونك المرَّة تِلْوَ الأخرى قبل أنْ تحصلي على مكانةٍ لكِ بينهم، وقد لا تحصلين عليها أبداً. سيضايقونَكِ من دون مللٍ أو كللٍ، وسيكون ذلك بتلقائيةٍ أحياناً، كما قد يكون بوحشيَّةٍ أحياناً أخرى. سيدخلون عليكِ وأنتِ في الحمّام، وسيقرصونَ مؤخِّرتَكِ. وسيصبُّون عليك ماءً مُثلَّجاً وأنت في نومٍ عميقٍ. أمَّا فيما يخصُّ الشريط اللاصق، فلا تجعليني أبدأ، لأنَّ الحديث سيطول. هذا هو واقع الأمر، وهكذا هي الحياة. لا

تغضبي، ولا ترفعي تقاريرَ ضدَّهم. خيارُكِ الوحيد هو أنْ تضحكي على كلِّ ذلك».

أحطْتُ كلمة «اضحكي» على الورقة.

«ولا تتكلَّمي كثيراً، أيضاً، وتذكَّري: ما تراه النساء على أنَّه 'مشاركةٌ'، يراه الرجال 'تذمُّراً'».

بدأتُ أحسُّ بكتفيَّ ترتخيان.

«هاكِ أمراً آخر: مشاعرُكِ... لا تحسِّي بأيٍّ منها».

«لا أحسُّ بأيٍّ من مشاعري!؟».

«لا تتحدَّثي عنها، لا تسبريها، وبحقِّ السماء، مهما يكن أو يحصل، لا تبكي».

«أنا لا أبكي أبداً».

«جيِّدٌ، استمرِّي على المنوال نفسه».

كتبتُ كلمة: مشاعر، ثمَّ أحطْتُها هي الأخرى، ثمَّ أضفْتُ أمامها: مشاعر: سيئة.

«ثمَّ أخيراً، وليس آخراً، ...» قالَتْ وهي تنقر برأس سبَّابتها على الورقة كأنَّها أرادَتْني أنْ أنتبه جيِّداً. «لا جنسَ».

«لا تمارسي الجنسَ مع الإطفائيين»، واصلَتْ، «... أو أصدقاء الإطفائيين، أو أقرباء الإطفائيين، أو حتَّى معارف الإطفائيين». أشارَتْ بإصبعها إليَّ: «إذا بلغَتْ إلى عِلمهم همسةٌ مفادُها أنَّكِ منجذبةٌ إلى أحدِهِمْ في مكانٍ ما قرب المركز، فاحزمي حقائبك... لأنَّكِ راحلةٌ. هذه أهمُّ قاعدةٍ، لذلك أخَّرْتُها: لا تشاركي الإطفائيين الفراش».

«إذاً يتوجَّب عليَّ العيش مثل راهبةٍ». لا مشكلةَ. امتناعٌ تراجيديٌ عن الممارسة في سبيل الفوز.

«حتى تتمكّني من إثبات نفسك، نعم. لأنَّ أسرعَ طريقةٍ لأنْ تشُبَّ بك النيران هي أنْ تعاشري أحد الرفاق».

«من باب الافتراض لا غير...» قلتُ حينها مدركةً الجواب مسبقاً: «هل ستشبُّ به النيران هو أيضاً؟».

نزعَتِ الكابتن نظّارات قراءتها، ورمقَتْني بنظرةٍ مُستخفَّةٍ مَفادُها: **بحقِّكِ؟**

«أنتِ تروقينَني...» قالَتْ بعد ذلك. «لطالما أحببْتُكِ. حظيْتِ بوقتٍ يسيرٍ، والآن توشك الأمور أنْ تنقلبَ للعكس. قد يُحطِّمُكِ ذلك، أو قد يَبنيكِ. إذا لعبْتِ أوراقَكِ بطريقةٍ صحيحةٍ، فقد تصير الصعوباتُ التي تعترضُكِ نقاطَ قوَّتِكِ».

لَمْ تكنْ لديَّ أدنى فكرةٍ عن كيفيَّةٍ لعب أوراقي بطريقةٍ صحيحةٍ.

ثمَّ أضافتْ: «أتعرفين ما أفضل نصيحة منّي إليكِ؟ جِدِي شخصاً واحداً تستطيعين الاعتماد عليه. شخصاً واحداً فقط».

ألقيْتُ نظرةً على الورقة أمامي. «حسنٌ، لأنجحَ في وظيفتي الجديدة، يجب عليَّ أساساً أنْ أكون لاجنسيَّةً، خُنثى، روبوتاً بشرياً ميتاً تجاه أيِّ نوعٍ من الأحاسيس العاطفية والشعورية، والجسدية».

جلسَتْ غارقةً في مقعدها الوثير، وأومأَتْ لي بالإيجاب وعيناها تَشِيان: **ألا ترين؟ بسيطٌ للغاية.**

أومأْتُ.

«كوني آلةً فحسب...» قالَتْ، قبل أنْ تضيفَ: «... آلةً تلتهمُ النيران».

كانت رحلتي الطويلة نحو أقصى البلاد فرصةً للتفكير مَليّاً في بعض الأمور.

لم أقمْ بتشغيل الراديو حتى.

قُدْتُ بنافذةٍ مفتوحةٍ، والرياح تزأر وتخلق تيّاراتٍ تلتفُّ حولي داخل السيارة.

أَحَدَثَ كلُّ ذلك حقّاً؟ أَقُمْتُ للتَّوِّ بنَسْفِ مسيرتي المهنيَّة، الشيء الوحيد الرائع في حياتي؟ أَقُمْتُ بإبراح هيث تومسون ضرباً على الخشبة أمام ثلاثمئةٍ من زملائي المُوَقَّرين؟ أَقُمْتُ بإلقاء تَرقِيَتي لرتبة ملازمٍ بعيداً هكذا وببساطةٍ، لرفضيَ الاعتذار عمَّا بَدَرَ منِّي؟ ما الذي حدثَ بحقِّ الجحيم؟

كان هناك شيء لم أستطع الحَسْمَ بخصوصه: أكان رفضي الاعتذارَ دعماً لنفسي أمْ أنَّه كان تدميراً لها؟ تبادرَتْ إلى ذهني حُججٌ تُعزِّز الجانبين كليهما. كنْتُ قد تركْتُ كلَّ ما أحببتُ ومن أحببْتُ خلفي في تكساس ورحلتُ. ومع تخيُّلي لشقَّتي التي تمَّ إفراغُها، ومرآب والدي المليء بالعلب والصناديق التي تحوي أغراضي، ومع رؤيتي للطريق الطويلة الممتدَّة أمامي تبتعد أكثر فأكثر نحو الأفق،

نحو المجهول، ظلَّتِ الفكرةُ معي حبيسةَ السيارة، تطوف بالمكان.

كان من الممكن أنْ ينتهيَ الأمر بأسوأ من ذلك، ظللْتُ أردِّدُ لنفسي.

شرعْتُ في التفكير في امرأةٍ أنقذْتُها من تحطُّم طائرةٍ، حادثةٌ لم يمضِ عليها الكثير. كان حبيبُها الرُّبَّانُ قد علقَ في تيَّارات ريحٍ قويةٍ متعامدةٍ خلال الهبوط، ففقد السيطرة، وأدَّى ذلك إلى دوران الطائرة في حركةٍ لولبيةٍ. ثمَّ خرج بعدها من دون خدشٍ، لكنَّ المرأة أُصيبَتْ بحروقٍ بليغةٍ، وسُحِقَتْ، وانحشرَتْ في الداخل لدرجةٍ أنَّنا اضطررْنا إلى نَزْعِ المعدن باستعمال قاطعٍ هيدروليكيٍّ لإخراجها.

خلال عمليَّةِ إخراجها، أخبرَتْني أنَّهما خُطِبَا للتَّوِّ، على مَتْنِ تلك الرحلة بالذات.

ثمَّ أصرَّتْ على أنَّه كان أسعد يومٍ في حياتها.

بعد مدَّةٍ من عملك في خدمة الإطفاء، تبدأ العمليات بالتداخل والتماهي في ذهنك، لكنَّ بعضَها تبرز متميِّزةً بين البقية، وشيءٌ ما بخصوص تلك المرأة ظلَّ عالقاً في ذهني... شيءٌ بخصوص الطريقة التي تراءى مستقبلها أمام عينيَّ فعلِمتُه قبل أنْ تفعل. حياتها التي عرفَتْها بدأتْ تتسرَّب من بين يديها من دون رجعةٍ، وكنتُ أوَّل مَنْ عرف ذلك.

هكذا هي الحياة. الأشياء تحدث، والحيوات تُحطَّم، وبعض الناس لا يستطيعون الانبعاث مجدَّداً واستعادة أنفسهم من قلب الحُطام.

فكَّرْتُ إنْ كانت ستستطيع ذلك.

فكَّرْتُ إنْ كنتُ سأستطيع ذلك.

كلُّ ما وجب عليَّ فعلُهُ كان مصافحة الرجل ثمَّ مغادرة الخشبة.

عِوَضَ ذلك، أرسلْتُهُ إلى المستشفى. كان ذلك أقلَّ بكثيرٍ ممَّا فعلَهُ هو بي، ولكنْ ماذا كانت تلك المقولة المُحبَّبة إلى والدي؟ **أفضلُ انتقامٍ هو النسيان.**

وأنا، كما يبدو، لم أنسَ أيَّ شيءٍ إطلاقاً.

برغم كلِّ محاولاتي.

لكنَّني في دفاعي أقول إنَّني لم أكنْ أتوقَّعُ رؤية هيث تومسون هناك. لمْ يتمَّ إنذاري بخصوص ذلك. كان من المفترض أنْ يكون العمدةَ، وهو رجلٌ ودودٌ ثخينٌ، كنتُ قد التقيْتُهُ بضع مرَّاتٍ سابقةٍ. كانتْ تلك صدمةَ رؤيتي الشيطانَ بشحمه ولحمه. لم يكنْ لديَّ الوقت الكافي لتحضير نفسي. فلو أنَّني كنتُ على عِلْمٍ مسبقٍ بأنَّه سيكون هناك لكان تعامُلي مع الوضع مختلفاً.

أو ربَّما لا.

ربَّما، إذا كان ذلك قد تناهى إلى علمي، كنتُ سأتغيَّبُ عن الوليمة برمَّتِها.

ربَّما لم أكنْ تماماً على ما يُرَام كما أردْتُ أنْ أعتقد.

والآن، ما يزيد الطين بلَّةً أنَّني أمضي نحو الانتقال للسكن مع والدتي.

آخر شخصٍ على وجه الأرض كنتُ سأختاره.

هي لا تعلم السبب الحقيقيّ الذي دفعني إلى قبول طلبها. كانَتْ تظنُّ أنَّني أفعل ذلك بدافع اللطافة، أنَّني أقوم بواجبي كابنةٍ بارَّةٍ.

أو ربَّما تظنُّ أنَّ دواخلي لانَتْ نحوها، أو أنَّني سامَحْتُها حتّى. أكانَتْ تتوقَّع أنْ تعود مياه علاقتنا إلى مجاريها القديمة؟ أكان ذلك حقّاً على جدول توقُّعاتها؟

لن يكون هناك أيُّ جريانٍ... ولا أيَّةُ مياهٍ، فالوادي في داخلي قد جفَّ منذ زمنٍ طويلٍ.

كنتُ ذاهبةً لتولّي مَهمَّةٍ: سأساعدها ريثما تعتاد على الحال الجديدة لعينِها، ثمَّ سأبحث عن مكانٍ آخرَ للعيش. وإذا استطعْتُ أنْ أُثبتَ نفسي في قسم ليليان للإطفاء فسأنتقل إلى ليليان. وإذا لم أستطعْ فسأنتقل إلى مكانٍ آخر... مكانٍ أقرب إلى بيتي، وسيكون أفضل إنْ كانتْ فيه التاكوس[1] جيّدةً. إنَّها سنةٌ على الأكثر، هذا ما قالَتْه، لكنَّ الأمر سيأخذ أكثر من ذلك بكثيرٍ.

يا إلهي، كنْتُ أنتقل إلى العيش مع والدتي مجدَّداً.

كمْ مضى على آخر مرَّةٍ تشاركْنا فيها السقف ذاته؟ منذ تركَتنا ورحلت، في الليلة التي أصبح فيها عمري ستَّ عشرةَ سنةً.

مضى على ذلك عمرٌ بطوله.

هل ستلاحظ إلى أيِّ حدٍّ تغيَّرْتُ؟

هل سيضايقني الأمر حين تفعل؟

هل ستحاول تغييري مجدَّداً إلى ما كنْتُ عليه؟

وإذا ما فعلَتْ ذلك؛ أيْ إذا أصرَّتْ على المقارنة بين ما كنتُ، وما صرْتُ عليه الآن، فما الذي قد يفعلُهُ ذلك بي؟

أسيُغْرِقُني ذلك في الأسى على كلِّ ما فقدْتُه؟

أدخلْتُ نَفَساً عميقاً وعدَّلْتُ جلستي لأنتصبَ في مكاني.

كنْتُ في حاجةٍ إلى استراتيجيةٍ. الأمر الوحيد الذي لم يكنْ

---

(1) Tacos: وجبة مكسيكية تقليدية، عبارة عن رغيف من الذرة بحشوة لحم مفروم أو جبن، كما قد يحتوي أحياناً على الأرز، الفاصولياء، مكعبات الخضر، بالإضافة إلى الصلصة - المترجم.

عليَّ السماح به هو انهيار استقراري العاطفيّ. لقد عملْتُ بجدٍّ وقطعْتُ أشواطاً طويلةً.

بدا لي النَّهجُ الأكثرُ أماناً هو أنْ أحافظَ على مسافتي. أجل، كان عليَّ أنْ أعيشَ في علِّيَّتِها، لكنَّنا سنكون زملاءَ سكنٍ لا أكثر. سأذهب إلى العمل، وأخرج إلى حصص الرياضة، وأجري مسافاتٍ طويلةً، وسأقوم بكلِّ ما تطلبُه منِّي من أعمالٍ داخل البيت أو خارجه، وسيكون ذلك كلَّ ما في الأمر. والدتي - بالإضافة إلى الحياة، والظروف، والكابتن هاريس - استطاعت إجباري على هذا الوضع، ولكنْ لا أحدَ يستطيع حَملي على حبِّه.

عند وصولي إلى روكبورت، لمحْتُ منزل والدتي في الحال، فلم أكنْ في حاجةٍ إلى التحقُّقِ من العنوان.

كان منزلاً صغيراً، على الطراز الكلاسيكي لبيوت إنكلترا الجديدة[1]، بسقفه ذي القرميد الرمادي، تماماً مثل باقي المنازل التي رأيتها على جنبات الطريق، غير أنه كان مُغطّى بأزهارٍ مُلوَّنةٍ من عتبة الباب إلى السقف.

كان الباب الأمامي وما حوله من النوافذ ومصاريعها وشبابيكها، كلُّ ذلكَ مُلوَّنٌ بفنِّ الزخرفة الشعبية، وبطريقةٍ يدويةٍ مِلْؤُها الحبُّ، بألوانٍ حمراءَ ووورديَّةٍ وبرتقاليةٍ. وكانَتِ الباحة الأمامية الصغيرة جدّاً غاصَّةً بأزهارٍ حقيقيةٍ، في مزيجٍ فوضويٍّ متداخلٍ ومُلَوَّنٍ يبلغ السياج الخشبي، ويتدلَّى فوقه نحو الخارج.

---

(1) Saltbox houses: منازل خشبية تتميز بشكل سقفها المثلث ذي الجانب الأمامي القصير والجانب الخلفي الطويل، والمدخنة في الوسط - المترجم.

أجل، كان هذا منزل ديانا.

عاشَتْ في روكبورت لمدة عقدٍ كاملٍ، لكنَّني لم أزرْها أبداً، وقدْ دأبَتْ على دعوتي للقدوم، ودأبْتُ على رفض ذلك في كلِّ مرَّةٍ.

كان جزءٌ منِّي لا يرغب في رؤية حياتِها الجديدة التي تركَتْنا من أجلها، والآن كنْتُ هنا... أنتقل لأعيش معها.

وقفْتُ عند باب الحديقة، ولكنْ بدا أنَّني لم أستطعْ دَفْعَ نفسي للمضيِّ قُدُماً.

الجاذبية اللطيفة لبيتِها أعطَتْني إحساساً بالخديعة الكامنة. قد يرى باقي الناس هذا البيت طيِّبَ المظهر، فيميلون إلى الظَّنِّ أنَّ شخصاً بمثل تلك الطيبة يعيش في الداخل، لكنَّني كنْتُ أعلم الحقيقة. لنْ تستطيعَ أيُّ كمِّيَّةٍ من الزهور بهيَّة الألوانِ إخفاء الحقيقة. كانَتْ ما تزال الشَّخصَ نفسَه الذي تركَنا. كانَتْ ما تزال الشخصَ نفسَهُ الذي اختفى في الوقت الذي كنتُ فيه في أمَسِّ الحاجة إليها.

كانت ما تزال إحدى أكبر خيبات أملي في هذه الحياة.

حاولتُ جَمْعَ أشتاتِ أفكاري عبر التركيز على جمال البلدة الخالص والساحر والجذّاب إلى حدّ الاستفزاز، والذي يميّز إنكلترا الجديدة .

ليس الأمر أنَّه لم يتمَّ تحذيري، فبحسَب ديانا، إذا ما سبق لك أنْ شاهدت فيلماً تجري أحداثه في «بلدةٍ شاطئيةٍ ساحرةٍ» لأيِّ فترةٍ زمنيةٍ، فقد كانَتْ تلك البلدة هي روكبورت. وقد كانَتْ تستطيع أنْ تستعرض عشرةً منهم آنيّاً، وفي ظرف عشر ثوانٍ. وقد كان منزلُها - كما كانت تُقسم - بؤرة الجمال الساحر في بلدة صيدٍ تاريخيةٍ، فهو يقع على رصيفٍ ضيِّقٍ يُدعَى بيرسكين نيك، في شكل قوسٍ ينتهي عند المرفأ.

سبق لها أنْ وصفَتْهُ بالطبع، إلَّا أنَّني لم أكنْ منتبهةً.

متاجرُ لطيفةٌ جذَّابةٌ، تشبه بيوت الدمى، مزيَّنةٌ بعوَّاماتٍ خشبيةٍ مجوَّفةٍ، تبيع كلَّ شيءٍ: من القمصان، مروراً بالمجوهرات، وصولاً إلى المثلَّجات. ومصاريع النوافذ مصبوغةٌ بألوانٍ فاتحةٍ، بينما تفتَّحتِ الأزهارُ في الأصائص في كلِّ مكانٍ. كانَتْ شاعرية المكان أروع من أنْ تكون حقيقيَّةً، وبالمقارنة مع مَوطني، مدينتي الكبيرة، الحارة، الأصيلة، مُتعدِّدة الثقافات، المحبوبة أوستن، كان هذا المكان يبدو مُزيَّفاً تماماً.

غيرَ أنَّه كان يبدو أيضاً مثل والدتي. كانت هي نفسُها ساحرةً، وأنيقة، ولطيفةً. كان في استطاعتي أنْ أرى لِمَ انجذبَتْ إلى هذا المكان. كان الطابع المحلِّيُّ أقرب إليها بطريقةٍ لم تَكُنْ عليها تكساس يوماً، وشعرْتُ بموجةٍ من الغيرة تنبجس في داخلي حيال هذه البلدة البديعة، وكلِّ ما كانَتْ تستطيع أنْ تمنح قاطنيها، فقد بدا لي أنَّها دخلَتْ في تَحَدٍّ ضِدَّ أوستن. . . وتفوَّقَتْ عليها. ولكن في النهاية، كنْتُ أنا الخاسر الحقيقيَّ الوحيد.

لحظتَها انفتحَ الباب، ثمَّ تجلَّتْ واقفةً أمامي، والدتي المفقودة منذ زمنٍ طويلٍ. لم تكنْ مفقودةً حرفيّاً، بما أنَّنا، تقنيّاً، بذلنا كلتانا مجهوداً لرؤية بعضنا من حينٍ لآخر.

لكنَّها بقيَتْ مفقودةً برغم ذلك.

مرَّتْ سنةٌ منذ رأيتُها لاحتساء كوب قهوةٍ آخرَ مرَّةٍ مرَّت فيها بأوستن، حيث انتابني الشعور المألوف ذاته ككلِّ مرَّةٍ أراها منذ طلاقهما، نوعٌ من فقدان الإحساس الذي يحصل حين يرغب قلبي بأنْ يفيض بكلِّ ما يحسُّ به الناس عادةً تجاه أمَّهاتِهم، لكنَّني أرفض السماح له بذلك.

كانَتْ ماثلةً أمامي، تلكَ السيّدةُ التي كانَتْ والدتي طوال هذا الوقت، هي ذاتها، لم تتغيّر.

باستثناء شيءٍ واحدٍ: كانَتْ تضع رقعة عينٍ.

كان من الغريب جدّاً رؤية أيٍّ كان برقعةٍ تغطّي عينه، فما بالك بوالدتي. ثمَّ يأتي أمرُ الرقعة التي تضعُها: منزليةُ الصنع، من قماشٍ قطنيٍّ أزرقِ اللونِ، مزيَّنٍ بأزهارٍ، وهو الأمر الذي جعلها مُنفِّرةً أكثر، فمَنْ ذا الذي يضعُ رقعة عينٍ منزلية الصنع؟

لا بدَّ أنْ تكون العين ذات الورم الغامض، بالطبع، فرؤية هذه الرقعة جعلتْ مِنْ وَضْعِها - وبالنَّتيجة، وضعي - يبدو حقيقيّاً أكثر لأول مرَّةٍ.

كما جعلها ذلك نسبيّاً تبدو أكبر من الحياة، أو أقوى ربَّما.

أو ربَّما كان ذلك ما كانَتْ عليه دوماً.

ذكَّرْتُ نفسي أنَّها كانَتْ ديانا فحسب. آباؤنا يحظَون بالطبع بجرعةٍ أكبر من الأهمية في عقولنا، فحين نكون صغاراً يكونون كلَّ شيءٍ بالنسبة إلينا، الآلهة التي تحكم عوالمنا، ويتطلَّبُ الأمر الكثير من النُّموِّ والكثير من خيبات الأمل لتقبُّلِ أنَّهم لا يَعدون كونَهم بشراً عاديين، متلعثمين، خطَّائين، مثل بقيَّة الناس.

صار شعرُها أشْيَبَ الآن، وقد قصَّتْهُ على شكلِ خُصلٍ قصيرةٍ تدور خلف أذنيها. لم تكنْ يوماً من مُحبِّي المكياج. كانت ترتدي مئزرها القماشيَّ القديم ذاتَهُ، المنضود والملطَّخَ بمَسحاتٍ من كلِّ لونٍ عرفَتْهُ الطبيعة، فوق سروالٍ واسعٍ وقميصٍ كتَّانيَّين، حيث كان لكليهما، بطريقة ما، نسبة التَّجاعيد والانبساط نفسها.

كنت قد نسيتُ كمْ كانَتْ جميلةً. أَوَلَمْ أكنْ قادرةً على قول ذلك

من دون أنْ أشعرَ بعواطفي تلينُ نحوها؟ كان الأمر يتعلّق بحقيقةٍ باردةٍ: كانَتْ جميلةً.

لكنْ، ولأول مرّةٍ في حياتي، لاحظتُ أنَّ آثار التّقدُّم في العمر بدأَتْ ترتسم عليها.

حاولتِ التّقدُّم نحوي، لكنّها تعثّرَتْ بركن سجّادةِ الترحيب فاضطرّتْ للانحناء بغرض معاينة الدرجتين في نهاية الممرّ.

وحينَ بلغَتْ إحدانا الأخرى اختلطَتْ مشاعر الاستياء في داخلي بمشاعرَ واندفاعاتٍ أخرى عديدةٍ: الأسف، الندم، الوحدة، الرغبة في الحماية، الإعجاب، المودّة، لتصيرَ شيئاً جديداً كليّاً.

شيئاً مُعَقّداً.

تقدَّمَتْ نحوي بُغيةَ عناقٍ. بعرضٍ بطيءٍ، رأيْتُها تميلُ نحوي أكثر فأكثر، فقلتُ في نفسي: **لا تعانقيني، لا تعانقيني**.

ثمَّ عانقَتْني.

رجعتُ للخلف حينَ أفلتُّ من ذراعيها.

«لقد جئْتِ»، قلت بعد ذلك وهي ترفع عينها السليمة نحوي.

«رقعةُ عينٍ جميلةٌ». لم أعرف ما أقول غير ذلك.

قامَتْ بلمسِها، كأنّها نسيَتْ أنّها كانَتْ تضعُها، ثمَّ ابتسمَتْ كأنّني أحرجْتُها. «صنعَتْها لي صديقةٌ». كان هناك طينٌ عالقٌ تحت أظافرها، كالعادة، كما كانَتْ فرشاةُ الرسم خلفَ أذنِها.

«هل وجدْتِ طريقَكِ إلى هنا بيُسرٍ؟».

«أفعلُ ذلك دوماً».

«شكراً لمجيئِكِ، كاسي».

هززْتُ كتفيَّ. «لم يكن لديَّ فعلاً أيُّ خيارٍ آخرَ».

«هنالك دوماً خيارٌ»، قالتْ، ثمَّ قامَتْ بنصف دورةٍ في مكانها

كي تقودني نحو الداخل. «هل أستطيع مساعدتكِ على حمل حقيبتكِ؟».

كادَتِ الفكرة تكون مثيرةً للضحك، وأنا أراها تلتمس طريقَها أعلى الدرجتين الصغيرتين. «لا أظنُّ أنَّك تستطيعين ذلك».

في الداخل، كان البيت صغيراً جدّاً، وليس ذلك لمجرَّدِ أنَّ كلَّ شيءٍ أكبرُ في تكساس، فمباشرةً بعد الباب، كانَتْ غرفةُ الجلوس تكادُ لا تتَّسعُ لأريكةٍ ومقعدين أمام موقدٍ حجريٍّ، وبعد ذلك تأتي مساحة المطبخ حيث تُوجَدُ طاولةُ بيتٍ ريفيٍّ، وكان ذلك كلَّ شيءٍ. وبعد باب المطبخ في الخلف كنتُ أستطيع أنْ أرى حديقةً، وأبعدَ منها الماء. ومن غرفة الجلوس تتقاطع سلالمُ خشبيَّةٌ ملتويةٌ، من القرن الثامن عشر، أمام نافذةٍ، لتمضي نحو الطابق الثاني، ولم يبدُ لي أنَّ هناكَ زاويةً واحدةً قائمةً في ذلك المكان برمَّتِهِ، وكانَتِ الرياح تَعوي في الخارج، ما جعل البيت يَصرُّ كسفينةٍ.

«هذا البيت مثل بيوت الدمى»، علَّقْتُ.

فابتسمَتْ في وجهي كأنَّني قد مدحْتُها. «أليسَ كذلك؟».

لم يبدُ أيُّ شيءٍ حقيقياً البتَّةَ بخصوص الأمر برمَّته. أحسسْتُ كأنَّني شخصٌ حيٌّ ظهرَ للتَّوِّ في أحد رسوم ديزني المتحركة.

لكنَّني ها أنا هنا.

«هل أحضِّر لكِ وجبةً خفيفةً؟» سألَتْني كأنَّني طفلةٌ رجعَتْ إلى البيت للتَّوِّ قادمةً من المدرسة، ثمَّ قامَتْ بتقييم حالتي، قبل أنْ تتابع: «أو أحضِّر لك شراباً؟ أو ربَّما تودِّين فقط أن تفكّي أمتعتَكِ وتستريحي؟».

لا، لن تحضِّر لي وجبةً خفيفةً. ماذا كنتُ؟ طفلةً في الثانية عشرة؟ «سآخذ أغراضي إلى الطابق العلويِّ»، أجبتُها.

«غرفة نومي وورشتي في الطابق الثاني»، قالَتْ، «والعِلِّيَّة كلُّها لكِ، فيها حمَّامُها الخاصُّ وستجدين كلَّ ما تحتاجينَهُ هناك».

«أتكونُ الرياح قويَّةً هكذا على الدوام؟».

«دوماً»، أجابَتْ ديانا، كأنَّها نقطة حسنة. «لأنَّنا نُوجَدُ على رصيف الميناء. لسْنا فقط قريبين من الماء، نحن فوقه».

أجلْتُ نظري في الأرجاء. «لابدَّ أنَّ عُمْرَ هذا البيت مئتا سنةٍ».

أومأَتْ لي بالإيجاب. «مئتان وخمسون. صيَّادٌ اسمه صامويل ماكْكي هو مَنْ بناه، هو وزوجته تشاستيتي، وربَّما أبناءَهما الثمانية هنا».

«هناك شيءٌ من المفارقة في الأمر».

«هناك لطخاتٌ في أرضية المطبخ حيث كانوا يقومون بتخليل السمك».

على الجانب كانت هناك شرفةٌ بطول البناء تستعملها ديانا ورشةً ومتجراً للفخار؛ إذْ كانَتِ قد وجدَتْ لنفسها مهنةً: صانعة أوانٍ (خزَّافة). لم تكن تُصَنَّفُ كمهنة حقّاً، لذا فقد أمضيْتُ حياتي أحاول شرحها حين كان الناس يعلِّقون في حيرةٍ، «هاه؟!»، ولكنْ هنا في البيت كانت تبدو مهنةً حقيقيةً تماماً. كانَتْ تصنع الصحون، والكؤوس، والأطباق، والفناجين... ثمَّ تضعها على عجلةِ السيراميك وبعد ذلك تطليها يدويّاً، وتصقلها بالزُّجاج وتعرّضها للحرارة. وكانَتْ متخصِّصةً في الحدائق والحيوانات والألوان البراقة والأشكال المنقَّطة. تصنع مجموعاتٍ كاملةً منها. وكان المحلُّ يشعُّ بالبهجة والألوان البرَّاقة، تماماً مثل الأواني.

كانتْ تبيع معدَّاتِ مطبخٍ أخرى لطيفةً لتُكملَ العدَّة: مناشف شاي، وأحزمةٌ، ومناديل، جميعُها في أنماطٍ وأنسجةٍ جذَّابةٍ.

إنَّه عملٌ لا يكاد يُكسبني قوتَ يومه، كانَتْ قد أخبرَتْني مرَّةً، «لكنَّه ممتعٌ».

كان بإمكاني رؤية أنَّه مُمتعٌ بالفعل، بمجرَّد إلقاء نظرةٍ.

«كيف عثَرْتِ على هذا المكان؟» سألتُها.

«أوه»، قالتْ وهي تنظر بعيداً عبر النافذة، «كان مِلكاً لوالاس».

كان والاس الرجل الذي تركَتْ والدي من أجله. الخائن. لمْ نتحدَّثْ عنه قبلاً، «هل منحَكِ إيَّاه؟».

«تركَهُ لي»، قالت وهي تومئ، «بعدَ وفاته».

مرَّتْ لحظةُ صمتٍ. لمْ ألتقِ بوالاس من قبلُ قطُّ. كنْتُ أعرف بخصوصه، لكنَّني لم أرغبْ في لقائِهِ، بالطريقة ذاتها التي لم أرغبْ فيها بزيارة روكبورت. فقدْ كنتُ ألومه، وكنتُ حانقةً وغارقةً في الألم الذي سبَّبه لي ولأبي، لا أستطيع أنْ أرى والاس كأيِّ شيءٍ عدا كونِه سبب كلِّ مشاكلي. والآن بالطبع كان الأوان قد فات، فقد مات حين كنتُ طالبةً في الجامعة.

ثمَّ أضافَتْ والدتي بعد ذلك: «سيكون ملكَكِ يوماً ما».

«لا أريده»، أجبْتُ بسرعةٍ فائقةٍ. ما كان لها أنْ تُجبرَني على الانتقال إلى هنا، ثمَّ تمنحني منزلاً بعد ذلك.

رمشتْ. «أوه، لا بأس، لكنَّني سأتركُهُ لكِ على أيَّة حالٍ في وصيتي، ويمكنك بَيْعُه إن شئتِ».

«لستِ مُجبرةً على أنْ تتركيه لي».

«ولِمَنْ غيرك قد أتركه؟».

«دعينا لا نَخُضْ في ذلك أكثر».

«أوافقُكِ الرَّأيَ. من السخافة أنْ يكون هذا أوَّل شيءٍ على جدول أعمالنا».

جُلْتُ بنظري أتفقَّدُ أرجاء الغرفة.

بعد هُنيهة صمتٍ، قالتْ: «أنا ممتنَّةٌ للغاية لقدومك، أعلم أنَّك تخلَّيْتِ عن الكثير لتكوني هنا».

ها نحن أولاء مجدَّداً. ذاكَ السِّحر الذي تملكُهُ لإثارة غضبي: امتنانُها، تعاطفها، فلمْ تجعلِ الأمورَ سهلةً البتَّةَ. أمَّا مع والدي فكانَتِ الأمور دوماً أبسط. فقدْ كان مُتفانياً، وشديد الوفاء، وطيِّبَ القلب، وصلباً. كنْتَ دوماً تعلم موقفَكَ معه، ولم تُوجَدْ قطُّ طبقاتٌ من المشاعر المتداخلة يجب فرزُها. إنه رجلٌ طيِّبٌ، وواضحٌ، وسهل المعشر.

ولكنْ لمْ يكنْ لديَّ أيُّ شعورٍ تجاه أمِّي لم يختلطْ بمشاعرَ أخرى مناقضةٍ له غالباً. كان كلُّ شيءٍ يشوبه شيءٌ آخر، دوماً.

زيادةً على ذلك، لم أستطعْ استساغة رقعة العين تلك، فقد أعطتها هالةً غريبةً ومتناقضةً، كأنَّ لورا إنغالز وايلدر[1] قرَّرَتْ فجأةً أنْ تصير قُرصانةً.

وأنا أقيِّمها، أحسسْتُ برجفانِ خوفٍ يسري في صدري. وبالطريقة ذاتها التي أستجيب فيها للخوف دوماً، انتقلْتُ إلى الجِدِّ المطلق.

«دعيني ألقِ نظرةً على تلك العين...» قلتُ وأنا أتقدَّم نحوها بِيَدٍ ممدودةٍ نحو الرُّقعة، والراحة تغمرني لأنَّني سأتولَّى القيام بشيءٍ ما.

---

(1) Laura Ingalls Wilder: كاتبة أمريكية اشتهرت بكتاباتها لقصص أطفال مبنية على أحداث من طفولتها - المترجم.

رفعَتْ يدها لتمنعني. «لا أظنُّ أنَّها فكرةٌ سديدةٌ».

«تعلمين طبيعة عملي، أليس كذلك؟ أرى أشياءَ من هذا القبيل طوال الوقت. لا يمكن أنْ تصدمَني رؤية ذلك».

«أعلم...» قالت، «... ولكنَّ هذا الأمر مختلفٌ».

«قد أستطيع مساعدتك».

«لا أظنُّ ذلك».

«فقط دعيني أُلقِ نظرةً».

لم تكنْ لتستجيبَ. «لديَّ فريقٌ كاملٌ من الأطباء، لا تشغلي بالك بهذا الأمر».

«أَوَلَيس ذلك سببَ كَوني هنا؟» سألْتُها. «لأشغلَ بالي بهذا الأمر؟».

حرَّكَتْ رأسها يمنةً ويسرةً بالنفي. «أنتِ هنا لمساعدتي على صعود الدرج ونزوله، وتولِّي القيادة، وشراءِ موادِّ البقالة».

«أهذا حقّاً كلُّ ما تريدينه؟». بدا لي أنَّ أيَّ شخصٍ تقريباً يستطيع القيام بذلك.

«هذا ما أحتاجه»، قالَتْ. ثمَّ أخذَتْ يدي بين يديها وضغطَتْ عليها. «لكنَّ ما أريدُه حقّاً، بعد كلِّ هذه السنين، هو أنْ أُمضِيَ بعضَ الوقت مع ابنتي المفقودة منذ زمنٍ طويلٍ».

7

كان العَشاء ليلَتها منزليَّ التحضير: حساء سرطان البحر مع سلطة خضراواتٍ من حديقتها، وقد أحسسْتُ بكلٍّ من الامتنان والانزعاج لكونه شهيّاً إلى تلك الدرجة، فقدْ كنْتُ أظنُّ أنَّني سآخذُ شطيرةً وأصعد إلى غرفتي، لكنَّها كانَتْ قد حضَّرَتْ كلَّ شيءٍ مسبقاً وأعدَّتِ الطاولة بأوانيها البديعة الملوَّنة.

أنتقل إلى الخطة 'ب' إذاً: كُلي بسرعةٍ ثمَّ قولي لها ليلةً سعيدةً.

أنْ نحظى بعشاءٍ معاً كان أسوأ بكثيرٍ ممَّا توقَّعْتُ. كان جليّاً أنَّنا نسيْنا كيف نخاطب بعضنا، فكانت محاولاتُ الدردشة تحتدم لوهلةٍ، لكنَّها سرعان ما تخمد. «هذه البلدة أروع من أنْ تكون حقيقيةً»، أقول، فتجيب: «أجل، أوافقك الرأي»، ثمَّ نستمع إلى صوت الرياح وهي تصرُّ في البيت، إلى أنْ تتبادر إلى ذهن إحدانا فكرةٌ جديدةٌ.

وما جعل الأمر يبدو أسوأ، في نظري، هو حقيقة أنَّ الأمور لم تكن على هذا النَّحو حين كانت ما تزال أمي.

كنَّا من قبل مقرَّبَتَين للغاية. شاهدنا كلَّ أفلام جيمس ستيوارت جنباً إلى جنبٍ على الأريكة. ولم تكنْ مثل باقي الأمَّهات المقتصرات على القوانين والانتقادات لا غيرَ، بل كانَتْ صديقةً أكثرَ

مِنْ كونِها أُمّاً. لم تكن لها ميني فان صغيرةٌ على سبيل المثال: كانَتْ تقود سيّارة فولفو كلاسيكية، لونُها أخضرُ زمرُّديٌّ، غيرُ عمليَّةٍ إلى حدٍّ كبيرٍ، وكانَتْ تسمِّيها باربرا، وكانت في ورشة التصليح نصف الوقت، لذلك كنَّا نُضطرُّ لأنْ نستقلَّ الحافلة، وحين رجوْتُها أنْ تشتريَ سيَّارةً أفضل، أجابَتْني أنَّ باربرا كانَتْ معها قبلَ أن أُوْلَدَ، وأُغلِقَتِ القضية.

«أما زالَتْ باربرا معكِ؟»، سألْتُها حينها.

«نعم، لكنَّها في ورشة التَّصليح».

«كالعادة»، قلتُ، وقد كان لطيفاً أنْ نتشارك ذكرى كتلك.

تزوَّجَتْ أمِّي من أبي كما أخبرتني ذات مرة، لأنَّه قال لها إنَّها مُذهلةٌ.

«مَنْ ذا الذي لا يرغب في أنْ يكون مذهلاً؟» كانَتْ قد قالَتْ.

لكنَّهما لم يكونا متشابهين في أيِّ شيءٍ. كانَتْ حالمةً لا تستطيع أنْ تتذكَّر في أيِّ أيامِ الأسبوع نحن، بينما كان هو مدرِّسَ رياضيات في الثانوية، بشعرٍ قصيرٍ، عمليّاً حتَّى النخاع، ويدرِّبُ فريقَ كرة السَّلَّةِ. ولكنَّهُ كان لطيفاً، وعادلاً، ووفيّاً.

لم أتوقَّعِ الأمر بتاتاً حين رحلَتْ، ولا هو، كنَّا نظنُّ أنَّنا نعيش في سعادةٍ.

كان ذلك على لائحة الأمور التي لن أسأل بخصوصها أبداً.

على الجهة المقابلة من الطاولة، كانَتِ ديانا تقوم بمحاولةٍ جديدةٍ لإذكاء شُعلة محادثتنا: «أعلم أنَّه تغييرٌ جللٌ أنْ تأتي إلى هنا. سيسعدني أنْ أُطلعَكِ على أرجاء البلدة».

حرَّكْتُ راحتي. «لا، شكراً، لا أحتاج إلى ذلك».

عبسَتْ في وجهي. «مجرَّد دفعةٍ خفيفةٍ لتنسجي بعض الصداقات».

حرَّكْتُ رأسي بالنَّفْيِ. «لسْتُ هنا لنَسْجِ صداقاتٍ».

بدوْتُ كمتسابقةٍ في برنامجٍ واقعيٍّ، فتشبَّثَتْ أكثر بعبوسها.

«ولِمَ أنتِ هنا؟».

«أنا هنا لـ...»، توقَّفْتُ لوهلةٍ، «أنا هنا لأقوم بواجبي».

«واجبُكِ؟».

«نعم»، قلتُ، غيرَ محبِّذةٍ نبرتَها المتهكِّمة. «أنتِ عجوزٌ، أنتِ نصفُ عمياءَ، أنتِ مُفلسةٌ، وإنَّهُ من واجبي القدوم إلى هنا والاعتناء بك».

حسنٌ، أتيتُ إلى هنا كي أتجنَّبَ الطَّرد من العمل، لكنَّ الحقيقةَ الحقيقةَ المحضةَ، أنَّني كنْتُ سآتي في كلِّ الأحوال، فلم أكنْ لأتشبَّثَ بتلك الـ'لا' إلى الأبد. ففي نهاية المطاف كان الشعور بالذنب سيحثُّني على القيام بالأمر الصواب، برغم أنَّ التهديد بإنهاء خِدمتي قد سرَّع الأمور قليلاً. «أنا هنا لأساعدَكِ كما طلبتِ منِّي»، قلتُ، ثمَّ أضفْتُ: «... لمدَّة سنةٍ».

ارتسمَتْ على ملامحِها خيبة الأمل.

ماذا كانَتْ تنتظر أكثر؟ لقد حضرْتُ، ألمْ أفعلْ؟ أكان يتوجَّبُ عليها أنْ تجعلَني فريسةً للشُّعور بالذنب، لأنَّني لسْتُ سعيدةً كفايةً بخصوص ذلك؟ «ماذا؟»، سألتُ.

«الأمر فقط... لا يبدو مرحاً».

«لستُ هنا لأحظى بالمرح».

هزَّتْ كتفيها قليلاً. «ألا يمكنُ أنْ نحظى ببعض المرح أبداً؟».

«لا» أجبْتُ بِحسمٍ، قبل أنْ أسترسل: «المرح ليس جزءاً من

المعادلة. لديَّ الكثير لأقوم به. ويجب عليَّ الاعتناء بكِ، ويجب عليَّ أنْ أغدوَ في حالةٍ جسديَّةٍ أفضل، ويجب عليَّ أنْ أُثبتَ نفسي في مركز الإطفاء حيث يكرهونني سلفاً، ويجب عليَّ أنْ أُعيدَ بناء حياتي مُجدَّداً».

«من دون مرحٍ».

كانَتْ مثل كلبٍ يرفض فكَّ فكَّيه عن عظمة «المرح».

وقفتُ ودفعتُ الكرسيَّ إلى الخلف فكشط الأرضية. «إنَّه وقت النوم».

نظرَتْ إلى الساعة المُعَلَّقة على الجدار، ثمَّ رفعَتْ حاجبَيها. «لكنَّها السابعة والنصف».

لم أكنْ لأسمحَ لها بالفوز. «أنا أستيقظ باكراً جدّاً».

أومأَتْ، ثمَّ قالتْ بعدَ ثانيةٍ: «كنْتُ فقط أرغب في دعوتك إلى نادي الكروشيه».

نادي **الكروشيه**؟ استمعتُ إلى رنَّة الاسم داخل رأسي.

«إنَّه بجوار البيت»، قالت وهي تشير بإصبعها. «في بيت صديقتي جوسي».

«أنا لا أحيك الكروشيه».

«لسْتِ مضطرَّةً لذلك. تستطيعين الحياكة، أو تدوير كرات الغَزْلِ».

«تريدين منِّي تدوير كراتِ الغَزْلِ؟».

«الأمرُ يبعثُ الطمأنينة في النفس... وقد تنسجين شيئاً... ربَّما قفازة فرنٍ».

«وأن أنسج ذاك أيضاً؟».

«بيت القصيد من كلِّ ذلك هو التَّسكُّع معاً وزيارة الناس».

«أنا حقّاً لستُ مُحبَّةً للتَّجمُّعات، ولا للنوادي».

كان ذلك صحيحاً. للعلاقات البشرية مزاياها وفوائدها، لكنَّها تتطلَّبُ الكثير من الجهد، ونسبة الجهد/ المكافأة مُنخفضةٌ على أحسن تقديرٍ.

«لقدِ انضممْتِ إلى مركز الإطفاء»، أشارتْ كما لو كانت لديها فرصة بالانتصار في هذا النقاش.

«ذلك ليس نادياً. ذلك عملٌ».

«عملٌ قريبٌ من كونِه نادياً».

لم تكنْ مخطئةً. «أنا أتفادى خصائصه الشبيهة بالنادي».

«احضري عشرَ دقائق فقط، ستحبِّين ذلك».

أكانَتْ فعلاً تظنُّ أنَّها ستنجح في إغرائي باقتراحها: انسجي قفازةَ فرنٍ؟

«كما أنَّه ليس كروشيه فحسب...» تابعَتْ، «... فنشاهد غالباً فيلماً رومانسياً-كوميدياً أيضاً».

لم تكن بذلك تدعم نضيتها البتَّة، فحرَّكْتُ رأسي بالنفي. «لديَّ يومٌ واحدٌ فقطْ لأحفظَ كلَّ الشَّوارع، وأماكن صنابير الحريق في ليليان».

«إلهي الرحيم!».

«يُدعَى ذلك معرفة المنطقة».

«يجب أنْ تحفظي أماكنها جميعاً؟».

«أعمل على ذلك منذ حصلْتُ على العمل، فلديَّ بطاقاتٌ توضيحيَّةٌ، وخرائطُ».

أومأَتْ إليَّ وهي تتنهَّد باستسلامٍ.

أخذْتُ طبقي إلى حوض المطبخ، شطفته، ثمَّ وضعتُهُ في غسَّالة

الصحون. كانَتْ تراقبني طوال الوقت. أكانَتْ تظنُّ حقّاً أنَّني قدمْتُ إلى هذا المكان كي أحيك الكروشيه؟ أو أشاهد أفلاماً رومانسيةً-كوميديةً؟ كان ذلك بالذات ما خشيْتُهُ. كانَتْ ترغب بتوطيد علاقتنا، لكنّني لا أوطّدُ علاقاتي بأيٍّ كان.

سرْتُ باتّجاه السلالم.

تبعَتْني.

«لا تمضي الأمور بشكلٍ جيّدٍ، أليس كذلك؟» قالَتْ وقد بدأْتُ أصعد الدرج.

«ماذا تقصدين؟».

«هذا، الآن، هذه الليلة».

«إنَّه وضعٌ غريبٌ. لقد صرْنا نعيش معاً، فجأةً، بعد عشر سنواتٍ من...» بمَ أصف ذلك؟ «... عدم العيش معاً».

«يبدو الأمر مثل موعدٍ غراميٍّ أول، موعدٍ مرتبكٍ».

«ما كان لي أنْ أعلم...»، قلتُ على أمل أنْ أُنهيَ المحادثة، «... فأنا لا أخرج في مواعدَ غراميةٍ».

حدجَتْني بنظرةٍ. «ماذا يعني ذلك؟».

يا إلهي، لقد بدأْتُ محادثةً جديدةً. «أبناء جيلي لا يقومون فعلاً بالمواعدة».

«ولِمَ لا؟».

هززْتُ كتفيَّ. «أظنُّ أنَّ الأمر يبدو سطحيّاً شيئاً ما».

«وماذا تفعلين عِوَضَ ذلك؟».

ظللتُ أفكّر في أنَّ كلَّ إجابةٍ أعطيها ستكون الأخيرة، ثمَّ بعدها أتحرَّر منها لأمضيَ نحو الأعلى، لكنَّها ظلَّتْ تستبقيني متعلّقةً بي هناك أمام السلالم. «نتسكّع معاً، غالباً في مجموعاتٍ».

«لكنْ كيف تتقرَّبين من أيٍّ كان؟».

«أظنُّ أنَّ الأمر يعتمد على تعريفك للقرب».

«كيف تحظَينَ بمحادثاتٍ مع شخصٍ ما؟ تتعرَّفان على بعضكما؟ يُولَعُ أحدُكما بالآخر؟».

«لقد سبق أنْ أخبرتُكِ... أنا لا أُولَعُ بأحدٍ».

«بالطبع تفعلين، قليلاً».

«لا»، قلتُ. «الحبُّ للفتيات».

أشارَتْ إليَّ ديانا. «وأنتِ فتاةٌ».

لم أحاول حتى إخفاء الازدراء الظاهر بصوتي. «هذا لا يعني أنَّهُ يجب أنْ أتصرَّفَ كفتاةٍ».

أكان علينا حقّاً أنْ نخوض تلك المحادثة؟ رفعْتُ قدمي للدرجة الثانية، فقدْ كنتُ أودُّ فقط أنْ أذهبَ لأشرع في حفظ أماكن صنابير الحريق. لم أكن أعلم كيف أشرح الأمر لها إذا لم تستطع إدراكه لوحدها. «الحبُّ يجعل الناس أغبياء»، انتهيتُ بالقول، على أمل أنْ أنتهيَ من كلِّ هذا الهراء. «وأنا لستُ مهتمَّةً البتَّةَ بأنْ أكونَ غبيَّةً».

«ليس دوماً».

«النساء على وجه الخصوص»، أضفتُ، من دون أنْ ألقيَ بالاً لإخفاء نفاد صبري. «يجعلهُنَّ خاضعاتٍ، حزيناتٍ، ومثيراتٍ للشَّفقة، كما يجرِّدُهُنَّ من استقلاليَّتهنَّ».

«ما يُسمَّى بالاستقلالية... مُبَالَغٌ حقّاً في تقييمها»، قالتْ.

«الحبُّ هو المُبالَغُ في تقييمه»، شننْتُ هجوماً مضادّاً.

ثمَّ تبادرَتْ إلى ذهني نصائح الكابتن هاريس، فأضفْتُ، وأنا أضرب درابزين الدرج من أجل إضفاء نوعٍ من التأكيد. «الحبُّ للضعفاء».

فكَّرْتُ في أنَّني أحتاج هذه العبارة مكتوبةً على مُلصقٍ للسيارات.

لكنَّها لم تكنْ لتسمح لذلك بأنْ يقوم طويلاً. «الحبُّ ليس ضعيفاً»، قالَتْ كأنَّه ما كان بإمكاني أنْ أصدمَها أكثر من ذلك. «بل هو عكس ذلك تماماً».

صعدْتُ درجةً أخرى: «يبدو أنَّنا ستَّفقُ على أنْ نختلف».

لكنَّها لم تكنْ لتسمح لي بإكمال طريقي. كانَتِ الرياح تهزُّ البيت: «أن تختاري أنْ تحبِّي، رغم كلِّ الطرق التي تخلَّى عنكِ بها الناس، ورحلوا، وفطروا قلبكِ؛ أن تعرفي كم أنَّ الحياة قاسيةٌ، وأن تختاري أن تحبِّي على أيِّ حالٍ، فهذا ليس ضعفاً، بل شجاعة».

لا بدَّ أنْ أحيِّي نفسي هنا، لأنِّي لم أنفجرْ في وجهها قائلةً، **يمكنُنا أنْ نتحدَّثَ عن الشجاعة بعد أن تكوني قد مررْتِ عبر قلبِ نيرانٍ حقيقيةٍ ملتهبةٍ.** تريدين الحديث عن الشجاعة؟ أستطيع الحديث عن الشجاعة يوماً بطوله، ولم تكوني لتجديها في أفلامك الرومانسية-الكوميدية تلك.

لكنَّ كلَّ ما كنتُ أريده كان فقط الذهاب إلى غرفتي. «حسنٌ...»، قلتُ بنبرةٍ لطيفةٍ، «كما تشائين».

الآن كانتْ تثبِّتني في مكاني بنظرتها. «إنَّها غلطتي...» ثمَّ أضافَتْ بعد وهلةٍ قصيرةٍ: «... لأنَّني رحلْتُ».

«ليسَتْ غلطتَكِ»، قلتُ، ولكنْ كانَ هناكَ ذاكَ الغضب مجدَّداً، يتسلَّلُ متموِّجاً وسط الخليط. لقد كان نوعاً ما خطأَها فعلاً، فقدْ كانتْ أولَ شخصٍ يُريني إلى أيِّ حدٍّ قد يكون الحبُّ فظيعاً.

أول شخص، لكنَّه حتماً ليس الأخير.

أومأَتْ كأنَّها الآن أدركَتْ شيئاً. «كان عمرُكِ خمس عشرة سنةً حين انتقلْتُ...».

«ستَّ عشرة»، صحَّحتُ مجدَّداً. «كان عيد ميلادي السادس عشر، الليلة التي رحلْتِ فيها».

مَنْ يفعل شيئاً كهذا، بالمناسبة؟ من تترك زوجها، وأُسرتها، يوم عيد ميلاد ابنتها؟ إنّه أحد أعظم الأسئلة غير المُجابِ عنها في حياتي، لكنَّني لم أكنْ لأطرحه الآن، فقدْ كنَّا سنبقى هنا طوال الليل.

«كنْتِ مفتونةً بذاك الصَّبيِّ الذي كان يعجبُكِ، ما كان اسمه؟ هانك؟ هارولد؟».

«لا أحد من جيلي يحمل اسم هارولد»، قلت، «الأمر أشبه بأنْ تسألي إنْ كان اسمه إغبرت».

كانَتْ تحدِّق بي الآن كأنَّها حاصرَتْني بأقصى الركن. فركَتْ إصبعيها مُحدِثةً طقطقةً. «لكنْ ما كان اسمه؟».

تنهَّدْتُ. أيجبُ أنْ نقوم بذلك؟ الآن؟ «اسمه...»، قلتُ، في استعدادٍ لإنهاءِ الأمر برُمَّتِهِ، «... هيث تومسون».

نُطْقُ اسمِهِ أطلق لدغةً غريبةً، حمضيَّةً، داخل صدري. كان الشخص الثاني الذي دمَّرَ الحُبَّ بالنسبة إليَّ. أيضاً في عيد ميلادي السادس عشر، من سوء الحظ، وفي الليلة ذاتها، وبلَكمتَين أولى فثانيةٍ، هائلتين، لكمَتَي هجرانٍ وخذلانٍ في عيد ميلادي السادس عشر. الليلة التي أمضيْتُ بقيَّة حياتي أحاول التعافي منها.

هي تكادُ لا تتذكَّرها.

لكنَّني لنْ، لنْ أفتح ذلك الموضوع. نظرْتُ إلى أعلى السلالم كأنَّني تأخَّرْتُ عن موعدٍ، أو شيءٍ من ذاك القبيل.

«لقد كنْتِ مُولَعةً به. كان بإمكاني أنْ أجزمَ بذلك. كنْتِ ترسمين اسمَهُ على الدوام».

انتصبْتُ في مكاني من دون حراكٍ.

أشارَتْ إليَّ كأنَّها كانَتْ تفوز، وتتذكَّر شيئاً جميلاً. «كنْتُ أظنُّ أنَّكِ ستصابين بمتلازمة النفق الرسغي[1]».

«لم يكنْ ذلك حبّاً»، قلتُ بوجهٍ خالٍ من التعابير، ثمَّ أضفتُ: «كان مجرَّد هَذَيانٍ».

لكنَّها بدَتْ مُغتبطةً بنفسها، كأنَّنا بدأْنَا نصل إلى نتيجةٍ. «هل حَدَثَ معه أيُّ شيءٍ؟».

أخذْتُ هُنيهةً للتَّأمُّل في معنى سؤالها.

كنْتُ أعلم طبعاً أنَّه لم يكن هناك أيُّ مجالٍ لأنْ تكون على عِلْمٍ 'بالشيءِ الذي حدث مع' هيث تومسون، فلم أخبرْها قطُّ، لم أخبرْ أحداً قطُّ. ولأكون عادلةً ما كنتُ لأغتاظ منها بسبب ذلك، لكنَّ شيئاً ما في النَّبرة المثرثِرة لصوتها حين سألَتْني عن الأمر، كأنَّها تستقي أخباراً عن عطلة إحدى صديقاتها، وربَّما فكرة أنَّها ببساطةٍ لم تكنْ تعلم، وأنَّها أمضَتْ السِّنين العشر الأخيرة في جهلٍ تُعدُّ الشاي وتسقي نبات الكوبيّة في هذه البلدة التافهة اللطيفة، هو ما جعلني حانقةً فجأةً.

نظرْتُ إليها، لطيفة وودودة للغاية، برقعة عينها القطنية الخرقاء.

«لا، لا شيء»، قلتُ. «لم يحدث معه أيُّ شيءٍ أبداً».

---

(1) متلازمة النفق الرسغي: هي حالة طبية تنتج من انضغاط العصب المتوسط في النفق الرسغي، والذي ينتج عنه اعتلال هذا العصب، وتظهر الأعراض الرئيسة في شكل ألم، وتنميل، وخَدَرٍ في اليد والأصابع - المترجم.

أجابَتْ ببطءٍ، كأنَّها علمَتْ بطريقةٍ ما أنَّني كنْتُ أكذب. «أوه، هذا مؤسفٌ حقّاً».

«ليس فعلاً، فقد تبيَّن أنَّه ساقطٌ».

جعلَتْها الكلمة ترمش. «أذلك صحيحٌ؟».

كنتُ أظنُّ أنَّني أقوم بعملٍ جيِّدٍ في محاكاة محادثةٍ طبيعيةٍ، حتى انتبهْتُ إلى أنَّني كنْتُ أرتعشُ. لم أكنْ أرتجف بالطريقة التي ترتجف بها أصابعك حين يصيبها البرد، ولكنَّ عراكاً داخلياً اصطخب في داخلي، كأنَّ مشاعري بدأَتْ تتداخل فيما بينها فيما يشبه تكتونية الصفائح.

أكانَتْ تستطيع رؤية ذلك؟

لم أكن لأنتظر اكتشاف ذلك. «لديَّ حقّاً الكثير من العمل لأقوم به»، قلتُ حينها وأنا أصعد درجةً جديدةً، فأحدثَتِ السلالم صريراً.

قرأَتْ عبارتي، وصوتي، واستعجالي الرحيل، وكنتُ أستطيع أنْ أراها تتراجع ذهنيّاً. لقد بالغَتْ في النبش، أدركتُ فجأةً، فقد حاولتْ بقوَّةٍ أكثر من اللازم، وخرقَتْ أهمَّ قاعدةٍ للعلاقات الإنسانية، وهي أنَّه إذا ما طاردْتِ بقوَّةٍ فسيهرب الجميع في النهاية. «حسنٌ. . .»، قالَتْ وهي تأخذ خطوةً نحو الوراء، «ليس الليلة، يُتبَع».

«أو لا».

أدركَتْ خطأَها. ففي محاولتها لجذبي نحوها أكثر، دفعتني بعيداً. ثمَّ الْتقَتْ عينُها بعينيّ، فلمحْتُ ابتسامةً حزينةً على وجهها، وقالَتْ: «الآن لديّ مهمة لأقوم بها».

كنتُ قد أوليْتُها ظهري، فتوقَّفْتُ ثمَّ نظرْتُ إليها: «أيَّةُ مهمّة؟».

«دفعك لتغيير رأيك عن الحب».

رفعْتُ كتفيَّ قليلاً، كأنَّني أعتذر عمَّا سأخبرها به. «لن أغيِّر رأيي أبداً، لأنَّني أعلم الكثير».

«ربَّما لا تعلمين كفايةً».

لماذا لا تودُّ السماح لي بصعود السلالم؟ لَم أحاول إخفاء التهيُّج في صوتي. «انظري إلى العالم من حولك، إلى الوحيدين، والمخدوعين، والعنيفين، والمتروكين. أعلمُ تماماً ما يفعل الناسُ بعضُهم ببعضٍ، رأيْتُ من الحيوات المُحطَّمة ما يكفيني إلى الأبد».

«لستُ أتحدَّث عن أيٍّ من ذلك... ليس أيٌّ من ذلك حبّاً».

«هنالك الإخضاع، والمكانة الاجتماعية، والإباحية. أما الحبُّ فلا يعدو كونه شيئاً اخترعَتْهُ الفتيات ليشعرْنَ بشعورٍ أفضلَ بخصوص ذلك».

لقد صدمْتُها بذلك. هذا جيِّدٌ.

«إذا كان ذلك حقّاً ما تعتقدين، فأنا أشعر بالحزن لأجلِكِ».

«أشعر بالحزن لكلِّ أولئك النساء اللاتي يجرزْنَ عشَّاقهُنَّ إلى المتاجر ويجعلْنَهم يتبضَّعون الوسائد والشراشف وأغطية السرير الوثيرة. إنّهنّ يُرِدْنَ الخيال أكثر من الحقيقة».

«وما الحقيقة؟» سألَتْني بتحدٍّ.

«الحقيقة هي أنَّ الحبَّ غير موجودٍ».

أردْتُ لتلك اللحظة أنْ تكون لحظة نصري. أردْتُها أنْ توصلَ إليها أنَّ أيَّ شيءٍ كانَتْ تتذكَّره بخصوصي، أو تتوقَّعُه منِّي، أو تريده منِّي، لن يحصل. لم نكن لنشاهد فيلم **إنَّها حياةٌ رائعةٌ**[1] ونصير

---

(1) It's a Wonderful Life (1946): فيلم يحكي قصة ملاك يهبط من السماء لمساعدة رجل أعمال محبط وفاقد للأمل عبر جعله يرى كيف ستكون الحياة لو لم يُوجَد – المترجم.

صديقتين حميمتين. لم نكن لنتحدَّث عن الفِتية أو نسرِّح شعرَ بعضنا، أو نعدَّ هذه السنة حفلة مبيتٍ طويلةً. كان من المفترض أنْ يحسم تصريحي الشَّرسُ ذاك ما ستكون الأمور عليه خلال فترة إقامتي معها.

تلك الفتاة التي تتذكَّرُها ما عاد لها وجودٌ.

كان يفترض بأمِّي أنْ تومِئَ، وتُنزل عينيها، وتستسلم، لكنَّها لم تفعل. وإذا كان لكلماتي أيُّ مفعولٍ، فقدْ قدحَتْ زناد المقاومة داخلَها لا غير.

استقامتْ أكثر في وقفتها، ورمقَتْني بنظرةٍ فاحصةٍ كأنَّها تراني لأول مرَّةٍ ذلك اليوم، ثمَّ قالَتْ: «يبدو أنَّكِ قمْتِ للتَّوِّ بإعلان تحدٍّ في وجه الكون، يا آنسة».

ضيَّقْتُ عينيَّ. «ماذا يعني ذلك؟».

«يعني...» قالَتْ، وشيءٌ من النصر يبدو عليها، «... أنَّكِ وبشكلٍ واضحٍ، وجليٍّ، وبأيِّ لحظةٍ، توشكين أنْ تقعي في الحبِّ».

كانت هذه المحادثة أطول من اللازم. أمضيْتُ اليومين التاليين أتجنّب والدتي بكلِّ ما أوتيْتُ من نباهةٍ.

لم يكنْ ذلك بالأمر الهيّن في بيتٍ بحجم علبة أحذيةٍ.

تخلَّيْتُ عن العشاء، وخرجتُ للجري، وقمْتُ بـ«تفقُّدٍ بَصَريٍّ» لبلدة ليليان، واشتريتُ موادَّ بقالة، وجلبتُ مخدَّةَ عنقٍ بلون الخزامى كانَت ديانا قد طلبَتْها من الصيدلية.

حين كنتُ أُضطَرُّ إلى التعامل معها، كمساعدَتِها على السلالم مثلاً، أُبقي تفاعُلي معها قصيراً، مُهَذَّباً، ومُرَكَّزاً على العمل الذي يجب القيام به. ما كنتُ أستطيع أنْ أسمح بمحادثةٍ أخرى معها كتلك، فلم آتِ إلى هنا من أجل جلساتٍ علاجيةٍ، أو لتغيير رأيي بخصوص أيِّ شيءٍ، بل أتيْتُ إلى هنا فقط لأنَّه لم يكن لدي خيارٌ آخر.

أساساً، كنتُ أحاول فقط الحفاظ على رباطة جأشي حتى أستطيع الذهاب إلى أولى مناوباتي في العمل الجديد.

كنتُ قد حدّدتُ الوقت الذي تستغرقه الرحلة من روكبورت إلى ليليان، مرَّتين، واستكشفتُ جنبات مركز الإطفاء كي أعرف كيف

يمكنني الوصول إليه. وذهبتُ إلى قسم الموارد البشرية لملء رزمةٍ من الأوراق، وإعطاء بصماتي، وأخذ قناعي وعدَّتي وزيّي الرَّسميّ، وجعل الأمور رسميّةً، وأخذْتُ بطاقة تعريفي النحاسية وشارة هويتي ذات التسمية: إطفائيةٌ/ مُسعِفةٌ.

بعد ذلك، صباحَ يومي الأول، ضبطْتُ ثلاث منبِّهاتٍ على الساعة الرابعة والنصف كي لا يكون هناك مجالٌ للتَّأخير.

اتَّبعْتُ تعليمات الكابتن هاريس بحذافيرها: لا مكياج، لا مجوهرات، لا جزء مكشوف من صدري، حتى إنَّني قمْتُ بمحاولةٍ بخصوص «لا ثديان»، باستعمال حمَّالة صدرٍ ضيِّقة، وجمعْتُ شعري على شكل كعكةٍ غير قابلةٍ للارتداد بتاتاً. هي في الحقيقة لم تكن كعكةً، بل كانَتْ أقرب إلى رزمةٍ، فقدْ قمْتُ فقط بإدارة نهاية ذيل الحصان حول الربطة لأكثر عددٍ ممكنٍ من المرَّات. الرسالة: أكاد لا ألقي بالاً إلى مظهري، تماماً كما يفعل الرجال.

حتى إنَّني تردَّدْتُ بخصوص مرطِّبِ الشفاه، فحينَ رفعْتُ الغطاء بدا لي الشمع زهريَّ اللون قليلاً.

حين غادرْتُ المنزل مع شروق الشمس، كانَتِ ديانا مُستيقظةً أيضاً، جالسةً في وضعية التأمل على مقعدٍ في الحديقة، مُغمضة العينين، موجِّهةً وجهها صوب النسيم القادم من المحيط. كانَتْ ترتدي لباس كيمونو[1] حريريّاً، وتضع رقعة عينٍ مختلفةً. كانَتْ هذه حمراء اللون، عليها أزهار كرزٍ متفتِّحةٌ. وخلال يومين، لم أرها قطُّ متجرِّدةً منها، ولو مرَّةً واحدةً.

---

(1) **Kimono**: ثوب حريري ياباني تقليدي فضفاض، يغطي كامل الجسد، له حزام في الوسط وأكمام واسعة - المترجم.

فتحتُ الباب الخلفيّ لكنَّها لم تسمعْني.

«أنا ذاهبةٌ».

فتحَتِ العين السليمة. «بهذه الساعة غير المعقولة؟».

«ألسْتِ مُستيقظةً؟».

«لم أختَر ذلك».

«أهو الأرقُ؟».

«شيءٌ من ذاك القبيل».

«ماذا تفعلين؟».

«أتنفَّس».

دقَّقْتُ نظري فيها. إمم، كلُّنا نتنفَّس.

«أتأمَّل»، صحَّحَتْ.

«أوه... لا يبدو ذلك بقَدْرِ جودة النوم».

«له ميزاته أيضاً».

«أتحتاجين أيَّ شيءٍ قبل أنْ أذهبَ؟».

حرَّكَتْ رأسها قليلاً. «أنا بخير. إذا استعصى عليَّ شيءٌ فسأنادي على جوسي، جارتي. زوجها يسافر طوال الوقت، لذلك تعتني إحدانا بالأخرى».

لم أستطع مَنْعَ نفسي من ملاحظة أنَّ جوسي هذه لم يجرِ ذِكْرُها حين اتَّصلَتْ لتحاولَ إقناعي بالقدوم إلى هنا، ولكنْ لا بأسَ، هذا جيِّدٌ. إنَّها مساندةٌ، شيءٌ أقلُّ لأقلقَ بشأنه.

وقت الذهاب.

«ليلة غدٍ نجتمع في نادي الكروشيه مجدَّداً، في حال كنتِ مهتمَّةً».

رمقْتُها بنظرة. «لا».

«أراك غداً، إذاً»، قالَتْ، ثمَّ غمزَتْ لي بعينها السليمة. «استمتعي».

وصلتُ قبل نصف ساعةٍ من الموعد، وانتظرْتُ داخل شاحنتي حتى حلَّ وقت الدخول، كي لا أبدوَ مُتحمِّسةً أكثر من اللازم.

عند السادسة إلا ربعاً، حملْتُ عُدَّتي واتَّجهْتُ صوب مكتب الكابتن مورفي.

لم يسبق لي قطُّ أنْ ولجْتُ وظيفةً بمثل هذا البرود من قبل. كلُّ وظيفةٍ حظيْتُ بها في السابق، سلكْتُ دربي السلس عبرها بيُسرٍ ومن دون مَشقَّةٍ. فقدْ كان بعض الأصحاب ممَّن أعرفهم يعملون هناك، أو كان أحد أفراد الطاقم قد شجَّعني للانضمام.

أنْ تتمَّ دعوتُك لمكانٍ ما، هذا شيءٌ، أمَّا أنْ تحضر فجأةً من دون دعوةٍ، فهذا شيءٌ آخر تماماً.

أحسسْتُ بعضلات معدتي تتقلَّص. كانَتْ تلك لحظة الحقيقة، فقد كانَتْ تلك هي اللحظة التي سأعرف فيها كمْ خسرْتُ بالضبط بانتقالي إلى هنا، وإذا ما كنت سأستردُّ أيّاً من ذلك أبداً. وقد يبدو ذلك غريباً، لكنَّ الأصحاب، والشقق، بل حتى المدن يمكن استبدالها جميعاً. أمَّا العمل، هذا العمل بالذات، فقدْ كان يمثّل شيئاً بالنسبة إليّ لم أستطع العثور عليه في أيِّ مكانٍ آخر. لقد جعلَني أصل إلى جزئي المفضل من نفسي: تلك الإنسانة الهادئة، المتمركزة حول ذاتها، التي تعلم تمام العلم ما يجب فِعْلُهُ.

سأتحمَّل أيَّ شيءٍ في سبيل استعادتها.

الفشل ليس خياراً متاحاً.

ربَّما لا يريدونني هنا، وربَّما سيمقتون كلَّ شيءٍ بخصوصي. لا يهمُّ أيٌّ من ذلك، فقدْ كنتُ في حاجةٍ إلى تأمين مكاني هنا، بأيٍّ طريقةٍ ممكنةٍ.

لو خسرْتُ ذلك، فسأخسر ذاك الجزء من نفسي الذي لا أستطيع تدبُّرَ أمري من دونه.

كنتُ قد بحثتُ بالطبع عن الكابتن مورفي على محرِّكِ البحث غوغل، لأنَّني بحثتُ عنهم جميعاً، وكنتُ أستطيع تمييزه بمجرَّد أنْ أراه: كان في منتصف خمسينياته، مكتنز الجسم، وجهه مُحمرٌّ من حياةٍ أمضاها في الخارج تحت أشعَّة الشمس، يربِّي شاربَ فقمةٍ بديعاً جعله يبدو أقربَ إلى شخصيَّة رجل إطفاءٍ في رسومٍ متحرِّكةٍ من كونه رجل إطفاءٍ حقيقيّاً.

لم يبدُ أنَّ الكابتن مورفي كان يترقَّب قدومي. «نعم؟».

«أنا كاسي هانويل». وحين لم ألمحْ منه أيَّة علامةٍ على أنَّه تعرَّف عليَّ، أضفْتُ: «هنا من أجل المناوبة س».

ثمَّ صدرَتْ منه إيماءة. «فهمت»، قال ثمّ رفع رأسه باتِّجاهي. «لقد غلبَكِ المبتدئ، وأحضر الدونات».

أكان الأمر سباقاً؟ علَّقْتُ: «الساعة أبكر بخمس عشرة دقيقة عن وقت الدخول».

«كان قائد كتيبتِنا يقول دوماً إنَّكَ إذا أتيتَ مبكِّراً بخمس عشرة دقيقةً فأنت متأخِّرٌ بنصف ساعةٍ».

عبستُ، لكنَّني قلتُ: «نعم، سيدي».

«لا تَحضري متأخِّرةً مجدَّداً».

لم أستطعْ أنْ أحدِّدَ إنْ كانَ يمزح.

أمال رأسه نحو الخلف، وعدَّل زاوية كوب القهوة مع شفتيه كي

تنزلق الثُّمالة في جوفه بسلاسةٍ، ثمَّ ضرب الكوب على المكتب بصوتٍ مسموعٍ، ودفع الكرسيَّ خلفه كأنَّه خلعه عنه، ثمَّ قال: «اتبعني».

سِرْتُ خلفَهُ خارج الباب وعَبْرَ الممرِّ حتى انتهى بنا المطاف بمكتبٍ آخر، فحَمَلَ المِذياع المتَّصل بنظام مكبِّرِ الصَّوت وشغَّله: «انتباه من فضلكم. هناك راقصةُ تعرٍّ على طاولة المطبخ. أكرِّر: هناك راقصةُ تعرٍّ على طاولة المطبخ».

رسم غمزةً صغيرةً ثمَّ توجَّه عائداً عَبْرَ الممرِّ.

سألْتُ، وأنا ألاحقُهُ: «أنتَ تعلم أنَّني لسْتُ راقصة تَعَرٍّ، أليس كذلك؟».

واصل سيره. «بالطبع أعلم»، أجاب، ثمَّ دفع الباب المتأرجح الذي يفضي إلى المطبخ. «هكذا نعلن عن كلِّ اجتماعاتنا».

كان أفراد المناوبة س مجتمعين حول الطاولة، وكان بعضُهم قد شرعُوا في تصفُّح صفحات الرياضة في الجرائد، أو في تفقُّد هواتفهم، بينما كان الآخرون يلتحقون قادمين من أجزاءٍ أخرى من المحطة. وقفْتُ في الخلف قرب المنطقة المخصَّصة للطبخ.

وقف الكابتن مورفي عند رأس الطاولة، وشرع في الكلام قبل أنْ يكون الجميع قد أخذُوا أماكنهم. «هذا اليوم مجرَّدُ يومٍ آخر للمناوبة س يا فتيان، لكنَّها ليستْ مجرَّد مناوبة س اعتياديةٍ. فاليوم، وبينما يستلقي الأخوان باترسون على مؤخِّرتيهما الإيرلنديَّتين المترهِّلتين للتشمُّس في شواطئ فلوريدا، نحن نرحِّب ليس فقط بعضوٍ جديدٍ، بل بعضوَين جديدين للانضمام إلى طاقمِ أحدِ أرفعِ المناوبات على مستوى جميع أقسام الحرائق في ولاية ماساشوستس العظيمة».

هلّل الرفاق في الطاقم.

كنتُ قد درَسْتُهم جميعاً، واحداً واحداً، بالطريقة نفسها التي درسْتُ بها المنطقة. كنتُ أعلم أسماءَهم سلفاً: جيري مورفي، جو سوليفان، دْرُو بينيريتو، توم ماك إلرُوي، أنتوني دي ستاسيو. أضفْني أنا والمبتدئ ويكتمل الطاقم، إلّا أنّنا كنّا حديثَين جدّاً على إضافتنا على موقع القسم على الإنترنت. رصدْتُ كلَّ الوجوه لأقارنها مع الصور التي رأيْتُ على الموقع. كان هناك تناقضٌ صارخٌ مع أفراد مناوبتي القديمة الذين كانوا كلّهم تقريباً شباباً، في لياقةٍ بدنيةٍ عاليةٍ، وبرؤوسٍ حَليقةٍ. من النوع الذي تظهر صورهم على صفحات التقويم السنوي. وكانت مناوبتي الجديدة مكوّنةً من سبعة أشخاصٍ، وباستثناء شخصين ربّما، لا أحد كان يوافق تلك الأوصاف، فحتى الأشخاص الذين لم يكونوا في منتصف عمرهم بَدَوا كأنّهم كذلك. كانَتْ كلُّ الوجوه هزيلةً شهباءَ، يصبغُها شحوبُ المناطق الشمالية الرمادي. هناك في تكساس كان الرجالُ أشدّاء، سُمر البشرة. أمّا هنا فيبدون مثل منافض السجائر، وأحدهم، ماك إلرُوي، كان بديناً، أكثرَ بدانةً بكثيرٍ من صورتِهِ على الموقع. بدينٌ حقّاً. بدين لدرجة أنّ بدانته تجعله مهدَّداً بسكتةٍ قلبيةٍ.

لم يَبْدُ لي أيٌّ منهم مبتدئاً.

تابع الكابتن مورفي كلامه. «قد يتمنّى بعضكم لو أنّنا لم نستقدمْ عضوَين جديدَين دفعةً واحدةً، لكنّني هنا لأخبرَكم أنَّ الأمر يستحقُّ ذلك، فهذان الزميلان الجديدان مثيران للإعجاب، وهذه ليستْ كذبةً. الأولى ارتقَتْ عَبْرَ مراتب قسم أوستن للإطفاء بتكساس مثل نجم صاعدٍ، قَبْلَ أنْ تنتقلَ إلى بلدتنا لدوافع عائليةٍ. لكنّنا سنترك الأفضل للنهاية. بداية أودُّكم أنْ تلتقُوا العضوَ الجديد المبتدئ،

إطفائيٌّ من الجيل الرابع بماساشوستس. بعضُكم ربَّما يعرف والده، بيغ روبي كالاغان، من فرقة الاستجابة الثانية عشرة في بوسطن. هذا الفتى تخرَّج للتَّوّ من الأكاديمية، ومهمَّتُنا أنْ نجعل منه رجلاً».

توقَّف الكابتن مورفي لوهلةٍ، وأجال بصره على الحاضرين، ثمَّ عبس قليلاً:

«يا رفاق، أين هو المبتدِئ؟».

تنحنح الرجل الذي تعرَّفْتُ عليه على أنَّه بينيريتو ثمَّ قال: «قد يكون مربوطاً بشريطٍ لاصقٍ على عمود كرة السَّلَّة، يا كابتن».

«بهذه السرعة؟» قال الكابتن وهو يحرِّك رأسه. «سوليفان، دي ستاسيو، اذهبا وحرِّراه، إنَّه يفوِّتُ لحظة تقديمه».

وقف رجلان ومضيا صوب الباب. تعرَّفْتُ على سوليفان من صورته، لكنَّه كان أضخم بكثيرٍ - مترٌ وتسعون على الأقل - ممَّا قد يتوقَّع المرء بناءً على صورته على الموقع. والآخر دي ستاسيو كان أقصر بكثير.

نظر إليهما الكابتن بعض الوقت. «انظروا إلى ذلك»، قال للمجموعة كأنَّه كان درساً حياتياً بليغاً. «الإيرلنديون والإيطاليون يعملون معاً. مَنْ قال إنَّنا لا نستطيع تجاوز خلافاتنا في هذا البلد؟».

مجدَّداً لم أستطع أنْ أحدِّدَ إنْ كان يمزح.

لكنَّني لم أحظَ بوقتٍ كافٍ للاستغراق في التفكير بخصوص ذلك، لأنَّه بعد ثوانٍ انفتح الباب بقوَّةٍ ليندفع منه الاثنان وهُما يُهرولان، لكنَّهما هذه المرَّة يحملان جسداً بشكلٍ جانبيٍّ.

إنَّه المبتدئ.

كان مُبتلّاً تماماً، فلا شكَّ في أنَّهما رشَّاه بخرطوم المياه، وكان

كاحلاه ورُسغاه مربوطين معاً بشريطٍ لاصقٍ، ويداه خلف ظهره. ابتسم سوليفان ودي ستاسيو وهما يضعانه، ووجهه نحو الأسفل، فوق طاولة الطعام.

«هذا ليس صحّيّاً، يا رفاق»، قال أحد الرجال، بينما انْهمكَ الباقون في التصفيق.

سحب دي ستاسيو سكّينَ مطبخٍ وتوجَّهَ نحو المبتدئ.

يجب أنْ أشير إلى أنَّ الإطفائيين حين يعملون فَهُمْ يعملون بجدٍّ، وحين يلعبون فَهُمْ يلعبون بدرجةِ الجدِّ ذاتها. مراكز الإطفاء مَلْأَى برجالٍ مفعمين بالطاقة، وهم مدمنو أدرينالين متوتِّرون، ومسكونون بمآسٍ كبيرةٍ، فالمزاح ببلاهةٍ لا يعدو كونَهُ إحدى مهارات البقاء على قيد الحياة.

الجميع في الغرفة كانُوا يعلمون أنَّ المبتدئ المبتلّ من شعره حتى أخمص قدميه كان لعبة قسم الإطفاء الممتعة الجديدة، لكنَّني حظيْتُ بنصف ثانيةٍ غريبةٍ شيئاً ما حين لمحْتُ وجه دي ستاسيو وهو يتقدَّم نحو المبتدئ بتلك السِّكّين في يده، وأدركْتُ أنَّه لم يكن يضحك. كان الشخص الوحيد الذي لا يضحك. حتَّى أنا - التي لم أكنْ فعلياً متواطئةً مع المقلب - كنْتُ أبتسم قليلاً.

لكنَّ دي ستاسيو ذاك لم تعلُ وجهَه ابتسامةٌ، أو شبهُ ابتسامةٍ.

أحسسْتُ بوَهْجٍ تحذيريٍّ يسري في داخلي حين انحنى باتِّجاه المبتدئ، كأنَّه مصابٌ باضطرابٍ نفسيٍّ وسيمضي ليَبْقرَ أحشاءه كسمكةٍ مسكينةٍ على مرأى منَّا جميعاً.

ولكنْ لم يكن ذلك ما حدث.

عوض ذلك قام دي ستاسيو بقطع الشريط عند حذاء المبتدئ

ليحرِّر ساقيه، ثمَّ قطعه عند معصميه. أدار المبتدئ جسده جانباً ليجلسَ على الطاولة.

بعد ذلك حدث شيءٌ فظيعٌ للغاية، ولدرجةٍ يصعب وصفها، شيءٌ أسوأ بكثيرٍ ممَّا كان دي ستاسيو سيقوم به باستعمال تلك السِّكِّين.

رفع المبتدئ رأسه.

حرَّكه يمنةً ويسرةً، وأعاد فعل ذلك مرَّتين أو ثلاثاً بشعره المُبَلَّل، مثل كلبٍ بعد الاستحمام، ثمَّ نظر إلى بقيَّة الرفاق بابتسامةٍ عريضةٍ بلهاءَ، بينما تسمَّرْتُ في مكاني عند رؤية وجهه.

وجهه الرائع الجذَّاب، الخاطف للأنفاس.

أوه، لا، فكَّرْتُ، لا، لا، لا.

ففي اللحظة التي رأيْتُهُ يضحك، ويتنفَّس بصعوبةٍ، وعضلاته تتقلَّص تحت قميصه المُبَلَّلِ، ورأيْتُ ابتسامته الودودة، الأمريكية بامتياز التي بها شيءٌ من ابتسامة نورمان روكويل[1]، أحسَسْتُ بكلِّ أعراض النوبة القلبية.

انتصبْتُ هناك، وسط غرفةٍ تغصُّ بالمسعفين، في صمتٍ، أُشخِّصُ نفسي: إنَّه احتشاءُ عضلة القلب. كانَتْ مُريحةً شيئاً ما معرفةُ أنَّني كنْتُ أقفُ في غرفةٍ من مسعفي الطوارئ القادرين على إنقاذ حياتي إذا تطلَّب الأمر ذلك.

بعد ذلك، تلاقَتْ نظراتُ المبتدئ ونظراتي، وابتسم لي، وكانَ

---

(1) Norman Rockwell (1894-1978): رسام أمريكي، ولد في نيويورك وتوفِّيَ بماساشوستس، وكان أحد أعظم الفنانين وأكثرهم شعبيةً في الولايات المتحدة - المترجم.

عليَّ الاعتراف لنفسي أنَّ الأمر لم يكن مُتعلِّقاً بأحد شراييني التَّاجيَّة.

كان أسوأ من ذلك.

كان المبتدئ ذاته هو المشكلة.

كان جسمي في ردَّة فعلٍ تجاه المبتدئ، ردَّة فعلٍ عاطفيةٍ.

النوع الغبي من ردود الأفعال.

استجابةٌ جسمانيةٌ شملَتْ جسدي برمَّتِهِ، كأنَّ أحدهم أشعل الألعاب النارية للرابع من يوليو[1] داخل صدري. كان أمراً رهيباً للغاية، مُذِلّاً للغاية. كان أمراً . . . تفعله الفتيات.

مثل ذلك لم يسبقْ أنْ حدث لي من قبل قطُّ، ولا مرَّةً واحدةً.

تجدر الإشارة إلى أنَّه لم يكنْ أحد رجال الإطفاء الوسيمين الذين تظهر صورهم على التقويم السنوي. ما كان ليستطيع إيقافَ حركة المرور، أو شيئاً من ذاك القبيل. كان مجرَّد شخصٍ عاديٍّ. لم يكن هناك أيُّ سببٍ كي تفعلَ بي رؤيتُهُ ما فعلَتْ.

لكنَّها فعلت ذلك.

لم أستطع إبعاد عينيَّ عنه، وكان ذلك لا بأس به؛ إذْ إنَّهُ كان محطَّ الأنظار حينئذٍ. نزل عن الطاولة ووقف بجوار الكابتن، وملابسه تقطر، ثمَّ انحنى بضع مرَّاتٍ لتحيَّتِنا.

تمالكي نفسك، قلتُ في سرِّي. أمسكي باللجام ولا تدعيه يُفلِتُ منْكِ.

كنْتُ قد رأيت آلاف رجال الإطفاء في حياتي: الأقوياء، الوسيمين، مفتولي العضلات، وكانَتْ رؤية رجال الإطفاء المثيرين في الأرجاء شيئاً شائعاً. فبحقِّ السماء، لقدْ أمضيْتُ ثلاث سنواتٍ

(1) عيد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

في العمل جنباً إلى جنبٍ مع هيرنانديز، وقدْ طوَّرْتُ مناعةً قويَّةً، فكان يُفترَضُ ألّا يشكِّلَ المبتدئ استثناءً.

ما التفصيل الذي اخترق دفاعاتي؟ أكان أنفه المستقيم؟ فكُّه مربَّع الشكل؟ الانحناءة الودودة لحاجبَيه؟ شيءٌ ما بخصوص ذلك الوجه كنتُ أراه، فتنشأ أصداؤه داخل مقلتيَّ، وتنتقل إلى دماغي، لتنتشر بعد ذلك في كلِّ ركنٍ قَصِيٍّ من خلايا جسدي.

ربَّما كانَتْ أسنانُهُ، كانت جِدَّ... ماذا أقول؟ جِدَّ... نضيدةٍ.

إلهي الرحيم، ما الذي كان يحدث لي؟

«يا رفاق، هو ذا المبتدئ»، قال الكابتن مورفي، لتصطخب القاعة بعبارات التحيَّة والترحيب. «إنَّه رجلٌ أصيلٌ، محلِّيُّ المنشأ، وينحدر من سلالةٍ من الأبطال الشجعان».

ذلك لا يساعد البتَّةَ.

بدأ الوقت يتباطأُ ويمتدُّ، وأنا أراقب المبتدئ يلاقي الرفاق واحداً واحداً، يتقدَّم نحو الأمام ويمدُّ ذراعَهُ المُبَلَّلة، وعضلات ساعده المفتولة، ليصافح يداً تلو الأخرى، يبتسم في وجه الجميع بأسنانه الناصعة مُحطِّمة القلوب، من دون استثناءٍ، حتى أولئك الذين كانوا قد ربطوه للتَّوِّ بعمود كرة السَّلَّةِ ورشُّوه بخرطوم المياه.

كان جليّاً وغنيّاً عن القول أنَّ الوضع لم يكن جيِّداً البتَّة. وفي واقع الأمر، عبارةُ لم يكن جيّداً لا تقترب من سطح الوضع حتَّى، فالإطفائيون لا يشعرون بألعاب نارية في داخلهم تجاه زملائهم، ليس إذا أرادُوا الحفاظ على وظيفتهم.

لا تفزعي، قلت في سرِّي، الأمرُ جسديٌّ ليس إلَّا. سيتَّضح فيما بعد أنَّه مُغَفَّلٌ، أو رَقِحٌ، أو نرجسيٌّ، أو مُعجَبٌ بمقالب إطلاق الريح، وكلُّ هذه الغرابة ستبدَّدُ، وتنجلي، وستكونين بخيرٍ.

الأحرى أنْ أكون، لأنَّه لا مكانَ للانجذاب داخل مركز إطفاءٍ.

لا مكان للاشتياق. لا مكان لنظرات الغَزَل، أو الإيماءات المعبِّرة، أو لقاءات العشاق السِّرِّيَّة، فمراكز الحريق معابدُ للرجولة البطولية، والأشياء الأنثوية كالمشاعر الوردية الرومانسية، على طرفِ نقيضٍ تامٍّ من ذلك؛ إذْ إنَّه لا يُوجَدُ شيءٌ أكثر أنثويةً من الوَلَه والوَلع، كما شرحْتُ لوالدتي للتَّوِّ وأنا أدير مقلتيَّ نحو الأعلى مرَّاتٍ عديدةً.

في الحقيقة، وسواءٌ حدث ذلك بمحض الصدفة أو تبعاً لتصميمي الداخلي، فقدْ كانَ أحدُ الأسباب التي تجعلني أرى نفسي مؤهَّلةً استثنائيّاً لأكون أنثى عاملةً في مركز إطفاءٍ هو أنَّني كنْتُ مَنيعةً تماماً لكلِّ تلك التَّفاهات.

حتى هذه اللحظة.

لأنَّه في الصباح الأول لليوم الأول من باقي حياتي كإطفائيةٍ، في اللحظة بالذات التي كنتُ في حاجةٍ إلى تلك المناعة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، فقدتُها.

٩

في تلك اللحظة، شرع الكابتن في تقديم «العضو الجديد الثاني»: أنا. وفي تلك اللحظة أيضاً، شرعْتُ أتساءلُ إن كان أحدُهم قد أشار مسبقاً إلى أنَّ العضوَ الجديد الثاني كانَ فتاةً.

لاحقاً، سأفكِّر مليّاً في الضمائر التي استعملَها الكابتن وهو يقوم بتقديمي للمجموعة. هل استعملَ قطُّ كلمة «هي»؟ على الأرجح أنَّه لم يفعل.

لأنَّه حينَ انتهى من وَصْفِ العضو الجديد في الطاقم، بدأ الجميع يجولون ببصرهم حول الغرفة.

وظلُّوا ينظرون.

كأنَّني لم أكنْ هناك.

أقصد، كنْتُ واقفةً هناك، شخصاً غريباً في مطبخهم، في الزِّيِّ الذي استصدره القِسم ولا يمكن لأحدٍ أنْ يخطئَه ويظنَّه شيئاً آخر عدا زيِّ إطفائيِّي محطّة ليليان. مشيْتُ صوب الكابتن إلى أنْ صرْتُ واقفةً بجواره. كنْتُ الشخص الوحيد الباقي، لم يكن من المحتمل أنْ يكون أيَّ شخصٍ آخر غيري، لكنَّ أعينَهُم مرَّتْ عليَّ أكثر من مرَّةٍ، بينما بدأتْ همهماتُهم تتعالى في الغرفة في حيرةٍ.

أكانَ أمرٌ كذلك ممكنَ الحدوث؟ أيمكن لـ ما تتوقّع رؤيته أنْ يُحوِّر إلى هذا الحدِّ ما تبصرُهُ عيناكَ في الواقع؟

في النهاية، قال أحدهم: «ألقُوا نظرةً على عمود كرة السَّلَّة».

أخيراً قرَّر الكابتن، الذي بدا عليه الاستمتاع بالْتِباس أفكارهم، أنْ يوضح الأمور: «يا رفاق...»، قال وهو يشير لهم باتِّجاهي، «قابلُوا العضو الجديد».

خيَّم على الغرفة صمتٌ تامٌّ.

ثمَّ قال أحدهم: «ظننَّا أنَّها طالبةٌ».

«ظننَّا أنَّها الراقصة»، صحَّح آخر.

«آسفٌ لتخييب أملكم»، أجاب الكابتن وهو يلاقي نظراتي، «أيها العضو الجديد، قابِل الطاقم».

ثم بدأتِ التقديمات، وأشار الكابتن إلى أكثرهم وسامةً في الغرفة: «زير النساء هذا هناك بعضلاتِ بطنه السِّتِّ المشدودة يُدعَى درو بينيريتو».

«أنتِ أجمل من أنْ تكوني إطفائية»، قال بينيريتو.

رمقْتُه بنظرةٍ فاحصةٍ. «الأمر ذاتُهُ ينطبق عليك، يا صاح».

تناهَتْ إلى مسامعي ضحكات أفراد الطاقم الخافتة، قبل أنْ يردف الكابتن: «ندعوه العضلات السِّتَّ».

رفع العضلاتُ السِّتُّ قميصَه ليريَنا عضلات بطنه، ورشقه بعض الرفاق ببعض الأشياء: كوب ورقي، كرة مطاطية، مجموعة مفاتيح.

تابع الكابتن كلامه: «تلك الفطيرة الممتلئة بجواره، توم ماك إلروي، ندعوه الحقيبة».

قال أحد الرفاق: «لأنَّ درو لديه عضلاتٌ ستٌّ...».

ليجيب الباقون دفعةً واحدةً: «... وتوم لديه حقيبةٌ!».

ابتسم ماك إلروي وضرب على بطنه السمينة المدوَّرة. «مشدودةٌ كطبلٍ»، قال موجِّهاً كلامه إليَّ.

نظرتُ إليه، «لستُ واثقةً بأنَّه شيءٌ حميدٌ».

تقدَّم الحقيبة خطوةً نحوي وقال: «الكُميها».

أومأتُ إليه رافضةً: «أنتَ لا تريدني فعلاً أنْ أقوم بذلك».

تابع الكابتن جولته، مشيراً الآن إلى سوليفان. «هذا سوليفان، دينامو الفريق. قُمْ من مكانِكَ يا سوليفان».

انتصب سوليفان واقفاً. عدَّلْتُ ظنِّي السابق، فقدْ كان طوله متراً وخمسة وتسعين، أو ربَّما متراً وثمانية وتسعين.

«ماذا تظنِّين أنَّنا ندعو هذا الرجل؟»، سألني الكابتن.

كان ذلك تحدِّياً، ليرَوا إذا كنتُ أستطيع التفكير كإطفائيٍّ.

«لقبُهُ إما قصيرٌ أو ضئيلٌ»، حاولْتُ أنْ أحزرَ.

انفجر الرجال جميعهم ضحكاً وصراخاً. «لقد حزرَتْهُ!».

انحنى ضئيلٌ لتحيَّتي.

قام الكابتن بإيماءة احترامٍ نحوي ثمَّ واصل التقديمات. «غريبُ الأطوار ذاك بمشاكل في الظهر يُدعَى دي ستاسيو. سأعطيكِ ألفَ دولار إذا استطعْتِ جعلَهُ يبتسم، ومهما فعلتِ، لا تركني سيَّارتكِ مكانه. لقد تولّى مسؤولية الطَّبخ في أعقاب رحيل الأخوين باترسون، ويستطيع طبخ ما مجموعه ثلاثُ أكلاتٍ، وكلُّها محروقةٌ».

لم يَقُمْ دي ستاسيو بإلقاء التَّحيَّة، وبنبرةٍ ملؤُها الاستياء، سأل الكابتن: «لمَ عضوُنا الجديد فتاةٌ؟».

أومأ الكابتن ولسان حاله يقول: سؤالٌ وجيهٌ. «ظننْتُ، يا رفاق، أنَّ شيئاً من المفاجأة لا يضير. بالإضافة إلى ذلك، فهي مسعِفةٌ طبيَّةٌ بارعةٌ، كما أنَّنا كُنَّا يائسين».

قال العضلات السِّتُّ: «فيما يخصُّني أنا، فالأمر يوافقني كلّياً. لقد تعبْتُ من النظر إلى وجوهكم، أيها البشعون الساقطون».

اصطخبتِ الغرفة مجدَّداً بالقهقهات والاحتجاج.

رفع الكابتن يديه لتهدئة الأمور. «أعلم يا رفاق رأيكم بخصوص النساء...»، هنا توقَّف، وبدا أنَّه هو ذاته يفكّر في رأيه في النساء بضعَ ثوانٍ، «... لكنَّها هي مَنِ وظّفها الرئيسُ، ويمكنكم أنْ تتصرَّفُوا كرجالٍ أو يمكنكم النحيب كـ...».

أوقف نفسه، ثم ألقى نظرةً عليَّ وتابع: «... جِراءٍ صغيرةٍ».

تدخّل الحقيبة مجدَّداً: «لكنْ أين ستنام؟».

«أين ستتغوَّط؟» سأل ضئيلٌ، قبلَ أنْ يُضيفَ: «لا نملكُ حمَّام سيِّداتٍ حتى».

«أين ستضع منتوجاتها النسائية؟» سأل دي ستاسيو، فانخرطَتِ الغرفة برمَّتِها في عويلٍ قَرَفٍ كأنَّه لم يكنْ على سطح الأرض شيءٌ أكثر إثارةً للقرف من ذلك، وكأنَّ هؤلاء الرجال لم يَرَوا كلَّ الفظائع المقيتة في العالم، وكأنَّهم لم يمشُوا فوق جثثٍ لزجةٍ متكدِّسةٍ فوق بعضها وبقايا بشريَّةٍ متفحّمةٍ، وكأنَّ فوطة صحّية قد تصدمهم.

لكنَّني في الحقيقة كنْتُ أطرح على نفسي الأسئلة ذاتها. في أوستن، كانَتْ محطَّة الإطفاء أقرب إلى الجديدة، في حيّ حديث، مع الكثير من الضوء الطبيعي ومعدَّات الإقامة محايدة الجنس، بل حتى بمساحاتٍ للنوم مرنةِ الاستعمال لمجموعاتٍ من الرجال والنساء بمناوباتٍ مختلفةٍ. لكنَّ عُمْرَ هذه المحطَّة، في المقابل، كان قَرْناً من الزمن على الأقل ولم تكن قد بُنِيَتْ بنظرةٍ تقدُّميةٍ فيما يخصُّ احتياجات الجنسَين.

«يوجد مكانٌ واحدٌ لقضاء الحاجة»، قال ضئيلٌ، «وهو لي طوال الوقت».

«لا مكانَ للآنسات في منطقة التَّغوُّط»، اقتحمَ الحقيبة النَّقاشَ مجدَّداً ليُدلِيَ بدلْوِهِ.

«أين ستنام؟» سأل دي ستاسيو.

كان للكابتن جوابٌ جاهزٌ: «سألْتُ الرئيس السؤال ذاته، وقد قال المسؤولون أنْ نضعَها في خِزانة الإمدادات».

نظرْتُ إليه بعينين ضيِّقتين. أكانَ يمزح؟

«لسْتُ أمزح»، أردف. «حين تزيلين الرفوف، هناك مُتَّسَعٌ لسريرٍ»، ثمَّ غمز لي. «سنطليه بالورديِّ من أجلِكِ يا عزيزتي، كي تحسِّي أنَّكِ في بيتِكِ».

رمقْتُه بنظرةٍ حادّةٍ.

«إلَّا إذا...» قال، وتردَّدَ ثانيةً، ثمَّ تابع: «... كنتِ تريدين أنْ تنامي مع كلِّ أولئك الرجال».

«يمكنكِ أنْ تنامي معي، يا حبيبتي»، قال العضلات السِّتُّ، فانخرط الجميع في الضحك.

في الحقيقة، لم أكنْ متأكِّدةً. لمْ ترُقْني فكرةُ خزانة الإمدادات، بعيداً عن المجموعة، لكنْ إذا ما كان نومي في غرفةٍ كبيرةٍ مع هؤلاء الرجال سيقوِّي أو يقوِّض لُحمتَنا من حيثُ كونُنا زملاءَ، فذلك يعتمد عليهم أساساً.

«ما اختيارُكِ إذاً؟» سأل الكابتن.

رفعْتُ كتفيَّ. «أيُّ غرفةٍ بها إطلاقُ ريحٍ أقلُّ».

انفجرَتِ القاعة ضحكاً.

صرخ أحدهم: «لا تنامي بمقربةٍ من ضئيلٍ إذاً!».

سأل الحقيبة في تردُّدٍ: «إذا نامَتْ في خزانة الإمدادات... فأين سنحتفظ بالإمدادات؟».

«أتقصد حزمة الإمدادات تلك التي نحتفظ بها على الرَّفِّ السُّفليِّ؟» سأل الكابتن.

«حزمة الإمدادات التي تمَّ تناقلها من طاقمٍ إلى طاقمٍ لعقودٍ طويلةٍ؟»، أضاف العضلات السِّتُّ.

«أتحدَّث عن تلك الإمدادات التي...» - نظر إليَّ الحقيبة الآن، وهو يحاول جعل المعنى واضحاً بالنسبة إلى الآخرين لكنْ ليس لي أنا - «... يُمضي معها بعض الرجال في المحطة وقتاً حين يشعرون بـ...»، أحجم عن الكلام ونظر إليَّ مجدَّداً. بدا أنَّ الكلمات تخونه في التعبير.

«القلق؟» اقترح ضئيلٌ.

حاول الكابتن بعدها أنْ يُزيل اللُّبس والسِّتار عن كلِّ ذلك. «سنجد مكاناً جديداً للمُؤنِ جميعها، فلا تقلق، مجلَّاتكَ الإباحية في مأمنٍ».

انفجر العضلات السِّتُّ ضاحكاً. «لأنَّ ذلك هو التدريب الجسديُّ الوحيد الذي يقوم به الحقيبة».

حطَّتْ يدان من رفيقَين على كتفَي الحقيبة لتربتا عليهما.

«حسنٌ، أيُّها المبتدئان»، قال الكابتن، بعد أنِ الْتفتَ إليَّ أنا والمبتدئ.

رفعْتُ يدي. «أنا لسْتُ مبتدئةً».

«تمَّ تسجيل ذلك»، رَدَّ الكابتن، ثمَّ تابع: «حسنٌ أيها المبتدئ وأيها العضو الجديد. دعاني أحدثْكما قليلاً عن **المحطَّة الثانية**. نلهو كثيراً هنا، لكنَّنا نعمل أكثر وبجدٍّ أكبر. قد أعبثُ وأُلقي النكات أكثر

من أيِّ شخصٍ آخر في المكان، لكنْ حينَ أُعطي أمراً، فلا يتسنَّى لكما التفكير فيه، أو مساءلتُهُ، بل تتَّبعانه. فهناكَ حيواتٌ تعتمد على التسلسل القياديِّ، والعصيان أمرٌ لن أسمح به».

أومأْتُ أنا والمبتدئ في حركةٍ متناغمةٍ.

«أتوقَّع من كلِّ فردٍ في الطاقم أنْ يحمل شِقَّهُ من الأعباء. لا مكانَ للتَّذمُّر هنا. تقوم بعملِكَ، وتكون ممتنّاً للفرصة، وتبقى في لياقةٍ عاليةٍ. أمَّا كيفيَّةُ قيامِكَ بذلك فهو شأنكَ الخاصُّ، ولكنَّنا نتسابق مرَّتين في السنة في المضمار خلف المحطَّة في تنافسٍ بين أفراد الطاقم، حتَّى الحقيبة»، قال وهو يُلقي نظرةً على الرجل الثَّخين.

«سنقوم بمضايقتِكُما وإيقاعِكُما في مقالب، فلا تقلقا بخصوص ذلك، بل اقلقا إذا لم نَقُمْ بمقالب عليكما. وسوى ذلك مهما بدوْنا لئيمين أو قُساةً، فاعلما أنَّنا سعداء لكونكما هنا معنا». نظر إليَّ: «حتى الآنسة».

كانَتِ الكابتن هاريس محقَّةً. لا يستعمل أيَّ مصفاةٍ لتخفيف فظاظتِهِ.

بعد ذلك، وجَّهَ الكابتن نظرَهُ نحو الطاقم.

«أعلَمُ أنَّكُمْ جميعاً على الأرجح تفكِّرون...»، توقَّفَ لحظةً، «... تفكِّرون في أنَّ وجود فتاةٍ معنا سيقضي على كلِّ المرح. لنْ نكون قادرين على اللعب بالطريقة التي نحبِّذ. أو الاسترخاء بالطريقة التي نحبِّذُ، أو المزاح بالطريقة التي نحبِّذُ. تفكِّرون في أنَّه لنْ يكون لديها حِسٌّ فُكاهيٌّ، وستتضايقُ من كلِّ شيءٍ، ولن تسمحَ لنا بالسُّباب، وستكون ضعيفةً، وسيِّئةً للغاية، وستشعرون أنَّ أمَّكم معكم هنا على الدوام، تتذمَّرُ، وتطالبكم بجمع ملابسكم الداخلية

المُلقاة على الأرض. أنا أتفهَّم كلَّ ذلك، فخلال مدَّةٍ مئةٍ وعشرين سنةً، لم تكنْ هذه المحطَّة في حاجةٍ إلى امرأةٍ في أيِّ شيءٍ... أيِّ شيءٍ له علاقةٌ بالعمل على أيَّة حالٍ، لكنَّ الأمور تتغيَّر، يا شبَّانُ».

رأيْتُ إبهامَهُ ينتصب وهو يحرِّكُ يده باتِّجاهي. «مِنَ المفترض أنْ تكونَ جيِّدةً جدّاً، بالنسبة إلى فتاةٍ. رئيسها قال لي إنَّها كانَتْ نجماً صاعداً هناك عندهم في تكساس، وليس فقط لأنَّ دعم المرأة وتعزيزها يبدو جيِّداً على الورق».

«أحقّاً قال كابتن محطَّتِها إنَّها جيِّدةٌ بالفعل؟» سأل دي ستاسيو، كأنَّ الأمر كان مستحيلاً.

رفع الكابتن مورفي كتفيه كأنَّه كان محتاراً إلى الحدِّ الذي كان سيكون عليه أيُّ شخصٍ آخر. «هذا ما قالَتْهُ».

«قالَتْ؟»، رفع ضئيلٌ صوتَهُ في استغرابٍ.

«كابتن محطَّتِها امرأةٌ أيضاً؟» سأل الحقيبة، ولسان حاله يقول: **وماذا بعد؟**

غاصَتِ الغرفة في حيرةٍ وتساؤلٍ. أكانَتِ الكابتن الأنثى مؤهَّلةً حتى لتقييم إطفائيةٍ أنثى؟ أكان ممكناً أنَّها كذبَتْ بخصوصي بغرض مساعدتي على الحصول على هذه الوظيفة؟ أيمكن أنْ نعدَّ تقييمها أيَّ شيءٍ آخرَ عدا كونه إجراءً إيجابياً لدعم قضية المرأة؟

كانَتْ كلُّها أسئلةً بلا أجوبةٍ.

لكنْ كان لديَّ لهم جوابٌ.

حين نظرْتُ إلى الأمر لاحقاً، بدا لي أنَّها ربَّما لم تكن الفكرة الأنسب، فقدْ كانَتْ خطَّتي تتمثَّل في التَّواري عن الأنظار، في البداية، بعيداً عن رقعة الضوء، حتَّى يتَّضحَ لي أين أقفُ، وحتَّى

يتسنَّى لي أنْ أُقدِّم نفسي بطريقةٍ استراتيجيةٍ. ربَّما إذا ما خَمد الغضبُ بخصوص لا ذكوريَّتي وتلاشى في فترةٍ معقولةٍ من الوقت، كنتُ حينها سأغضُّ الطَّرف.

لكنَّ ذلك لم يحدثْ.

إذا كان أيُّ تغييرٍ قد حدث، فهو أنَّ الغضبَ بدأ يُغذِّي نفسه، مثل حريقٍ داخليٍّ في مبنًى، ولم يكن لي من الصبر ما يكفي لأنتظرَ حتَّى يلتهم نفسه ويخمد.

وقفْتُ هناك وأنا أشاهدهم يقلِّلون من شأني عمداً لما يكفي من الوقت.

أخيراً، صرخْتُ بقوَّةٍ كافيةٍ لإيقاف كلِّ الكلام في الغرفة. «كمْ من تمارين العقلة تظنُّون أنَّني أستطيع القيام بها؟».

أدار لجميع وجوههم للتحديق بي.

«ثلاثةٌ»، قال ضئيلٌ، بعد بعض الوقت.

«اثنان»، قال الكابتن مورفي.

«النساء لا يستطعْنَ القيام بتمارين العقلة»، قال الحقيبة.

«أراهن بخمسين دولاراً...»، قلْتُ حينها، «... أنَّني أستطيع القيام بسبعةٍ على الأقل».

بدأَتْ محافظُ النقود تَحُطُّ وتُفتَح على الطاولة.

لا بدَّ أنْ أشير هنا إلى أنَّ الشخص الوحيد الذي لم يراهن ضدِّي كان المبتدئ.

قادوني نحو «المضمار» خلف المحطَّة، والذي اتَّضح أنَّه مضمارٌ بمقاساتٍ وموانعَ لتدريباتٍ عسكريةٍ: أعمدةٌ، عقباتٌ، قضبانٌ أفقية، حبالٌ، بالإضافة إلى حائطٍ للتسلُّق بطول ثلاثة أمتارٍ.

توقَّفنا أسفل عارضة تمارين العقلة، واجتمع الرفاق حولها.

وجدْتُ نفسي أمام عائقٍ لم أتوقَّعْهُ: كانَتِ العارضة مرتفعةً، فقدْ تمَّ تصميمها من أجل رجالٍ بطول متر وثمانين، وأنا واقفةٌ تحتها بطول متر وخمسة وستين. كان واضحاً أنَّني لا أستطيع الوصول إليها.

ومع وقوفي هناك في انتظار أنْ تنتهيَ الضحكات المكتومة، والعروض لمساعدتي على بلوغ العارضة، أحسسْتُ بالشَّكِّ يتسلَّلُ إلى دواخلي، وأنَّ هذه الفكرة قد تكون لها نتائجُ عكسيةٌ ترتدُّ عليَّ. فهل قمْتُ للتَّوِّ بدعوتهم جميعاً إلى هذا المكان لرؤيتي أقفز مثل القزم نحو عارضةٍ لنْ أتمكَّن قَطُّ من بلوغها؟ هل حظيْتُ للتَّوِّ بانتباه الجميع لا لشيءٍ إلا لأهينَ نفسي أمامهم؟

حدَّقْتُ عالياً نحو العارضة.

انتظرتُ طويلاً لدرجة أنَّ بعض الرفاق رجعُوا عائدين نحو المحطَّة.

«انتظرُوا!»، صرخْتُ.

أحطتُ أحد العمودين اللذين يحملان العارضة بذراعي وبدأْتُ أتسلَّق. في الأعلى، أمسكْتُ بالعارضة وتأرجحْتُ. بعض الخدوش والشظايا، ولكنَّ الأمر كان يستحقُّ ذلك.

تناهَتْ إلى مسامعي همهماتُ تقديرٍ، لأنَّني حللْتُ المشكلة.

تحكَّمْتُ في العارضة بقبضتيَّ، تعلّقتُ هناك لوهلةٍ، ثمَّ بعد ذلك، وعمداً، حين حظيْتُ بالانتباه التامِّ من الجميع، أزلْتُ يداً عن العارضة، أنزلْتُها، ثمَّ ثبَّتُّها على وركي.

خيَّم على المكان صمتٌ تامٌّ.

ثمَّ بدأْتُ. ومع رفعي لجسدي بِيَدٍ واحدةٍ، شبكْتُ كاحليَّ، وتكتَّلْتُ منكمشةً على نفسي. ومع كلِّ رفعةٍ، أطلقْتُ زفيراً حادّاً

«ششششش»، ثمَّ شهقْتُ مع كلِّ نزولٍ. كنْتُ أستطيع القيام بسبعةٍ في الأحوال العادية، لكنَّني علمْتُ أنَّ الأدرينالين يومَها سيمنحني دفعةً صغيرةً.

ثمانية من تمارين العقلة، بِيَدٍ واحدةٍ.

ثمَّ بعد ذلكَ أضفْتُ أخرى لاستجلاب الحظِّ.

في النهاية، تركْتُ العارضةَ لأسقُطَ مكوَّرة الجسد، ثمَّ وقفْتُ ومشيْتُ قليلاً كي يزول أثرُ الرَّفعات الحارق في عضلات كتفي، وحين التفتُّ كانوا جميعاً واقفين من دون حراك.

كانُوا يحدِّقون بي، مشدوهين، وقدْ فغرُوا أفواههم.

ثمَّ انخرطُوا في موجةِ تصفيقٍ.

وبدؤُوا يسلِّمُونَني الأموال.

ممّا جعلَني أشعر أنَّها طريقةٌ جيِّدةٌ للغاية كي أبدأ النهار.



10

خلال تلك الليلة، على فراشي في خزانة الإمدادات، استغرقْتُ وقتاً طويلاً كي أغطَّ في النوم، فالمكان جديدٌ، والأصوات جديدةٌ، والسرير كثير الكتل، كما لم يكن النوم أفضل مهاراتي في المقام الأول، ثمَّ إنَّه كانَتْ هناكَ حشرةٌ غريبةٌ في السقف وكان يجب أنْ أُبقي عينيَّ عليها.

في النهاية غَفَوْتُ، لأستيقظَ بعدها بثوانٍ على ضجيج تدافُع الإطفائيين في صياحٍ وصراخٍ واهتياجٍ، وهم يقتحمون باب خزانة الإمدادات.

كان يجب أنْ أتوقَّعَ قدومَهم، وفي الحقيقة لقدْ توقَّعْتُ قدومَهم، لكنَّهم أفزعوني على أيَّة حالٍ.

كانَتْ ردَّة فعلي أنَّني صرخْتُ مذعورةً، لأجثم بعدها في وضعيَّة جوجيتسو[1] فوق السرير. كان أوَّل وجهٍ رأيْتُه هو وجه الحقيبة، والذي كان يتدحرج نحوي ببطءٍ في ابتهاجٍ شديدٍ، ولكنَّه حين رآني أنقلبُ لآخذَ وضعيَّة الدفاع عن النفس تجمَّد في مكانه ورفع يديه عالياً.

---

(1) **Jujitsu**: فن عسكري ياباني تقليدي يُعدّ من أساليب الدفاع عن النفس - المترجم.

في الحقيقة، جميعهم تجمَّدُوا في أماكنِهم.

لا بدَّ أنَّني نسيْتُ أنْ أشيرَ إلى أنَّه كانَتْ لديَّ وظيفةٌ ثانيةٌ هي: مدرِّبةُ أساليب الدفاع عن النفس.

وخلال سكونِ اللحظة، بينما رمقَ بعضُنا بعضاً بنظراتٍ صامتةٍ، فهمْتُ لِمَ كانوا هناك. فبالطبع كانَتْ تلك إحدى طقوس المضايقة للترحيب بي في الطاقم.

نظرْتُ إلى وجوههم المصدومة. يبدو أنَّهم كانوا يتوقَّعون أنْ يكون الأمر أسهل من ذلك.

سألْتُهُم بعدَ أنْ أنزلْتُ ذراعيَّ: «أأنتم هنا يا رفاق لمضايقتي؟».

هزَّ ضئيلٌ كتفيه. «يُفترَضُ بنا أنْ نأخذكِ لنربطَكِ بعمود كرة السَّلَّة».

أومأْتُ، وأرخيْتُ عضلات جسمي، متخلِّصةً من وضعيَّتي الدفاعية. «حسنٌ إذاً».

ومع ذلك لم يتقدَّم ضئيلٌ نحوي، فأشرْتُ له بالاقتراب.

«فلننتَهِ من الأمر»، قلتُ.

هزَّ كتفيه مجدَّداً، ثمَّ خطا باتِّجاهي، فارتميْتُ فوق كتفِهِ حتَّى يتسنَّى له حَمْلِي خارج الباب، نحو موقف السيارات.

خلال الطريق، أدركْتُ أنَّهم أخذُوا المبتدئ، هو الآخر.

بعدها، وجدْنا نفسينا ملتصقَين، ظَهراً لظهرٍ، على جهتَي عمود كرة السَّلَّة، ملفوفَين بشريطٍ لاصقٍ لإبقائِنا هناك. كان الوقتُ أواخرَ الصَّيف، وقد بدأ الجوُّ يصير بارداً شيئاً ما. كنْتُ أنامُ في قميصٍ وسروالٍ رجاليٍّ قصيرٍ، وكنْتُ ممتنَّةً لأنَّني كنْتُ أنام دوماً في حمَّالة صدري الرياضية خلال مناوباتي.

كنتُ قد لمحتُ المبتدئ خلال طريقنا، وكنْتُ متأكّدةً من أنَّه لم يكنْ يرتدي الكثير.

إلهي، أرجوك، قلتُ في سرّي مذعورةً، لا تجعلْه عارياً.

وقفْنا هناك في رضوخٍ بينما كان أفراد الطاقم يلفّونَنا بالشريط اللاصق من الكتفين حتى الخصر، نتقبَّل مصيرَنا بكلِّ ما أوتينا من كرامةٍ، في انتظار أنْ يعود الرجال أدراجهم نحو الداخل.

كانوا يعرفون جيّداً كيف يلفّون شريطاً لاصقاً، أقرُّ لهم بذلك.

بعد أنْ ذهبُوا، بقيْنا صامتَين بعضَ الوقت. كنْتُ أستطيع سماع تنفُّس المبتدئ. وفي لحظةٍ ما سعل، وارتطم مِرفقُه بمرفقي.

بعد وهلةٍ قال: «صرْتُ أُمضي الكثير من الوقت مع هذا العمود».

«على الأقلِّ لم يفتحُوا خرطوم المياه علينا».

«هذا من حُسن حظّنا».

«كنْتَ تعلم أنَّهما سيضايقاننا لا محالة».

«طبعاً»، أجاب المبتدئ، «بالتأكيد كنْتُ أعلم».

«ذلك جزءٌ من المتعة»، قلتُ وقد بدأتُ أرتجف.

«هو كذلك».

«يا مبتدئ...» شرعْتُ في الكلام، لكنَّني لم أتجاوزْ تلك الكلمة.

«يمكنكِ أنْ تناديني باسمي، إذا شئتِ».

لم يكنْ على لائحة أفراد الطاقم التي درستُها، فلم أذكر اسمه.

«أظنُّ أنَّني سألتزم بـ'المبتدئ'».

«حسنٌ».

سألْتُهُ: «كمْ تظنُّ درجةَ حرارة الجوِّ الآن؟».

«خمس عشرة درجة»، حاولَ أنْ يحزرَ، «ثماني عشرة، ربَّما».
«يبدو أنَّنا على الجهة الباردة من المقياس».
«أكيد».
«ما وضعيَّة لباسك؟».
«لا شيء باستثناء. . . » تردَّد، قبل أنْ يضيف: «امممم. . .، سروالٍ داخليٍّ قصيرٍ».
ليس عارياً إذاً. شعورٌ بالارتياح.
لكنَّه يكادُ يكون كذلك.
حاولْتُ ألَّا أتخيَّله في سروالٍ داخليٍّ قصيرٍ، لكنَّ ذهني بدا مُصرّاً على استحضار تلك الصورة. لم يكنْ إطفائياً حقيقياً بعد، لكنَّه بالتأكيد بدا واحداً. فصورةٌ له بشعره الذهبي بلون الرمال يسقط ليغطِّيَ جبهتَهُ، طويلٌ في المقدمة، وقصيرٌ خلف رأسه، ارتسمَتْ من تلقاء نفسها بذهني للتَّوِّ، برغم كلِّ احتجاجاتي. بطريقةٍ ما، وبرغم كونِه مبتدئاً، فقد انسجم أفضل ممَّا فعلتُ، وكلُّ شيءٍ بخصوص هيئته الطويلة، والعريضة، والصادقة، كان يصرخ: «شخصٌ يقدِّم يدَ العون». كان يجسّد دوره. فقد نشأ في هذه الثقافة. كان جِدَّ. . . ذكوريٍّ، وحتى لكنتُه البوسطنية - **يُسقط حرف الراء، ليُحال هاءً تكاد تكون صامتةً** - جعلته مناسباً لدور رجل الإطفاء تماماً.
ليس أمراً طيِّباً، فقدْ كان دماغي الآن يحاول رسمه عاريَ الجذع. «بلا قميصٍ حتى؟» سألْتُ، على أمل أنْ أكون مخطئةً.
«لا»، أجاب، جِدَّ مبتهجٍ بالنسبة إلى شخصٍ لا بدَّ أنَّ جسدَه تُغطِّيه القشعريرة. «لكنَّني أنام في البيت عادةً عارياً تماماً، لذا فالسروال الداخليُّ القصير يمنحني بعض الدفء».
رائع. الآن تتجلَّى في ذهني صورته نائماً في سريره في البيت

عارياً وملفوفاً بالملاءات، فأغمضْتُ عينيَّ واعتصرتهما لأدفع كلَّ تلك المشاهد خارجاً.

كيف ستكون تلك الملاءات على أيّة حالٍ؟ وجدْتُ نفسي أتساءل: بيضاءَ؟ رماديةً فاتحةً؟ أو ربَّما زرقاءَ مائلةً إلى الرمادي؟

حينها أوقفني صوتٌ صاخبٌ لانفتاح نافذةٍ في الأعلى، وقام الرفاق بعدها بإلقاء بطَّانيَّةٍ إلى الأسفل نحونا، لكنَّها حطَّتْ على بُعْدِ قدمين منَّا.

وقفْنا - كلانا - نحدِّق في البطانية.

«ما احتمال...» سأل المبتدئ، «أنْ ينزل الرفاق ليُدنوها منَّا قليلاً؟».

أجبْتُ بحزمٍ: «معدومٌ».

قريبةٌ للغاية كانَتْ، لكنَّها بعيدةٌ جدّاً.

«أظنُّ أنَّه يجب أنْ نُدبِّرَ كيفيَّةَ جَعْلِ أنفسِنا في وضع الجلوس»، قلْتُ بعدَ مُدَّةٍ.

أحسسْتُ بكتفه تهتزُّ قليلاً. «حسنٌ»، قال، ثمَّ أحسسْتُ به يثني ركبتَيه.

ثنيْتُ ركبتيَّ أيضاً، فانضغط كتفانا واحتكَّا ببعضهما بينما كنَّا نحاول تدبُّرَ أمرِنا للنزول إلى أسفل العمود، واستطعْنا أخيراً بلوغَ الأرضية الإسمنتية الباردة والجلوس عليها، عند قاعدة العمود.

«أتشعر بالبرد؟» سألْتُه حين جلسْنا، فقدْ كان أحدُنا يرتجف، لكنَّني لم أكنْ أعلم أيَّنا.

«بمؤخِّرتي فقط»، أجاب.

«أظنُّ أنَّني أستطيع الوصول إلى البطَّانيَّة»، قلتُ وأنا أمدِّد رِجلي جانبياً.

تمكَّنْتُ من إمساكها بأصابع رجلي.

«أنتِ مذهلةٌ»، قال المبتدئ حينَ جذبْتُها أقربَ نحونا.

ماذا كنَّا سنفعل بتلك البطانية؟ لم أكن أعلم، لأنَّ ذراعينا كانتا مربوطتين بالشريط اللاصق على جانبينا. دفعْتُها نحو المبتدئ حتَّى صار قادراً على إمساك أحد جوانبها بأصابعه.

«ألا تريدينها؟».

«خذْها أنتَ».

«لكنَّكِ أنتِ الفتاة».

«لكنَّكَ أنتَ العاري إلا من لباسٍ داخليٍّ قصيرٍ».

بدا أنَّهُ يحتجُّ شيئاً ما. «أنا جادٌّ».

«أنا جادَّةٌ»، قلتُ، «أنتَ أكثرُ عرياً منِّي بكثيرٍ».

خلال الصمت الذي تلا ذلك، فكَّرْتُ إنْ كان بإمكاني أنْ أصوغ ذلك بطريقةٍ أفضل. **أكثرُ عرياً منِّي بكثيرٍ**.

ثمَّ بَدَرَ من المبتدئ سؤالٌ غريبٌ: «أترتدين قميصاً؟»، سألني.

«ماذا؟».

«أترتدين قميصاً؟».

«أيُّ نوعٍ من الأسئلة هذا؟».

«لأنَّني لا أرتدي شيئاً، وقد وضعُوا الشريط اللاصق على جلدي مباشرةً».

«سيكون الألم جحيميّاً لعيناً حين تنزعه عنكَ».

«لكنَّني أظنُّ أنَّكِ على الأرجح ترتدين قميصاً من نوعٍ ما، وربَّما الشريط فوق قميصِكِ فقط، ما يعني أنَّ لديكِ ربَّما فرصةً أكبر للتَّلوِّي».

للتَّلوِّي؟ «لا مجال للفرار، فإذا كان هناك شيءٌ يجيده هؤلاء الرجال فهو استعمال الشريط اللاصق».

«لكنَّ بإمكانكِ تدبير أمركِ للالتفاف حول العمود للاقتراب منِّي».

ارتفع نبضي فجأةً. «ولِمَ قد أرغب في فعل ذلك؟».

«من أجل بعض الدفْءِ».

«أأنتَ جادٌّ باقتراح المعانقة؟».

كدْتُ أرى عبوسه. «لم أكنْ لأدعوَهُ بذلك».

«في ليلتِنا الأولى هنا؟ أتدركُ أنَّنا لن نستطيع مَحْوَ ذلك من أذهانهم؟ أتملكُ أدنى فكرةٍ عن الجحيم الذي سيذيقُنا إيَّاه أولئك الرجال لو جاؤُوا صباحاً ليجدونا متعانقَين؟».

لم يخطرْ له ذلك. «كنتُ فقط أفكِّر في طريقةٍ للحفاظ على الدِّفْء».

«أفضِّل الموت مُتجمِّدةً»، قلْتُ، ثمَّ أضفْتُ: «وصدِّقْني، أنتَ أيضاً».

وحين دام صمتي بعض الوقت قال: «إذاً، جوابُكِ هو لا؟».

«دعْني أصفْ لكَ الأمر بهذه الطريقة يا مبتدئ: أيُوجَد أيُّ شخصٍ آخر بهذه المناوبة قد تعرض عليه هذا الأمر؟».

«امم...».

«أكنْتُ سترغبُ بمعانقةِ ضئيلٍ؟ أو الكابتن؟ أو بطن الحقيبة الكبير؟».

الآن كان يبتسم، فقدْ كنتُ أستطيع سماع ذلك في صوته. «قد تكونين الشخص الوحيد الذي سأستمتع بالقيام بذلك معه...».

«تماماً، ها هو ذا جوابك، هناك بالضبط».

«ما هو؟».

«إذا كنتَ لا تستطيع فعل ذلك مع دي ستاسيو، فأنتَ لا تستطيع فعل ذلك معي».

«معكِ حقٌّ، نصيحةٌ جيِّدةٌ».

«اعتبرني شخصاً مُسنّاً مُقرفاً».

«سأفعل ما بوسعي».

أغمضت عينيَّ وأرجعْتُ رأسي للخلف مستندةً إلى العمود المعدنيِّ، فتناهى إلى مسامعي نباح كلبٍ، وصوت بوق سيَّارةٍ قادمٌ من بعيدٍ. ظللْنا صامتَين بعضَ الوقت، نترقَّبُ ونفعل الشيء الذي أكرهه على وجه التَّحديد: البقاء من دون حراكٍ، فالبقاء وحيدةً مع أفكاري كان أقلَّ مكانٍ أحبُّ أنْ أكون فيه، فحين كان عليَّ أنْ أبقى وحيدةً، كان لديَّ دوماً مِذياعٌ لأشغِّله، أو كتابٌ لأقرأه، أو شيءٌ آخر يستأثر بانتباهي. وفي هذا المكان لم تكن هناك فرصةٌ للترفيه، فلم أستطعْ أنْ أنام حتَّى. كان عليَّ أنْ أسمح لِوَعْيي بأنْ يُحيط بي مثل ضبابٍ كثيفٍ.

«أأستطيع أنْ أشاركَكِ شيئاً آخر؟»، سأل المبتدئ بعد مدَّةٍ من الصمت.

«فقط إذا كان يَتوجَّب عليكَ ذلك».

«أريد أنْ أتبوَّل».

حرَّكْتُ رأسي. «ستكون ليلةً طويلةً، يا مبتدئ».

«ستكون بالطبع كذلك».

قدِمَ أفراد الطاقم لتحريرنا عند الساعة السادسة والنصف، ببطَّانياتٍ وقهوةٍ ساخنةٍ، في الوقت الذي بدأ فيه الطاقم التالي

بالوصول لبدْءِ مناوبتهم. فتحتُ عينيَّ على مجموعةٍ من الإطفائيين المبتهجين المتجمهرين حولنا، والكابتن يخبرنا أنَّنا مررْنا من الأمر بسهولةٍ. «في أيامنا»، قال للمجموعة، «كانُوا يجرِّدونَكَ من ملابسك تماماً، ويدهنونَكَ بزيت كريسكو، ثمَّ يُلصقونك بشريطٍ لاصقٍ على لوحة الواجهة أمام المحطَّة ليحدِّقَ بكَ كلُّ الجيران».

«هل فعلُوا بكَ ذلك حقّاً، يا كابتن؟» سأل الحقيبة.

«عارياً تماماً»، أكّد الكابتن بفخرٍ، «باستثناء أنَّهم قامُوا بوضع ما يشبه الجبيرة على عضوي الذكريِّ باستعمال ضماداتٍ معقَّمةٍ وخافِضات لسانٍ[1]».

قال العضلات السِّتُّ: «حسنٌ، هذا مشهدٌ بصريٌّ لا يمكن للمرء أنْ يمحوَهُ من ذهنه».

«العَفْوُ»، ردَّ الكابتن، ولم أستطعْ مجدَّداً أنْ أحدِّدَ إنْ كان يمزح.

في اللحظة التي أطلقُوا فيها سراحنا، طار المبتدئ باتِّجاه شجيراتٍ قريبةٍ ليتبوَّل، فلمحْتُ ظهرَهُ في لمحةٍ عرَضيةٍ خاطفةٍ قبلَ أنْ أشيحَ ببصري بعيداً. لكن كان الأوان قد فات، وستبقى تلك الصورة مطبوعةً في قَرنيَّتيَّ وقد فقد رمشْتُ مرَّةً تِلْوَ الأخرى وأنا في طريقي إلى البيت كي أطردها من ذاكرتي.

أحسسْتُ أنَّ المناوبة الأولى كانَتْ مُلتبسةً للغاية، ولم يكن ذلك بسبب مضايقة الرفاق لنا، أو النوم في خزانة الإمدادات، أو حتى الصورة الذهنية للكابتن في جبيرةٍ من خافضات اللسان.

---

(1) **Tongue depressor**: لوح خشبي يستعمله الطبيب أو الممرض لخفض لسان المريض - المترجم.

كان الأمر يتعلّق بالمبتدئ.

كنتُ قد أمضيْتُ ليلةً برفقة ذاك الرجل، ولم يبدر منه شيءٌ واحدٌ مُزعجٌ. لم يُطلقْ ريحاً، أو يتنخَّم، أو يشخر حتى.

أسوأ ما قام به كان محاولة التفكير في طريقةٍ تجعلُني أشعر بالدفء رغم الجوّ الليليّ البارد. كنتُ قد توقَّعْتُ أنْ يكون طيِّبَ المَعشر، ثمَّ في الليلة الماضية، اتضح لي أنه ودودٌ، والآن، أولَ الصباح، كنتُ متأكّدةً بأنَّ لديه ظهراً جميلاً.

إنَّها كارثةٌ.

أحتاج إلى عيوبٍ بخصوص هذا الرجل، في الحال.

وإلّا، جدّيّاً، فأنا في ورطةٍ كبيرةٍ.

11

حين رجعتُ إلى بيت ديانا بعد المناوبة، كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، وكنتُ مُنهكةً بطرقٍ عديدةٍ.

كانَت ديانا تحتسي القهوة في المطبخ رفقة إحدى صديقاتها، آنسةٌ سمراءُ البشرة، لطيفة المظهر، بشعرٍ منفوشٍ، تكبرني بعشر سنواتٍ ربَّما.

كانَتْ كأساهما ممتلئتين، والبخار يتصاعد منهما، وقد أحاطَتْ كلٌّ منهما بكأسها بين راحتيها، تستمتع بالدفءِ. رفعَتا نظرهما إليَّ، وابتسمَتا حين خطوْتُ داخل المطبخ.

كانت ديانا قد غيَّرَتْ رقعة عينها إلى قماشٍ قطنيٍّ بالأزرق والأبيض.

قالت ديانا: «هذه صديقتي جوسي، تملك متجر الحياكة المجاور، وتقوم بمراجعة الأفلام على مدوَّنتها».

ساورني شعورٌ غريبٌ بأنَّهما كانتا تخوضان في محادثةٍ كنتُ أنا موضوعَها.

قد يبدو غريباً أنْ أقول إنَّني تفاجأتُ بأنْ تكون لديانا صديقةٌ، فقدْ كنتُ قد شكَّلْتُ فكرةً بخصوصها داخل رأسي كسيدةٍ عجوزٍ،

منعزلةٍ في بيتها، تصنع الأواني الخزفية طوال النهار وهي تضع رقعة العين تلك. ومَرَدُّ تلك الفكرة كان الآتي: إذا كنتُ غاضبةً منها لعشر سنواتٍ، فلا بدَّ أنَّ العالم كان غاضباً منها هو الآخر.

رفعتُ يدي وقلتُ: «مرحباً».

لكنَّ جوسي كانتْ قد وضعَتْ كوبها على الطاولة، ودفعَتِ الكرسيَّ خلفها، واندفعت في هرولةٍ، بل تكاد تكون قفزةً، باتِّجاهي، وفردَتْ ذراعيها خارجاً وعالياً، ثمَّ بدا لي أنَّ كامل وجهها استحال ابتسامةً كبيرةً: «يا إلهي! إنَّها أنتِ!».

وأنا أنظر إليها مليّاً لبعض الوقت، فكَّرْتُ إنْ كانَتْ حاملاً. مجرَّد حدسٍ، فقد كان لديَّ ما يشبه الموهبة في تحديد الحوامل، ولكنْ لو كانَتْ كذلك فهي ما زالت في مراحل الحملِ الأولى.

لم أسألها.

ثمَّ شرعَتْ تحضنني بقوَّةٍ، ومن دون تردُّدٍ، بالطريقة ذاتها التي قد تحضن بها صديقاً عزيزاً، برغم أنَّنا لم نلتقِ من قبلُ قطُّ.

لم يكن العناق شيئاً يروقني، لكنَّني انتصبْتُ هناك من دون حراكٍ وتحمَّلْتُ الأمر، على أيَّةِ حالٍ.

حرَّرَتْني لكنَّ البسمة لم تفارق مُحيَّاها. «آسفةٌ، العناق هوايتي».

«أنتِ بارعةٌ في ذلك»، علَّقْتُ، «أستطيع أنْ أرى لِمَ تتَّخذينه هوايةً».

ثمَّ عانقَتْني مجدَّداً.

لم أعترض، ولا حتى ذهنيّاً. مَنْ كان يستطيع مقاومة كلِّ ذلك الحماس وكلِّ ذلك الدفء؟ ثمَّ إنِّي أحببْتُ مظهرها، فقدْ كانَتْ ترتدي وشاحاً منقَّطاً وقميصاً بياقة مدوّرة، وكانَتْ أساورُ كبيرةٌ تحيط بمعصمَيها أيضاً.

كانَتْ، في كلمةٍ واحدةٍ، بديعةً.

«أحببْتُ قميصكِ»، قلْتُ.

كبُرَتِ ابتسامتُها. «لقد خيّطتُهُ بنفسي».

«أنتِ خيّطتِه؟» سألْتُ، فلا أعتقد أنَّه سبق لي أنْ رأيْتُ ثياباً منزليَّةَ الصنع في حياتي.

«إنَّها بارعةٌ في الأعمال اليدوية»، قالَت ديانا من مكانها على الطاولة.

كانَتْ جوسي ما تزال واقفةً بالقرب منِّي، وفي اندفاعٍ مفاجئٍ، أمسكَتْ بيديَّ واعتصرَتْهما. «أنا جِدُّ سعيدةٍ بلقائِكِ أخيراً».

كان الأمرُ منفِّراً بطريقةٍ ما. كوني كبرْتُ مع والدي الذي لم يكن بالضبط محبّاً للكلام، كان الصمت يخيِّم على حياتي معظم الوقت. كنَّا لا نتحدَّث إلَّا إذا وُجِّهَ الكلام إلينا. لم يكن شخصاً قد يُوصَفُ بأنَّهُ جيَّاش المشاعر، أو متدفِّقُ الكلمات، إلَّا إذا كان يشاهد إحدى المباريات الرياضية على التلفاز. أمَّا فيما يخصُّ المحادثات اليومية، فقد كان مُقلّاً، بكلِّ تأكيدٍ.

ربَّما تشرَّبْتُ الكثير من تحفُّظه، عن غير إدراكٍ منِّي أو قصدٍ.

لكنَّ جوسي راقَتْني بالفعل.

«لقد سمعَتْ جوسي الكثير بخصوصك»، قالَتْ ديانا وهي تأخذ رشفةً من قهوتها.

نظرْتُ إلى جوسي، وأنا أقول: «هذا مثيرٌ للقلق».

«نرتاد نادي الكروشيه معاً»، قالَتْ ديانا، «لذلك، كما قد تتخيَّلين، نثرثر كثيراً».

لا، لم أستطع تخيُّل نادي كروشيه.

قالت جوسي: «في الحقيقة نحن الفردان الوحيدان في نادي الكروشيه».

لتضيف ديانا بابتهاجٍ: «العضرتان المؤسِّستان ورئيستا النادي بالتشارك».

«إلّا إذا كنْتِ تودِّين الانضمام»، اقترحَتْ جوسي.

«لا، شكراً».

تابعَتْ ديانا كلامها: «أخبرْتُها عن المرَّة التي انتزعْتِ فيها سنَّكِ في ساحة المدرسة وحاولْتِ بَيْعَهُ لأحد الأطفال في فصلكِ».

يا إلهي، كنْتُ قد نسيْتُ ذلك تماماً.

«تدبِّرين أموركِ ببراعةٍ»، علَّقَتْ جوسي.

«وعن المرة التي تُهْتِ فيها في حديقة الحيوانات، ووجدناكِ بعدها بساعة في الجهة الأخرى من الحديقة عند أقفاص الأسود، وأنتِ في غاية السَّعادة، غافلة عن أنَّنا قمنا بإغلاق الحديقة برمَّتِها كي نبحث عنكِ».

كنْتُ قد نسيْتُ ذلكَ أيضاً.

«مغامِرةٌ»، علَّقَتْ جوسي مُجدَّداً.

«والمرَّة التي وجدْتِ فيها تلكَ النبتة ذات الثمار الخضراء في الحديقة الخلفيَّة، وأكلْتِ منها حتى ملأْتِ بطنَكِ، ثمَّ قدمْتِ إلى الداخل بكلِّ فخرٍ لتُعْلني: ماما، لقد أكلْتُ البازلاء الخاصَّة بكِ».

نظرَتا إلى بعضهما كأنَّهما تكادان لا تستطيعان تحمُّل تلك الجرعة القوية من الظرافة.

«اضطررْتُ إلى الاتِّصال بمركز مكافحة التَّسمُّم تلك المرَّة»، قالَتْ ديانا.

«أمُّكِ جِدُّ متحمِّسةٍ لكونِكِ هنا»، قالت جوسي وهي تدَّعي الهمس بذلك.

«الأمر مثيرٌ للحماس»، قلتُ، من دونْ أنْ أعلم إنْ بدَتْ نبرة صوتي تهكُّميَّةً.

«تعالي انضمِّي إلينا، وأخبرينا كلَّ شيءٍ عن مناوبتكِ»، قالَتْ ديانا حينئذٍ، وقد جرَّتْ كرسيّاً بجوارها.

«لا أستطيع»، أجبْتُ بسرعةٍ، «تَعَبي فاق منتهاه، أبقَونا مستيقظين طوال الليل».

كان كلُّ ذلكَ صحيحاً، لكنَّهُ لم يكن سبب عدم بقائي معهما.

لم أكنْ لأبقى، لأنَّه يجب أنْ أحافظ على نُظُمِ حياتي ونواميسها.

منذ تلك الليلة في المأدبة، اختلَّ توازُني، فقدْ كان الأمرُ كأنَّ رؤية هيث تومسون مُجدَّداً قد صدَّعَتْ أحد جدران سلامتي العقلية، وكلُّ ما كنتُ أفعلهُ منذ ذلك الحين هو محاولة ترميم ذلك الجدار. انتقالي إلى هنا لم يساعدْ كثيراً. والبداية من جديد مع طاقمٍ جديدٍ، وردَّة فعلي الغريبة تلك تجاه المبتدئ... لا شيء من ذلك كان يساعد البتَّة.

كنتُ في حاجةٍ إلى الأمور التي احتجْتُها دوماً: الجَرْيُ، التَّدريبات الجسدية، وضع جدولٍ لتنظيم وقتي، ترتيب حياتي بطريقةٍ تكون فيها عقلانيةً ومُنظَّمةً. كنْتُ في حاجةٍ إلى وقتٍ هادئٍ، وإصلاحيٍّ، لوحدي.

لم أكنْ في حاجةٍ إلى الجلوس هنا في المطبخ مع امرأتين أكادُ لا أعرفهما، للتحدُّث عن قصصٍ تحكي مقدار ظرافتي حين كنتُ طفلةً. لم أكنْ في حاجةٍ إلى خلق ارتباطاتٍ عاطفيةٍ أتعلَّقُ بها. كنتُ في حاجةٍ إلى متغيِّراتٍ أقلَّ، وليس أكثر. كنْتُ في حاجةٍ إلى أنْ أكونَ وحدي.

هناك في العلّيّة، أجبرْتُ نفسي على الاستحمام، برغم أنَّ كلَّ ما كنْتُ أرغبُ فيه كان الارتماء على السرير. ارتديْتُ ثياب نومي وتسلَّقْتُ الشراشف البيضاء الناعمة، وعشَّشْتُ بداخلها. كان ذوق ديانا في البياضات رائعاً، أقرُّ لها بذلك.

لكنْ بعدها، لم أستطع النوم.

كان هناك الكثير لأستوعبه.

حسب فهمي للأمور، كانت هناك ثلاث مشكلات يجب عليَّ حلُّها إذا ما أردْتُ أنْ أحظى بحياةٍ جديدةٍ لنفسي هنا.

أولاً: كانَتِ المحطَّة في حالةٍ سيِّئةٍ، سيِّئةٍ للغاية، سيِّئةٍ لدرجة أنَّها تشكِّلُ خطراً على الحياة.

كنْتُ أتوقَّعُ أنْ تكون محطَّة ليليان مختلفةً عمَّا عرفْتُ في أوستن، ولكنْ لم تكن لي أدنى فكرةٍ عمَّا سأصادف هنا.

فعِوَضَ البناء الشاسع العصري، المصنوع من الإسمنت والكروم، كانَتْ محطَّة ليليان من قرميدٍ يفوق عمرُهُ مئة سنةٍ. وعِوَضَ طبق البراونيز النباتية الطازجة، كانَتْ على طاولة المطبخ هنا علبةٌ من التوينكيز الصناعية. وعِوَضَ الرفوف المعدنية، كانوا يستعملون أوتاداً خشبيةً. لا نظامَ تهويةٍ رئيساً، بل بضعُ نوافذ مزوّدة بالإسفنج عند حوافِّها. لا أثاث ايكيا حديث، بل أريكةٌ كُسالى طويلةٌ، مُضرَّجةٌ بالعرق، موضوعةٌ أمام التلفاز. لا ألواح شمسيَّةً على السطح، لا حديقةَ نباتاتٍ عضويةٍ في الخلف، لا أكوام من السمادَ العضويّ.

لا مراوحَ حتى لتبديد دخان الديزل المنبعث من المحرك في الأسفل.

بدَتْ أجهزة الاتِّصال اللاسكي قديمةً، عمرها عشرُ سنواتٍ على الأقل، وبدَتْ تجهيزات الإضاءة أقدمَ من ذلك. وحتى تلك

المُستحدثة منها كانَتْ فلوريَّةً متوهِّجةً، عِوَضَ أنْ تكون موفِّرة للطاقة. وكان المطبخ من الفورميكا البرتقالية طراز 1970، بخزائن بلون الجوز.

أيقظ ذلك في داخلي نزوةً نسائيةً شديدةً لإعادة ترتيب المكان وتزيينه.

حتى المعدّات كانَتْ مختلفةً: صُدِمْتُ لعدم وجود كاميراتٍ بالأشعة تحت الحمراء، بالإضافة إلى عدم وجود عدَّة الإسعافات الأولية التي تحتوي التِّرياق المضادّ للسيانيد، وهو ما كان صادماً بالنظر إلى أنَّ معظم الأشياء العصرية من الأثاث إلى السَّجَّاد كانَتْ تُطلق غاز سيانيد الهيدروجين السَّامّ لدى إحتراقها.

إذاً: ليسَتْ فقط مختلفةً، بَلْ خطيرةً.

حينَ سألْتُ عن الترياق المضادّ للسيانيد، انفجر الكابتن مورفي ضاحكاً في وجهي.

«أيعني ذلك أنَّهُ لا يُوجَدُ؟» سألْتُ.

كان الكابتن ما يزال يضحك حين حرَّكَ رأسه. «أنتِ تتحدَّثين عن ألفي دولارٍ للجرعة الواحدة».

سواءٌ أكانَتْ ألفَي دولارٍ أم لا، فنحن نحتاجها، وقدْ كانَ أمراً جدِّيّاً، بل مقلقاً. كانَتْ هناك طرقٌ عدَّةٌ للتَّعرُّض للتَّسمُّم بالسيانيد، من نفاد الأوكسجين في قارورتك إلى تسرُّبٍ في قناعك الواقي، وتنفُّس ذاك الغاز قد يقتلك، فتأمين الترياق كان ضرورياً.

في أوستن، كانَتْ لدينا ثلاثةٌ منها.

قلت حينئذٍ: «يجب أنْ نحصل على واحدٍ على الأقلّ».

«اعثري لي على ألفَي دولارٍ وسنجلب واحداً»، قال الكابتن، ظانّاً أنَّه يطلب منّي أنْ أعثرَ له على إبرة في كومة قشّ.

لم يكن طلبي غير منطقيٍّ. «إنَّه لأمرٌ جنونيٌّ أنَّنا لا نملك واحداً».

ردَّ الكابتن: «إنَّه لأمرٌ جنونيٌّ أنَّنا لا نملك العديد من الأشياء، كأجهزة اتِّصالٍ لاسلكية تعمل مثلاً».

لو أنَّني كنْتُ أرتشف شيئاً لحظتها، لكُنتُ بصقته: «أجهزة الاتِّصال اللاسلكية لا تعمل؟».

«بعض الأيام أفضلُ من غيرها». رفع كتفيه. «تمَّتْ صناعتها من طرف المقاول الذي قدَّم أرخص عرضٍ».

إليك الجانب المشرق: كان الكابتن يمزح حين طلب منِّي العثور على ألفي دولارٍ، ولكنَّني كنتُ أستطيع في الحقيقة فِعْلَ ذلك؛ إذْ كنتُ قد كتبتُ الكثير من طلبات المِنح لمركز الإطفاء في أوستن، فحصلْنا على بعض المعدَّات الجديدة، بالإضافة إلى منحة «تواصل اجتماعي» لتجهيز الباحة بجوار المحطَّة، ووَضْعِ طاولاتٍ للنزهة مصنوعةٍ من بلاستيك أُعيدَ تدويرُه.

وهذه المحطَّة، مع كامل احترامي، تحتاج إلى بعض الطاولات للنزهة.

على الأقلِّ.

لا أقول إنَّني أردتُ تغيير الأمور بجنونٍ، فما كنتُ لآتيَ مثل مبتدئٍ بالعمل، بمزهريات ورود ووسائد، لكنْ، أجهزة اتِّصال لاسلكية؟ وعدَّة الإسعافات المضادَّة للسيانيد؟ لم تكن تلك أموراً تافهةً، بل أساسية.

وجدتُ نفسي أبحث عن «مِنحٍ للإطفائيين» على محرِّك بحث غوغل على هاتفي، عِوَضَ أنْ أنامَ، من أجل سلامتي إذا لم يكن من أجل أيِّ شيءٍ آخرَ. لكنَّني تساءلت إنْ كان جَمْعُ المال من أجل

المحطَّة هو طريقتي لخلق مكانٍ لي فيها. فإذا كنْتُ أستطيع مساعدتهم في الحصول على أشياء يحتاجونها، ربَّما يرفع ذلك من قيمتي.

من دون تفكيرٍ، كنْتُ أستطيع استعراض قائمة من مئة شيءٍ تحتاج إليه هذه المحطةُ: طبقةٌ جديدةٌ من الدهان، وأجهزة تنفُّسٍ مستقلّةٌ، وأقنعة هواءٍ بأجهزة اتِّصالٍ مركَّبةٍ داخلها عِوَضَ أجهزة اللاسلكي المحمولة باليد، وفرشٌ جديدةٌ، ونظام تهويةٍ مركزيٌّ، وخرطوم مياهٍ بمحرّك، وخزائن جديدةٌ، وغسّالةٌ من أجل العتاد، وقاطعٌ هيدروليكيٌّ جديدٌ... أو عدَّة قواطع.

كانَتْ تلك بدايةً جيِّدةً.

المشكلة الثانية التي أبقتني مستيقظةً كانت المضمار الخلفيّ.

كان كلُّ شيءٍ عالياً بالنسبة إليَّ. نصف التجهيزات سيصعب عليَّ بلوغها، أمَّا النصف الثاني فيستحيل عليَّ تماماً. فقدْ تمَّ تجهيز مضمارين للسباق جنباً إلى جنبٍ، وأخبرني الرفاق أنَّهم لا يقومون بالسباق مرَّتين سنويّاً فحسب، بل إنَّ منافساتٍ قويَّةً تُقامُ هناك، مع حقوق افتخارٍ عظيمةٍ للفائز، وأتصوَّر أنَّ الخاسر سيُوصَمُ بنقيض ذلك.

كنتُ متأكِّدةً من شيءٍ واحدٍ: أحتاج إلى إيجاد طريقةٍ للتَّفوُّق في ذاك المضمار، أو عدم الخسارة على الأقل، ولن أقول لا للفوز.

لكنَّني لا أستطيع أنْ أجعل جَسَدي يَطول لتُحَلَّ المشكلة.

كان يجب أنْ أجدَ حلولاً إبداعيةً مُبتكَرَةً.

بدأْتُ أفكِّر في شيءٍ كان الرِّفاقُ يقومون به في أوستن يُدعَى «الباركور». كان عبارةً عن طريقةٍ للجري، والوثب، والتَّسلُّق، والتَّلصُّص عبر المدينة كأنَّها ساحة ألعابٍ عملاقةٌ. وكانوا يشاهدون مقاطع فيديو عن تقنياتٍ جديدةٍ وهم جالسون حول طاولة المطبخ.

بحثتُ عن الأمر في غوغل على هاتفي، وبالطبع ظهرَتْ لي مئاتُ مقاطع الفيديو التي تشرح تلك التقنيات بطريقةٍ جِدٍّ مُبسَّطةٍ.

يمكنك مثلاً أنْ تَجريَ على جانِبِ حائطٍ، إذا عرفْت الزاوية المناسبة لمقاربته وكيفية إمالة جسدِك. وإذا كانَتْ أمامك ثلاثةُ أسطحٍ على زوايا قائمةٍ، وقمْت بالأمر بطريقةٍ صحيحةٍ، فسوف تستطيع استعمال القوَّة الدافعة، والتَّموضُع للقيام بقفزة ضفدعةٍ نحو الطابق التَّالي.

كان لمشاهدة الفيديوهات تأثيرٌ مُنعشٌ، وقدْ أبقاني ذلك مستيقظةً وقتاً طويلاً جدّاً، أشاهد مقطعاً تلو الآخر لأناسٍ يقومون بأشياءَ مُستحيلةٍ بيُسرٍ تامٍّ، ثمَّ يشرحون للجميع كيف يستطيعون القيام بذلك هُمْ أيضاً.

كان بإمكاني تعلُّم القيام ببضعة أشياءَ مستحيلةٍ.

هوايةٌ جديدةٌ. ليس الكروشيه، ولكنْ سيتوجَّب عليَّ إنجاحُها.

بالنسبة إلى صباحٍ أمضيْتُهُ في السرير، كان مثمراً بطريقةٍ مذهلةٍ.

طريقةٌ تجعلُني مفيدةً للطاقم؟ تَمَّ.

طريقةٌ لاقتحام المضمار؟ تَمَّ.

ثمَّ كانت هناك المشكلةُ الثالثة التي كانت، بطبيعة الحال، المبتدئ.

وماذا عن المبتدئ؟

أغمضْتُ عينيَّ المتعبتَين. ربَّما لم يكن غوغل قادراً على الإجابة عن ذلك. ربَّما سيتوجَّب عليَّ إيجادُ تلك الإجابة بنفسي.

12

الاستقرار في المحطة الجديدة كان في الآن ذاته أصعب وأسهل ممَّا توقَّعْتُ.

على مدار المناوبات القليلة التي تَلَتْ، لاحظْتُ بضعة أمورٍ مهمَّةٍ تتعلَّق بأفراد طاقمنا.

أولاً: يُصرُّون على معاملتي على أنَّني فتاةٌ، نوعاً ما، وإلى الحدِّ الذي يمكنهم تذكُّره.

بطريقةٍ ما، كان ذلك أمراً حميداً. لم يكنْ على الأقلِّ ذاك الحقد الشديد الذي جعلَتْني الكابتن هاريس أتوقَّعُ ملاقاته. ومع ذلك كان الأمر ما يزال يشكِّلُ عائقاً، فلم يكونُوا يسبُّون أمامي مثلاً. قد أدخل غرفةً بينما ضئيلٌ يقول: «أيها القوَّاد»، فيطأطئ رأسه شعوراً بالذنب، ثمَّ يغيِّرها في الحال: «أيها القرد».

«يمكنك أنْ تقول قَوَّاد، يا ضئيلُ»، أقول.

لكنَّه يوبِّخُني بعدها. «صُوني لسانكِ».

«توقَّفْ عن معاملتي كفتاة».

«لكنَّكِ فتاةٌ فعلاً».

لم أستطع تغيير تفكير أيٍّ منهم، فكلمات السِّباب لم تكنْ للنساء. المحادثات الجريئة، وأسماء بعض أعضاء الجسم أو وظائفها، والنكات عموماً، لم يكن أيٌّ منها للنساء.

أمَّا الحقيبةُ فما كان ليستعمل كلمة «ريح» أمامي، حين يريد التَّحدُّث عن إطلاق الريح. ينظر باتِّجاهي، ثمَّ يقول «تووووت». إذا كنْتُ في الغرفة، يُحجِمون عن أيِّ شيءٍ منافٍ للرقابة الأبوية. مرَّةً بعد أخرى، أدخل المطبخ وأرى الصَّمتَ يخيِّم عليهم جميعاً، وعلى المكان برمَّتِه.

«ما الأمر؟» أسألهم.

«لا يليق بسمعكِ»، يجيب الحقيبة، «انصرفي».

لا أظنُّ أنَّهم كانُوا يحاولون فعلاً إقصائي، ليس بشكلٍ واعٍ على الأقل. أظنُّه كان نوعاً من الشهامة. كانُوا يحاولون أنْ يكونُوا مهذَّبين، وربَّما محترمين، لكنَّ فكرتَهم عن الأنوثة كانَتْ خاطئةً، ولمْ يكن بإمكاني إعادة مُعايرتها.

فقد كنتُ مثلاً شَغوفةً بالسباب. لقوّتِهِ، وتأثيره، والصدمة التي تنجم عن خرق القواعد. ففي السنة التي رحلَتْ فيها والدتي، كنتُ أسبُّ من دون هوادةٍ، وأمام والدي في الواقع، بل مع والدي، لأكون دقيقةً، وقد كان حينئذٍ مُحَطَّمَ القلبِ، وغاضباً ومشوَّشاً جدّاً فلم يوقفْني. كنْتُ أعدُّ له شراباً أو اثنين، وأعدُّ لنفسي واحداً غير كحولي، ونجلس في المطبخ لتناول حلويات بوب-تارتس والتَّذمُّر بشأن كلِّ شيءٍ نستطيع تذكُّره، ولا سيَّما النساء.

«النساء. . .» كان أبي يقول بنبرةٍ مِلْؤُها الازدراء.

«لا تخبرني بما أعرفه سلفاً، يا صاح»، أردُّ عليه، مازحةً، ولكنْ ليس تماماً. «لا شيء أسوأ مِنهنَّ».

لاحقاً، حين تزوَّج أبي من كارول، كان على كلينا التَّوقُّف عن السباب، فلم تكنْ تحبُّ ذلك. وإذا أردْنا أنْ نفعل، كانَتْ تُرسلُنا إلى الكراج.

والآن، كَوني السَّببَ الذي جعل الرفاق يستعملون كلمات سبابٍ بديلةً جعلني أشعر كأنَّني صرْتُ زوجة أبٍ بالنسبة إليهم.

«يا رفاق...»، كنتُ أستمرُّ في محاولة إفهامهم، «... أنا أحبُّ السِّباب. إنَّه أحد هواياتي المُفضَّلة».

لكنَّ الكابتن حرَّك رأسه بالرفض. «غير لائق».

ثمَّ إنَّهم استمرُّوا أيضاً في التَّشبُّث بافتراض أنَّني ضعيفةٌ، وهو الأمر الذي فاجأني حقّاً. ألمْ يرَوا جميعاً أنَّني قمْتُ بتسعة من تمارين العقلة باستعمال يدٍ واحدةٍ، في اليوم الأول؟ أراهن بألف دولارٍ على أنَّ الحقيبةَ لا يستطيع القيام بواحدةٍ، باستعمال يديه الاثنتين وإحدى ساقيه. ومع ذلك، فقد كانوا يفتحون الباب لي، ويساعدونني في الوصول إلى الأغراض البعيدة أعلى الرفوف، ويأخذون المعدَّات الثقيلة منِّي ويقولون: «لا عليكِ، سأتولّى ذلك».

لم يكن الأمر في ذاته سيئاً، فقدْ فهمْتُ النِّيَّة الحسنة خلف ذلك. لقدْ كانُوا يتصرَّفون بلطفٍ، كانُوا يساعدونني، وهو أكثر ممَّا كنْتُ أجرؤُ على أنْ آمله وأنا في طريقي من تكساس، حين كنْتُ أخشى أنَّهم سيرمقونني بنظراتٍ حانقةٍ طوال الوقت.

لكنْ كان هناك جانبٌ سلبيٌّ للأمر، هو افتراض أنَّني لا أستطيع القيام بذلك بنفسي، فلم يكن الرفاق يفتحون الباب بعضُهم لبعضٍ، أو يساعدون بعضهم على حمل المعدَّات الثقيلة. فإذا كانُوا سيحملون منشار السقف الذي يزن خمسين كيلوغراماً عنِّي، فسأكون آخر شخصٍ يمرِّرونَه له حين تحين لحظة استعماله.

من السهل التركيز على فرق الحجم بين الرجال والنساء، لكنَّ هناك فوائدَ عدَّةً لكونك أصغرَ، قد تنفعك في أثناء الحريق. أنت أخفُّ، وأقرب إلى الأرض، وأكثر رشاقةً. يمكنك التَّسلُّل عبر أماكن ضيِّقةٍ لا يستطع أحدٌ من الرجال الضِّخام أنْ يمرَّ منها.

أتذكرون وسام الشجاعة ذاك الذي مُنِحْتُهُ في أوستن عقب إنقاذ حافلةٍ مدرسيةٍ مَلْأَى بالأطفال؟ تلك الحافلة انحرفَتْ عن طريقٍ زَلِقةٍ بفعل الثلوج وسقَطَتْ أسفل وادٍ، وتكوَّمَتْ لتصيرَ مثل أكورديونٍ. كنْتُ الشَّخص الوحيد الصغير كفايةً لتلمُّس طريقِهِ داخلها، وكنْتُ الشخص الذي سحب أولئك الأطفال جميعهم، وذلك لأنَّني استطعتُ الدخول عبر فتحةٍ ضيِّقةٍ.

لكلٍّ منَّا مزاياه المختلفة.

لكنَّ الرفاق لم يرَوا الأمر بتلك الطريقة.

لم أكن أرغب في صدِّ اللطف حين يحاول أحد الرفاق حَمْلَ خرطوم المياه عنِّي، لكنَّني رفضتُ الفكرة القائلة إنَّني لا أستطيع القيام بذلك بنفسي. وفي النهاية، كلَّما حاول أحدُ الرفاق مساعدتي على القيام بشيءٍ ما قائلاً: «لا عليكِ، سأتولَّى ذلك»، استقررْتُ على عبارةٍ أستعملها وشرعْتُ أقول: «بل هذا يبقيني قويَّةً».

نصف الوقت، يكملون ما بدؤوه في كلِّ الأحوال.

كان ذلك بِنيَّةٍ طيِّبةٍ، وكان مُقيِّداً. الأمران كلاهما.

الأمر الآخر الذي أصرَّ الرفاق على التَّشبُّث به كان أنَّ النساء يفتقرْنَ إلى حِسِّ الدُّعابة. ما كان مصدر تلك الفكرة يا تُرى؟ مرَّةً بعد أخرى في تلك الأسابيع الأولى، كنْتُ أُلقي الدُّعابات التي لم يضحكْ لها أحدٌ، دعاباتٍ أعلم أنَّها كانَتْ مُضحكةً في أوستن.

أظنُّ أنَّ الأمر معقولٌ شيئاً ما، فجزءٌ من اعتبار أنَّ شيئاً ما

مُضحكٌ يكمنُ في توقُّع أنْ يكون كذلك. لذا إذا كانُوا قد قرَّرُوا سلفاً أنَّ النساء لا يُجِدْنَ الدُّعابات، فإنَّها تصير أشبه بنبوءةٍ ذاتيةِ التَّحقُّق.

الإطفائيون، وسطياً، أناسٌ مضحكون جدّاً، فكلُّ ذاك الأسى الذي يتشرَّبُه المرء في هذا العمل يجعله أكثر هَزْلاً، ويجب عليه موازنة الألم بطريقةٍ ما، فإلقاء النكات والعبث بالأرجاء هما أحد أفضل جوانب هذه الوظيفة.

هناك الكثير من الموت في ذلك العالم، لكنَّ الضحك هو الحياة.

أنت في حاجة إليه.

جعلني ذلك أفكِّرُ كثيراً إلى أيِّ حدٍّ قد يُهِمُّ ما تظنُّ أنَّكَ ستظنُّه، فإذا توقَّعتَ أنْ يكون شيءٌ ما هزلياً، فسيبدو هزلياً أكثر، وإذا بدا هزلياً أكثر، فهو هزليٌّ أكثر فعلاً، بكلِّ معنى الكلمة.

الشَّخص الوحيد الذي كان يضحك لدعاباتي هو المبتدئ. في الحقيقة، هو كان يضحك لكلِّ شيءٍ. كان ذاك النوعَ من الناس، وهي صفةٌ حميدةٌ أخرى كنْتُ أستاء منها كل الاستياء.

إذاً كانَتْ تلك حياتي في المحطة الجديدة. لا سِباب، لا طرافة.

ثمَّ كانَتْ هناكَ كرةُ السَّلَّة.

بعد الظُّهر، وبعد أنْ تُغسَل الصحون، وتُغسَل الشاحنات، وينتهي كلُّ ما يجب القيامُ به لذاك اليوم، كان يروق للرفاق أنْ يلعبُوا مباراة كرة سلَّةٍ في الملعب الخلفيِّ. القمصان ضِدَّ العُراة. ولم يكونُوا يسمحون لي باللعب.

«ستعرَّضين للأذى»، قال الكابتن.

«ستُدَمَّرين»، قال ضئيلٌ.

شككْتُ في أنَّ جميعهم افترضُوا أنَّني لاعبة سيِّئةٌ، برغم أنَّني أخبرْتُهم أنَّ أبي كان مدرِّبَ كرة سلَّةٍ في المدرسة الثانوية، وأنَّني أمضيْتُ نهايات الأسبوع أرمي الكرات نحو الأطواق منذ طفولتي، وبرغم أنَّني وقفْتُ عند خطِّ التَّماس وشرحْتُ لهم صراحاً أنَّني خضْتُ منافسات كرة السَّلَّة الجامعية أربعَ سنواتٍ، كنْتُ خلالها قائدة الفريق.

«أنا في الحقيقة لاعبةُ سلَّةٍ جيِّدةٌ»، ظللْتُ أردِّدُ.

لكنَّ طولي كان متراً وخمسة وستين سنتيمتراً فقط، وكنْتُ «سيِّدةً».

في النهاية قرَّرْتُ أنْ أضيفَ إلى المشكلة بعضَ المال ليكون متغيِّراً جديداً ومحفِّزاً.

خلال إحدى الأمسيات، وقُبَيل بداية إحدى مبارياتهم، زرعْتُ نفسي أمام السَّلَّة، حاملةً مروحةً من الأوراق النقدية، وتحدَّيْتُهم إلى مباراة رمياتٍ حرَّةٍ.

ضحكُوا جميعاً. فقدْ وجدُوا الأمر مضحكاً كما يبدو.

رفعتُ المال أعلى ولوَّحْتُ لهم به. «أستطيع سحقَكُم جميعاً، إذا أردْتُم، أو يمكنُنا رِبْحُ بعض الوقت: اختارُوا أفضلَكم وسأسحقه».

المزيد من الضحك.

بطول مترٍ وخمسة وتسعين سنتيمتراً، أطول منِّي بقدمٍ كاملةٍ، كان ضئيلٌ ورقتَهُم الذهبية الرابحة، ولم يكونوا في حاجةٍ إلى ترشيحه.

تقدَّم نحوي، انحنى قليلاً وهو يشير إلى الطوق، ثمَّ قال: «الآنسات أوَّلاً».

حرَّكْتُ رأسي: «بل الرجال أَوْلَى، الخشونة قبل الجمال».

بابتسامةٍ صغيرةٍ على شفتَيه، تقدَّم ضئيلٌ نحو خَطِّ الرميات الحرة الذي كان عبارةً عن تشقُّقٍ في الأرضية.

لم يكنْ في حاجة إلى أنْ يحاول، فقدْ قام بالرَّميات العشر الأولى من دون أنْ يحرِّكَ شيئاً باستثناء يديه عند المعصم، وقد انزلقَتِ الكرات عَبْرَ قلب الشِّباك في أقواسٍ مثاليَّةٍ. كان الرِّفاق يعدُّون بصوتٍ مرتفعٍ. «إحدَى عشرَة، اثنتا عشرَة، ثلاثَ عشرةَ، ...».

أخيراً، وفي رميَتِهِ الخامسة عشرة، دفع بِبِنْصَرِ يدِهِ اليُمنى قليلاً شيئاً ما أكثر من اللّازم، فتغيَّر مسار الكرة جهة اليسار. عرفْتُ منذ اللحظة التي غادرَتْ فيها الكرة يدَهُ أنَّه سيضيِّع الرمية، وذلك ما حدث بالفعل. وقعَتِ الكرة على حافَّةِ الحلقة، وارتدَّتْ عنها خارج السَّلَّة.

رفع الرفاق كفوفهم لتحيَّتِهِ بينما مرَّ بينهم يضرب كفَّه بها، كأنَّ ما قام به كان شيئاً مُذهلاً.

رفع ضئيلٌ حاجبَيه باتِّجاهي ولسانُ حالِهِ يقول: **تغلَّبي على ذلك، أيَّتها الفتاة الصغيرةُ.**

الآن حان دوري. أخذْتُ مكاني عند تشقُّق خطِّ الرميات الحرَّة، وقبلَ أنْ أحملَ الكرة، قلتُ: «عندما سأهزم ضئيلاً، ستسمحون لي باللعب».

«رهانٌ مضمونٌ»، قال العضلات السِّتُّ.

«لا أحدَ يهزم ضئيلاً»، أضاف الحقيبة.

«ماذا لو لمْ تهزميه؟»، سأل العضلاتُ السِّتُّ.

هززْتُ كتفيَّ. «سأتولَّى تنظيفَ المرحاض لمدَّة شهرٍ».

ضرب الرفاق كفوفهم بعضها ببعضٍ كأنَّهُ كان يوم سعدهم،

كلُّهم باستثناء المبتدئ، الذي ظلَّ واقفاً بذراعيه المتشابكتين، يَدرسُني، كأنَّهُ شكَّ في أنَّه، في تلك الأثناء، كان يتمُّ الإيقاع بهم.

«اتَّفقْنا؟» سألْتُ مُجدَّداً بغرض التأكيد.

«اتَّفقْنا».

بالطبع، كنتُ أعلم أنَّني سأهزم ضئيلاً. لقد نشأْتُ تحت جناح أبٍ وحيدٍ ومطلَّقٍ، مدرِّب كرة سلَّةٍ لا يعرف كيف يتحدَّث عن مشاعره، فرَمْيُ الكرات باتِّجاه طوق السَّلَّة في الساحة بجوار البيت كانَتْ طريقتَنا الوحيدة للتَّواصُل. ولفترةٍ من الزمن، كانَتْ قُدرتي على التَّسديد نحو ذاكَ الطوق سببَ والدي الوحيد للعيش. وربَّما سببي أنا أيضاً.

كنتُ أمارس كرة السَّلَّة بطلاقةٍ لعينةٍ.

قمْتُ ببعض حركات المراوغات بضعَ ثوانٍ، وهو ما جعل الرفاق يضحكون مجدَّداً.

ثمَّ رفعْتُ الكرة على الوُسطى وأدرْتُها، وراقبْتُهم يُحجمون عن الضحك... تماماً.

بعدَها، شرعْتُ في التَّسديد، ولم أتوقَّفْ. قوسٌ مثاليٌّ، يتبعُه آخر مثاليٌّ هو الآخر. خمسة، عشرة، خمسة عشر.

بعد فترة، غيَّرْتُ إلى استعمال اللَّوحة الخلفيَّة، فكنْتُ أسدِّدُ وسط المُربَّع الباهتِ كلَّ مرَّةٍ، لتسقطَ الكرة بعدها في قلب الشبكة، مُحدثةً صوتاً مُشبِعاً: «كا-سويش... كا-سويش... كا-سويش...». عشرون، خمسة وعشرون.

ثمَّ انتقلْتُ بعدها إلى بعض الخدع، فوقفْتُ على رِجلٍ واحدةٍ وسدَّدْتُ. رميْتُ الكرة بيدي اليسرى، حتى إنَّني أطلقْتُها نحو الطَّوق

بضربةٍ رأسيَّةٍ. كنْتُ عند الرمية الناجحة السابعة والعشرين من دون أيِّ إخفاقٍ، أو شبه إخفاقٍ، حين انطلق صوتُ الأبواق في المحطَّة.

كان نداءً.

التفتُّ ثمَّ سدَّدْتُ رمْيَتي الأخيرة نحو الخلف، ثمَّ، ومن دون أنْ أنتظر لأرى إنْ نجحْتُ، مضيْتُ في طريقي نحو المحطة.

رآني المبتدئ قادمةً فأمسكَ الباب وأبقاه مفتوحاً، وحينَ بلغْتُ العتبة حرَّكَ رأسه في إعجابٍ كبيرٍ: «أنتِ بطلتي».

همسْتُ وأنا أمرُّ: «هل دخلَتِ الكرةُ الأخيرة؟».

أجاب: «لا شيء سوى الشِّباك».

ضربْتُ كفِّي بكفِّه وتابعْتُ طريقي من دون أنْ أخفِّفَ من سرعتي، ولم أنظرْ إلى الخلف قطُّ.

كان يجب على دي ستاسيو أنْ يأتيَ معنا لتلبية النداء، لكنَّ ظهرَهُ كان يسبِّبُ له بعض المشاكل، لذلك جاء المبتدئُ بدلاً منه.

الإطفائيون لا يتحدَّثون عن «الألم»، ولا يُقِرُّون بأنَّ الأشياء «تؤلم». أقصى ما قد تسمعهم يقرُّونَه هو «بعض المضايقة». كان دي ستاسيو قد سقط جرّاء انهيار أحد الأسقف، وتعرَّض لإصابةٍ بالغةٍ لدرجة أنَّه خلال الأيام القليلة التي تلَتْها لم يكن واضحاً إنْ كانَ سيمشي مجدَّداً، لكنَّه استطاع المَشْيَ من جديدٍ، وذلك جزءٌ من أسطورته. كان الجميع يعلمون أنَّه يعاني من ألمٍ مُستمرٌ، لكنَّ كلَّ ما كان يقوله جميعهم هو أنَّ ظهره «يسبِّبُ له بعض المشاكل».

كان دي ستاسيو أساساً يُعاني كلَّ يومٍ في صمتٍ، وكان الطاقم يقدِّره على ذلك.

وفي الأيام السَّيِّئة، كان يحظى بإعفاءٍ ويسترخي على الكنبة العريضة أمام التلفاز الكبير.

تبيَّن أنَّ النداء كان بخصوص «أنثى في الثامنة من العمر، لا تتنفَّس»، وهو ما أدخلنا في حالةٍ من اليقظة والسرعة التامَّتين.

كنَّا مستعدِّين للانطلاق في ظرف أربعين ثانيةً.

ركبْنا أنا والمبتدئ في الخلف، وأشعلْنا كلَّ الأضواء والصفَّارات ونحن نقتحم تقاطعات الطرق، وندور حول السيارات المركونة لنبلغَ المكان في أقلِّ من ثماني دقائقَ.

كنَّا سريعين، لكنْ ربَّما ليس بالسرعة الكافية.

يبدأ الدماغ في التَّضرُّر بعد دقيقةٍ واحدةٍ من انقطاع الأوكسجين، ولا يمكن تدارُك الوضع بعد مرور خمس دقائق. ولكنَّ عبارة «لا تتنفَّس» يمكن أنْ تعني أكثر ممَّا قد تظنُّون، ولا سيَّما مع الأطفال، لا تستسلم وتُفلت يدَك من الأمل حتى يتوجَّب عليك ذلك.

الأطفال يكسرون قلبَكَ دوماً.

لم يكنْ هناك شيءٌ قد لا يفعله شخصٌ في خدمة الإطفاء من أجل طفلٍ.

أحد أوائل الحوادث التي استجبْتُ لها في أوستن كانَ بخصوص فتاةٍ غارقةٍ في هذا العمر نفسه تقريباً، ولم أنسَها قَطُّ. قمْنا بالإنعاش القلبيِّ الرِّئويِّ عليها مدَّةَ ثلاثين دقيقةً طوال الطريق من مسرح الحادث إلى المستشفى، من دون أنْ نفكِّرَ في الاستسلام حتَّى.

لكنَّنا لم نستطع استرجاعها.

حينَ يتعلَّق الأمر بالأطفال فلا يهمُّ. تحاول ما يفوق الأمل، مهما كلَّف ذلك.

ولجْنا الحيَّ ووجدْنا الشارع. كان وقت المدرسة قد انقضى ذلك اليوم، فوقف الأطفال أمام منازلهم ليشاهدونا نمُرُّ.

في الموقع، وقفتْ جدَّةٌ هزيلةٌ أمام الممشى. أخذَتْ تلوِّح بذراعيها مثل عاملٍ يحمل رايةً أمام طائرةٍ. عرفْتُ من مكاننا بالشارع أنَّ عينيها ستحملان تلك النظرة التي تحملها العيون حين تكون الأرواح خلفها جافلةً من أثر الصدمة.

«مِنْ هنا»، قالَتْ وهي تقودنا نحو البيت.

تبعناها غارقين في ذاك الشعور الغامر بالتركيز الذي يرافق كلَّ استجابةٍ. وبرغم مرور الوقتِ فأنت لا تعتاده أبداً، ولا تملُّ منه، بغضِّ النظر عن عدد الاتِّصالات التي تستجيب لها، وبغضِّ النظر عن كلِّ تلك الأمور المَهولة، والمرحة، والكارثية، والاعتباطية، والمُحطِّمة للقلوب، والمثيرة للاشمئزاز، التي قد تَراها. فلحظةُ التَّرقُّب تلك، حيث كلُّ شيءٍ من حولك يختفي باستثناء مهمَّة الحياة أو الموت أمامك، هي ذاتها دوماً، وبشكلٍ بديعٍ.

لا يُوجَدُ اسمٌ لوصف ذاك الشعور. إنَّه لَإحساسٌ أثيرٌ بحقٍّ.

«مِن هنا»، قالَتِ السَّيِّدة العجوز.

كان صوتُ التلفاز مرتفعاً جدّاً، وعلى كرسيٍّ طويلٍ في الداخل، استلقى شيخٌ نائماً، وبجواره كوب قهوةٍ.

عقدْتُ حاجبيَّ. «هو؟». كان مُسنّاً، لم يكن طفلاً.

لم تخفِّفْ من سيرها وهي تقودنا متجاوزةً الكرسيَّ. «لا».

خلفه على الأرضية بجوار المطبخ، وُضِعَتْ حصائر وأفرشةٌ، وفوقها، فاقدةَ الوعيَ، لا تستجيب، رقدَتْ كلبةٌ من نوع شيواوا.

«هنا»، قالَتِ السَّيِّدة العجوز بملامح ترجونا الاستعجال.

لكنَّ دماغي لم يحتسبْ ذلك. كنْتُ أبحث عن فتاةٍ في الثامنة من عمرها.

«أين؟».

«هنا»، كرَّرَتْ، وهي تشير إلى الكلبة.

نظرْنا - نحن الأربعةَ - إلى الأسفل، لنرى شيواوا بُنِّيَّةً وبيضاء اللون، لا تُظهِرُ أيَّ علامةٍ على الحياة.

نظرْنا إلى العجوز مُجدَّداً.

أشارَتْ إلى الكلبة. «صغيرتي»، قالَتْ، ثمَّ استحال صوتُها إلى نحيبٍ وتنهُّدٍ صادقَين.

أنثى في الثامنة من العمر.

تبادل العضلات السِّتُّ والحقيبةُ نظرةً، ثمَّ استدارا ليمضيا نحو الباب من دون أنْ ينبِسا ببنت شفةٍ. أنا والمبتدئ فقط مَنْ بقيْنا.

قلبي الذي كان قد انقبض استعداداً لطفلةٍ، أرخى عضلاته، وأحسسْتُ بموجة راحةٍ تغمر صدري من الداخل. فمقارنةً مع الفتاة الغريقة التي ما زالت رموشها المبتلَّة تتراءى لي أحياناً حين أغمض عينيَّ، بدَتْ كلبة شيواوا أقرب إلى شيءٍ مبهجٍ.

خطوْتُ نحو الخلف، ثمَّ أطلقْتُ نَفَساً طويلاً توقَّعْتُ أنْ يكون تنهيدةً، لكنَّه عِوَضَ ذلك خرج على شكل ضحكةٍ.

ساءلتني عيون السيدة العجوز: **أتظنِّين أنَّ كلبتي الميتة شيءٌ مضحكٌ؟**

وحاولْتُ أنْ أجعل عيوني تردُّ: **أعتذرُ، ليس أمراً مضحكاً، هو فقط... مضحكٌ أكثر من طفلةٍ ميتةٍ.**

حينها أقدم المبتدئ على محاولةٍ للتَّعزية، قائلاً أشياءَ من قبيل: «لقد أمضَتْ وقتها، وهي الآن في مكانٍ أفضل».

لكنَّ صوت العجوز كان مُثخَناً بالأسى. «لا، أرجوكما».

الوظيفة تجعلُكَ أصلب، هذا أمرٌ أكيدٌ، وتلك كانَتِ الطريقة الوحيدة للمضيِّ قدماً. يمرُّ عليك الكثير، وتمرُّ في الكثير. رعبٌ بعد آخر يتسرَّب إلى جلدِك، فيُحدث دوَّاماتٍ داخل رئتيك، ويسافر صداه عبر أذنيك. لا يمكنك التَّوقُّف للتَّفكير مَليّاً فيما تعنيه الأمور، أو فيما يقاسيه كلُّ شخصٍ، ولا حتى أنت نفسك. لا يمكنك مساعدتهم وأنت تضع نفسَك مكانَهم، والسبب الوحيد لكونك هناك هو تقديم المساعدة.

بالطبع، ضَحِكِي لم يساعدْ.

الوظيفة تجعلك أصلب، ولكنْ لا يجب أنْ تجعلك قاسياً. صغيرتي. رنَّتْ كلمة العجوز في أذني.

لذلك قرَّرْتُ، من أجلي ومن أجلها، أنْ أتظاهرَ بأنَّني أحاول إنقاذ الكلبة.

برغم أنَّ الاتِّصال بخدمة الطوارئ لا يكون لأغراضٍ كهذه.

لم يكنْ يُرجَى من الأمر أملٌ بالطبع.

نظرْتُ إلى الكلبة مُجدَّداً. ما زالت على حالها، ميتةً.

جثوْتُ على ركبتيَّ على أيَّة حالٍ، فتحْتُ حقيبة الإسعافات الطِّبيَّة، وأخرجْتُ قارورةَ الأوكسجين وقناع تنفُّسٍ مرناً للأطفال، ثمَّ أدرْتُ حوافَّهُ ليتَّخذَ شكلاً مخروطياً يناسب خَطم الكلبة. سايرني المبتدئ وسار على نهجي، فنزل على ركبتيه وشرع في الضَّغط على صدرها برؤوس أصابعه.

وهكذا انتهى بنا المطاف، ونحن - الإطفائيِّين المحترفَين، مدفوعَي الأجر، العاملَين في المحطة المُوَقَّرة لمدينة ليليان، ماساشوستس - نقوم بإنعاشٍ قلبيٍّ رئويٍّ لكلبة شيواوا.

وجَّهْتُ إلى المبتدئ نظرةً مفادها: **أنتَ لن تخبرَ أحداً بهذا أبداً**.

فردَّ عليَّ بنظرة: **أوه، سأخبر الجميع**.

استمرَّ المبتدئ بالضغط على صدر الحيوان، بينما كنتُ أُدير الأوكسجين، ووقفَتِ السيدة العجوز هناك تمسح الدموع عن خدَّيها بأصابع مُحدَّبةٍ، تراقبنا كأنْ لا شيءَ آخر عدا ذلك في العالم يهمُّ.

سأمنح الأمر ثلاث دقائقَ، قلتُ في سرِّي.

ثمَّ صارَتْ سبعاً.

في النهاية، رجعتُ نحو الخلف، وجلسْتُ، ثمَّ أزلْتُ قناع التَّنفُّس.

«أنا آسفةٌ»، قلتُ وأنا ألاقي نظرات السيدة العجوز، وقد كنْتُ كذلك فعلاً.

أخفضْتُ أنا والمبتدئ رأسَينا من أجل لحظةِ صمتٍ مُختلَقةٍ، وحينها، أقسم باسم الرب، إنَّ كلبة شيواوا المجنونة تلك أصدرَتْ شخيراً مثل صخب عادم سيَّارةٍ مهترئةِ المحرِّك، وانقلبَتْ لتقفَ على أقدامها الصغيرة، ثمَّ رمشَتْ بعينَيها وهي تنظر إلينا.

شهقتُ من أثر المفاجأة، وأفلتُّ قناع الأوكسجين من يدي.

قفز المبتدئ نحو الخلف. «يا للهول، اللعنة».

«لا أحبِّذُ تلك اللغة»، قالت السيدة العجوز فيما يشبه ردَّة فعلٍ آنيةً.

بعدها، حدَّقْنا نحن الثلاثةَ في الكلبة وهي تنحني نحو الأرض وتشدُّ كلَّ عضلةٍ من عضلات بطنها، لتغدوَ بصلابة جدارٍ صخريٍّ، حتى تطاير من فمها قيءٌ متكوِّمٌ تنبعث منه رائحةُ أكل الكلاب. وبعد

ذلك غيَّرَتْ وضعيَّتها، ثمَّ طار كُشتبانٌ[1] معدنيٌّ خارجاً من فمها كأنَّه تمَّ إطلاقُهُ من مقلاعٍ.

ارتطم بالنافذة مُحدِثاً صوتاً حادّاً ثمَّ تدحرج ليستقرَّ بجوار الشيخ الذي كان ما يزال يغطُّ في نومه.

ظللْنا نقلِّب بصرنا بين الكلبة والكُشتبان الذي بدا محيطُهُ أوسع من فتحة حلقها.

ثمَّ نظرَتْ إلينا الكلبة بضع ثوانٍ، كأنَّها لم تفهمْ ما كنَّا نفعله هناك، قبل أنْ تتبوَّل على الأرضية وتنطلق مسرعةً عبر باب الكلاب المربَّع الدَّوَّار أسفل الباب، نحو الخارج لتُكملَ يومها.

ما أذكره بعدها هو أنَّ السيدة العجوز التي كانت قويَّةً على نحوٍ مفاجئٍ، جمعَتْنا في عناقٍ جماعيٍّ، وأنَّ وجهي كان مُلتصقاً بعنق المبتدئ، وخدِّي يسجِّل ملامسة شعيراتٍ خشنةٍ كأنَّها ورق صنفرة، ودماغي يسجِّل شعوراً بالذُّعر لكوني اقتربْتُ منه إلى ذلك الحدِّ. وقدْ أبقَتْنا السيدة العجوز محتجزَين قرابةَ دقيقةٍ، وهي تشخر تحت دموع فرحٍ وارتياحٍ وتقول: «شكراً لكما، شكراً جزيلاً»، قبل أنْ تأخذ بيدَي كلينا وتقودنا نحو خزانة المكانس في المطبخ.

بداخلها، في الأسفل على الأرضية، كانَتْ علبةٌ مليئةٌ بجراءٍ سمينةٍ ملتويةٍ على بعضها.

قالَتْ وهي تدفعنا نحوها: «خذا بعضاً منها».

أرادَتْ إعطاءنا بعض الجراء؟ «لا، شكراً يا سيدتي»، قلتُ، «لا نستطيع قبول الـ. . .» كنتُ سأقول: «هدايا»، ولكنْ حين رأيْتُ المبتدئ ينحني نحوها ليجلسَ، ويحمل ويُهدهِد أحد تلك الجراء الهلامية بين ذراعيه، انتهيْتُ بالقول: «. . . جِراء».

---

(1) كشتبان: قِمْع صغير يغطِّي طَرَف إصبع الخيّاط ليقيه وخزَ الإبر - المترجم.

وقف المبتدئ ليُريني إيَّاه، بوجهٍ يشعُّ بريقاً وحظّاً. «انظري إلى هؤلاء الرفاق الصغار!».

«نصف شيواوا...»، قالَتِ السيدة العجوز، «ونصف بودل»، ثمَّ أمالَتْ رأسها لتشير إلى البيت المجاور، «من الجيران».

«بو-واوا»، قال المبتدئ، وهو يمرِّغ وجهه في بطن الجرو الصغير السمين.

«يا مبتدئ»، قلتُ وأنا أحرِّكُ رأسي: «كفاك».

«ألا تظنّين أنَّ المحطَّة في حاجةٍ إلى تميمة حَظٍّ؟».

«أوقِفْ ذلك، يا مبتدئ»، قلتُ بأقصى نبرةٍ مهدِّدةٍ استطعتُ.

لكنَّه دفع الجَرْوَ نحو وجهي. «انظري إلى هذا الوجه».

كان ذلك أقصى ما أستطيع تحمُّله. وضعتُ خطّاً أحمرَ على الجراء. «أنا مغادرةٌ»، قلتُ وأنا أبتعد.

حين لحق بي المبتدئ بعد ذلك بدقيقةٍ على الممشى الأمامي للبيت، لم ألتفتْ. «أخبرْني أنَّكَ لا تحمل جَرْواً بين ذراعيك».

«لا أحمل جَرْواً بين ذراعيَّ...» قال وهو ما يزال خلفي، مستمتعاً بإحجامه عن الأمر.

أجبْتُ بارتياحٍ: «جيِّدٌ، لأنَّني...».

فقاطعني: «... بل أحمله في سلَّةٍ».



13

طوّرتُ استراتيجيةً في التعامل مع ديانا: أجوبةٌ من كلمة واحدة فقط.

اتّضح أنّني كنتُ محقّةً طوال الوقت، فلم تكنْ ترغب فقط في المساعدة بخصوص موادِّ البقالة وصعود السلالم، بل أرادَتْ قضاء الوقت معي، أرادَتْ صُحبتي... وصداقتي.

كانَتْ ترغب في مغفرتي.

كانَتْ تدّعي أنّها سعيدةٌ فقط لوجودي هناك بالأرجاء، لكنَّ أفعالها كانَتْ تشير إلى أنّها كانَتْ ترغب في أكثر من ذلك. حيثما كنْتُ، كانَتْ تظهر دوماً في المكان نفسِه، فإذا كنْتُ بصدد قراءة كتابٍ في غرفة المعيشة، كانَتْ تحمل مَجلّةً لتقرأها في غرفة المعيشة. وإذا كنتُ أعدُّ لنفسي وجبةً خفيفةً في المطبخ، أجدُها تُعِدُّ إبريقَ شايٍ. وإذا كنتُ أتمشّى على رصيف الميناء، يتصادف ذلك مع كونها في مزاجٍ رائقٍ للمشي هي الأخرى.

كانَتْ شخصاً يُستمتَعُ برفقته، وكانَتْ سهلةَ المراس، لكنّها فشلَتْ في إدراك شيءٍ شديد الأهمية: لم أكنْ أرغب في أنْ أكونَ صديقتها.

بل عكس ذلك تماماً هو ما كنْتُ أريد، في واقع الأمر.

فخلال السنوات التي تلَتْ رحيلها، شيَّدْتُ حياتي برمَّتها على أساسٍ من الروتين والنظام وتقليل الدراما للحد الأدنى. كان ذلك يعني إعداد جَدْوَل أعمال والالتزام به. وكان ذلك يعني الذهاب إلى المكان نفسِه، وتناوُل الأطعمة نفسها، واتِّباع الروتين نفسِه مرَّةً بعد أخرى. كان ذلك يعني أيضاً القيام بكلِّ شيءٍ بطريقةٍ حذرةٍ، ومضبوطةٍ، ومُتحكَّم فيها.

وكان ذلك قبلَ انتقالي إلى هنا. والآن قلبْتُ كلَّ شيءٍ رأساً على عقب. كانَتْ نسبة الفوضى في حياتي أعلى بعشر مرَّاتٍ ممَّا أستطيع ضَبْطَه، وآخر شيءٍ أحتاجه هو الخوض في خيبات أملٍ قديمةٍ من امرأةٍ يئسْتُ منها قبل وقتٍ طويلٍ.

أنا هنا لأمدّ يد العون، وأكون لطيفةً، وأقوم بواجبي.

لسْتُ هنا للتَّسكُّع واللعب، أو تعلُّم فنِّ الكروشيه، أو تعرية روحي والتَّخفيف عنها. مع أيٍّ كان.

لكنَّ ديانا لم تفهمْ ذلك.

«أجيبيني عن هذا السؤال»، قالَتْ ذات ليلةٍ وأنا أحاول الفرار بعد العشاء لممارسة بعض الباركور.

«أنا مشغولةٌ»، قلتُ وقد بلغْتُ الباب.

«أنتِ دوماً مشغولةٌ».

«آسفةٌ».

«هناك شيءٌ أودُّ الحديث معكِ بخصوصه».

هززْتُ كتفيَّ، وأشرْتُ نحو الطريق. «يجب أنْ أتدرَّبَ».

كان المنزل صغيراً للغاية، لدرجة أنَّ ذاك الهروب الليليَّ غدا نوعاً من الخلاص. كنتُ أجري عبر الأزقَّة الضَّيِّقة، ونحو البلدة،

وعلى طول الساحل. أثب، وأقفز، وأتسلَّق، وأتأرجح. كان ذلك يجعل البلدة تبدو ساحةَ لعبٍ كبيرةً.

عادةً كنتُ أرجع لأجدَ ديانا تغطُّ في النَّوم، وآلةُ الضوضاء البيضاء[1] ذي الأصوات المُهدِّئة مُشغَّلةٌ. ولكنَّها في تلك الليلة ظلَّتْ ساهرةً تنتظرني.

حين دخلتُ، كانت جاثمةً على الأريكة في غرفة المعيشة، مثل عنكبوتٍ.

قالت حين دخلتُ: «تعالي نتحدَّثْ دقيقةً».

«لستُ أهوى الحديث كثيراً».

«لكنَّكِ كنتِ تفعلين».

«كنتُ أفعل الكثير من الأمور».

جلسْتُ، كما طُلِبَ منّي، لكنَّني اخترْتُ أقرب المقاعد إلى السلالم، وجلسْتُ على حافَّته أنتظر أن تسنح الفرصة لفراري. مع جلوسي شرعَتْ تَدرُسني، ثمَّ قالتْ: «أحتاج منكِ شيئاً».

نظرْتُ في عينيها: «ماذا؟».

«أريدكِ أنْ تُسامحيني».

حسنٌ، كان ذلك فجّاً: «لا نحصل دوماً على ما نريد».

«لا أريدُكِ أنْ تفعلي ذلك من أجلي. أريدكِ أنْ تفعليه من أجلكِ أنتِ».

أخذتُ شهيقاً عميقاً. «لن نكون صديقتَين، يا ديانا».

«الأمر ليس بخصوص أنْ نكون صديقتَين».

---

(1) White noise machine: آلة تصدر أصواتاً مهدِّئةً للمستمع، تكون عادة أصواتاً طبيعيةً، مثل صوت انهمار مياه الشلالات أو صوت رياح تمرُّ عبر الأشجار مُحدثة حفيفاً - المترجم.

«بل يبدو أنَّه يَؤول إلى شيءٍ من ذاك القبيل».

عبسَتْ في وجهي. «أرغبُ في أنْ أكون صديقتكِ، أرغب في ذلك حقّاً، لا أنفي ذلك. فضلاً عن أنَّني أحبُّكِ، فقد كنتِ دوماً تروقينني جدّاً، جدّاً. لذلك ما كنْتُ لأتظاهرَ بأنَّني أشعر تجاهك بالمشاعر نفسها التي قد أشعر بها تجاه شخصٍ غريبٍ من الشارع، ولكنَّ ذلك ليس ما أعنيه حين أطلبُ منكِ أنْ تُسامحيني».

انتظرتُ.

«الأمر يتعلَّق بشيءٍ أعمقَ من ذلك».

انتظرتُ مجدَّداً، إلى الحدِّ الذي استطعتُ، ثمَّ استسلمْتُ وسألتُ: «ماذا؟».

«الأمر يتعلَّق بالتَّخلُّص أخيراً من كلِّ ذاك الغضب الذي تحملينه معكِ أينما حللْتِ».

لم تكن مُخطئةً، فقدْ كنتُ أحمل غضبي معي. ربَّما ليس إلى كلِّ مكانٍ، لكنَّ الأمر كذلك تقريباً.

وهو أثقل بكثيرٍ ممَّا قد تتصوَّرون.

كان بإمكاني الكذب حينها، أو الذهاب إلى النوم، أو حتى الفرار عبر الباب الأمامي نحو قلب الظلام، لكنَّني لم أفعل أيّاً من ذلك. فهل كنتُ أرغب في التَّخلُّص من كلِّ ذلك الغضب؟

بالتأكيد كنتُ أرغب في ذلك.

أطلقتُ تنهيدةً طويلةً قبل أنْ أقول: «أنا فقط لا أعرف كيف أفعل ذلك».

دنَتْ منِّي أكثر، في انتظار المزيد.

كنتُ قد بدأتُ، فقرّرت الاستمرار.

«كنتُ، بطريقةٍ ما، دوماً أظنُّ أنَّ المغفرة ستأتي مع الوقت»،

بحثتُ عن كلماتي لوهلةٍ، ثمَّ أردفتُ: «وأنَّ المرارة ستختفي شيئاً فشيئاً من تلقاء نفسها، مثل ندبةٍ... ثمَّ يأتي بعد ذلك وقتٌ لا أجدُها في أيِّ مكانٍ حتى لو نظرتُ. لكنَّ ذلك لم يحدثْ. فلمْ تختفِ، بل تصلَّبَتْ، والأشياء الأخرى من حولها اختفَتْ، لكنَّ ذكرى اليوم الذي رحلْتِ فيه ما زالَتْ بالحدَّة نفسِها كأنَّ الأمر حدث للتَّوِّ. فما زلتُ أستطيع رؤية سيَّارتكِ وأنت تهمِّين بالمغادرة، وما زلتُ أستطيع سماع صوت الفرقعة تحت العجلات وهي تمرُّ فوق البذور المتساقطة من شجرة الذّرة الرمادية، وما زلت أستطيع رؤية جانب وجهكِ، جامداً كتمثالٍ من الشمع وأنا أضرب بيدي على النافذة، وأستطيع أنْ أشعر بكلِّ المشاعر التي انتابَتْني ذلك اليوم، بعرضٍ بطيءٍ. وإذا كان أيُّ شيءٍ قد تغيَّر، فقد صارَتْ هذه الذكريات أقوى».

كانت تلك الذكريات مرتبطةً بذكرياتٍ أخرى بالطبع، وما كنْتُ لأشاركها أكثر من ذلك. لكنَّ ما كنتُ أقوله لم يَخلُ من صدقٍ: «أعلم أنَّ المغفرة صحِّيَّةٌ. أعلمُ أنَّ الشَّخص الوحيد الذي تؤذينه بالتَّشبُّث بكلِّ تلك المرارة هو نفسكِ. لكنَّني، حقيقةً، ما كنتُ لأعلم من أين أبدأ حتى. كيف تسامحين الناس؟ كيف يُفترَضُ بذلك أنْ يعمل؟».

كان من المفترض أنْ تكون تلك أسئلةً بلاغيَّةً لا غيرَ.

لكنَّني سمعْتُ نبرة ابتهاجٍ وهي تردُّ: «إنَّه يوم حظِّكِ، يتصادف أنَّني نوعاً ما خبيرةٌ فيما يخصُّ المغفرة».

«لكنْ، مَن كان عليكِ أنْ تسامحي؟».

لحدِّ علمي، كان من الأرجح جدّاً أنْ تكون جانيةً لا مَجْنيّاً عليها.

قالت: «نفسي، بدايةً، ثمَّ بعد ذلك، العديد من الأشخاص الآخرين. لا يمكن أنْ تبلغي سنِّي هذا من دون أنْ تكوني قد مررْتِ بالعديد من خيبات الأمل. والديَّ، بطرقٍ ما، بعض الأصحاب، ووالدك».

«والدي؟»، قلتُ باستغرابٍ، ولسان حالي يقول: بربِّكِ. «بابا رجلٌ مثاليٌّ».

«يكادُ يكون».

«لقد أكرم معاملتك».

«أجل، فَعل ذلك».

«لقد عاملكِ بالحُسنى، ثمَّ خنْتِه».

تغيَّرَتْ نبرتُها كأنَّ شيئاً في داخلها استيقظ. «أنا لم أخُنْ والدَكِ قَطُّ».

نظرْتُ إليها بتحدٍّ. **أنا أعلمُ كلَّ شيءٍ بخصوص ذلك.**

«أبذلك أخبرَكِ؟».

«كان ذلك ما قاله للخالة كارولين، وتناهى ذلك إلى مسمعي...».

أقرَّتْ مجدَّداً، بهدوءٍ وثقةٍ: «أنا لم أخنْ والدكِ».

«لقد تركْتِه من أجل رجلٍ آخر»، قلتُ بنبرةٍ صارمةٍ مفادُها: **أُقفِلَتِ القضية.**

«نعم، تركْتُه، لكنَّني لم أخنْهُ».

لم أستطع مَنْعَ نفسي من أنْ أشبكَ ذراعيَّ.

شرعَتْ ديانا تحكي: «حدث ذلك خلال الفصل الذي قدِمْتُ فيه إلى هنا كأستاذة زائرة، وقد كنْتُ وحيدةً إلى حدٍّ رهيبٍ. لم أقصد أنْ أُتيَّمَ بوالاس، لكنَّني كنتُ أجلس بمفردي كلَّ يومٍ لحظة الغداء،

فكان مدرِّسو الفنون عصابةً مُتعاليةً على نحوٍ شاذٍّ، وقد بدأ يجالسُني يوماً بعد يوم. كان، وإلى حدٍّ رهيبٍ، خفيفَ الروح وجذاباً. كان يرتدي سترةً رماديةَ اللون حِيكَتْ يدويّاً، وكان له صوتٌ أجشُّ ورائعٌ، وكانَتْ تصدر منه دوماً رائحة كعك الزنجبيل. لا أعرف كيف أصفُ لك ذلك. انطلقَتْ بيننا شرارةٌ، فكلَّما رأيْتُه رغبْتُ في رؤيته أكثر. كانَتْ زوجتُهُ قد هجرَتْهُ قبل وقتٍ قصيرٍ من لقائِنا، وكنَّا - كلانا - جدَّ... وحيدَين. وبسرعةٍ غدا أروعَ شيءٍ في حياتي هنا. يؤسفني قول ذلك، لأنَّ والدك شخصٌ رائعٌ للغاية، لكنَّني بقدر ما كنت أحبُّه لمْ أكنْ مُتَيَّمةً به قَطُّ. تزوَّجْتُه لأنَّه كان عمليّاً ومساعِداً وطيِّباً، وليس لأنَّني أُغرِمتُ به. لم أحظَ بذاك الشعور في حياتي من قبلُ قَطُّ حتى الْتَقيتُ بوالاس، بل إنني لم أكنْ أعرف أنَّ شعوراً كذاك موجودٌ. كان الأمر أشبه بأنْ تَعلقي داخل عاصفةٍ هوجاءَ لطيفةٍ، تعزلكِ عن باقي العالم. ولكنَّني لم أقبِّلْهُ أو أشاركْهُ الفراش خلال كلِّ تلك الفترة. أمسكْنا بيدَي بعضنا بشغفٍ بضع مرات وكان ذلك كلَّ ما في الأمر».

عدَّلَتِ ديانا جَلْسَتها على الأريكة، ثمَّ تابعَتْ.

«لا أعلم إذا سبق لكِ أنْ وقعْتِ في الحبِّ...».

حرَّكْتُ رأسي بالنفي.

«لكنَّهُ شيءٌ عظيمٌ بحقٍّ، شيءٌ يغمرُكِ ليستأثر بكِ، بكلِّيَّتِكِ. لا يمكنكِ أنْ تفكِّري بأيِّ شيءٍ عداه. كنْتُ هناك، امرأةً بمنتصف العمر، بشُعلةٍ متَّقدةٍ كأنَّني مراهقةٌ. لم أكنْ فقط راغبةً في أنْ أكونَ مع والاس، كنتُ في حاجةٍ إلى ذلك. جنحْتُ إلى خطَّةٍ، هي أنَّني سأنتظر حتى تغادري إلى الجامعة. كانَتْ مسألةَ انتظار عامين آخرين. كنتُ أظنُّ أنَّني أستطيع الانتظار تلك الفترةَ، ولكنْ بعد ذلك، وخلال

الليلة التي اعترفْتُ فيها بمشاعري وبخطَّتي لوالاس، أخبرني أنَّه مريضٌ».

أغمضَتِ ديانا عينيها لوهلةٍ، ثمَّ تابعَتْ: «كان يعاني من مرضٍ لم أسمع به قَطُّ، يدعى التَّلَيُّف الرئويّ[1]، ولم يكن له علاجٌ. كانَتْ رئتاه في طور الانهيار. كانوا يظنُّون أنَّه تبقَّتْ له سنتان، وفجأةً، اتَّضحَ أنَّ وقتَنا بدأ ينفدُ».

كانَتْ تلك معلومةً جديدةً بالنسبة إليَّ. كنتُ أعلم أنَّها تركَتْنا من أجل رجلٍ يُدْعَى والاس. وبعد سنتينِ، سمعْتُ أنَّه تُوفِّيَ، لكنَّني لم أعرفْ قبل تلك اللحظة أنَّها كانَتْ تعلم أنَّه يموت حين هجرَتْنا.

قالت، وهي تفركُ بعض بقع التزجيج اللَّمَّاعة على أصابعها: «كان أمامي خيارٌ مستحيلٌ لأقومَ به حينها...».

كان على أعتاب الموت حينَ رحلَتْ.

هذا التفصيل صبغَ القصَّةَ بظلالٍ مختلفةٍ، أُقرُّ بذلك.

«ولكنْ لمَ كان عليكِ الرحيل يوم عيدِ ميلادي؟» قاطعْتُها، وأنا أشعر بحلقي يتصلَّب، «... عيد ميلادي السادس عشر».

أومأَتْ إليَّ. «كان سيخضع لعمليَّةٍ جراحيَّةٍ صباح ذلك الاثنين. كان حينَها ما يزال بصحَّةٍ كافيةٍ للخضوع لعملية زراعة رئةٍ، لكنَّ الأمور لم تأخذ المجرى الذي كان مُتوقَّعاً. انتظرْتُ حتى آخر لحظةٍ، لكن، عشيةَ عيد ميلادك، وجدْتُ نفسي مُضطرَّةً للرحيل حتى أصلَ إلى هناك في الموعد، كان خائفاً ووحيداً».

---

(1) Pulmonary fibrosis: التَّلَيُّف الرئوي (حرفياً «تندُّب الرئتين») هو مرض تنفسي تتشكل فيه ندبات في أنسجة الرئة، ممَّا يؤدي إلى مشاكل خطيرة في التنفس - المترجم.

«وأنا كنتُ خائفةً ووحيدةً»، غادرَتِ الكلمات شفتيَّ بما يشبه الهمس.

لكنَّها سمعَتْ ذلك.

أومأَتْ إليَّ مجدَّداً. «فكَّرْتُ في أنَّني سأقسم الخسائر إذا ما بقيْتُ حتى عيد ميلادك: كنتُ أستطيع أنْ أكون معكِ في الصباح، وأراك، ثمَّ بعد ذلك أمضي لآخذه نحو المستشفى».

شعرتُ بانقباض صدري، كأنَّ ثقلاً هوى عليه.

ثمَّ قالَتْ بعدها: «ثمَّ صار ذلك ما يُحدِّد حياتَينا أنا وأنتِ: أنَّني رحلْتُ في عيد ميلادِكِ السادس عشر.. وكان التوقيت رهيباً، أقرُّ بذلك، لكنَّني حاولتُ البقاء لأقصى ما استطعت من وقتٍ، وأردتُ أخذَكِ معي، إذا كنتِ تذكرين».

بالطبع، أذكر. كانت قد طلبَتْ منِّي مرافقتها، لكنَّني لم أكنْ أستطيع تَرْكَ أبي، وكنْتُ حانقةً عليها إلى حدٍّ يفوق الوصف، لأنَّها السَّبب في شتات أسرتنا. لم أكن أرغب في الحديث معها، فما بالك بالرحيل معها إلى الطرف القصيِّ من البلاد.

لكنَّ ذلك لم يكنْ يعني أنَّني أردْتُها أنْ ترحلَ.

أردْتُها أن تعود إلى رشدها وتبقى معنا.

«لِمَ لَمْ تخبريني عن مرض والاس؟»، سألْتُها.

«لم أكنْ قد أخبرْتُ والدَكِ بعدُ حينها. لم أكنْ أعلم مقدار ما يستطيع تحمُّله. لقد بكى كثيراً حين أخبرْتُه. كنتُ أخشى أنْ يؤذي نفسه. ظننتُ أنَّني أستطيع أنْ أشرح له بطريقةٍ أفضل لاحقاً بعد أنْ تهدأ الأمور. كنتُ أتَّخذُ أفضل ما استطعْتُ من قراراتٍ، صدقاً. لم أعِ قَطُّ وأنا أقود سيَّارتي يومها أنَّكِ لن تتحدَّثي إليَّ مُجدَّداً».

حدجْتُها بنظرةٍ مفادها: بحقِّكِ.

«أنا أعيش حالياً في منزلك، ولا أظنُّ أنَّه من الدِّقَّة أنْ تقولي إنَّني لم أتحدَّثْ إليكِ مُجدَّداً».

أومأتْ إليَّ بما معناه: صحيح، ثمَّ قالتْ: «لكنَّني فقدْتُكِ».

لم تكن مُخطئةً في ذلك. لقد فقدَتْني فعلاً.

والآن كان ربّما الوقت المناسب لأعترفَ لها بالحدث الجَلل الثاني في عيد ميلادي السادس عشر. اعترفْتُ لنفسي، وأنا أشاهدها ترفع يداً مُرتجفةً لتعدِّل رقعة عينها، التي كانَتْ مُخطَّطةً بالأزرق والأصفر يومها، أنَّه ليس عدلاً منِّي أنْ أدعَها تظنُّ أنَّها وحدَها المسؤولة عن كلِّ ما حاق بي من بؤسٍ بعد رحيلها. وكانتْ ربّما هذه اللَّحظةُ الوقتَ المناسب لأمنحَها الإجابة الحقيقيَّة عن سؤالها اللطيف ذاك عمَّا حدث مع هيث تومسون.

لكنَّني لم أستطعْ. لم أتكلَّمْ عن ذلك مُطلقاً في حياتي، مع أيٍّ كان. وحتى تلك اللحظة، لم أكنْ أظنُّ أنَّني أستطيع فِعْلَ ذلك.

عِوَضَ ذلك، غيَّرْتُ الموضوع. «حسنٌ إذاً...»، قلْتُ لأملأَ الصَّمتَ الذي خيَّم على المكان أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، «كيف تعمل المغفرة؟».

أومأَتْ لي، كأنَّنا عدْنا مُجدَّداً إلى صُلْبِ الموضوع، وعدَّلَتْ جلستها لتنتصب في مكانها، وتأخذَ وضعاً يوحي بالجدِّيَّة، ثمَّ قالتْ: «هناك طرقٌ شتَّى لتقشير دواخلنا من الرواسب العالقة فيها كي تنبت المغفرة هناك، فمجرد قول 'أنا أسامحك'، ولو لنفسكِ، يُعَدُّ بدايةً قويَّةً». لم تتوقَّفْ لترى إنْ كنتُ سأقول ذلك، بل واصلَتْ كلامها: «المغفرة تتعلَّق بما يُسَمَّى عقلية التَّرك»، توقَّفَتْ لتفكِّرَ قليلاً ثمَّ قالتْ: «بأنْ تعترفي لنفسِكِ بأنَّ شخصاً ما جرحَكِ، وتتقبَّلي ذلكَ».

ثمَّ، فكَّرْتُ في سرِّي.

«ثمَّ تتقبَّلين أنَّ الشخص الذي جرحَكِ خَطَّاءٌ كجميع الناس، وتسمحين لذلك بأنْ يقودكِ إلى فهم أفضل وأكثر دقَّةً لما حدث».

خطَّاءٌ، قلتُ في سري. حسنٌ، تمَّ.

«ثمَّ هناك جزءٌ ثالثٌ» أردفَتْ، «وربَّما هو الأصعب، يتضمَّنُ محاولة الاطِّلاع على تداعيات ما حدث، وإيجاد نتائج استفدتِ منها، وليس فقط نتائج تأذَّيتِ منها».

صوَّبتُ نظري نحوها. «هذه الأخيرة عجيبةٌ».

«أتَّفقُ معكِ»، أومأتْ إليَّ، «لكنَّها الأفضل».

«أتقولين إنَّه يجب عليَّ أنْ أبحث عن مزايا لرحيلك؟».

«يجعلني ذلك أبدو جشعةً، أليس كذلك؟».

«شيئاً ما».

«لكنَّ تلك، في الواقع، هي الطريقة التي يعمل بها الأمر. كنتُ سأخبركِ بالشيء ذاته حتَّى لو كنَّا نتكلَّم عن شخصٍ آخر غيركِ».

«تعلمين الكثير بخصوص هذه الأمور».

«كان لديَّ وقتٌ وافرٌ لأدرُسَ». بعد ذلك أمالَتْ رأسها نحوي. «أيمكنكِ التفكير في أيَّة مزايا؟ أيمكنُكِ التَّفكير في أيَّة أشياءَ جيِّدةٍ في حياتكِ ما كانَتْ لتكون لو أنَّني لم أرحلْ؟».

أطلقْتُ زفيراً عميقاً. عبسْتُ، ثمَّ شرعْتُ أفكِّر في ذلك بعض الوقت، وأنا أحدِّق في الأرض.

ثمَّ، أخيراً، قلْتُ: «لقد أصبحْتُ جيِّدةً، جيِّدةً جدّاً، في لعب كرة السَّلَّة».

14

استراتيجيّتي لتجنُّب المبتدِئ كانَتْ مشابهةً لتلك التي نهجْتُ في تجنُّب ديانا، وقد كانَتْ بالفاعلية ذاتها تقريباً. فإصراري على الابتعاد عنه ما أمكنني قابلَهُ إصرارُ الكابتن على أنْ يجعل منّا شريكَين. فكان علينا الجلوس جنباً إلى جنبٍ في أثناء تناول الوجبات على أتعس كراسيَّين، وكان علينا تنظيف المراحيض معاً، والقيام بكلِّ المهامِّ التي لم يرغب في القيام بها أحدٌ غيرنا. وكان لنا أسوأُ مكانَين في موقف السيارات: أبعدُهما.

لبعض الوقت، تمَّ اعتبارنا ثنائياً مبتدِئاً.

وقد عملْتُ بجدٍّ لأغيِّر ذلك.

ذلك يعني، من الناحية العملية، جَعْلَ المبتدئ ضحيةً للمقالب، إبرازاً للفرق وإرساءً لمكانتي بأنّني مَنْ يقوم بالمقالب لا مَنْ يقع ضحيةً لها.

وبالنتيجة: مَنْ أخفى ملابسه بينما كان تحت الدُّشِّ؟ أنا. مَنْ سكب ماءً مثلَّجاً عليه حين كان يغطُّ في نوم عميقٍ؟ أنا. مَنْ غمر حذاءَهُ بالماء ووضعَهُ في الثلاجة؟ أنا. وأيُّ شيءٍ آخر أراد الرفاق فِعْلَهُ، كنتُ أنا مَنْ يقوم به. لقد تطوَّعْتُ لذلك. ظننْتُ أنَّ ذلك

سيرسم خطّاً فاصلاً بيننا. ظننْتُ أنَّ ذلك سيفرِّقُني عنه في أعين باقي أفراد الطاقم. ظننْتُ أنَّ ذلك، على أقلِّ تقديرٍ، سيزعج المبتدئ ويزجره عن لطفه اللعين معي طوال الوقت.

لكنَّ أيّاً من ذلك لم يحصل. كان ابنَ بيغ روبي. لقد نشأ في محطَّة إطفاءٍ. كان يدرك شرف أنْ يقع المرء ضحيَّةً لمقلبٍ. كان يضحك على كلِّ واحدٍ منها، ولم أرَ منه أيَّة علامةٍ طفيفةٍ على التَّذمُّر. مقلبُ عصير الليمون المصنوع من بودرة المعكرونة بالجبنة؟ رائع. مقلبُ المايونيز على كرسيِّ المرحاض؟ أسطوريٌّ. مقلب الغائط البلاستيكيِّ على سريره؟ مضحكٌ للغاية.

في أحد الأيام، أقنعْتُه بالتَّبوُّل في كوبٍ بلاستيكيٍّ وتركه على مكتب الكابتن.

«لا تودُّ العبث مع اختبار المخدرات، يا رجل»، تَدَخَّلَ العضلات السِّتُّ قائلاً قبل أنْ يضيف: «جميعنا سلَّمنا عيِّناتنا عند بداية المناوبة».

«لا تريدُه أنْ يظنَّ أنَّكَ تُخفي شيئاً»، أضاف الحقيبة بكلِّ تلقائيةٍ من مكانه، غارقاً وسط الكنبة أمام التلفاز.

نظر المبتدئ حوله، يتفحَّصُ وجوهَنا في ارتيابٍ كبيرٍ، لكنَّه أخذ الكوب من فوق الطاولة ومضى في طريقه. لحق به العضلات السِّتُّ وربَّت على كتفه: «لا تنسَ أنْ تضع عليه مُلصقاً يحمل اسمكَ».

عشر دقائق بعد ذلك، ظهر الكابتن بباب المطبخ حانقاً، يكاد ينفث اللهب. «كالاغان»، صرخ بصوتٍ أقرب إلى الزئير.

رفع المبتدئ رأسه بينما كان يُعِدُّ شطيرةً. «نعم، سيدي؟».

«لِمَ يُوجَدُ كوبٌ لعينٌ من البول الفاتر على مكتبي بمصلقٍ يحمل اسمَكَ؟».

أغمض المبتدئ عينيه بينما انفجرْنا جميعاً ضاحكين. نجح في كَتْم ابتسامة ثمّ حرَّك رأسه. «أعتذر سيدي، لقد تَمَّ إخباري أنَّنا نُقدِّم عيِّناتِ البول اليوم».

«ومَنْ أخبرَكَ بذلك؟» طالَبَ الكابتن حانقاً.

لكنَّ المبتدئ لم يشِ بنا. «لا أذكر، سيدي».

فيما يخصُّ الطاقم، كُلِّلَتِ استراتيجيتي بالنجاح. أمَّا مع الكابتن فكانت النتائج عكسيَّةً. فحين توقَّف عن النظر إليَّ على أنَّني مبتدئةٌ، صار يريد منِّي أنْ أتكفَّل بالمبتدئ.

ما يعني أنَّه جعلَنا نُمضي معاً وقتاً أكثر من السابق حتى.

ولا سيَّما أنَّه بعد أنْ مسحْتُ بضئيلِ الأرضية في تحدِّي كرة السَّلَّة، فقد صارت لديَّ مشكلَة جديدةٌ: لم يعدْ أحدٌ يرغب في أنْ ألعب، لأنَّني كنتُ جيدةً أكثر من اللازم.

يا للمفارقة.

بعد الظهيرة، وبينما يبدأ الرفاق مباراة كرة السلَّة، يُرسلني الكابتن للتَّدرُّب على بعض المهارات الأساسية رفقة المبتدئ.

ما يعني أنَّ الشخص الوحيد في العالم الذي كنتُ أحاول باستماتةٍ أنْ أبقى بعيدةً عنه، كان مُجبَراً كلَّ مناوبةٍ على تمضية بضعِ ساعاتٍ يضع يديه على كامل جسدي. مرَّةً بعد أخرى، ببطءٍ، لفتراتٍ طويلةٍ جدّاً.

وبينما كان الرفاق يسدِّدون نحو السَّلَّة، كنتُ مضطرَّةً للسماح للمبتدئ بتفقُّد استقامة عمودي الفقريّ بأصابعه حتى نهايته في الأعلى، ثمَّ حتى نهايته في الأسفل، مرَّةً بعد أخرى. كنْتُ مضطرَّةً للسَّماح له بوضع جبيرةٍ على كلٍّ من يديَّ، وكاحليَّ، وركبتَيَّ، ورَبْطِي على لوحةٍ نقَّالةٍ، ووَضْعِ طوقِ العنق حول رقبتي، والانحناء

فوقي، والاحتكاك بي، بينما يحاول رَبْطَ الأحزمة. كنْتُ مُضطرَّةً لخلع قميصي والجلوس مرتديةً حمَّالة صدري الرياضية بينما يقوم بوَضْعِ رُقَع جهاز تخطيط كهربائيَّة القلب بترتيبها الصحيح على صدري. وخلال كلِّ ذلك، قُرْبُه منِّي يوقظ كلَّ حواسِّي، ويسري بداخلي مثل كهرباءٍ ساكنةٍ. رائحة منظِّف ملابسه التي تُسيل اللعاب، ورجولته عموماً تَهُبَّان عليَّ في موجاتٍ لانهائيةٍ.

في حياتي الاعتيادية، لا أسمح لأحدٍ بلمسي.

لكنَّ المحطة كانَتْ عالماً مختلفاً. كنتُ أستطيع تحمُّل أيِّ شيءٍ من أجل الوظيفة، حتى لو عنى ذلك أنْ يلمس رجلٌ وسيمٌ جسدي.

كان عذاباً، لكنَّه ليس العذاب الذي كنتُ أتوقَّعه. فعموماً لم أكنْ أسمح للناس بلمس جسدي، لأنَّ ذلك كان يصيبني بالتوتُّر. لكنْ، ولسببٍ ما، كان للمبتدئ عليَّ تأثيرٌ معاكسٌ تماماً. كان كلَّما لمسني أو أزاح شعري نحو الخلف ليفحص الفقرات خلف عنقي، أو حرَّك السَّمَّاعة الطِّبيَّة على صدري وظهري، أو وضع جهاز قياس ضغط الدم على ذراعي، رغبْتُ في أنْ يلمسني أكثر.

غريبٌ.

ربَّما كان تردُّد الأمر هو السَّبب؛ إذْ إنَّ الكابتن كان يجعلنا نتدرَّب كثيراً، وربَّما نجحْنا في كَسْرِ حاجز الألفة، وهو الأمر الذي لم يسبق لي أنْ فعلْتُه مع أيٍّ كان من قبلُ، حيث كان بإمكاني الاسترخاء.

لأنَّني كنتُ أسترخي حقّاً. وصل الأمر لدرجة أنه حين يشرع في إخراج عُدَّة جهاز تخطيط القلب، أشعر بوخزٍ طفيفٍ لذيذٍ يعتري سائر جسدي كأنَّني في حوض حمَّامٍ ساخنٍ، أترقَّبُ ذلك بانغماسٍ تامٍّ.

كان ذلك غريباً حقّاً، لأنَّه سبق لي أنْ قمْتُ بالتدريبات ذاتها مع أشخاصٍ آخرين ولم يكن الأمر قطُّ، ولو مرةً واحدةً، بهذه الطريقة جِدٌ... اممم... المثيرة للحواسّ.

أظنُّ أنَّ السياق مهمٌّ للغاية، فإعجابي المخبول به كان يشحن حتى تلك المعاملات المبتذلة - المرور عبر الممرّ، تناول العشاء، التدرُّب على سحب الدم - بكهرباء طفيفةٍ. زيادةً على أنَّ ذلك كان تأثير المبتدئ الطبيعي على الناس، فهو يجعل الجميع مرتاحين.

كان الأمر جيّداً لدرجة أنَّه كان سيِّئاً. كان مُذهلاً لدرجة أنّه كان مرعباً. كان لذيذاً لدرجة أنّه كان شنيعاً.

ثمَّ استمرَّ على ذات المنوال، يصير أفضل وأسوأ.

نجح ذلك في تحريك شيءٍ عتيقٍ وقويٌّ في داخلي، تَوْقٌ غيرُ مألوفٍ لم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ كيف أتعامل معه. وكنت أكره الأشياء التي لا أعرف كيف أتعامل معها.

لكنَّ كلَّ الأحاسيس التي انتابتني لم تكنْ ذاتَ أهمِّيَّةٍ. طلب الكابتن أنْ أعلِّم المبتدئ كلَّ ما أعرفه؟ علَّمْتُه كلَّ ما أعرفه. طلب الكابتن قضاء ساعاتٍ متواصلةٍ أسمح له فيها بوضعِ يديه على كافَّة جسدي من أجل مصلحة محطَّتنا؟ فعلتُ ذلك. هكذا يعمل التَّسلسُلُ القياديُّ. لا أسئلةَ تُطرَحُ.

وإذا كان المبتدئ يحوِّل جسدي إلى سيمفونيةٍ من المشاعر، فلم يكن ذلك مهمّاً.

في كلِّ الأحوال، وضعْتُ نفسي تحت إمرتِهِ، فعلَّمْتُه كيف يصنع مُنظِّفَ عيونٍ من قنية أنفية، وكيس للسوائل الوريدية، وساعدته على التدرب على عقدة الخلبة، وعقدة الوتد. علَّمْتُهُ كيف يشغِّل جهاز

اللاسلكي بِيَدِهِ اليسرى كي يتسنَّى له تدوين الملاحظات في الوقت نفسِهِ. وعلَّمْتُه أنَّه في حالةٍ ما إذا كان المريض يضع الكثير من طلاء الأظافر، فيمكنُهُ إمالة جهاز قياس التأكسج النبضي جانبياً كي يحصل على قراءةٍ أوضح.

علَّمْتُه أيضاً ألَّا ينظر إلى أعين المرضى الذين يكونون في حالاتٍ حرجةٍ. نصيحةُ محترفٍ.

«لم لا؟» سألني.

أجبْتُ وأنا أحرِّكُ رأسي: «ستطارِدُكَ تلك الصُّوَرُ... ستطارِدُكَ من دون هوادةٍ».

«تقصدين في حالِ لم ينجُوا».

«حالما أتركهم خلفي وأغادر المستشفى...»، قلتُ حينها بنبرةٍ جادَّةٍ تماماً، «أقول لنفسي دوماً إنَّهم سينجون».

نصائح أخرى: احملْ معك دوماً أقلاماً إضافيةً، لأنَّه حين يَستعملُ شخصٌ متشرِّدٌ مُغطًّى بالقمل قلمَكَ لتوقيع وثيقة التنازل، فأنت لا تريد استرجاع ذلك القلم. لا تقطع معطفاً مبطناً بالشفرات إلَّا إذا أردْتَ أنْ تظلَّ مُغطًّى بالريش بقيةَ المناوبة. ودوماً اقطعِ السراويل من الجهة الخارجية للساق، فقد حدث مرَّةً في حادثةٍ شهيرةٍ أنَّ أحدَهُم في أوستن قام بقطع سروالٍ من الجهة الداخلية ببعض الحماس الزائد، فلقَّبُوه بـ«الحاخام» لبقية مسيرته المهنية.

كان المبتدئ شديد الانتباه.

لكنَّ استجابتَهُ لم تكنْ طبيعيةً، أو تلقائيةً، لكلِّ نواحي هذا العمل.

أقرُّ بهذا: كان من بين أكثر أعضاء طاقمنا صلابةً جسديَّةً، وكان يستطيع حَمْلَ أيِّ شيءٍ تقريباً. كان طيِّبَ السَّريرة، وحَسَنَ النِّيَّة.

وكان حاسماً، وقويّاً بدنيّاً، وملتزماً ذهنياً. وكان مستعداً للإقدام على أيِّ شيءٍ. ثمَّ، حسنٌ، لقد كان وسيماً، على الأقل بالنسبة إليَّ، برغم أنَّ ذلك ليس من متطلبات الوظيفة ربَّما.

وكان أيضاً، بقدرٍ من التواتر، يُغمَى عليه لدى رؤية الدم.

أول مرَّةٍ حصل ذلك - برغم أنَّها لم تكن الأخيرة - كانَتْ أولَ مرَّةٍ حاول فيها إعطائي حقنةً وريديَّةً.

الأمر بخصوص الدم هو أنَّه لا يمكنك التَّوقُّف للتَّفكير في الأمر، فإذا فكَّرْتَ في مدى غرابة غَرْزِ أنبوبٍ معدنيٍّ في وريد إنسانٍ آخر، فسيُفزِعُك الأمر. وتكمن الخدعة في إتقان فعلِ أيِّ شيءٍ في الطب في اعتياد الأمر لدرجةٍ لا يعود فيها غريباً البتَّة.

لكنْ ممَّا بدا على وجه المبتدئ بعد كلِّ اتِّصالٍ طبِّيٍّ طارئٍ، كان بإمكاننا أنْ نرى أنَّه لم يصل إلى تلك المرحلة بعد، فقد كان يحتاج إلى الكثير من التدريب.

أحسستُ ببرودةِ يديه وهو يربط المِرقأة[1]، باحثاً عن وريدٍ في ذراعي.

«عروقٌ رائعة»، قال وهو يمنحني ابتسامته تلك مع نظرةٍ سريعةٍ باتِّجاه عينيَّ.

«مُتملِّقٌ»، أجبْتُ، محاولةً إرجاع المحادثة إلى مسار العمل. «يسهُل إيجادها، لكنَّها زلقةٌ».

عبس في وجهي قليلاً. «حسنٌ»، ثمَّ حمل ذراعي الأخرى.

كان جليّاً من تنفُّسه أنَّه كان متوتِّراً.

«لا تتوتَّرْ»، قلتُ، «أنا قويةٌ».

---

(1) المرقأة أو العاصبة: ملوى أو ضاغط لوقف النزف من وعاء دموي - المترجم.

«ربَّما لسْتِ بالقوة التي تبدين عليها».

لو كان أيُّ شخصٍ آخر من الطاقم، كنتُ لأجادله. لكن كان المبتدئ الشخص الوحيد الذي لم أشعر بأنَّني في حاجةٍ إلى إثبات نفسي له. مَرَدُّ ذلك جزئياً أنَّه لم يكن متمرِّساً، فقد كانَتْ لديَّ سُلطةٌ واضحةٌ عليه، ولكنْ كان هناك أيضاً شيءٌ آخر بخصوصه، بخصوص طبيعته، فالتعبير على وجهه حين ينظر إليَّ بدا دوماً أنَّه يحمل شيئاً من الإعجاب. والأشياء التي كنْتُ أُحسنها، كان يراها جميعَها.

كما أنّه لم يكن ينافسْني، ولم يكن يمانع الأمر حين أكون أبرع منه، وكان يبدو أنَّه يستمتع حين أتفوَّقُ على باقي الرفاق.

لطالما أحسسْتُ أنَّه كان دوماً يشجِّعُني بطريقةٍ ضمنيةٍ كلَّما كنْتُ في مواجهتهم.

ولكنْ كنتُ ما أزال أريده أنْ يسرع ويغرز تلك الإبرة في وريدي.

«قُمْ بالأمر ولننْتَهِ منه»، قلتُ.

«الغرزُ ليس بالضبط ما أُجيد».

«لا تفكِّرْ في الأمر أكثرَ من اللازم»، أردفْتُ.

نظر إليَّ في محاولةٍ لقراءة تعابير وجهي، ثم أزال غطاء إبرةٍ طبيةٍ، ووضع رأسها فوق الوريد الذي اختاره، ثمَّ دفعها داخله، وقد جعل الأمرُ الدمَ ينبجس على كلينا، وعلى الغرفة.

«اللعنة»، قال وهو يشهق برعبٍ على إثر رؤية الدم، ثمَّ ارتعشَ قليلاً على كرسيِّه قبل أنْ يتهاوى على الأرضية.

«يا مبتدئ»، ناديْتُه وأنا أنظر إليه مُلقًى على الأرض، بإبرةٍ مغروزةٍ في ذراعي.

يفتح الناس أعينهم بعد فقدان الوعي بوقتٍ قصيرٍ غالباً؛ لأنَّ

الأمر يتعلّق بنَوْبةٍ وِعائيَّةٍ مُبْهَمِيَّةٍ، وكلُّ الخَطْبِ أنَّه لا يصل أوكسجينٌ كافٍ إلى الدماغ. يحصل ذلك طوال الوقت في حفلات الزفاف، لسببٍ ما. يُوجَدُ عددٌ هائلٌ من مقاطع الفيديو على اليوتيوب، يتهاوى فيها الناس على الأرض في حفلات الزفاف، ولكنْ في اللحظة التي يسقط فيها أحدهم ويستوي على الأرض، يتوازن جريان الدم، فيقوم مجدَّداً بسرعةٍ بعد ذلك.

لكنْ أحياناً، يتطلَّبُ الأمر بضع دقائق.

نزعْتُ الإبرة من ذراعي ونظَّفْتُ المكان بعد ذلك، وحين لم يقمْ بعدُ، ركعْتُ بجواره. كنْتُ أنوي إيقاظه حينها، لكنَّ فرصة التَّأمُّل في وجهه بعض الوقت كانَتْ مغريةً، وتصعب مقاومتها. فما الأمر بخصوص هذا الوجه بالضبط؟ لمَ كان له كلُّ هذا التأثير فيَّ؟ كنْتُ قد أمضيْتُ الكثير من الوقت في محاولة اكتشاف ذلك، من دون جدوى.

لا بدَّ أنَّه منظورٌ ذاتيٌّ ليس إلَّا، فلمْ يكنْ **كاملَ الأوصاف**، وقد حاولتُ وَضْعَ لائحةٍ لعيوبه. كانت لديه جيوبٌ تحت عينيه، لكنَّ ذلك جعله شبيهاً بجَروٍ لطيفٍ. وكان لونُ أحد قواطعه داكناً أكثر من باقي أسنانه. وكانَتْ شحمةُ أذنه غريبة الشكل، إذا فكَّرْتُ في ذلك، وكانَتْ أكثر امتلاءً من باقي جسده.

حسنٌ إذاً، ليس كامل الأوصاف، بل فيه عيوبٌ، مثلنا جميعاً.

لا سبب في أنْ يكون قريباً إلى قلبي إلى ذاك الحدِّ.

لكنَّه كان كذلك.

أغلب ظنِّي أنَّه كان شيئاً يتعلَّق بعينيه، بكونهما ضحوكتين ولطيفتين. أذكر أنَّني قرأتُ مقالاً قبل سنواتٍ عن دراسةٍ بشأن شكل العيون، وجدتْ أنَّ الناس ذوي العيون الضحوكة هم بالفعل أسعد عموماً. إحصائياً.

ربَّما كان ذلك جوهر الأمر.

كان بإمكاني التحديق فيه طوال اليوم، لكنَّني بالطبع لم أفعلْ، فقدْ كانت في انتظارنا الكثير من الإبر ليغرزها تحت جلدي قبل أنْ نكون قد أنهيْنا التدريب.

امتدَّتْ ذراعي نحوه كي توقظَهُ. أردتُ أنْ أضع يدي على كتفِهِ، لكنَّها قرَّرَتْ، عِوَضَ ذلك، أنْ تُمسكَ بذقنه، وحين لمسْتُه انفتحَتْ عيناه، فأبعدْتُ يدي.

«ماذا حصل؟»، سأل وقد عقد حاجبيه ثمَّ بدأ يستقيم في جلسته.

«لقد أُغمِيَ عليكَ، حافظْ على حركاتِكَ بطيئةً متأنِّيةً». ساعدْتُه على الرجوع إلى مكانه على الكرسيِّ ليسند ظهره.

«إنَّه أمرٌ مُخجِلٌ».

جلستُ على الكرسيِّ. «لن أخبرَ أحداً».

«شكراً».

«يجب أنْ تتمرَّنَ على حبَّة برتقالٍ»، قلتُ، «فالبرتقال والجلد لديهما التَّوتُّر السطحيُّ نفسه تقريباً».

علَّق بخجلٍ: «مشكلتي ليستْ مع الجلد».

«لا تحبِّذُ رؤية الدم، هاه؟».

«فعلاً».

«ستعتاد الأمر. بعد سنةٍ من الآن سيصير الدم بالنسبة إليك مثل عصير الفواكه».

«إنَّها فكرةٌ مزعجةٌ».

«يجب عليك القيام بالعديد من عمليات سحبِ الدم، إلى أن يصبح الأمر مثل تنظيف أسنانك».

«يصعب تخيُّل ذلك لكنْ، حسنٌ».

«يمكنُكَ أنْ تتمرّن معي حتى تكتسب الخبرة. . . ثم بعدها، حين تنجح في ذلك، سأُطلقُكَ على باقي أفراد الطاقم».

«شكراً، كاسي».

أظنُّ أنَّها كانَتْ أول مرَّةٍ أسمعه، أو أسمع أيَّ واحدٍ في المحطة، ينطق اسمي. لم أكنْ أعرف أنَّه يعلم اسمي حتى، فقد كان الجميع ينادونني هانويل.

حبسْتُ شهيقاً لوهلةٍ، ثمَّ أجبرْتُ نفسي على إطلاقه، وبعد ذلك مددْتُ ذراعي نحوه. «حسنٌ»، قلتُ، «فلْنحاولْ مجدَّداً».

«الآن؟».

«الآن، فوراً»، قلتُ وأنا أرمقُهُ بنظرةٍ ثابتةٍ وأومئ إليه. **لا تحاولِ التّهرُّب.**

«هيَّا اجعلِ الأمرَ يتمُّ، يا صاحِ، فلن يقوم الدم بسحب نفسه».

7

عايَنَ المبتَدِئُ في صحبتنا أشياءَ مُفزعةً خلال الشهر الأول، فقد تلقّينا اتّصالاتٍ بخصوص جَدٍّ اختنق بقطعة لحمٍ (وفاة)، وشجرةٍ سقطَتْ على منزلٍ (لم يكن أحدٌ في الداخل)، وطفلٍ علق رأسُهُ بين درجتَي زُحلوقةٍ في ساحة لعبٍ (تدخُّلٌ في آخر لحظةٍ)، وحادث امرأةٍ مُعنَّفةٍ قرَّرَتْ أخيراً أنَّها تحمَّلَتْ كفايةً، فأخذَتْ بندقيةَ صيدٍ، ولاحقَتْ زوجها (تشوُّهٌ، لم يكنْ الأمر جميلاً البتَّة).

لم يَمضِ الكثير قبلَ أنْ يعرف المبتدئ ما نسمِّيه «تحديقة الحياة»: تلك النظرة التي تعتري وجوه الإطفائيين الجُدُد تحت تأثير الصدمة، والتي تُفقدهم القدرة على الحركة والتفكير والكلام، قبل أنْ تصير لهم القدرة على الاستجابة الآنية، وتقسيم المهامِّ والمراحل، والتعامل مع كلِّ أنواع المآسي.

ليس الأمر أنَّ المرء يتعلَّم كيفية التعامل مع ذلك تعامُلاً مثالياً، بل هو في الواقع مُنْحَنَى تعلُّمٍ.

تصل في النهاية إلى النقطة التي لا يعود الأمر فيها يزعجك كما كان في السابق، تضعهُ على شاشةٍ جديدةٍ في عقلك، شاشةٍ منفصلةٍ

عن حياتك الحقيقية بطريقةٍ ما، لكن يتطلَّب ذلك وقتاً، وحتى ذلك الحين، كلُّ ما تستطيع فعله هو التَّأقلُم.

كلَّما ازداد المبتدئ توتُّراً، ازداد الضحك من حوله، وفعلنا ذلك لمصلحته.

أرسلَهُ الحقيبةُ للبحث عن مِفَكٌ براغيٍّ للأشخاص العُسر. ملأ العضلات السِّتُّ خزانته عن آخرها بحشوةٍ بيضاءَ من قطع البوليستر. علَّقْنا سرواله الداخلي ليرفرف مكانَ العَلم. وفي أحد الأيام، وضعْنا أربع علبِ مشروباتٍ غازيةٍ فارغةٍ تحت الأركان الأربعة لسريره، وأعدْنا ترتيبه كي ينهارَ حين يستلقي عليه ليلاً. كما لم يفوِّتْ أيٌّ منَّا الفرصة لرشِّه بالماء كلَّما أمكننا ذلك.

بعد أول عملية ولادةٍ ناجحةٍ أشرف عليها داخل العربة، سأله الرفاق: «كيف كان ذلك؟».

فأجاب المبتدئ وهو يحرك رأسه كأنَّه لم يصدِّقْ ما رأتْهُ عيناه: «كان أشبه برؤية حبَّة أفوكادو وهي تُعتصَرُ خارجةً من حبَّة مشمشٍ».

في تلك الليلة، قامُوا بتعليق أنبوب تنفُّسٍ وقناع غطسٍ وزعانف القدمين في خزانته مع ورقةٍ كُتِبَ عليها: «معدَّاتُ التَّوليد للطبيب النسائي».

لأكونَ عادلةً، فقد كانَتْ هناك اتصالاتٌ مضحكةٌ أيضاً، مثل تلك السيدة التي اتَّصلَتْ بنا بخصوص تقلُّصاتها الشهرية، واسترسلَتْ في الحديث عن «طبيبها المختصّ بالمغبن». وكلب البودل الصغير الشرس الذي انقضَّ على سروال المبتدئ وأبى أنْ يُفلتَهُ، برغم أنَّ المبتدئ شرع في القفز في محاولةٍ لتخليص سرواله من أسنان الكلب.

الشيء الوحيد الذي لم يرَهُ المبتدئ خلال تلك الأسابيع الأولى كان النار.

واستمرَّتِ الحال على ما هي عليه حتى أسبوعه - أسبوعنا - السادس في المحطة، حين تلقَّيْنا اتِّصالاً بشأن حريقٍ في بيتٍ مهجورٍ بضواحي البلدة.

كانَتِ النارَ الأولى المثالية. أشعلْنا الأضواء والصفارات وانطلقْنا، وكنَّا أول مَنْ وصلَ إلى الموقع. استعملْنا خراطيم المياه وجعلْناه درساً تطبيقياً للمبتدئ بخصوص كيفية قراءة ألوان الدخان.

بعد ذلك، وحين خبَتْ بقايا الحريق، سمعْتُ الكابتن يُسدي له بعض النصح. «النار مثل كائنٍ حيٍّ»، شرع يشرح، «يجب أنْ تعاملَها كخصمٍ جديرٍ. إنَّها تلتهم وتزحف، وستستمرُّ في الالتهام والزحف حتى نوقفَها».

ألقيْتُ نظرةً على وجه المبتدئ. بدا محتقناً، ومنهَكاً، ومفعَماً بالأدرينالين.

كنتُ أعلم ذاك الشعور جيِّداً.

ونحن نمضي عائدين نحو الشاحنة بعد أنِ انتهى كلُّ شيءٍ، قلتُ له: «رائعٌ للغاية، هاه؟».

«ما الرائع؟».

لكزْتُه بمرفقي. «محاربة الحرائق».

مررْنا فوق مجرىً لمياه الصرف في موقف السيارات، وقفزْتُ فوقه قبل أنْ ألتفتَ لأجدَ أنَّ المبتدئ توقَّفَ وانحنى فوق المَجرى ليتقيَّأ.

بعد وهلةٍ، قام ومسح فمه بظهر يده، وواصل سيره باتِّجاهي. «أجل»، قال، «رائعٌ حقّاً».

في تلك الليلة، رأيتُ كابوساً.

لم يكنْ ذلك أمراً نادر الحدوث، فقدْ كنتُ أرى الكوابيس كثيراً، لكنَّ ذلك لم يكنْ يحصل عادةً خلال مناوباتي.

هذه المرَّة، حلمْتُ بأنَّني أختنق. لا بُدَّ أنَّني توقَّفْتُ عن التَّنفُّس كلِّيّاً في لحظةٍ ما، لأنَّني حين استيقظْتُ، هناكَ على سرير خزانة الإمدادات في المحطة، كنتُ متلهِّفةً للحصول على الهواء ويغمرُني شعورٌ بالغثيان، كأنَّني كنْتُ أختنقُ فعلاً.

حين فتحت عينَي، وجدْتُ نفسي واقفةً على قدمَي، ثمَّ هرعتُ وأنا ما أزال مذهولةً، نحو مفتاح الضوء، فأشعلْتُهُ، ووقفْتُ هناك لبعض الوقت، بجوار الباب، ألهث، وأرمش، وأكرِّرُ لنفسي: «إنه مجرَّدُ حلمٍ، مجرَّدُ حلمٍ».

لم أرغبْ في العودة إلى السرير بعد ذلك.

توجَّهْتُ إلى المطبخ من أجل كوب ماءٍ.

واحزرْ مَنْ كان هناك؟ المبتدئ.

تسمَّرَتْ قدماي في مكانهما إثرَ رؤيتِهِ. كان يطبخ.

نظرتُ إلى الساعة الجداريَّة، وكانَتْ تشير إلى الثانية صباحاً.

بدأتُ أتراجع نحو الخلف في هدوءٍ، لكنَّهُ شَعَرَ بوجودي والْتفتَ.

نظر إليَّ، ثمَّ لوَّحَ باتِّجاهي بمقلاةٍ في يده. «أتريدين عجّة بيض؟».

«لا، شكراً».

لقد تمَّ رصدي، ولكنْ ما زلتُ أستطيع أنْ أحصل على كوب الماء وأرحل. هرعتُ نحو الحوض.

كان يقطّع بسكّينٍ على لوح التقطيع بينما كانَتِ الزبدة تذوب في المقلاة، ووجدتُ نفسي أحدّقُ إليه.

كانَتِ السّكّينُ تتحرَّكُ بسرعةٍ فائقةٍ. طف-طف-طف-طف. الكرّاث صار مكعَّباتٍ في لمح البصر. طف-طف-طف. حبَّة طماطم صارَتْ أجزاءً. دفعهما من لوح التقطيع إلى إناءٍ دائريٍّ مجوَّفٍ، ثمَّ طف-طف-طف، حبَّة فطرٍ صارَتْ شرائح هي الأخرى. السرعة والثقة التي تشي بها حركاته كانتا فاتنتَين، وكان ذلك جانباً مختلفاً كلّيّاً من المبتدئ، جانباً هادئاً، وواثقاً، وبصراحةٍ بدا من خلال تلك اللمحة الخاطفة التي شاهدْتُها، خطيراً.

«لا أجيد الطبخ»، قلتُ وأنا أشاهد ما يفعل، «أنا سيّئةٌ للغاية».

«على الأقلّ لسْتِ بسوء دي ستاسيو»، ردَّ عليَّ.

«بلْ أنا أسوأ، لا أستطيع تحميص خبزة بايغل حتى».

نجح ذلك في الاستئثار بانتباهه. الْتفتَ ليرمقني بنظرةٍ تكاد تكون مؤنِّبةً: «وكيف تتغذّين؟».

ردذْتُ بابتسامةٍ صغيرةٍ. «على طيبة الغرباء».

عاد إلى التركيز على عمله.

لم تمضِ دقيقةٌ بعد ذلك حتى سألته: «لِمَ تطبخ عجّةَ بيضٍ في الساعة الثانية صباحاً؟».

«أوه»، قال وكأنه يزيل السؤال بِيَدِه، «الأمر الاعتيادي، كنتُ أرقاً، ماذا عنك؟».

«أوه»، أجبتُ، «الأمر الاعتيادي» قبل أنْ أضيف: «كوابيس».

استأثر ذلك بكامل انتباهه. «كوابيسُ؟».

هززْتُ كتفَيَّ. «نعم، إنه أمر عادي بالنسبة لي. يقول والدي إنَّها طريقةٌ لتصريف التَّوتُّر».

«عمَّ تدور هذه الكوابيس؟»، سأل المبتدئ، وهو يقلي الآن على طريقة سوتيه ويقلب محتوى المقلاة كلّه في تواترٍ متناغمٍ. كان الأمر أشبه بمشاهدة لاعب خفَّةٍ.

ربَّما كانَ ذلك بفعل الساعة المتأخِّرة، أو رائحة الخضراوات المَقليَّة، أو ربَّما أنَّني وجدْتُ أنَّ عدم الإجابة كان أصعب من مجرَّد الانطلاق والإجابة، ولكنْ، ولاستغرابي الكبير، سمعْتُ نفسي أقول، « أرى نفسي دوماً تتمُّ ملاحقتي، وخنقي، أو أنَّني أختنق من تلقاء نفسي، وأحياناً الثلاثة معاً».

«اللعنة، هذا رهيبٌ». الْتفتَ ليواجهني.

لكنَّني أشرْتُ إلى الخضراوات. «احذرْ أنْ تحرقها».

الْتفتَ إلى وضعه السابق. «ما وتيرة تردُّدِ ذلك؟».

«لا أدري»، اعترفْتُ. هل سبق أنْ أخبرْتُ أيّاً كان بهذا الأمر؟ «مِنَ الأفضل ألَّا أحسُبَ».

كنْتُ مستمتعةً بتعاطف المبتدئ. جعلني أشعر أنَّني قويةٌ ومثيرةٌ للإعجاب.

«طوال حياتك؟»، سأل مجدَّداً.

حرَّكْتُ رأسي بالنفي. «لا، فقط منذُ أنْ كنتُ في سنِّ السادسة عشرة».

«لِمَ السادسة عشرة بالضبط؟».

كان بإمكاني أنْ أرفع كتفيَّ، كأنني لم أكنْ أعلم، ولكنَّني عِوَضَ ذلك، قلتُ: «كانَتْ تلك هي السنة التي رحلَتْ فيها والدتي».

لم يكنْ ذلك كلَّ القصة، لكنَّه كان أكثر ممَّا سبق أنِ اعترفْتُ به لأيِّ شخصٍ من قبلُ.

ظللْنا صامتَين حينها بينما انْهمكَ في إنهاء طبخِهِ، وبعد بضعِ

دقائق وضع عجّة بيض جيّدةَ الطَّهْوِ، تليق بمطعمٍ مرموقٍ، على طبقٍ، وقدَّمها إليَّ قائلاً: «في حال كنتِ قد غيَّرْتِ رأيكِ».

لم أكنْ أشعر بالجوع، لكنَّني أخذْتُ قضمةً على أيَّة حالٍ، غيرَ متوقِّعةٍ أيَّ شيءٍ سوى تجربة تذوُّق طبق بيضٍ مقليٍّ، ولكنْ ليسَ ذلك ما حدث، فلا أعلم أيَّ نوعٍ من السحر مارسَهُ على ذلك البيض، ولكنْ في اللحظة التي لامسَتْ فيها تلك القضمة لساني استولَتْ على كامل فمي، وتسرَّبَتْ منها إلى كلِّ حُلَيمة تذوُّقٍ في لساني مذاقاتٌ مالحةٌ، زُبديَّةٌ، وثُوميَّةٌ... وأغرقَتْني في لذَّةٍ عظيمةٍ استأثرَتْ بي.

«يا إلهي»، قلتُ بفمٍ مملوءٍ، وأنا أرمش بعينيَّ غير مصدِّقةٍ.

استحال وجه المبتدئ بكامله إلى ابتسامةٍ عريضةٍ، وظلَّ ينظر إليَّ بضع ثوانٍ، ويبدو عليه استمتاعه بتذوُّقي لها.

قلتُ بعد أنْ أخذتُ قضمةً ثانيةً: «أنت فعلاً تجيد الطبخ».

«نعم».

«أقصد، أنت تجيد الطبخ حقّاً».

«هذا ما كنتُ أفعله قبلَ قدومي إلى هنا. كنتُ طبَّاخاً في مطعمٍ صغيرٍ في أحد أحياء بوسطن لستِّ سنواتٍ».

«لكنْ، أقصد...»، لم أكنْ أعرف حتى ما أودُّ قوله، فقدْ عجزْتُ عن التفكير.

أخذْتُ قضمةً أخرى. «يا إلهي، يجب أنْ تشارك في إحدى مسابقات برامج الطَّهْوِ وتفوزَ بمليون دولارٍ».

«سأفعل ذلك في أقرب وقتٍ ممكنٍ».

لاحقاً، وأنا أتذكَّر هذه اللحظة مع المبتدئ، سأفكِّر فيما دهاه بحقِّ السماء كي يأتيَ إلى هنا ليفقدَ وعيه إثرَ رؤية الدم في حين كان يستطيع أنْ يكون في مكانٍ مختلف تماماً، ينظُم الشعر بالطعام.

لكنْ لم يخطر لي ذلك السؤال حينها، وكان السؤال الذي تبادر إلى ذهني هو: «لِمَ بحقِّ الجحيم يطهو دي ستاسيو وجباتنا؟».

ابتسم المبتدئ وطأطأ رأسه. «إنَّه يحبُّ أنْ يطبخ، وأظنُّ أنَّه في حاجةٍ للقيام بشيءٍ ما».

«سيقتلُنا جميعاً».

«أسمعتِ أنَّ زوجتَهُ هجرَتْهُ؟».

حرَّكْتُ رأسي بالنفي. «لا».

أومأ المبتدئ. «كان دي ستاسيو يتحدَّث عن ذلك الليلة الماضية قبل النوم. لقد انتقلَتْ إلى فرامنغهام الجمعة الماضية للعيش مع أختها، فما عادَتْ قادرةً على تحمُّل الشرب».

«دي ستاسيو يشرب؟».

«أعتقد أنَّه يجب عليه ذلك»، علّق المبتدئ قبل أنْ يضيف: «تعلمين أنَّ ابنهما توني مات، أليس كذلك؟».

حرَّكْتُ رأسي بالنفي. كانَتْ هناك أمورٌ عديدةٌ لم أعرفْها عن دي ستاسيو.

«أجل»، قال المبتدئ، «قبل نحو سنتين. سائقٌ مخمورٌ».

جفلْتُ.

«باستثناء أنَّ السائق المخمور كان توني نفسه».

«مسكينٌ دي ستاسيو»، قلت. لا غرابةَ في أنَّه لم يضحكْ قَطُّ.

أومأ المبتدئ. «لقد مرَّتْ عليه بضعُ سنواتٍ قاسيةٍ. أضيفي إلى ذلك الإصابة في ظهره، ويصير بطلاً خارقاً لمجرَّد أنَّه يغادر السرير صباحاً».

وجدْتُ نفسي أحاول إيجاد طرقٍ لإصلاح وحدَتِهِ.

«ربَّما نستطيع ترتيب موعدٍ غراميٍّ له...»، اقترحْتُ.

«أكنْتِ أنتِ لترغبي في الخروج مع دي ستاسيو في موعدٍ غراميٍّ؟».

«نستطيع أنْ ننشئَ نادي شواءٍ أيّام الجمعة ثمَّ، وببساطةٍ، نبدأ بالظهور عند عتبة بيته للعشاء...».

«هل سبقَ لك أنْ رأيْتِ منزل دي ستاسيو؟»، قاطعني بلطفٍ، «إنَّه أشبه بمنطقة حربٍ».

«يمكننا تنظيفه».

«سيكره ذلك، سيطردُكِ خارجاً باستعمال المكنسة».

حدجْتُ المبتدئ بنظرةٍ. «أنا فقط أحاول المساعدة».

«بعض الرفاق لا يريدون أنْ تتمَّ مساعدتهم».

«لا يمكننا الوقوف مكتوفي الأيدي وهو يعاني».

«قلتُ الأمر ذاته للكابتن، لكنَّه قال إنَّ اعتزاز دي ستاسيو بنفسه كبيرٌ».

«إذاً نتجاهله؟».

«سيأخذه الكابتن لصيد السمك الأسبوع القادم».

«لا يبدو ذلك مثل حَلٍّ بعيد الأمد».

«ولا إلقاؤه في حوض المواعدة يبدو كذلك».

قد يبدو الأمر غريباً، ولكنْ بقدر ما كان موضوع حديثنا حزيناً، فقد وجدْتُ نفسي مستمتعةً بحديثي مع المبتدئ.

بعض المحادثات، بل ربَّما معظمها، تتطلَّب الكثير من الجهد. أمَّا مع المبتدئ فقد كان الأمر عكس ذلك. لم أكنْ مضطرَّةً للتفكير فيما أقوله. كلُّ ما كان عليَّ فعله هو أن أنتقي من بين الخيارات التي تبرز في ذهني وأنا أستمع، ولم تكنِ المحادثة تقع بقدر ما كانت تتفتَّح.

تذكَّرْتُ فجأةً أنَّني كنْتُ أحظى بمحادثاتٍ مشابهةٍ مع والدتي. ولكنْ في الحياة عموماً، يصعب أنْ نحظى بمثلها. وقد جعلني ذلك حزينةً أنَّني كنْتُ مستمتعةً بها إلى ذلك الحدِّ، إذْ وجدْتُ نفسي أشتاق إليها مسبقاً، برغم أنَّها كانت تقع.

حُلْوٌ مرٌّ، بكلِّ تأكيدٍ.

حين انتهيْنا، أردْتُ غَسْلَ الأواني. كان المبتدئ قد طبخ، ويجب أنْ أنظِّفَ. ولكن كان يصعُب عليه ألَّا يساعد، فقدْ كان يحوم حولي، وظلَّ يفتح ويُغلق صنبور الماء ويمرِّر لي الصابون.

«ليس من المفترض أنْ تساعدني»، قلت.

«أحبُّ غَسْلَ الأواني»، قال وهو يقف قريباً مني لدرجة أنَّني كنْتُ أستطيع الشعور بوجوده من دون أنْ ألمسَه.

ثمَّ أضاف: «لكنَّني أستمع دوماً إلى الموسيقا». انحنى نحو المذياع الصغير الموضوع بجوار الحوض وأداره. كان دي ستاسيو قد تركه على إذاعة أغانٍ كلاسيكيةٍ، وبدأ صوت مارفين غاي يملأ المكان.

لذا استسلمْتُ وسمحْتُ له بأنْ يساعدني. استمعْنا إلى سموكي روبنسون وديانا روس وفرقة ذي تمبتيشنز، ونظَّفْنا على إيقاع الموسيقا، وتمايلْنا، واصطدمْنا ببعضنا من حينٍ لآخر، وقد استمتعْتُ بذلك.

حين انتهيْنا، ولم تعدْ هناكَ حاجةٌ لبقائنا هناك، وكان وقت الذهاب للنوم قد حان فعلاً، قام المبتدئ بتجفيف يديه في منشفة الأواني، وقال: «هناك شيءٌ أودُّ إخبارك به، لكنَّني لستُ متأكِّداً بأنَّها فكرةٌ حسنةٌ».

لم أكن متأكّدةً أيضاً بأنَّها كانَتْ فكرةً حسنةً. نظرْتُ إليه: «تفضَّل».

«أظنُّ أنَّني أعلم لمَ تتجنَّبينني».

«أنا لا أتجنَّبكَ»، كذبْتُ.

«تعلمين أنَّكِ تفعلين».

«حسنٌ»، قلتُ، «حين لا يأمر الكابتن بأنْ تغرز الإبر في ذراعي، أقوم بتجنُّبِكَ أحياناً».

«آسف بخصوص الإبر»، قال وهو يرفع أنفه ويُغضّنُه.

«لا بأس».

«الأمر أنَّه»، أضاف بعدها، «ولا أريد أنْ تفهمي الأمر بطريقةٍ خاطئةٍ...».

«سأحاول ألَّا أفعل».

«أنتِ صلبةٌ وقويَّةٌ وقادرةٌ ولا تخشين شيئاً أبداً...».

انتظرْتُ.

«لكنَّني أتساءل إذا ما كنتِ في حاجةٍ إلى عناقٍ».

ماذا؟ «عناقٌ؟» قلتُ وأنا أتراجع نحو الخلف.

هزَّ كتفَيه وقوَّس ظهره. «من بين الجميع في الطاقم، أحسُّ دوماً أنَّكِ أكثر مَنْ يحتاج إلى عناقٍ».

«تظنُّ أنَّني أحتاج إلى عناقٍ؟».

جفل شيئاً ما، كأنَّه أدرك إلى أيِّ حدٍّ بدا ذلك سخيفاً. «نعم».

«العناق هو آخر ما أحتاجه، يا صاح».

«فقط لأنَّكِ جِدُّ مُكتفيةٍ بذاتِكِ، ولا تحتاجين أيَّة مساعدةٍ، وتحتفظين بكلِّ شيءٍ لنفسك طوال الوقت».

كيف تجرَّأ على أنْ يقول إنَّني في حاجة إلى عناقٍ؟ بحقِّ الجحيم.

«هل صار الرفاق يتجوَّلون في الأرجاء خلال العمل ويتعانقون، وأنا لم ألحظْ ذلك؟ هل فوَّتُّ بضع ولائم عناقٍ؟».

«لا، لكنْ...».

«لأنَّني لسْتُ مُتأكِّدةً ممَّا تقول، ولكنْ يبدو أنَّ هناك إهانةً في مكانٍ ما بين تلك الكلمات».

حرَّكَ رأسه نافياً. «لستُ أحاول إهانتَكِ بأية طريقةٍ». كان يعلم أنَّه يتلعثم في الكلام. «أظنُّ أنَّني... فقط أريدك أنْ تعلمي...». حرَّك رأسه مجدَّداً بينما انتظرتُ. «هناكَ شيءٌ ما بخصوصكِ، شيءٌ أحسُّه نحوكِ، لا أعلم كيف أصفُه، لكنَّه قويٌّ...».

«ما الذي تقوله؟».

«أنا فقط أقول إنَّه... كلَّ مرَّةٍ أراكِ فيها، كلُّ ما أرغب في القيام به هو إحاطتكِ بذراعيَّ».

انتصبْتُ من دون حراكٍ، كانَتْ تلك إفادةً غير متوقعة.

«حسنٌ»، قلتُ أخيراً، «لا يمكنكَ ذلك».

رفع يديه في براءةٍ تامَّةٍ. «أنا أعلم ذلك».

«المشكلة مشكلتكَ، يا رجل. كلُّ ذلك يخصُّكَ أنتَ».

«ذلك أكثر من مُرجَّحٍ».

«ربَّما أنتَ الذي في حاجةٍ إلى عناقٍ، وقمْتَ، بطريقةٍ لا واعيةٍ، بإسقاط ذلك عَلَيَّ».

«ممكنٌ جدّاً».

إليكَ الحقيقة العميقة التي لن أعترف بها قَطُّ: كنتُ بالفعل في حاجةٍ إلى عناقٍ. كنتُ بحاجة إلى عناقٍ طوال تلك الأسابيع، ومنذ

عرض عليَّ هيرنانديز ذلك. ليس عناقاً واحداً، بل عناقاً كلَّ يوم. وكنتُ لأمنحَ أيَّ شيءٍ في سبيل أنْ يلفَّ المبتدئ ذراعيه حولي حينها، ويغلِّفَني، ويُبقيني على تلك الحال حتى الصباح. لقدْ أردْتُه أنْ يقوم بذلك، أردْتُ ذلك باستماتةٍ. كان جسدي بكامله يئنُّ كي يحصل ذلك.

لذا، وبالطبع، فالاستجابة الوحيدة التي كنتُ أستطيع أنْ آمرَ جسدي بها كانَتْ التراجع خطوةً.

حياتي برمَّتِها، كلُّ شيءٍ عملْتُ من أجله، كان على المحك. لم تكنْ تلك هي اللحظة التي أفقد فيها تركيزي. نعم، كان دافئاً وطيِّبَ القلب ومتعاطفاً إلى حدٍّ مفاجئٍ، كما كان، وبطريقةٍ صادمةٍ، يُجيد الطبخ. ولكنْ لا شيءَ من ذلك يهمُّ. فحينَ وقفْنا متقابلين بدأ دماغي بإرسال إنذاراتٍ بخصوص كلِّ الكوارث التي قد تقع بي، وبمسيرتي المهنية، واستقراري، وحسِّي بالنظام الذي هَنْدَسْتُهُ بتأنٍّ، وصحَّتي العقلية، إذا لم أغادرْ ذاك المكان، وفي أسرع وقتٍ.

كان يجب عليَّ أنْ أشكرَهُ على الطعام، وكان يجب أنْ أتمنَّى له ليلةً طيِّبةً على الأقل. لكنَّني لم أفعلْ، وكلُّ ما فعلْتُه أنَّني وجَّهْتُ إليه سبَّابتي بتهديدٍ: «لا تحضنِّي».

تراجع خطوةً إلى الخلف هو أيضاً، ورفع يديه في استسلامٍ. «لن أقوم بذلك».

وقفْنا هناك متقابلَين من دون حراكٍ دقيقةً أو نحوها، ثمَّ تراجعْتُ خطوةً أخرى إلى الخلف. «لا تتحدَّثْ إليَّ بخصوص العناق مجدَّداً على الإطلاق».

كان قد أدرك أنَّه أرعبني، أو أهانني، أو شيءٌ من ذاك القبيل.

رفع يديه أعلى قليلاً: «حسنٌ».

خطوةٌ أخرى إلى الخلف: «هذا...» - أشرْتُ إلى جسدي - «منطقةٌ لا عناق فيها».

الآن كان نادماً بحقٍّ لأنَّه فتح هذا الموضوع. «مفهومٌ».

«اغرزْ بي كلَّ الإبر التي تريد، يا صاح»، قلتُ حينها، «لكنْ حاولْ أنْ تحضنني وسأبرح مؤخِّرتَكَ المبتدئة ضرباً».

بعد أسبوع، أوقعني الرفاق في مقلبٍ قائلين إنَّنا بصدد القيام بتمرين السَّلالم، فأقنعوني بارتداء زيِّ الإطفاء، والتَّسلُّق إلى سطح المحطَّة كي «نُري المبتدئ كيف يقوم المحترفون بذلك». تطلَّبَتِ الحيلة الكثير من التخطيط، لأنَّنا لم نكن نملك شاحنة إطفاءٍ ذات سلالمَ.

اضطرُّوا لاستعارة واحدةٍ من المحطة الثالثة.

انتابني شعورٌ سيِّئٌ وأنا أصعد، لكن كان يجب برغم ذلك أنْ أرضخ للتَّسلسُل القيادي.

بلغتُ سطح المحطة وترجَّلْت عن السلالم، فغادرَتِ الشاحنة بعيداً. لا بأس بذلك، قلتُ لنفسي، فلمْ يتمَّ إيقاعي بأيِّ مقلبٍ منذ بعض الوقت. **اقلقي إذا لم نقمْ بمقالب عليك**، قال الكابتن في اليوم الأول.

لوَّحْتُ، وانحنيت، وسمحت لهم بالاستمتاع باللحظة.

رأيت الحقيبةَ والعضلات السِّتَّ يقودان الشاحنة نحو نهاية الشارع ليُرجعاها إلى أصحابها الحقيقين، وشاهدت الباقين يعودون إلى الداخل، مزهوِّين بأنفسهم، بأذرعٍ متشابكةٍ.

في النهاية، أدرْتُ رأسي لاستطلاع الأرجاء. سأبقى هنا طوال الليل، بالتأكيد.

تفقَّدْتُ المناظر المحيطة، وأخذتُ شهيقاً عميقاً تِلْوَ الآخر، وأقنعتُ نفسي بأنَّها كانَتْ فرصةً لأخذ بعض الوقت المستقطع الشَّخصيِّ، للتفكير في حياتي، والغوص في كلِّ تلك الأفكار العميقة التي لم يتسنَّ لي الغوص فيها. كانُوا قدْ قدّموا لي خدمةً في الحقيقة.

حين غابَتِ الشمس، جلسْتُ بظهري على الحائط الآجرِّيِّ، وأرجعْتُ رأسي إلى الخلف، وأغمضْتُ عينيَّ، كأنَّني أوشك على أنْ أغطَّ في النوم.

لم أكنْ نائمةً، بالضبط، لكنَّني كنتُ قد بدأتُ أرخي عضلاتي، حين أحسسْتُ بقرونِ استشعاري تنتصب كأنَّ أحدهم في الجوار، ثمَّ سمعْتُ خطواتٍ بقربي.

قفزْتُ من مكاني وسدَّدْتُ ركلةً جانبيةً قويَّةً للمتسلِّلِ، ولم أُدركْ حتى اللحظةِ التي لمسَتْ فيها رِجلي جسمَه أنَّني ركلتُ المبتدئ.

تكوَّرَ وسقط على الأرض.

جثوْتُ بقربه. «يا مبتدئ! بحقِّ الجحيم، ماذا تفعل؟».

كانَتْ ضربةً قاضيةً. كان يتنفّس بصعوبةٍ وهو يجثو على أربع قوائمَ.

إنَّه أمرٌ مخيفٌ أنْ يتلقَّى المرء ضربةً قويةً كتلك. يعني ذلك أنَّ الاصطدام كان قوياً لدرجة أنَّه أعمى الإشاراتِ العصبيةَ التي تصل إلى الحجاب الحاجز، فالحاجة إلى التنفس وعدم القدرة على ذلك ليس شعوراً سهلاً أبداً.

«حسنٌ»، قلتُ، منتقِلةً من مهاجمٍ إلى مدرِّبٍ. «استقمْ». ودفعْتُ كتفيه إلى الخلف لأوجِّهه، فسمح لي بذلك. «ضعْ يديك خلف رأسكَ».

استجاب لي، ومع فعل ذلك، بدأ يتنفَّس مجدَّداً.

«جيِّدٌ، واصلْ ذلك»، قلت وأنا أتنفَّس معه وأراقب صدره يرتفع وينخفض. «شهيقٌ، ثمَّ زفيرٌ».

ركعتُ بجواره بينما بدأ تنفُّسُه يعود تدريجياً إلى الوضع الطبيعي، وأنا أُبقي يدي على ظهره.

حين صار قادراً على الكلام أخيراً، نظر إليَّ بحنقٍ. «بحقِّ الجحيم، ما الذي دهاكِ يا هانويل؟».

حدَّقْتُ فيه بنظرةٍ مَفادُها. **بحقِّ الجحيم ماذا دهاكَ أنتَ؟** ثمَّ قلتُ: «لقد أفزعْتَني».

«لم أكنْ أحاول فِعْلَ ذلك»، أجاب، كأنَّ ذلك يشكِّل فرقاً.

«كنتُ مستغرقةً في النوم، يا صاح»، قلتُ. حسنٌ، كدْتُ أستغرق في النوم، لكنَّني كنتُ شبه نائمة. «ما الذي كان يُفترض أنْ أفعله؟».

«لا أعلم»، قال وهو، بطريقةٍ ما، منزعجٌ ومتهكِّمٌ ومُتوسِّلٌ، كلُّها دفعةً واحدةً. «ربَّما أن تفتحي عينيك وتقولي، 'مرحباً يا مبتدئ وشكراً لكونكَ رائعاً'».

تجاهلتُ كلامه، وقلت: «ماذا تفعل هنا أصلاً؟».

رمش للحظة، كأنَّه كان يجب أنْ يكون الأمر واضحاً. «أنا هنا لأنقذَكِ،» أجاب، ثمَّ أشار لي باتِّجاه الطرف المقابل.

رأيتُ جزءاً نافراً من السلالم خلف الحائط القصير، في المكان نفسِه الذي كانت فيه من قبل.

كان يراقبني بدقَّةٍ، كأنَّه كان يأمل أنْ أنبهرَ.

لكنَّني رفضتُ فِعْلَ ذلك.

«كيف حصلْتَ على الشاحنة ذات السلالم؟».

«لقد أقنعْتُ الرفاق بذلك».

ضيَّقْتُ عينيَّ.

«أنا فقط... تعلمين، قمْتُ بالدفاع عنكِ خلال العشاء، وجادلتُهم في أنَّهم حظُوا بقسطهم الوافر من المرح وقد حان الوقت ليُنزلوكِ. ثمَّ اجتهدْتُ قليلاً بتقديم بعض 'الكوكيز' التي خبزْتُها، وأعتقد أنَّهم نالُوا كفايةً من سماعي أتحدَّث عن ذلك طوال العشاء، لأنَّ الحقيبة والعضلات السِّتَّ استسلما».

حرَّكْتُ رأسي يمنةً ويسرةً وأنا أنظر إليه. «ليس ذلك هو ما حصل، يا مبتدئ».

عقد حاجبَيه. «بل أنا متأكِّدٌ تماماً أنَّ الأمر كذلك».

أكَّدْتُ له مجدَّداً: «أنتَ فقط تعتقد أنَّ ذلك ما حصل».

«أنا هنا، أليس كذلك؟».

«بلى، لكنَّكَ في الواقع لن تنقذَني».

«لِمَ لا؟».

«لأنَّهم قادُوا الشاحنة بعيداً للتَّوِّ».

ما يُحسَبُ له، أنَّه لمْ يلتفتْ في الحال، ولم يجرِ صوب المكان الذي كانَتْ فيه السلالم، بل أبقى عينيه عليَّ وانتظر أنْ تأخذ كلُّ القطع مكانها.

ثمَّ قام من مكانه، ومشى نحو حافَّة البناية حيث كانَتِ السلالم، ونظر إلى الأسفل.

«لقد رحلُوا»، أكَّد.

مشيتُ خلفه. «يا مبتدئ، شكراً لكونك رائعاً».

جعلَهُ ذلك يبتسم. شاهدْتُ جانبَي عينيه ينكمشان، ثمَّ قام بضرب جبهته براحة يده.

قلت له: «هذا ما تحصل عليه لكونك بطلاً».
ردَّ عليَّ بنصف ابتسامةٍ. «هناك عقاباتٌ أسوأ من ذلك بكثيرٍ».
أومأتُ من دون تعليقٍ.
«لا بُدَّ أنَّني ضايقتُهم خلال العشاء»، قال وهو ما زال يجمّع قِطَعَ الصورة بعضها مع بعضٍ.
«أعتقدُ أنَّ ذلك كان المُخطَّط الرئيسَ».
«أتقولين إنَّها كانَتْ خُدعةً منذ البداية لوضعي أيضاً هنا على السطح برفقتكِ؟».
«بينغو».
«كيف علمُوا بما سأقوم به؟».
قلتُ بنبرةٍ تكاد تكون آسفةً: «هذا نوع الرجال الذي أنتَ عليه، يا مبتدئ، أنتَ شخص مهذّب».
«تقولين ذلك كأنَّه أمرٌ سيّئٌ».
«ليس سيّئاً بالضبط»، قلت، «هو فقط أمرٌ يمكن أنْ يُستغَلَّ ضدَّكَ».
مشيْتُ نحو الحافَّة ثمَّ أشرْتُ للرفاق الذين كانُوا يثرثرون في مَرَحٍ جليٍّ.
«أبقِه بعيداً عن المشاكل، يا هانويل»، صاح الكابتن.
«سأفعل ما بوسعي، يا سيدي».

أمضى المبتدئ الساعة التالية في التأكد أنَّه لا تُوجَد فعلاً أية طريقةٍ للنزول، فلا أبنيةَ مجاورة، ولا أشجارَ، ولا حوافَّ مفيدة. كان هناك بابٌ صغيرٌ يقود إلى داخل المبنى لكنَّه كان مُقفلاً بإحكامٍ.
نعم، لقدْ كنَّا عالقَين.

في غضون ساعة، حاول أنْ يسلك عبر أنبوب التصريف (فَشَلٌ)، وأنْ يُنزِلَ نفسه حتى منفذِ إغاثة الطابق الثاني (فَشلٌ مُفزِعٌ)، وأنْ يُنادي الناس الذين يسيرون بجوار المحطّة من أجل إنقاذنا. فشلٌ ثلاثيٌّ.

لا بُدَّ أنْ تُقدِّر تفاؤُله الكبير.

حين انقضَتْ كلُّ آمالنا، جلسْنا على حافَّة السطح، ندلِّي أرجلَنا ونشاهد الشارع في الأسفل، في صحبةٍ صامتةٍ لشخصَين لم يكنْ لهما - حرفيّاً - أيُّ مكانٍ آخر للوجود فيه. مرَّتْ بضعُ درَّاجاتٍ ناريةٍ من نوع هارلي-ديفيدسون من دون كاتم صوتٍ، عبر الشارع في الأسفل. راقبْنا السائقين، ولاحظْنا بصمتٍ أيُّهُمْ لمْ يكنْ يرتدي خوذةً، ففي جناح الإنعاش كنَّا ندعو سائقي الدراجات النارية بـ«المتبرعين السريعين بالأعضاء».

بعد ذلك التفتَ المبتدئ نحوي. «أنا آسفٌ، بالمناسبة».

نظرتُ إليه. «آسفٌ بخصوص ماذا؟».

«آسفٌ لأنَّكِ عالقةٌ هنا معي»، ثمَّ أضاف، «أشعر بالذنب لكوننا بدأْنا العمل في اليوم نفسِه، والآن يجعلونكِ ترعَينني».

«هم لا يجعلونني أرعاكَ».

رمقني بنظرةٍ مفادُها: كفاكِ.

هززْتُ كتفيَّ. حسنٌ. «كلُّ المبتدئين في حاجةٍ إلى بعض الرعاية في البداية».

نظر إليَّ مليّاً بعضَ الوقت، ثمَّ، وكأنَّه اتَّخذَ قراراً كبيراً، قال: «بالحديث عن الرعاية، أتساءل إنْ كان بإمكاني أنْ أطلب منكِ خدمةً».

يا إلهي، تفرَّسْتُ في وجهه. «لا يمكن أنْ يكون ذلك أمراً حسناً».

«ليس كارثياً»، ردَّ المبتدئ، «لكنْ قبل أنْ أسأل، أودُّ أنْ أذكِّركِ بما فعلتِهِ بي للتَّوِّ». رفع قميصه، كاشفاً عن كدمةٍ حمراءَ كبيرةٍ وسط بطنه.

وكان كَشْفُ بطنِهِ العاري المنحوت مشهداً صادماً في حد ذاتِه.

نظرتُ بعيداً ثمَّ قلتُ: «أتحاول أنْ تجعلني أحسُّ بالذنب؟».

كانَتِ ابتسامتُهُ شقيّةً. انحنى لينظرَ إلى الأثر على بطنه.

«أظنُّ أنَّكِ إذا نظرْتِ عن قربٍ، فيمكنكِ أنْ تري خطوطَ حذائكِ مرتسمةً بوضوحٍ».

«الشعور بالذنب لا يؤثّر فِيَّ... وإذا كان له أيُّ تأثيرٍ، فهو يجعل احتمال رضوخي أقلَّ».

«سأسألكِ مباشرةً إذاً».

«حسنٌ».

«لا تمانعينَ، أليس كذلكَ؟».

أكان بصدد المماطلة؟ «لن أقومَ جسديّاً بمنعكَ، إذا كان هذا ما تقصد».

«يمكنكِ أنْ ترفضي، يجب أنْ أشير»، قال المبتدئ، «لا بأس بأنْ ترفضي».

حرَّكْتُ يدي في استعجالٍ بمعنى: دعْنا ننتهِ من الأمرِ.

«حسنٌ إذاً». أخذ شهيقاً عميقاً. «إنَّها ذكرى زواج والديَّ نهاية الأسبوع القادم، وسنحظى بحفلٍ كبيرٍ».

يا إلهي، أكان بصدد دعوتي؟ لا يمكنه فِعْلُ ذلك. كان ذلك

منافياً تماماً للقواعد جميعها، فلا يُفترَضُ به مجرَّدُ التفكير في ذلك، فكيف له القيام به. أحسسْتُ بتشويش الأفكار داخل رأسي.

واصل كلامه: «إنَّها الذكرى الخامسة والثلاثون، في الواقع. لكنَّ الأمرَ أهمُّ من ذلك بكثيرٍ، لأنَّ والدي عاني من نوبةٍ قلبيةٍ العام الماضي، وانتهى به المطاف بالاستقالة من قسم إطفاء بوسطن، وانتقلا إلى هنا إلى غلوستر، وحين تتحدَّثين إليه، يخبرك أنَّه يعيش في نعيم، لكنَّه في الحقيقة مكتئبٌ للغاية. تقول والدتي إنَّه يُمضي معظم اليوم أمام التلفاز في جواربه المُتَّسخة، وقد تبادرَتْ إلى ذهنها فكرةُ أنَّنا إذا أعددْنا حفلاً كبيراً، فسيتوجَّبُ عليه أن يُلملمَ شتات نفسه، وهي مقتنعةٌ بأنَّ الأمر سيُكلَّل بالنجاح».

لم تبدُ لي فكرةً تبشِّرُ بالخير.

«على أيَّة حالٍ»، واصل، «كلُّ شقيقاتي سيصِلْنَ غداً».

«كلُّ شقيقاتِكَ؟ كمْ شقيقةً لديكَ؟».

«أربعٌ. سيكون الأمر فوضى عارمةً. حَفدةٌ وكلابٌ في كلِّ مكانٍ، والعائلة برمَّتها تعقد آمالاً على أنْ يكون هذا الحفل هو ما سيقلب موازين الأمور، وسأكون الشخص الذي يفسد ذلك ويكسر قلب والدته، لأنَّها تتوقَّع أنْ أحضرَ برفقة حبيبتي، إيمي... لكنَّني لم أخبرْها بعدُ أنَّنا انفصلْنا».

«ماذا؟ لديك حبيبةٌ؟». لمْ أسمع قَطُّ أيَّ شيءٍ بخصوص حبيبةٍ، وطوال هذه الفترة لم تخطر لي فكرة حبيبةٍ قطُّ، لكنَّ صوتي بدا مصدوماً للغاية على وَقْعِ الفكرة. وبنبرة أكثر هدوءاً، كأنَّنا كنَّا نتجاذب أطراف الحديث لا غيرَ، أضفْت: «تُدعَى إيمي؟».

«بل كانَتْ لديَّ» أضافَ، «تواعدْنا مدَّةَ سنتين. أحبَّتْها عائلتي، فكانَتْ مُهذَّبةً وأنيقة المظهر».

«تجعلُها تبدو مثل البودل. بالمناسبة، ماذا حصل لذلك الجَرْوِ الذي أحضرتَه؟».

ابتسم المبتدئ. «تقصدين البو-واوا؟».

حرَّكْتُ رأسي في استغراب.

«لقد أعطيْتُه لوالدتي. أطلقَتْ عليه اسمَ فالنتينو، وأحضرَتْ له قميصاً صغيراً. هو يتقافز نحوها حين تتَّجه إلى الخارج، حتى لو كانت ذاهبة فقط لإحضار البريد».

حرَّكتُ رأسي مجدَّداً. «كلُّ أمورك على ما يرام».

«ليس كلُّ الأمور، ليس إيمي».

«ما كان الخطبُ بخصوصها؟».

«لا شيء. كانَتْ لطيفةً، مقبولةً تماماً، فتاةٌ عاديةٌ لا شيء مميَّزٌ بخصوصها».

«تبدو فظيعةً».

«كانَتْ والدتي ترغب جداً جداً في أنْ نتزوَّج، وكذلك أخواتي، وكذلك والدي أيضاً».

«لكنَّكما انفصلْتما».

«لا توجد الكثير من الأشياء التي قد لا أفعلها من أجل عائلتي»، قال المبتدئ، قبل أنْ يُردفَ: «باستثناء تزوُّج الفتاة غير المناسبة».

«أمرٌ معقول»، علَّقْتُ.

«لكن كان ذلك مُعقَداً».

«مُعقَّدٌ؟ كيف؟».

عبس المبتدئ وهو ينظر باتِّجاه الشارع في الأسفل، كأنَّه لم

يكنْ متأكِّداً ممَّا سيقول بعد ذلك: «كان لديَّ خمس شقيقاتٍ، لكن أختي جيني قبل الصغرى توفِّيتْ قبل نحو أربع سنواتٍ من عَدوى فيروسيةٍ في القلب».

«آسفةٌ لذلك».

طأطأ رأسه. «كان عمرُها ثلاثةً وعشرين سنةً، وكان عمري أقلَّ منها بسنةٍ. كنَّا توءَماً إيرلندياً[1]».

أخرجتُ زفيراً بطيئاً.

«كانَتْ إيمي صديقة أختي المقرَّبة حين كنَّا صغاراً، وحين الْتقيْنا صدفةً ذات ليلةٍ بعد سنةٍ أو نحوها من وفاة جيني، أحسسْنا بنوعٍ من الاتِّصال اللحظيِّ، وبدأْنا نتواعد من ساعتها. كنَّا نعيش حينها في بوسطن، ومضى كلُّ شيءٍ بيُسْرٍ. ولكن اتَّضحَ فيما بعد أنَّ الأمر كان أشبه بسماع أغنيةٍ قديمةٍ على المذياع، فتفكِّرين: 'أحبُّ هذه الأغنية'، ولكن مع استماعكِ لها أكثر، تتذكَّرين أنَّكِ لم تحبِّيها فعلاً قَطُّ، بل كنْتِ فقط متحمِّسةً لوهلةٍ، لأنَّكِ تعرَّفْتِ عليها. كان ذلك ما حصل معنا أنا وإيمي. ولكن حين أدركْتُ ذلك كانَتْ والدتي قد شرعَتْ بالفعل في تدبير أمور الزواج».

«بقيْتَ مع إيمي، لأنَّك لم ترغبْ في أنْ تخيِّبَ أمل والدتكَ؟».

هزَّ كتفيه قليلاً. «نوعاً ما، ولكن أظنُّ أنَّ جميع أفراد العائلة كانُوا يظنُّون أنَّ زواجي من إيمي كان ثاني أفضل شيءٍ من أجل استعادة جيني».

«تقوم بالعديد من الأشياء المغالية في اللَّطافة من أجل عائلتكَ».

أومأ لي، كأنَّه لم يلاحظْ ذلك قبلاً. «أظنُّ أنَّني أفعل».

---

(1) Irish twins: شقيقان تفصل بينهما سنة واحدة.

«يشكِّل ذلك بعض الضغط».

«أتعلمين ذلك الشعور الذي يراودُكِ أحياناً بخصوص بعض الأشخاص، حين يكون الأمر كأنَّهم يقفون على طرف حافَّةٍ، وأخفّ نسمة تهدِّدُ بأنْ تُسقطَهم؟».

أومأتُ بالإيجاب.

«هذا حال والدتي منذ وفاة شقيقتي. تتصرَّف بتسلُّطٍ وواقعيَّةٍ عمليَّةٍ معنا، ولكنْ بعد ذلك تذهب إلى المطبخ فتشرع يداها في الارتعاش».

كنتُ أفهم ذلك تماماً.

«كلُّنا نرغب في مسايرتها ومعاملتها بِلينٍ، لكنَّني لم أكنْ لأتزوَّج إيمي مهما حصل، لم أكن أشعر بـ...»، توقَّفَ لحظةً، «لم أكن متيَّماً بها. كانَتْ تروقني، والأمر فقط أنَّ ذلك لم يكن الشعور الذي قد تتزوَّج شخصاً من أجله».

«لذا قرَّرْتَ إنهاء الأمر؟».

«حين أوشكتُ على إنهاء كلِّ شيءٍ، سقط والدي إثرَ نوبةٍ قلبيةٍ».

«اللعنة».

«أجل. تماماً. ثمَّ انهمكْتُ بوضع والدي، واستمرَّتْ لقاءاتُنا أنا وإيمي لبعض الوقت. ولكنْ ذات ليلةٍ أجلسَتْني ووضعَتْني أمام قرارٍ نهائيٍّ: غامرْ أو غادرْ. كانت تريدنا أنْ نتزوَّج».

«وما كان ردُّكَ؟».

«قلتُ لها: 'أنا لا أعتقُ أنَّني أستطيع أنْ أتزوَّجَكِ، يا إيمي'، فقالت: 'مطلقاً؟ أو الآن؟' فأجبْتُ: 'مطلقاً'».

«أكان ذلك كلَّ شيءٍ؟».

أومأ بالإيجاب. «رحلَتْ بعد ذلك. كان ذلك قبل ستَّة أشهرٍ، ولم أرها منذ تلك الليلة. كانَتْ حانقةً للغاية».

«أراهنُ أنَّها كانَتْ كذلك».

حرَّكَ رأسه. «لم أخبرْ والديَّ بالأمر بعدُ. كانا يظنَّان أنَّنا ما زلْنا نتواعد عن بُعْدٍ، وأنَّها ما زالَتْ في بوسطن، واتَّضح أنَّ من الأسهل ألّا أفتح الموضوع».

أخذ المبتدئ بعد ذلك نَفَسَاً عميقاً، ثمَّ استرسلَ في بقية القصة: «على أيَّة حالٍ، اتَّصلَتْ شقيقتي شانون ليلة أمس، وأخبرتْنا أنَّ والدتَنا تتوقَّع أنْ أُحضِرَ إيمي للحفل، وأنَّها تأمل أنَّ رومانسية الأجواء والأضواء والأزهار قد تلهمني لأخطبها، وهو الأمر الذي لن أفعله طبعاً، إذْ إنَّنا لم نفترق فحسب، بل إنَّها رحلَتْ إلى كاليفورنيا. وتظنُّ شانون أنَّ الوقت جِدُّ متأخِّرٍ كي أصارح والديَّ بالأمر، وأنَّه لا يمكنني الحضور إلى الحفل بمفردي كذلك، لذا فالحلُّ الوحيد المتبقِّي كي لا أُفسد ذكرى زواجهما الخامسة والثلاثين في هذه المرحلة، هو العثور على امرأةٍ أخرى أستطيع إحضارها كي تشتِّتَ انتباه والدتي وتخفِّفَ من أثَرِ الصدمة. لكنَّ المشكلةَ تكمنُ في أنَّني لا أعرف الكثير من النساء حالياً، فأنا في مرحلةٍ من حياتي شِبهِ خاليةٍ من النساء».

انتظرتُ.

وكذلك فَعَلَ.

حين نفدَ صبري، سألْتُه: «ما الخدمة التي تطلبها؟».

«إذاً، لا أريد إغضاب أختي شانون؛ لأنَّه... صدقيني، لا أحد يريد إغضاب شانون، وقد كنتُ أمرُّ على لائحة الأرقام في

هاتفي وأنا أحاول التفكير في شخصٍ أستطيع دعوتَهُ، حين خطر لي أمرٌ صادمٌ».

«ما هو؟».

«أنَّكِ أنثى».

«أوه، لا!».

«أجل، أجل، أنتِ كذلك».

وضعْتُ يديَّ عليه كأنَّني أحاول تهدئة حيوانٍ لا يمكن توقُّع ردَّة فعله. «أنا أنثى، هذا صحيح، لكنَّني لسْتُ ذاك النوع من النساء».

«أيَّ نوعٍ تقصدين؟».

النوعُ الذي يرتدي لباس السهرة. النوع الذي يخرج في مواعيدَ غراميةٍ.

قلتُ أخيراً: «النوع الذي يقول نعم لِما تطلبُه».

«لن يتوجَّب علينا البقاء طويلاً. فقط كفايةً كي تُشتِّتي انتباه والدتي».

«لا سبيل لكي أذهب معك. سيكون ذاك الحفل غاصّاً بالإطفائيين».

«لكنْ سيكونون كلُّهم من بوسطن، وليس من ليليان. والدي لا يعرف هؤلاء الرفاق».

«لكنَّه يعرف الكابتن مورفي».

«صحيحٌ». تراجع المبتدئ وهلةً، ثمَّ أردفَ: «لكنَّ الكابتن مورفي قد اعتذر عن الحضور مسبقاً».

حرَّكْتُ رأسي. «سيكون ذلك انتحاراً على جميع الصعد: المهنيّ، والشخصيّ، والعاطفيّ...».

«لن نخبرَ أحداً مَنْ أنتِ. ستكونين الفتاة الغامضة التي أحضرتُها معي».

«سيُكشَف أمرنا».

«سأحرص على ألّا يحصل ذلك».

«يا مبتدئ»، قلتُ وأنا أحرّكُ رأسي يمنةً ويسرةً، «... لا تطلب منّي ذلك».

«يمكنكِ أنْ ترفضي إذا شئتِ، لكنّني مضطرٌّ لطلب ذلك منكِ».

«لا تفعلْ ذلك، يا رجل».

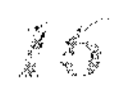
لكنَّه قام بذلك على أية حالٍ.

التفتَ إليّ بوجهه المدمِّر للقلوب ذاك، وثبَّتَ نظره على عينيَّ ودنا منّي قليلاً، ثمَّ، وبصوتٍ خفيضٍ أقرب إلى الهمس، وكأنَّه يطلعني على سرٍّ رهيبٍ، قال: «كاسي، أنا أترجّاكِ. أرجوكِ. هلّا رافقْتِني إلى حفل ذكرى زواج والديَّ؟».

الإجابة الوحيدة المُمكنة كانَتْ لا.

لكنَّ الأوان كان قد فات حينها.

ضدَّ كلِّ ذرَّةِ رجاحةِ عقلٍ كنتُ أملكها، نظرْتُ إلى عينيه وقلت: «نعم».



قَوْلَ نَعَم غَيَّرَ كُلَّ شَيْءٍ.

حين تكون قد اعتدت قول لا، فإنَّ قول نعم واحدةٍ يغدو أمراً جَللاً، إذْ إنَّه يمهِّد الطريق للكثير من «النَّعَمِ» الآتياتِ، نَعَم للتَّحلية، ونعم لقيلولة بعد ظهيرةٍ، بل إنَّني في المرة التالية التي دعَتْني فيها ديانا وجوسي إلى نادي الكروشيه، أجبْتُ، في الحقيقة، بنعم.

«هل سيتوجَّب عليَّ أنْ أَحِيكَ؟»، سألتُ وأنا أجعِّد أنفي بتعالٍ.

«أجل»، أجابَتْ جوسي، في اللحظة ذاتها التي قالَتْ فيها ديانا: «لا».

كنتُ أتجنَّبُهما طوال الوقت، وأرفض كلَّ دعواتِهما للقهوة والشاي وتاكو السمك. كنتُ أهرع نحو السلالم حين أراهما تستقرَّان من أجل الشروع في الحياكة، لأنَّهما ستبدآن في ملاطفتي للانضمام إليهما، لكنْ من غرفتي في العلِّيَّة، كنتُ أستمع إلى الهمهمات اللطيفة لصوتَيهما في غرفة المعيشة في الأسفل، وإيقاع المحادثة الذي تشوبه انفجارات ضحكٍ بين الفينة والأخرى.

لم يكنْ في نيَّتي استراق السمع طبعاً، لكنَّه كان بيتاً ضيِّقاً. وفي الحقيقة ظننتُ أنَّ محادثاتِهما كانَتْ ستكون أكثر طلاقةً، وأقلَّ تحفُّظاً

لو لم أكنْ معهما في الغرفة، وهكذا عن غير قصدٍ، تعلَّمْتُ الكثير عن كلتيهما.

جوسي، مثلاً، كانَتْ متزوِّجةً من رجلٍ يسافر كثيراً، وديانا استقرَّتْ على رأيها بأنَّه جاسوسٌ. أظنُّ أنَّ اسمه كان ماركوس، لكنَّ ديانا لم تدعُه بشيءٍ آخر سوى «007[1]». أمَّا ديانا، فقد كانَتْ مُفتتَنةً بشابٍّ يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنةً، يعمل في جناح اللحوم في السوبرماركت. كانتا تدعوانه الجزَّار. وكانت جوسي بالفعل حاملاً، كما سبق أنْ توقَّعْتُ، وبقدر ما كان ذلك يجعلها سعيدةً فقد كان يوتِّرها أيضاً؛ فقدِ اتَّضح أنَّها كانتْ تحاول الإنجاب منذ ستِّ سنواتٍ، وقد تعرَّضَتْ لإجهاضاتٍ ثلاثةٍ، جميعها كانَتْ متأخِّرةً، بعد أنْ بلغتْ نصف مدة الحمل على الأقل. لذلك، الآن، وبرغم أنَّها تجاوزَتِ الثلث الأول، وتمضي نحو الثاني، وبدأ يظهر عليها الحمل بجلاءٍ، فكلُّ أسبوعٍ يمرُّ يجعلها متوتِّرةً أكثر فأكثر.

تحدَّثَتا عن ذلك كثيراً: كيف لا تتوتَّر من كونها متوتِّرةً.

ومروراً بكلِّ ذلك، كانتا تُلقيان الكثير من النكات فتصعد أصوات ضحكاتهما عبر الدرج مثل الفقاعات. كانتا تمضيان وقتاً رائعاً، وهو الأمر الذي جعلني أحقد عليهما قليلاً؛ إذْ إنَّ ذلك جعل انسحابي إلى غرفتي لا يبدو عمليّاً فحسب، وإنَّما حزيناً.

كنتُ أحاول إبقاء نفسي في مأمنٍ. كنتُ أحاول الجَرْيَ لمسافاتٍ طويلةٍ، وتناولَ طعامٍ صحّيٍّ، وتعلُّمَ الباركور، وإرسال طلبات مِنحٍ من أجل محطَّة الإطفاء. كانَتْ لديَّ استراتيجيةٌ كاملةٌ لأجعل حياتي مستقرَّةً من جديدٍ.

---

(1) الرمز الشهير لفيلم عميل المخابرات البريطانية «جميس بوند» - المترجم.

ثمَّ قلتُ نعم للمبتدئ.

وهو الأمر الذي نسف الاستراتيجيّة برمَّتها.

الآن، لم أقمْ بقول نعم للذهاب رفقة المبتدئ إلى ذلك الحفل فحسب - وهو ما ينافي كلَّ القواعد - بل الأمر أسوأُ من ذلك؛ إذْ سيتوجَّب عليَّ الذهاب بالفعل.

كنت في حاجةٍ ماسَّةٍ للحديث مع أحد.

كانَتْ ذكرى الزواج تقترب، وكان ذلك أكثر بكثيرٍ ممَّا يمكنُني التعامل معه لوحدي.

لذلك، وفي إحدى الليالي، أنهيْتُ مقاطعتي لنادي الكروشيه، ونزلْتُ إلى الطابق الأرضيِّ في جواربي، الأمر الذي جعلني أشعر بانهزامٍ كبيرٍ ونصرٍ مُبهِجٍ في الوقت ذاته. فقدْ شعرتُ بالخجل وأنا أقتربُ منهما، لأنَّني كنتُ قد صدَدْتُهما وقتاً طويلاً لدرجة أنَّهما قد تحملان بعض الضغينة تجاهي، لكنَّهما بالطبع لم تفعلا، بلْ أعدَّتا لي الشاي الساخن، واحتشدَتْ كلٌّ منهما بجانبي، لتستمعا إلى القصة بحذافيرها، فانتهى بي المطاف أفضفض لهما بكلِّ شيءٍ، بل إنَّني في النهاية دخلتُ إلى موقع محطَّة ليليان للإطفاء لأريَهما صورة المبتدئ.

برغم أنَّ الصورة لم تُجْدِ في تصويره حقيقةً.

إذاً لقد انضممْتُ إلى نادي الكروشيه، فالفَزَعُ المحض قد ينجح فعلاً في زعزعة الأمور، إذِ انتقلتُ من تجاهُلٍ وصمتٍ تامَّين إلى إفشاءٍ تامٍّ خلال يومٍ واحدٍ. فهل وَجدَت ديانا وجوسي الأمر مفاجئاً؟ لا أستطيع الجزم، فقدْ تقافزَتا كأنَّنا اعتدْنا التَّحدُّث عن الفتيان دوماً.

«كلا، لم تفعلي!»، صاحتْ أمي وجوسي بالآن ذاته حين أخبرتُهما أنَّني قلتُ نعم.

تنهَّدْتُ. «بل فعلْتُ، ثمَّ بعدها نِمْنا معاً».

«فعلتُما ماذا معاً؟» صرخَت ديانا.

«نِمنا، حقيقةً» وضَّحْتُ. «من أجل الدفء؛ لأنَّ الجوَّ كان بارداً للغاية هناك في الأعلى».

«من قبيل أنَّه حضنكِ بين ذراعيه؟»، سألَتْ جوسي.

حرَّكْتُ نافيةً. «بل من قبيل أنَّنا اتكأْنا على حائطٍ قرميديٍّ غير مُريحٍ بتاتاً، جنباً إلى جنبٍ، ثمَّ غطَطْنا في النوم ونحن جالسان».

«هذا رومانسيٌّ للغاية»، قالت ديانا.

عبستُ. «بل إنَّه عكس ذلك، لكنَّني في النهاية استعملْتُ كتفه مخدَّةً». تقنياً، يمكنكِ أنْ تجادلي أنَّنا اقتربنا أحدنا من الآخر.

«والآن، ستخرجان في موعدٍ»، قالَتْ جوسي.

وضعتُ يديَّ على عينيَّ. «دعينا لا نُسَمِّهِ 'موعداً'، بل زميلاً يساعد زميلاً آخر بخصوص مشكلة عائلية».

ردَّتْ جوسي: «يبدو ذلك موعداً بالنسبة إليَّ»، ثمَّ رفعَتْ كفَّها فضربَتْ ديانا كفَّها عليه.

ضغطْتُ وجهي على إحدى مخدَّات الأريكة، ثمَّ قلتُ في غمغماتٍ مخنوقةٍ: «أظنُّ أنَّني قمْتُ للتَّوِّ بتدمير حياتي».

«لا يمكن أنْ يكون الأمر بكلِّ هذا السوء»، قالت ديانا.

جلسْتُ. «إذا عرف الرفاق في المحطة بخصوص ذلك، فستكون نهاية كلِّ شيءٍ».

«أظنُّ أنَّه من اللطافة أنْ تساعدي صديقك»، قالَتْ ديانا، «لا يستطيع التَّحكُّم في كَونِه حالماً، ذاك ليس ذنبه».

حرَّكتُ رأسي في عدم تصديقٍ. «ما الذي دهاني؟».

«لا أستطيع أنْ أفهم سببَ كلِّ هذه الجلبة»، قالت جوسي، «مَنْ يهتمُّ بمَن يروقُكِ؟».

«إنَّه خرقٌ سافرٌ للقواعد، فكونكِ فتاةً يضعكِ أمام خيارين، فأنتِ إمَّا عذراءُ أو عاهرةٌ، واحزري ماذا تجعلك معاشرةُ زميلك في العمل؟».

رفضَتا أنْ تُجيبا عن ذلك من حيثُ المبدأ.

«غير عذراء»، انتهيْتُ بالقول أخيراً.

«لمَ يجب أنْ تكوني إحداهما أو الأخرى؟ لمَ لا يمكنكِ أنْ تكوني مجرَّد إنسانٍ طبيعيٍّ معقَّدٍ؟».

«هذه هي القواعد».

أومأَتْ جوسي بالإيجاب ثمَّ قمْنا، نحن الثلاث، بإلقاء نظرةٍ جديدةٍ على صورته على هاتفي. «لا يُقاوَمُ».

الطريقة التي كنَّا نمزح بها بخصوص الأمر كانَتْ مريحةً على نحوٍ ما. فقد أبقيْنا الأمور خفيفةً، ولم نتحدَّثْ عن المخاطر الحقيقية التي كنتُ أعرّض نفسي لها، أو لماذا، برغم عِلمي بكلِّ ما أعلم، جَرُؤْتُ على القبول.

إنه شيءٌ يجب تأمُّله.

الذهاب إلى ذلك الحفل قد يكلِّفني وظيفتي فعلاً، وبرغم ذلك وافقْتُ على الذهاب.

تلك الـ«نعم» طفَتْ من دواخلي من تلقاء نفسها.

لماذا؟ بقيْتُ نصف تلك الليلة أصارع هذا السؤال. شكرَني المبتدئ عشرين مرةً على الأقل قبل أنْ يغطَّ في النوم، ووعدَني أنَّ أحداً لن يعلم مطلقاً.

لكنَّني أفطنُ من أنْ أتوقَّع ألَّا يحصلَ ذلك، فمركز الإطفاء لم يكنْ وظيفةً، بل كانَ قريةً صغيرةً، فالكلُّ يعلمون كلَّ شيءٍ في نهاية المطاف.

قد يكون هناك، في قرارة نفسي، شيءٌ من التخريب الذاتي، اعتقادٌ ما مندسٌّ وغير خاضعٍ لرقابتي، بأنَّني لا أستحقُّ أنْ أكونَ سعيدةً. أو ربَّما كنتُ أبحث عن سببٍ للفشل.

أو ربَّما أنَّني فقط كنتُ مُعجبةً جداً جداً بالمبتدئ، لأسبابٍ مشروعةٍ.

كلَّما فكَّرْتُ في ذلك أكثر، بدا الجواب بسيطاً بطريقةٍ مقلِقةٍ. لمَ وافقْتُ على الذهاب؟ لأنَّني أردْتُ ذلك.

فقط أردْتُ ذلك.

كنتُ أعي المخاطر، لكنَّ جزءاً من الحقيقة كان أنَّني لم أبالِ بذلك البتَّة، فجزءٌ منِّي كان يحنُّ جداً جداً... ليكون بقربه. مهما كلَّفَني ذلك، على ما يبدو.

«أعتقد أنه أمرٌ رائع» قالت ديانا، رافضةً أنْ تدعني أؤنِّب نفسي أكثر. «أحياناً نلتقي أشخاصاً نتناغم معهم. هذا أمرٌ جيِّدٌ. إنَّها هديةٌ من الكون».

«إلَّا إذا جعلَكِ ذلك تُطرَدين من العمل».

«لنْ يجعلَكِ ذلك تُطرَدين من العمل».

«أنا جادَّةٌ»، قلت، «الديَّ هفوةٌ سابقةٌ في أوستن، ولا يمكنني العبث مجدَّداً».

حين أمالَت ديانا رأسها وقالتْ: «حقّاً؟»، تذكَّرتُ أنَّني لم أخبرْها بالأمر.

أخذْتُ شهيقاً. «كان نزاعاً شخصياً».

قرَّرَتْ ألَّا تتعمّق في الأمر أكثر من ذلك، فقدْ كانَتْ أوَّل مرةٍ أحضر فيها إلى نادي الكروشيه، فأعتقد أنَّها لم تُرِدْ إخافتي. «حسنٌ»، قالت وهي تأخذ صفِّي باستماتةٍ، «هذا نقيضُ النزاع الشخصيّ».

«لستُ متأكِّدةً من أنَّ مركزَ الإطفاء سَيراها بتلك الطريقة».

قالت جوسي: «سيتوجَّب علينا فقط أنْ نحرص على ألَّا يُكشف أمرُكِ».

أتبعَتْها ديانا: «الأمر سهلٌ، أسدلي شعرَكِ وارتدي ملابس مخالِفةً لأسلوبك المعتاد في اللباس».

ماذا كان أسلوبي المعتاد؟ سراويل عملٍ، قمصان عملٍ، أحذية عملٍ.

«ما نمط الحفل؟»، سألَتْ جوسي.

هززْتُ كتفيَّ. «فاخرٌ؟».

حدجَتْني ديانا بنظرةٍ متفحّصةٍ: «ألديكِ أيُّ شيءٍ فاخرٍ؟».

حرَّكْتُ رأسي نافيةً.

«ألديكِ فستانٌ على الأقل؟».

حرَّكْتُ رأسي نافيةً مجدَّداً.

«أنا لديَّ فساتين. . .» قالَتْ جوسي وهي ترفع حاجبيها، «لديَّ خزانةٌ ملأى عن آخرها بالفساتين»، ثمَّ أضافَتْ وهي تربِّتُ على بطنها: «تمضي نحو الهدر».

بعد ذلك، تخلينا عن الكروشيه، وتوجهنا إلى البيت المجاور، ثمَّ عبر السلالم إلى الأعلى، نحو خزانة ملابس جوسي، كلتانا نساعد ديانا في المرور فوق تشقُّقات الرصيف وصعود الدرج.

وجدتُ نفسي بعدها واقفةً أمام مرآةِ جوسي ذات الطول الكامل، بينما شرعَتِ السيّدتان في إفراغ محتوى خزانة الملابس فستاناً بعد آخر، يضعانها أمامي، ثمَّ يرميانها على الأكوام المرفوضة فوق السرير.

أرجوانيٌّ أكثر من اللازم، تقرّران، أو: فاتحٌ للغاية، داكنٌ للغاية، مشعٌّ للغاية، بسيطٌ للغاية، منكمشٌ للغاية، فضفاضٌ للغاية، به طيّاتٌ كثيرةٌ، للمراهقات، للعجائز، كاشفٌ للصدر أكثر من اللازم، لا يكشف كفايةً، وأشياءُ أخرى من ذاك القبيل.

«هذا مرهق»، حاولْتُ أنْ أحتجَّ.

«أغمضي عينيكِ» قالتْ جوسي، «سنقوم بِالعمل كلِّه».

«أنا فقط... كما تعلمان... لستُ شخصاً شغوفاً بالثياب».

«نعلم ذلك»، قالتا بصوتٍ واحدٍ، من دون أنْ تتوقَّفا.

ثمَّ أضافتْ أمي: «لا يمكنكِ الذهاب إلى الحفل في زيِّ الإطفائية ذاك خاصَّتك».

أخيراً، وبعد ما بدا لي أنَّه استمرَّ لساعاتٍ، اختصرتا خزانة الملابس إلى فستانٍ واحدٍ مثاليٍّ سيغيِّر حياتي. أزرقُ فاتحٌ، يصل طوله إلى منتصف الفخذ، بأشرطةٍ رفيعة، مكشكَشٌ عند منطقة الثديين.

«حقّاً؟»، قلتُ. بدا ناعماً للغاية.

«ولا كلمة»، ردَّت ديانا وهي تضع إصبعاً على شفتِها، شششش، «اذهبي وارتديه».

تردَّدْتُ. لم أثقْ في حكمهما، إذْ بدا لي قصيراً جدّاً، والقماش الذي صُنِعَ منه بدا شديد الاشتعال. «هذا ليس فستاناً حتى»، احتججْتُ بينما كانتا توجهانني نحو غرفةٍ خاليةٍ. «إنَّهُ منديلٌ».

«هيَّا امضي!»، قالت ديانا.

«يا لتصرُّفها الصبياني» قالتْ جوسي، بعد أنْ أغلقتُ الباب.

أكنتُ كذلك؟ لطالما فكرتُ في نفسي كـ'أنا'، بالطبع لم تكنْ ميولي بنَّاتيَّةً، فلم يجلس والدي يوماً ليجدل شعري، وكان كلُّ ذلك غريباً بالنسبة إليّ. لم يكنْ سيئاً، بل كان فقط غير معتادٍ.

لبستُ الفستان ثمَّ جذبْتُه لينزلقَ ويغطّيَ جسدي، لكنَّ الأشرطة الرفيعة لمْ تُغطِّ شيئاً من حمَّالة صدري الرياضية. «أيجبُ أنْ أنزع حمَّالة صدري الرياضية؟»، صرختُ عبر الباب.

«أجل»، أجابَتا معاً في حماسٍ.

بدأتُ من جديدٍ، وحين استقرَّ الفستانُ على جسدي هذه المرة، بدا الأمر أكثر صواباً.

وأيضاً كأنَّ شخصاً آخر كان يرتديه.

«إذاً. . . أيُّ نوعٍ من حمَّالات الصدر يجب أنْ أرتديَ مع هذا الشيء؟»، صرختُ مجدّداً من وراء الباب.

«لا حمَّالة»، ردَّتْ جوسي.

«لا حمالةَ صدرٍ على الإطلاق؟». بدا ذلك متطرِّفاً شيئاً ما.

ردَّتْ جوسي: «يمكنك ارتداء حمَّالة صدرٍ من دون أشرطة. . . لكنَّك لستِ مضطرَّةً إلى ذلك، فالكشكشة في منطقة الثديين تغطيهما كفايةً».

كانَتِ الكشكشة بالفعل تغطّيهما، والناظر لن يدرك عدم وجود حمَّالة صدرٍ تحتها.

باستثنائي أنا.

غدا صدري غير مقيَّدٍ، على عكس ما دأبتُ طوال كلِّ هذه السنين، وكان ذلك شعوراً غريباً جداً.

من المهم هنا الإشارة إلى أنَّ الأمر أبعد ما يكون عن تلك اللحظة في أفلام المراهقين، حيث تتحول الفتاة القبيحة ذات اللباس المتواضع المحتشم إلى ملكة جمال، فلم أكن فتاةً قبيحةً من قبل، كما لن أكون كذلك حين أعيد ارتداء حمَّالات الصدر الرياضية وسراويل العمل الفضفاضة. لم تكن تلك التي أرى في المرآة نسخةً أفضل منِّي، بل نسخة مختلفة فقط.

كان الأمر كأنَّني ألتقي جزءاً مجهولاً منِّي لأول مرةٍ.

الجزء الذي يرتدي هذه الأصناف من الملابس.

الجزء اللَّيِّن، الرقيق، الرهيف، نصف العاري، الذي لا يرتدي حمالة صدرٍ.

إذا ما قمت بالبحث عن معنى «رهيف»، فستظهر لك صورتي في ذاك الفستان المِنديليِّ الأزرق.

أحسسْتُ كأنَّني كائنٌ رخويٌّ من دون قوقعته.

لا أقول إنَّ كونَ المرءِ رهيفاً هو شيءٌ سيِّئٌ، ولكن بالنسبة إلى إنسانةٍ أمضَتْ كلَّ حياتها البالغة في محاولة أنْ تكون عكس ذلك، فهذا بالتأكيد تغييرٌ كبيرٌ.

جعلَني ذلك واعيةً بشدَّةٍ بكلِّ إحساسٍ يحيط بي: السجادة العُقديَّة تحت قدميَّ العاريتين، القماش الحريريُّ الذي يلامس فخذَيَّ، الهواء الذي يمضي إلى وخارج رئتيّ، من دون الإشارة إلى ثدييَّ غير المُلجَمين، مع ميليمترٍ واحدٍ فقط من القماش يحول بينهما وبين العالم الخارجي.

«لا أسمع أيَّة حركةٍ عندكِ»، صاحتْ جوسي بعد دقيقةٍ.

«أنا فقط أعتاد على الحركة في هذا الفستان»، ردَّتِ الغريبة في المرآة.

«تعالَي، دعينا نرَ!»، قالَت ديانا.
وهذا ما فعلْتُ.
لهثتْ كلتاهما حين فتحتُ الباب.
«أشعرُ أنَّني ذاهبةٌ إلى حفل التَّخرُّج».
«ما الذي ارتديتِه في حفل التَّخرُّج؟» سألتْ جوسي.
«لا شيءَ. لم أذهبْ، كانَتْ لِتِيدْ تذاكرُ مباراة بيسبول».
جعلَتاني أدورُ حول نفسي.
«أشعرُ أنَّني عاريةٌ للغاية»، قلتُ.
«قد يكون العري ممتعاً»، قالتْ والدتي.
أيمكنُه حقّاً أنْ يكون كذلك؟ لم أكنْ متأكِّدةً. كَوْنِي مكشوفةً إلى تلك الدرجة منحَني في الآن ذاته شعوراً بالحماس وعدم الارتياح العميق، فلم أستطعْ تحديدَ إن كان ذلك قد راقني. «الأمر فقط أنَّني» قلتُ، «أختار غالباً نقيض العُرْيِ».
أومأَتْ جوسي. «لكنْ من الجيِّدِ أنْ تجرِّبي أشياءَ جديدةً».
مضتْ جوسي نحو خزانة ملابسها، ثمَّ عادَتْ بسُترةٍ ضيّقةٍ مُزرَّرةٍ أستطيع وضعها على كتفيَّ إذا شعرتُ بالبرد، وحقيبةٍ يدويةٍ بلونٍ يتماشى معها، وبعد ذلك تحوَّلَتا إلى مخزن الأحذية. كان قياس قدمَي جوسي 39 بينما كان قياسي 40. لكنَّها كان لديها بعض الصنادل المفتوحة أستطيع حَشْرَ قدميَّ فيها. معظمها ذات طبقةٍ سفليةٍ سميكةٍ وكعبٍ عالٍ.
«أشعرُ أنَّني أمشي على ركائز»، قلتُ لمَّا انتعلتُ زوج صندلٍ ناسبَ مقاسي.
«ستعتادين ذلك سريعاً»، قالتْ والدتي.
«كُوني ما تنتعلينه»، شجَّعَتْني جوسي.

حدَّقتُ إلى نفسي في المرآة. كنتُ أبدو مثل إنسانةٍ جديدةٍ، مختلفةٍ كلِّياً. إنسانةٍ شجاعةٍ كفايةً كي ترتدي ملابسَ بلا حمّالة صدرٍ. إنسانةٍ منفتحةٍ أمام الاحتمالات. إنسانةٍ مُقبلةٍ على شتَّى أنواع المشاكل.

نظرْتُ إلى وجوهنا جميعها منعكسةً على المرآة. كان الألق بادياً على وجهيهما، بينما ارتسمَ شيءٌ من القلق على مُحيَّاي.

قلتُ وأنا أعضُّ على شفتي: «أظنُّ أنَّ الأمر سينجح».

في الحد الأدنى، فقد كان تنكُّرا لعيناً رائعاً.

حلَّ الأحدُ سريعاً، سريعاً للغاية، وغير سريعٍ كفايةً.

جعلَتْني ديانا أجلس أمام مرآة تجميلها بينما شرعَتْ في تغيير مظهري. «القليل فقط بعد...» ظلَّتْ تقول، لكنَّني أظنُّها استعملَتْ كلَّ قارورةٍ، وكلَّ بخّاخٍ، وكلَّ فرشاةٍ، وكلَّ أنبوبٍ من كلِّ دُرجٍ. نتفتْ حاجبَي، وفتلَتْ رموشي، وغمرَتْني بالبودرة، ونفشَتْ شعري. عبسَتْ وانخرطت في هرجٍ ومرجٍ، بينما جلسْتُ هناك بعينيَّ المغمضتَين، أتَّبع أوامرها الصارمة بعدم استراق النظر.

حين سمحَتْ لي بفتح عينيَّ أخيراً، رأيتُ نفسي ذاتها لكنْ ببعض الاختلافات، فظِلُّ العيون وأحمر الشفاه شكّلا الصدمتين الرئيستين، فقدْ بدَتْ عيناي في ضِعْفِ حجمهما الطبيعي، وكانَتْ شفتاي بلونٍ أحمرَ قاتمٍ، وقد صارتا منتفختَين أكثر.

«إنَّها أشبه بالنسخة الكارتونية مني»، علَّقْتُ.

رمقَتْني بنظرةٍ، ثمَّ قالَتْ: «شكراً».

التغيير الأكبر كان يخصُّ شعري الذي أصرّتا على أنْ أُسدلَه وأدعه طليقاً عِوَضَ جمعه في شكل كعكةٍ كالمعتاد. قنينة مثبِّت شعرٍ

وثلاثون دقيقةً من الجذب والتمشيط والتعديل. لم يغدُ شعراً، صار لِبدةً.

ما عدْتُ أبدو مثل نفسي... لنفسي.

حدَّقنا، نحن الثلاثةَ، في انعكاس صورتي على المرآة.

«إنَّها نسخةٌ جِدُّ مختلفةٍ منكِ»، ختمَتْ ديانا.

«أهي أفضلُ؟»، سألتُ.

اعتصرتْ كتفيَّ براحتَي يدَيها. «أنا جِدُّ شَغوفةٍ بأناكِ الاعتيادية» قالَتْ، وبطريقةٍ ما بدا أنَّها كانَتْ تعرف الكلمات التي كنتُ أنتظر سماعها بالضَّبط، «ولكنْ هذه لطيفةٌ أيضاً».

تأنَّيْتُ في ارتداء الفستان حتى آخر لحظةٍ كي لا أُجعِّدَهُ، والأمر ذاته بالنسبة إلى زوج الأحذية، لأخفض من احتمال كَسْرِ أحد كاحليَّ.

حين تأخَّر المبتدئ بضع دقائق، أحسسْتُ أنَّني لا أستطيع تحمُّل الأمر أكثر من ذلك.

أخرجْتُ هاتفي.

«سألغي الأمر»، قلتُ وأنا أحرِّكُ رأسي يمنةً ويسرةً أمام والدتي وجوسي اللَّتين كانتا واقفتين في دوريَّة حراسةٍ عند النافذة. «لا أستطيع القيام بهذا».

أحسسْتُ بيديَّ باردتَين. كلُّ شيءٍ بدا بارداً، وساخناً، كلاهما في الآن ذاتِهِ. ما الذي دهاني؟ سيتمُّ كشف أمرنا، وسيتمُّ إثر ذلك التقليل منِّي، والسخرية منِّي، وطردي، وبهذا الترتيب. حياتي التي أعرفها ستمضي بلا رجعةٍ.

«يمكنكِ الجَرْيُ وسط بناءٍ يحترق، لكنَّكِ لا يمكنكِ تمضية أمسيةٍ رفقةَ شابٍّ لطيفٍ؟».

«الأمر مختلفٌ»، قلت.

«أتَّفق معكِ»، ردَّتْ ديانا.

قبل أنْ تضيف جوسي: «إنَّه أكثر مرحاً».

«يعتمد ذلك على تعريفك للمرح»، قلت.

لم يكنْ موعداً غرامياً، لكنَّني أحسسْتُ أنَّه كان كذلك، فقدْ كان الأمر يحوي كثيراً من المتناقضات. أردْتُ الذَّهابَ بشدَّةٍ، وتمنَّيْتُ بالقوة ذاتها لو أنَّني لمْ أُدْعَ. أردْتُ المبتدئَ أنْ يبادر بالمجيء، وأردتُه ألَّا يظهر على الإطلاق. أردتُ ارتداء فستانٍ مكشكشٍ ولو مرَّةً واحدةً في حياتي، ولكنْ في الوقت ذاته، أردتُ ارتداء حمَّالة صدري الرياضية وبذلة تدريبٍ... مع قَلَنسوةٍ.

أحسستُ بأصابعي متجمِّدةً، كأنَّها وُضِعَتْ في برَّادٍ.

وأخيراً، طرقةٌ على الباب.

أحسستُ بأحشائي تهتزُّ، والخوف يسري في جسدي. بدا هذا أكثر شيءٍ مخيفٍ أُقدِم عليه في حياتي. كم كان ذلك غريباً. فقد سبق لي أنِ استخرجْتُ جُثَثاً من حطام سياراتٍ، ووقفتُ أمام فوَّهات مسدَّساتٍ موجَّهةٍ نحوي، وشاهدتُ أُناساً يلفظون أنفاسهم الأخيرة، لكنَّ هذا كان أكثر شيءٍ مخيفٍ أُقدِم عليه في حياتي.

أحطْتُ بذراع ديانا. «ربَّما يجب أنْ أرتديَ زيِّي الرسميَّ».

«زيُّكِ الرسميُّ؟».

أومأتُ. أجل، بدَتِ السترة ذات الكتفيَّات فجأةً مثيرةً للغاية.

ارتفعَتْ دقَّات قلبي حتى غدا ينبضُ مثل محرِّكٍ هدَّارٍ. ومن دون أنْ أقرِّرَ ذلك، اختبأْتُ خلف إحدى النوافذ الجرارة.

لكنَّ جوسي كانَتْ تفتح الباب، ثمَّ بعدها كانَتْ ديانا تنضمُّ إليها، كأنَّ الناس كانُوا يفتحون الباب للزُّوَّار دوماً.

ابتسمتْ ديانا وقالتْ: «مرحباً يا مبتدئ، أنتَ مُتأخِّرٌ».

«كنتُ قادماً مبكراً»، قال بصوتٍ كلُّه أسفٌ، «الكنَّني رأيتُ طفلاً يسقط عن درَّاجته فتوقَّفْتُ لتقديم المساعدة».

بالطبع سيفعل.

تبادلَتْ جوسي وديانا النَّظرات، ولسان حالهما يقول: كم هو لطيفٌ.

كان قد قصَّ شعره قَصَّةً جديدةً ذاك الصباح: شعره أقصر في الخلف، لكنَّه كان ما يزال طويلاً من الأمام، وكان يرتدي بذلةً رماديةً داكنةً على مقاسه تماماً، بربطة عنقٍ زرقاءَ فاتحةٍ.

بدا وسيماً لدرجة لا تُصدَّق.

إذاً، كان الأمر يحدث. أيّاً كانَتِ الخيارات التي اتّخذتها، فقد بدأَتْ نتائجها تتجسّد. لم يبقَ أيُّ شيءٍ أفعله عدا الخروج وملاقاته.

حينَ فعلتُ ذلك نظر نحوي ورآني.

لاحظْتُ شيئاً هنا: لقد تخلَّى عن ابتسامته لوهلةٍ، وكان الأمر كأنَّه نسيَ كلَّ شيءٍ: ما كان يقوله، وما كان يفعله، فانتصب في مكانه بلا حراكٍ.

أكنتُ مختلفةً إلى ذلك الحدِّ؟ تساءلتُ، أكنتُ صادمةً إلى ذلك الحدِّ؟

في حياتي كلِّها، لم يسبق لأحدٍ أنْ نظر إليَّ بتلك الطريقة قطُّ.

كنتُ أستطيع افتعال تفسيرات أبرّر بها تعبير الصدمة المرتسم على وجهه: بقايا طعامٍ عالقةٌ في أسناني، مُخاطٌ بارزٌ من أنفي، رعافٌ مفاجئٌ... لكنَّني لم أفعل.

تلك الطريقة التي كان يحدِّق بي من خلالها كنتُ أعرفها.

كنتُ أعرفها لأنَّني تعرّفت إليها.

لأنَّني كنتُ أحدِّق به بالطريقة نفسها.

هناك شيءٌ آخر لاحظْتُه: كلُّ عذاب الترقُّب ذابَ وتبخَّرَ مع رؤيته. كلُّ توتُّري اختفى فجأةً. فوجوده في الغرفة جعل كلَّ شيءٍ على ما يُرام.

ربَّما كنتُ محكومةً بالندم على كل شيءٍ لاحقاً، لكنَّني ما كنتُ نادمةً على أيِّ شيءٍ الآن.

تقدَّمْتُ خطوةً.

وكذلك فعلَ أيضاً، غير آبهَين لوجود والدتي وجوسي.

«تبدين رائعةً».

«وأنتَ كذلك».

وبعد لحظة صمتٍ، قال: «شكراً لإنقاذي هذه الليلة».

«فقط لا تخبرْ أحداً».

اختفَتِ الابتسامة عن شفتيه مجدَّداً، ثمَّ وبنظرة جادَّةٍ رسم علامة X بسبَّابته فوق قلبه وقال: «أتمنَّى أنْ أموت لو فعلتُ».

دنا منِّي بضع خطواتٍ، كأنَّه لم يكن في المكان غيرنا.

ثمَّ أخذ يدي وقادني نحو الباب.

«يجب أنْ أخبركَ شيئاً، يا مبتدئ»، قلتُ.

«ماذا؟».

«لا أستطيع المشيَ في هذا الحذاء».

«لا بأس»، قال وهو يمدُّ إليَّ ذراعه المثنية، «سأساعدكِ».

«وأشعر أنَّني عاريةٌ تماماً في هذا الفستان».

رجع قليلاً إلى الخلف ودقَّق النظر فيَّ كأنَّه يتأكَّد. «أنتِ، بكلِّ تأكيدٍ، لستِ عاريةً. ذلك... كنتُ سألاحظه».

«وأعلم أنَّ هذا ليس موعداً غرامياً، لكنَّ هالتَه تُشعرني أنَّه

كذلك شيئاً ما، وأريدكَ أنْ تعلم أنَّه لم يسبقْ لي الخروج في موعدٍ غراميٍّ من قبل».

أمال رأسه. «على الإطلاق؟».

«على الإطلاق».

«أهذا موعدُكِ الغراميُّ الأول؟».

«هذا ليس موعداً غرامياً».

«لكنْ، لو كان كذلك... فسيكون الأول؟».

أومأتُ بالإيجاب. «لو كان كذلك، فسيكون الأول».

أظنُّ أنَّنا ودَّعْنا والدتي وجوسي، لكنَّني لا أذكر حقّاً.

كلُّ ما أتذكَّرُه هو الإحساس بذراعه حول خصري، وكمْ كان ذاك القماش الحريري رقيقاً، وكيف أنَّني كنتُ واعيةً بكلِّ شيءٍ: الرياح التي تنفخ شعري، وشمس ما بعد الظهيرة المتأخِّرة على عظم ترقوتي، والإحساس بكل خطوةٍ مُتخلخِلةٍ. وكان كلُّ شبرٍ من جلدي متنبِّها، وكلُّ شهيقٍ أخذتُه بدا أنه يُحدِث إعصاراً صغيراً في رئتيَّ، وكلَّما تجرَّأتُ على النظر إلى المبتدئ شعرْتُ بوخزٍ في كلِّ جسدي.

ليس جيِّداً، وجيِّدٌ للغاية، في الآنِ ذاته.

قادني إلى شاحنته، وفتح لي الباب.

أكنتُ قادرةً تماماً على فتح بابي؟ طبعاً.

لكنَّ ذلك راقني.

وأنا أستقرُّ في عُمق مقعدي، لم أعرف ما يجب أنْ أفعلَهُ بساقَيَّ، وفي النهاية شبَكْتُهما، ورأيْتُ ثنية ساقٍ فوق أخرى، مع إحساسٍ غريبٍ، كأنَّني غادرتُ جسدي وكأنَّهما لم تكونا جزءاً منِّي.

أما المبتدئ، وهو يأخذ مقعده، فقد ظلَّ ينظر إليهما أيضاً، عوض أنْ يقوم بتشغيل المحرك.

«لم أكنْ أعرف أنَّ لكِ ساقَين»، قال وهو يومئ.
«نعم، دائماً».
«أنت تُبقينَهما مخبَّأتين».
«ليستا مخبَّأتين»، قلت، «هما فقط... كما تعلم... في سروالي. تماماً حيث تُبقي ساقيكَ أيضاً، بالمناسبة».
«لكنَّ لكِ ساقَي امرأةٍ»، شرح.
«أجل».
«أما أنا، فلا».
«صحيحٌ».
«أنا فقط أقول إنَّه لا أحد يرغب في رؤية ساقَيَّ».
«أنا متأكِّدةٌ أنَّ أحدهم يرغب في رؤيتهما، الحقيبة ربَّما».
ابتسم المبتدئ ابتسامةً عريضةً، وظهرت تجعُّداتٌ صغيرةٌ على طرفَي عينيه. أدار المحرِّك، ثمَّ حرَّكَ رأسه كأنَّه لم يكن مصدِّقاً ما يحصل: «هانويل لها ساقان»، قال شارداً لوهلة ومستمتعاً بالفكرة.
لكَمْتُه على الكتف.
ثمَّ انطلقنا. تبعْنا الطريق الساحلية جنوباً، وسمحتُ لرؤية الأفق البعيد وهبوب الرياح بتملُّكي لبعض الوقت.
وردَتْني فكرةٌ، فقلتُ: «لن أشربَ الليلة، بالمناسبة... سأكون سائقكَ المُعيَّن».
«تريدين أن تَبقَي يقظةً طوال الوقت، هاه؟».
«شيءٌ من هذا القبيل».
«حسنٌ، لكنْ لا ضيرَ إذا ما أردتِ تغيير رأيك. أنا لا أسكَر قطُّ، أستطيع الشرب طوال اليوم، ولا يؤثِّر ذلك فيَّ».

رمقتُه بنظرةٍ: بربِّك. «أستطيع أنْ أضاهيك قدر ما شئتَ من دون أنْ أسكرَ، يا صاح».

«أودُّ أنْ أراكِ تحاولين».

وضعتُ رأسي على المسند وتركتُ الرياح تُبَعثِرُ شعري وتتخلَّله.

«هل قرَّرْتَ ما ستقول لوالديك بخصوصي؟».

أومأ. «فكَّرْتُ بجملةٍ مثاليةٍ، في الحقيقة».

«أتحفني».

«حين يسألان: 'أين إيمي؟'، سأقول: 'لم تستطع المجيء، لكنَّني أحضرتُ صديقةً'...».

علَّقتُ: «تمام! ذلك ليس كذباً حتى. تُشتِّتُ، ثمَّ تعيدُ توجيه الانتباه».

واصل كلامه: «ثمَّ يأتي دوركِ لسحبي نحو حلبة الرقص لتفادي أيِّ أسئلةٍ إضافيةٍ».

«لستُ متأكّدةً من أنَّني أستطيع سحب أيٍّ كان إلى أيِّ مكانٍ وأنا أنتعل هذا الحذاء... لكنَّني سأحاول».

17

الأمر بخصوص المبتدئ هو أنَّه في مركز الإطفاء، كان هادئاً، وكثير التَّبسُّم، ودائم الاستعداد لتقديم المساعدة والقيام بأيِّ شيءٍ يطلبه منه أيٌّ منَّا، لكنه كان قليل الكلام.

ولكنْ خُذيه إلى تجمُّعٍ عائليٍّ، تحت أضواءٍ برَّاقةٍ مُلتمِعةٍ وكرةِ ديسكو، في قاعةٍ مَلأى بالأنسباء و«دي جي» يقوم بتشغيل أفضل أربعين مقطوعةٍ من كلِّ عقدٍ زمنيٍّ، ولن تَريهِ يُبقي شفتيه مُطبقتَين.

منذ اللحظة التي وطئَتْ قدمانا المكان، بدأ الناس بإمساكه، وحضنه، ونكزه، وبعثرة شعره، وكان يردُّ بالمثل مع الكل. يشير إلى قريبه ميكي، ويرفع كفّاً مبسوطةً لقريبه باتريك، ويقول لعمَّته آلين إنَّها تبدو مذهلةً.

كان قلبَ الحفل النابض.

وكنتُ أنا الهادئةَ هذه المرة، واقفةً هناك بلا حمَّالة صدرٍ، في فستاني المِنديليِّ القابل للاشتعال وحذائي العالي بطابقين عن سطح الأرض، أحاول أنْ أتفادى السقوط.

أحاطَتْ به أخواته، تعانقْنَه وتقرصْنَ خدَّيه في مرحٍ. اعترف لإحداهُنَّ بخطَّتنا، وفي ظرف ثوانٍ، عرفْنَ جميعهن، كأنَّها كانَتْ

مستعمرة نملٍ. ظهرَتِ الكبرى بِوَليدٍ على خصرها لإلقاء نظرةٍ عليَّ.

«هذه هي الحبيبة المزيَّفة، هاه؟»، سألَتْ مبتسمةً.

«نحن لا نتظاهر أنَّها حبيبتي»، صحَّح المبتدئ، «بل نستعملها للتَّمويه».

قامَتِ الشقيقة -شانون- بإلقاء نظرةٍ فاحصةٍ عليَّ، من رأسي حتى أخمص قدميَّ. «إنَّها مموَّهة فعلاً».

أين هو زيِّي الرسمي؟!

ثمَّ أشارَتْ إليَّ. «لا تحطِّمي قلبَهُ».

«اصمتي»، زَجَرَها.

شردتُ لوهلةٍ. أكنتُ حقّاً أبدو محطِّمةَ قلوبٍ؟

«أنا أمزح»، قالت الأخت، ثمَّ التفتت نحوي مجدَّداً: «لكنْ، جدِّيّاً، لا تفعلي ذلك».

استغرق الأمر نصف ساعةٍ لبلوغ الطرف الثاني من القاعة وإلقاء التحية على والديه، وكان قد احتسى كوبَي بيرةٍ، والْتَهَم نحو عشرين فطيرة، بينما كنتُ قد شربتُ كوبَي دايكيري خالية من الكحول.

كان أبواه لطيفين، وقد ارتدى والده زيَّ مركز إطفاءِ بوسطن كاملاً، بالقبعة والكتفيَّات، بينما ارتدَتْ والدته بذلةً ورديةً ذات سروالٍ، مزيَّنةً بأزهارٍ على التليبب. انحنى المبتدئ وقبَّلَ كليهما.

«ذكرى زواجٍ سعيدةً»، قال قبل أنْ يُردِفَ: «كولين، بيغ روبي، أقدِّم لكما...».

قاطعَتْهُ والدته قائلةً: «أين إيمي؟».

كنَّا نتوقَّع ذلك، لكنْ لم نتوقَّعْ أنْ يحصل بتلك السرعة.

«إيمي لم تستطع القدوم...» بدأ المبتدئ.

انحنى بيغ روبي قليلاً نحو الأمام وعقد حاجبيه. «لأنَّ ابنَنا حصل على حبيبةٍ جديدةٍ».

تجمَّدْنا أنا والمبتدئ في مكاننا. لم تكنْ تلك هي الخطة.

تجمَّدَتْ كولين في مكانها هي الأخرى. لم تكنْ هذه هي الحبيبةَ التي تُزكِّيها.

«سمِعْتُ أخواتكَ يتحدَّثْنَ...»، قال بيغ روبي وهو يهزُّ كتفيه.

نظرتْ إليَّ كولين، ثمَّ قالتْ: «ما الذي حصل لإيمي؟».

اعتدل المبتدئ في وقفته قليلاً. «لقد أخذْنا بعض الوقت بعيداً عن بعضنا».

ظلَّتْ والدته في انتظار المزيد.

«في الحقيقة»، استرسلَ المبتدئ في لمحةٍ من الارتجال العبقريِّ، «اضطرَّتْ إيمي للانتقال إلى كاليفورنيا بسبب عملها، ولم يبدُ منطقياً أنْ أنتقلَ معها إلى هناك».

كلُّ ما انتاب كولين من ارتياعٍ لفقدان إيمي بدا أنه استحال فجأةً إلى ما يشبه الغبطة، لأنَّ ابنها لم يلحقْ بحبيبته ببلاهةٍ إلى كاليفورنيا. ابتسمَتْ في وجهي. لم أكن إيمي، لكنَّني على الأقلِّ لن أسرق ابنها بعيداً. قالَتْ بعد ذلك: «واسمكِ؟».

«اسمي ك...» بدأتُ، إلَّا أنَّ المبتدئ جذبني نحوه فجأةً.

«كريستابيل»، قال بصوتٍ مرتفعٍ، ثمَّ، وبصوتٍ عادي، تابع: «هذه صديقتي كريستابيل».

بدا السرور على محيَّا كولين وهي تقول: «إنَّه أحد الأسماء المحبَّبة إلى قلبي»، لتردف بعد ذلك: «لو أنَّنا حظيْنا بابنةٍ أخرى، كنتُ سأسمِّيها كريستابيل».

«أوه»، علَّقْتُ، وأنا ما أزال ذاهلةً.

«كيف الْتَقَيْتُما؟» أراد والد المبتدئ أنْ يعرف.

وقبل أنْ تخطر لي إجابةٌ مبتدَعةٌ، سحبني المبتدئ نحو حلبة الرقص. تعثَّرْتُ في خطواتي مجرورةً خلفه، ثمَّ حين توقَّفَ أخيراً واستدار، ألصقني بصدره مباشرةً. أووف. كان «الدي جي» قد شغَّل أغنية لـ Kool & the Gang.

«ما الذي فعلْتَه؟»، سألتُ وأنا ألكمه على كتفه.

«كان يفترض أنْ تسحبيني إلى حلبة الرقص».

«حسنٌ، لقد وقعَ تغيير على خطَّتنا».

«تبّاً، والآن يظنَّان أنَّكِ حبيبتي».

«كان أمراً بمنتهى الفظاظة أنْ تغادر بينما كانَتْ والدتك تُثني على اسمي».

«ذلك ليس اسمكِ»، قال، «بل هو اسمي... تقريباً، اسمي لو كنتُ وُلدتُ فتاةً».

تبادلْنا النَّظرات. انتهت الأغنية وبدأت أخرى، وفجأةً خفتَتِ الإضاءة وسمعنا صوت «الدي جي»، الذي كان أيضاً أحد أنسبائه، على مكبِّر الصوت: «والآن نترككم مع أعظم أغنية رقصٍ بطيءٍ في كلِّ العصور... المقطوعة الكلاسيكية الخالدة: How Deep Is Your Love? لمجموعة Bee Gees».

«إنَّهم يراقبوننا»، قال المبتدئ وهو يُلقي نظرةً فوق كتفي. «ضعي ذراعيك حول رقبتي».

«أظنُّ أنَّنا سنرقص رقصةً بطيئةً».

«أظنُّ أنَّنا سنفعل ذلك»، ردَّ المبتدئ كأنَّ ذلك كان تحدِّياً.

لم يسبقْ لي قَطُّ أنْ تراجعت عن تحدٍّ.

أحطْتُ عنقه بذراعي وتموضعتُ أمام جسده. ومجدَّداً كنت واعيةً لمدى عُريي تحت ذلك الفستان، فلم أستطع ملاقاة نظره، وحدَّقتُ في الربطة أسفل ياقته.

أحسستُ بالخدر يغزو أطرافي، وكلُّ ما كنت أستطيع التركيز عليه حقّاً كان غرابة إحساسي. سبق لي أنْ رقصتُ رقصة بطيئة من قبل، لكنَّ هذا كان مختلفاً اختلافاً جذريّاً. فقدْ كنتُ واعيةً، وبتنبُّهٍ شديدٍ، بكلِّ جزءٍ من جسدي يلامس جسده: ثقل ذراعيَّ على كتفيه، ودفء راحتَي يديه على خصري، وقرب عنقه الحليق، ونسيم عطره.

لم يكن شيءٌ يحول بيننا سوى طبقةٍ من القماش.

«إذا كنَّا سنتظاهر بأنَّنا نتواعد، يا كريستابيل، فيجب أنْ تتوقَّفي عن مناداتي بالمبتدئ».

حاولتُ أنْ أركِّز. «وبِمَ أدعوك غير ذلك؟».

«ماذا عن اسمي؟».

أخيراً، نظرتُ في عينيه: «ما اسمك؟».

تراجع إلى الخلف كي يعبس في وجهي. «أنتِ تعرفين اسمي».

«كالاغان»، قلتُ.

«اسمي الشخصي».

تأمَّلْتُ وجهه بعض الوقت.

ثمَّ حرَّكتُ رأسي يمنةً ويسرةً. «لا، بتاتاً».

وسَّع فتحتَي أنفه. «حاولي».

كان ذلك جيداً، يساعدني على التركيز. الآن كان لدماغي مهمةٌ يقوم بها، مهمة تستفزّه.

«فيليكس»، قلتُ مجرِّبةً.

«أأنتِ جادّةٌ؟».

«فرانك»، حاولت مجدّداً. «ميلفن».

«ميلفن؟؟».

بدا عليه بعض الانزعاج. كان ذلك ممتعاً.

«رينيغالد»، عرضتُ، «ماكسيميليان. جِبِدايا».

زمَّ فمه وأبقى فكَّه في وضع احترامٍ ممتعضٍ لرذالتي.

«جِبِدايا كالاغان».

كنتُ مستمتعةً بمضايقته، فواصلتُ: «له وقعٌ جميلٌ على الأذن».

سمح لتنهيدةٍ بالخروج. «إنَّه أوِين، اسمي أوين».

«أتريد منّي أنْ أناديكَ أوين؟»، سألت، كأنّها كانتْ فكرةً مجنونةً.

«أجل، في الواقع، أحبذ ذلك».

أومأتُ إليه بملامح جدِّيَّةٍ وقلتُ: «حسنٌ، يا أوسكار، أحترم ذلك».

لم يسمحْ لنفسه بتصحيح ما قلتُ.

بعبارة نصرٍ على وجهي، وضعت رأسي على كتف أوين، وحينها رأيت أفراد عائلته كلّهم ينظرون إلينا.

«كلُّ ذلك القلق من أجل لا شيء...» قلت قبل أنْ أوضِّح: «والدتكَ تبدو بخيرٍ».

«هي دائماً تبدو بخير»، قال أوين، «لكنّني سأحظى بحصةٍ وافرةٍ من التوبيخ لاحقاً».

في الواقع، كنتُ ممتنَّةً لوجوده هناك كي أستند إليه، فكنتُ أشعر بدوارٍ خفيفٍ.

«أخبرْني»، سألتُ حينئذٍ، «أيُحتمل أنْ يكون الشراب الذي شربتُه فيه كحول؟».

مدَّد أوين عنقه وألقى نظرةً على البار. «ذاك ابن عمي أليكس يسقي حفلاً مليئاً بالإيرلنديين، لذا، ذلك جِدٌّ محتملٍ».

لكنَّ ذلك الدوار لم يكن بفعل الكحول، كنتُ أعلم ذلك.

كان بفعل أوين. كنتُ سَكْرَى... تحت تأثير أوين.

اسمه، وربطة عنقه، وقميصه المكويُّ الذي جاء على مقاسه تماماً واللصيق بعضلاته، ولطافته، ويده على خصري.

كانتِ الأغنية توشك على النهاية.

«أأنتِ بخيرٍ؟» سأل، «أأنتِ في حاجةٍ إلى بعض الهواء الطلق؟».

أومأتُ، فأخذَني بعيداً عن حلبة الرقص.

انتشر خبرُنا في المكان كالنار في الهشيم. وحين مررْنا نتخلَّل الحشد نحو الطرف الآخر من القاعة، بدأ أوين يتلقَّى التحايا والتهاني من أقربائه، وبعض التعليقات من قبيل: «أحسنتَ عملاً، يا رفيق»، و«من الأفضل أن تبلغ خطَّ النهاية»، والكثير من المضايقات من قبيل: «فتحة سروالك مفتوحةٌ».

صار المَخرج في مرمى بصري، حين علقت حافَّة قاعدة حذائي العالي وأحسسْتُ برجلي تلتوي تحتي. فقدتُ توازني وسقطتُ، لكنَّ أوين أمسكني مباشرةً قبل أنْ تلمسَ ركبتاي الأرض. بدأتُ أقول: «شكراً» وأحاول القيام مجدَّداً، لكنَّه أحكم قبضة ذراعه عليَّ وثبَّتَني في تلك الوضعية، وعيناي في مقابل فتحة سرواله.

جمعتُ رجليَّ تحتي، وكنتُ على وشك أنْ أنهض وأقول: «ماذا دهاك يا رجل؟» حين سمعت أوين يقول: «مرحباً، كابتن مورفي».

ثمَّ سمعتُ الصوت الأجشّ للكابتن وهو يردُّ: «مرحباً، يا مبتدئ».

تجمَّدتُ في مكاني.

بعد وهلةٍ، وأفترض أنَّه لمح رأسي عالقاً في الأسفل، تابع الكابتن: «يبدو أنَّكَ تحظى بأمسيةٍ طيِّبةٍ».

«نعم، سيدي».

«أراكَ في المناوبة القادمة إذاً».

«نعم، سيدي».

وفي لمح البصر، وجدتُ نفسي وقد رُفِعْتُ ثمَّ ارتطمتُ بصدر أوين بعد أنْ دخلنا إلى خزانة معاطف.

انغلق الباب خلفنا للتَّوِّ.

«ما الذي حصل بحقِّ الجحيم؟»، قلتُ حين أطلقني أوين، وأنا أرمش في الظلام.

بدا أنَّه تفاجأ أنني سألت. «كان ذلك الكابتن».

كنتُ أعلم ذلك. قلتُ: «كنتُ أظنُّ أنَّه اعتذر عن الحضور».

«نعم، لقد فعل».

«لكنَّنا الآن عالقان في خزانةٍ».

أشار أوين إليَّ: «أنتِ العالقة».

كان الظلام دامساً، وكنا مجرَّد صوتَين. بدأ أوين يتلمَّس إطار الباب بحثاً عن مفتاح ضوءٍ.

«قد نبقى هنا ساعاتٍ»، قلتُ حينها.

بدا صوته لعوباً شيئاً ما. «تقولين ذلك كأنَّه أمرٌ سيِّئٌ».

كنتُ حانقةً، وزاد ذلك من حنقي. «أنا جادَّةٌ».

«سندبِّر شيئاً».

«كيف؟» طالبتُ، «لقد قلتَ إنَّه لن يُكشف أمرنا!».

«وذلك لن يحصلَ».

«صباح الخير» قلتُ، «لقد رآنا الكابتن للتَّوّ!».

«لكنْ لا يمكن أبداً أنْ يكون قد تعرَّف عليكِ».

«لماذا؟».

«صدِّقيني» قال أوين، «لا تَبدين مثلما تبدين في المركز على الإطلاق».

أكان ذلك سباباً أم إطراءً؟ عبستُ. «لكنْ يسهُل تمييزي. أنا لستُ متنكِّرةً في ثياب مهرِّجٍ وزينتِه».

«أيّاً يكن ما رأى هناك، فلم تكنْ هانويل الإطفائية».

«وماذا رأى إذاً؟».

«رآني ممسكاً بفتاةٍ مثيرةٍ سَكْرى، جزؤها العلويُّ شَعرٌ، والسُّفليُّ قَدَمَانِ».

«أنا لستُ سَكْرى»، رمشتُ. «أو مثيرةً!».

هل وصفني للتَّوّ بالمثيرة؟

«هذا بالضبط ما قصدته. فتلك الفتاة كانَتْ نقيض ما أنتِ عليه تماماً».

لا أظنُّ ذلك. «شكراً»، قلت.

كان أوين قد انتقل إلى وضعية حلِّ المشاكل. «هناك مليون طريقةً للخروج من هنا. يتوجَّبُ علينا فقط أنْ نأخذ دقيقةً للتفكير في الأمر مليّاً».

لم أكنْ أرغب في حلِّ هذه المشكلة، فقدْ كنتُ في حالة هلعٍ

تامٌّ. «ما الذي دهاني بقدومي إلى هنا؟» سألت وقد سافر صوتي عبر الظلام. «إنَّه أغبى شيءٍ فعلْتُه في حياتي على الإطلاق».

قال أوين بنبرةٍ بين التعاطف والأسف والامتنان. «كنتِ تساعدينني».

واصلتُ بحدّة: «كنتُ أعلم أنَّ هذا المكان سيكون طافحاً بالإطفائيين، فحتى لو لم يأتِ الكابتن، لم نكنْ لنُمضيَ السهرة من دون أنْ يُكشف أمرنا بطريقةٍ ما، من طرف شخصٍ ما. كنتُ أعلم ذلك تماماً، لكنَّني قدمْتُ على أيَّة حالٍ. كابتن محطَّتي في أوستن أخبرَتْني ألّا أفعل هذا الأمر تحديداً، فمن بين عشرة آلاف شيء يجب عليَّ أنْ أتجنَّبها، هذا، هنا، كان على رأس اللائحة! لكنَّني هنا الآن كالحمقاء أُخربُ كلَّ شيءٍ عملتُ من أجله طوال حياتي. لم أحظَ ولو بقبلةٍ طوال حياتي، والآن سيتمُّ فصلي لمعاشرة مبتدئٍ!».

أحسسْتُ بالمبتدئ يتوقَّفُ عن الحركة لوهلةٍ: «ماذا؟ لم يقبِّلكِ أحدٌ من قبل؟».

أطلقْتُ تنهيدةً غاضبةً، وحاولتُ التفكير في طريقة للتَّراجُع لاسترجاع ما نطقْتُ به، ثمَّ استسلمْتُ. «ليس بطريقةٍ لائقةٍ».

«كيف لذلك أنْ يكون ممكناً حتى؟».

«لقد كنتُ منشغلةً جدّاً، أتفهم؟ كنتُ أعمل».

«أجل، لكنْ... لا أحد ينشغل إلى هذا الحدِّ أبداً».

صمتٌ مطبقٌ.

«ماذا؟»، قلتُ.

«لا شيء».

«ماذا؟»، سألتُ وأنا أتقدَّمُ خطوةً في اتِّجاهه. كانَتْ عيناي قد تأقلمَتا مع الظلام. كنت أستطيع رؤيته الآن.

«الأمر فقط أنَّ»، قال وهو يحرِّكُ رأسه كأنَّه يحاول طرد الفكرة، «سماع ذلك يجعلني أرغب في تقبيلك».

«لا تقبِّلْني»، قلتُ وأنا أدفعه من صدره نحو حائط الخزانة. كان وجهانا على بُعْدِ سنتيمتراتٍ قليلةٍ فقط.

حافظْتُ على موقعي، ولم أكن لأتراجع.

أكنتُ أحاول إخماد حريقٍ أم كنتُ أحاول جعله أسوأ؟

يجب أنْ تتراجعي، قلتُ في سرِّي، لكنَّني لم أفعل.

«سأخرجُكِ من هنا»، قال المبتدئ حينئذٍ، «أعدكِ بذلك».

وكانتْ تلك اللحظة التي قبَّلْتُه فيها.

كان مندهشاً، ولكنَّه ليس مندهشاً جدّاً. وفي لمح البصر كانَتْ ذراعاه تحيطان بي، وكان يقبِّلني أيضاً. وقد انحنى نحو تلك القبلة بقوةٍ لدرجة أنَّنا تعثَّرْنا واصطدمْنا بالجدار الداخلي للخزانة.

كان الأمر أشبه بانكسار موجةٍ على الصخر.

وقد كنتُ عالقةً هناك، في قَلْبِها.

أستكون مغالاةً لو قلتُ إنَّ الزمن توقَّف عن الجريان؟

لأنَّ الزمن توقَّف فعلاً.

ربَّما كانت القُبل مميَّزةً بالنسبة إلى الجميع، لا أعلم.

لكنَّ هذه كانَتْ قُبلتي الأولى.

أول قبلةٍ جيِّدةٍ، على أية حالٍ.

حينَ لامسَتْ شفاهُ المبتدئ شفاهي، بدا بطريقةٍ ما أنَّ كلَّ شيءٍ كان يُؤلمني منذ سنواتٍ قدْ خمد وهدأ.

أحسستُ بنوعٍ جديدٍ من البهجة لم يسبق لي أنْ أحسستُ به من قبل.

أهكذا كان الحبُّ؟

لم تكنْ لديَّ أدنى فكرةٍ.

لكنَّني كنتُ أعلم أنَّ هذه القبلة، في هذه اللحظة وهذا المكان، كانتْ شيئاً مميَّزاً. لقدْ رأيْتُ، وأحسستُ، وقمْتُ بأشياء رائعةٍ خلال سنواتي السِّتِّ والعشرين، لكنْ لم يكنْ أيٌّ منها بهذه الروعة.

كان يقبِّلني، وكنتُ أقبِّله أيضاً.

أمرٌ مستحيلٌ، لكنَّه حقيقة.

بدأت أذوب مثل قطعة زبدةٍ في مقلاةٍ ساخنةٍ، واستسلمْتُ بكلِّيَّتي للأمر.

كان هذا ما كنتُ أفتقده كلَّ هذا الوقت، هاه.

الأمر الذي سألاحظه لاحقاً، وأنا أتذكَّر الأمر، هو أنَّه لم يكن هناك أيُّ شيءٍ سيِّئٍ، ولا جزءٌ واحدٌ من تلك اللحظة المذهلة من حياتي كان به شيءٌ مخيفٌ، أو مريبٌ، أو مؤلمٌ. ولوهلةٍ هناك، وأنا أستسلم لكلِّ شيءٍ جميلٍ، أحسستُ أنَّني لن أحسَّ بأيِّ شيءٍ مُفزِعٍ بعد ذلك أبداً.

حتى سمعنا طرقةً صاخبةً على باب الخزانة.

الباب ذاتُه الذي كنْتُ أُوْليه ظهري.

تردَّدَ صداها عبر قفصي الصدري.

انهارَتِ اللحظة، ووقفْنا لوهلةٍ، ذاهلَين.

«أأنتما في خزانة المعاطف؟»، تبادر إلينا صوت شخصٍ منزعجٍ.

أطلق المبتدئ تنهيدةً حادَّةً، ثمَّ صرخ: «ارحلي، يا شانون».

«الجميع يظنُّون أنكما اختليتما ببعضكما هناك».
«لا أحد اختلى بأحد، يا بذيئة».
«هناك رهانٌ قائمٌ»، تابعتْ، «وقد وضعتُ خمسين دولاراً عليكَ».
«أنا أقصد ذلكَ، يا شانون»، قال أوين مجدَّداً، بصوتٍ أعلى هذه المرة.
«حسنٌ، لكنْ لا تخذلنا جميعاً».
انقطعَتْ أنفاسنا، أنا والمبتدئ.
حين رحلتْ، قال: «إنَّها مزعِجةٌ من طرازٍ عالميٌ».
أحسسْتُ كأنَّني أستيقظ من نومٍ عميقٍ، فرمشْتُ ونظرْتُ في الأرجاء، وعاد الواقع إلى موضوع تركيزي.
كانت اللحظة قد انتهت بكل تأكيدٍ.
كنت في خزانة معاطفَ. مع المبتدئ. ليس أمراً حسناً.
دفعْتُ صدر أوين بلمسةٍ خفيفةٍ جدّاً، فتلقَّى إشارتي، وتراجع.
سوَّى ملابسه، وسوَّيْتُ ملابسي.
«كان ذلك مفاجئاً»، قلت.
«أتَّفق معكِ».
«كانت فكرةً سيئةً على الأرجح».
«لا تبدو كذلك من جانبي».
«يُحتمَل أنْ يتمَّ فصلي الآن».
«ذلك لن يحصل».
«سوف نرى»، قلت بتهكُّمٍ.
كنت أعلم كيف تسير نواميس الحياة، وكنت أعلم كيف هي الأمور. لن ينتهيَ الأمر على خيرٍ بالنسبة إليَّ.

ثمَّ قام المبتدئ بشيءٍ فاجأني، فقدْ أمسك بيدي واعتصرها، وانحنى لينظر في عيني وسط الظلام، ثمَّ همس: «لن أخبر أحداً قطُّ بهذا. أرجوك اعلمي أنه يمكنك أن تثقي بي، اتَّفقْنا؟».

أومأتُ.

«حسنٌ»، قال بعد ذلك، «فلنخرجْ من هنا».

«كيف؟»، قلتُ.

رفع كتفيه، كأنَّ الأمر كان من أيسر ما يكون. «سأحملكِ خارجاً على كتفي، وستغطِّي لبدةُ الشعر تلك وجهَكِ، وحتى ولو رآنا الكابتن، فلن يعلم مطلقاً أنكِ أنتِ».

18

تلك الليلة، والنوافذ مفتوحة، تمدَّدْتُ لأشاهد أهداب الستائر الكرويَّة وهي ترفرف مع النسيم البحري، بقلبٍ ينبض فينتقل صداه عبر سائر جسدي.

المبتدئ. لقد قبَّلْتُ المبتدئ. بشكلٍ جميل. في خزانة معاطف.

ربَّما كنتُ أتوقَّع بعض المشاعر المختلطة بخصوص تقبيله، نظراً إلى المدى الذي ذهبتُ إليه لتفادي حدوث ذلك.

لكن لم يكن هناك أيُّ شعورٍ من ذاك النوع.

شعرْتُ بسعادةٍ غامرةٍ. شعرْتُ بأنني مفتونةٌ.

لم يكن ممكناً لأحد أن يكون متفاجئاً أكثر مني.

إذاً، كان الأمر هكذا، كان ذلك ما يمكن أنْ أشعر به.

لوقتٍ طويلٍ، كنتُ أظنُّ أنني فقدتُ القدرة على الإحساس بكلِّ هذه الأشياء الجميلة.

أيجب عليَّ أنْ أصف ما فعله هيث تومسون في الليلة التي صار فيها عمري ستَّ عشرة؟ أيجب أنْ أكشف عن كلِّ تلك التفاصيل؟

فلنتَّفقْ فقط على أنَّه كان أمراً سيئاً، سيئاً جدّاً. سيِّئاً لدرجة أنَّ كلمة «سيِّئ» ليستْ كلمةً سيئةً كفايةً لوصفه. سيِّئاً لدرجة أنَّه ترك

دوَّامةً سوداء وسط قلبي، أمضيتُ كلَّ يومٍ منذ تلك الليلة وأنا أحاول عدم النظر إليها، أو التفكير فيها، أو الاقتراب منها مخافة أنْ أسقط فيها وأختفي. سيِّئاً لدرجة أنني أغلقت قلبي كليّاً، ولم أخرجْ مجدَّداً في موعدٍ غراميٍّ، أو أقبِّلْ أحداً، أو أحظَ بفكرةٍ عاطفيةٍ حتى لعشر سنواتٍ طويلة.

حتى اليوم.

حتى ظهر المبتدئ.

الذي منحني شيئاً لا يمكن بأيِّ حال من الأحوال إنكار أنه حَسن.

كنتُ سأخبركم أنني كنتُ بخيرٍ سابقاً، وقد كنتُ بخيرٍ فعلاً. كنت أعمل بكفاءةٍ، وكنتُ قويَّةً. كنتُ أؤدِّي ضرائبي، وأغيِّرُ زيتَ سيارتي وأشتري بيضاً عضوياً من سوق المزارعين. وكنتُ مدرِّبة فنون دفاعٍ عن النفس، بحق السماء. بعض الناس تجعلهم الصدمة النفسية يحيدون عن مساراتهم، وبعض الناس تحطمهم ولا يُشفَون بعد ذلك أبداً. أفهم ذلك، وأعيه جيداً. كنتُ محظوظةً؛ إذِ استغرق الأمر سنواتٍ عديدةً حتى استطعتُ تقبُّل ذلك، لكنَّني أعدتُ جمع شتات نفسي وحياتي. استطعت إنهاء المدرسة الثانوية، والذهاب إلى الجامعة، وكَسْبَ عيشي من مساعدة الناس.

لطالما رغبتُ في أنْ أموت لسنوات عديدة.

لكنَّني لم أمتْ. بقيتُ على قيد الحياة.

وأكثر من ذلك، لقد نجحْتُ وازدهرتُ.

قبل حفل تسليم الوسام، كنتُ سأخبركم أنَّني شُفِيْتُ تماماً.

حتى ظهر هيث تومسون على خشبة المسرح وواتته الجرأة ليلمسني.

ثمَّ اكتشف كلانا إلى أيِّ حدٍّ صرتُ قويَّةً.

ربَّما أكثر قوَّةً ممَّا يجب.

شعرْتُ لاحقاً أنَّني قُمتُ بنوع من التخريب الذاتي. وأنا أفكِّر في عواقب ذاك الحادث، مهمومةً ووحزينةً وأنا أتوجه وحيدةً إلى الطرف القصيِّ من البلاد، شعرتُ أنني على مشارف بداية النهاية، وربَّما كانَتْ نهاية شيءٍ ما، لكنَّها كانَتْ بدايةً أيضاً. بدايةً مع إمكانية جَعْلِ الأمور أفضل، أو أسوأ بكثيرٍ.

لكنَّ كلَّ شيءٍ يمضي بشكلٍ جيِّدٍ حتى اللحظة. لقد قبَّلْتُ أورين وعشتُ إحدى أمتع لحظات حياتي، وشعرتُ بطمأنينة غريبة.

كلُّ أنواع العنف سيِّئةٌ بالطبع، لكنَّ ما فعله هيث تومسون بي كان هجوماً على الحبِّ في حدِّ ذاته. أخذ أحد أفضل أجزاء كون المرء إنساناً وخرَّبه.

كنتُ قد تخلَّيْتُ عن كلِّ آمالي في الحب كضمانةٍ ألَّا أعيش شيئاً من تلك الذكرى مجدداً.

إليك الشيء الأكثر إثارةً للغرابة: لا شيء ممَّا حدث مع المبتدئ ذكَّرني بتلك الليلة. لم أسترجع أيَّ صورٍ، ولم أشعر بنوبة فزعٍ، ولم أرغب في الموت، وهو أسوأ ما قد يحدث.

بل عكس ذلك تماماً، في الحقيقة.

لم يكن فزَعاً، بل سروراً. لم يكن ألماً، بل لذَّةً. كان الأمر يتعلَّق بفمَين، نعم، ويدين وذراعين وجسمين يتلامسان، لكنَّ الإطار كان مختلفاً تماماً. كنت هناك رفقة شخصٍ عرفتُه فأُعجبتُ به، واحترمْتُه ووثقْتُ به، ولم يكن هناك مجالٌ للمقارنة.

القبلة في حدِّ ذاتها كانتْ مفاجأةً كبرى.

لكنَّ اكتشاف أنَّ التقبيل لم يكن مثيراً للفزع؟ كانتْ مفاجأةً أكبر.

شعرْتُ بما يشبه الحنين، كأنَّني أتذكَّر مجدَّداً كيف يكون

إحساس الإيمان بأنَّ العالم مليئٌ بالأشياء الطَّيِّبة، والأناس الطيبين، والحظ الطيب. كان إحساساً حلواً مُرّاً؛ لأنَّ ذلك أكَّد أنه ما يزال هناك الكثير من الأشياء الطيبة قد يتطلع المرء إليها، حتى لو كنتُ أعلم أنَّ هناك أشياء مقيتةً أكثر من ذلك بكثير.

بطريقةٍ ما، جعلني المبتدئ أشعر بالأمل الذي يشعر به مَن لم يجرب الحياة.

برغم أنَّني جرّبتُ الحياة.

شردتُ أفكِّر في كون الأمر لا يعدو الآتي: ربَّما أُعجبتُ به لتلك الدرجة لأنَّني لا أستطيع الحصول عليه. فلم يكن بإمكاني اختيار رجلٍ أكثر تحريماً من أوين، وأكثر بعداً عن المتناول، لأصير مهووسةً به. لم نكنْ لنكونَ معاً أبداً.

بطريقةٍ ما، كان خياراً آمناً.

وبطريقةٍ أخرى، كان أكثر خطورةً من أيِّ شيءٍ سبق أنْ فعلته في حياتي. لأنَّني الآن أعلم ما كنت بحاجة إليه طوال هذه السنين. والآن غدوتُ أريد أكثر.

والآن كنتُ أبكي في سريري بشدَّة، لدرجة أنَّ شعري ابتلَّ على المخدة. لستُ أبالغ البتة إذا ما قلت إنَّني شخصٌ لا يبكي أبداً، ولكنْ ها هي ذي: دموعٌ.

لستُ متأكدةً حتى بأنَّني أستطيع إخباركم عن سبب تلك الدموع. كانَتْ مشاعرُ عديدةٌ تشكل كيمياءَها، ولم أكنْ أعلم كيف أفصلها. كان الحزن ضمن الخليط بكل تأكيدٍ، كما كان الغضب أيضاً، بالإضافة إلى الارتياح والفرح والتوق والقلق. دموعُ الكلِّ شيءٍ، على ما أعتقد.

كانَتْ دموعَ الشِّدَّة، دموعَ العودة إلى الحياة.

19

صباح اليوم التّالي، استدعاني الكابتن إلى مكتبه، ووبّخني، ولكنْ ليس بخصوص ما تظنّون.

حين ولجتُ الغرفة، كان جالساً في مكتبه.

«ما الذي دهاكِ بحقّ الجحيم، يا هانويل؟» سأل من دون أن يرفع رأسه.

تجمَّدْتُ في مكاني.

يا إلهي، ها هو ذا الأمر يحصل.

حين لم تبدرْ منّي إجابةٌ، نظر باتّجاهي ثمَّ وقف وقال: «حسنٌ إذاً؟».

حرَّكتُ رأسي، علامةً على أنّي لم أفهمْ.

قال الكابتن: «لا يمكن أن يكون هذا حادثاً، لأنّك لا يمكن أنْ تكوني جاهلةً بالقواعد».

لم أتحرَّكْ من مكاني قيدَ أنملةٍ.

«وإذا كنت تدركين القواعد وخرقتِها على أية حالٍ، فذاك عصيان أوامر». أخذ خطوةً باتّجاهي، «وتعلمين موقفي من عصيان الأوامر».

رمشتُ.

«هل نحن واضحان؟».

لا، لم نكن كذلك على الإطلاق.

بطريقةٍ طفيفةٍ للغاية، تكاد لا تُرى، حرَّكْتُ رأسي نافيةً.

«لا تعلمين عن ماذا أتحدَّث؟».

أومأتُ نافيةً.

مدَّ ذراعه ليلتقط طرداً من فوق مكتبه وقال: «أنا أتحدَّث عن هذا»، ثمَّ رفعه أمامي كأنَّه دليلُ إدانةٍ.

عبستُ.

ثمَّ أدركتُ ما كان ذلك.

كانتْ عُدَّة مضادِّ التسمم بالسيانيد.

هذا إذاً ما كان حانقاً بخصوصه! اجتاحني شعورٌ قويٌّ بالارتياح لدرجة أنَّني أحسستُ بدوارٍ طفيفٍ لوهلةٍ، لكنَّه مرَّ سريعاً.

«هلا تفضلتِ بالشرح؟».

أخذتُ شهيقاً. «يبدو أنَّنا حصلْنا على عُدَّة السيانيد». تفقَّدتُ مكتبه بحثاً عن طردٍ ثانٍ. «يجب أنْ يكون هناك اثنان منهما».

إذاً فأنت تُقرِّين بمسؤوليَّتكِ عن الأمر»، قال من دون أنْ يخفِّف حدَّة نبرته.

كان اسمي مكتوباً على ملصقِ البريد. «نعم».

«هانويل»، قال الكابتن وهو يضع الطرد فوق مكتبه من جديد ويضمُّ ذراعيه: «كما تستمرِّين بتذكيري، أنتِ لستِ مبتدئةً، وتعلمين كيف تجري الأمور في مركز إطفاء. لذا ما لا أستطيع فهمَه هو كيف أمكنك أنْ تتخيَّلي أنه مسموحٌ لك أنْ تطلبي معدَّات إطفاءٍ من دون إذنٍ صريحٍ منِّي».

«أنا لم أطلبْها»، قلت، «بل تقدَّمْتُ بطلب منحةٍ».

«ومَنْ قال لكِ أنْ تفعلي ذلك؟».

«أنتَ قمتَ بذلك، سيدي».

رمقني بنظرةٍ حادَّةٍ مفادها أنَّه لا يمكن أنْ أعبث معه بهذه الطريقة.

«ألا تذكُرُ؟»، شرعتُ أذكِّره، «قبل مدةٍ، في يومي الأول، سألتُكَ إنْ كنَّا نملك عُدَّةَ السيانيد في المحطة، فأجبْتَني بالنفي، ثمَّ قلتُ إنَّنا نحتاجها، فقلتَ: 'جِدِي لي ألفَي دولارٍ للواحدة، وسنحصل على بعضها'؟»،

تغيَّرت النظرة الحادة على وجهه. «أذكر شيئاً من هذا الكلام».

«حسنٌ»، قلتُ، «لقد وجدتُ لكَ ألفَي دولارٍ للواحدة».

«لا أفهم».

«لقد تقدَّمْتُ بطلب منحةٍ من الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ، من أجل المال اللازم لشراء عُدَّتين اثنتين، وحصلْنا عليها».

«تقدَّمْتِ بطلب منحةٍ؟»،

«لقد تقدَّمتُ ب طلب عدَّة مِنحٍ، في الحقيقة»، قلتُ وأنا أشعر بلمسة فخرٍ طفيفٍ تعتري دواخلي من جرَّاء مبادرتي، «من أماكنَ مختلفةٍ، لتمويلٍ من أجل دهانٍ جديدٍ، وفرشٍ جديدةٍ، وإضاءةٍ أفضل، وكذلك نشّافة ملابس، وخزاناتٍ جديدةٍ، ومروحةٍ أفضل للمحرك، وبضعة أشياءَ أخرى».

افترضتُ صدقاً أنَّه في حال تمَّ قبول أيِّ طلبِ منحةٍ، فإنَّ ذلك سيكون شيئاً جيداً بشكلٍ لا لُبس فيه، فكيف يمكن ألَّا يكون كذلك؟

لكنَّه حسب ما بدا على وجه الكابتن، ذلك لم يكن جيداً.

وقف الكابتن. «وهل كتابة طلبات المِنَح جزءٌ من توصيفكِ الوظيفيّ؟».

«لا، يا سيدي، لكنَّني فقط...».

«لدينا تسلسلٌ قياديٌّ هنا، يا هانويل. أنتِ لا تقدِّمي طلب منحةٍ، أو تقرِّري أنَّنا نحتاج أفرشةً جديدةً، أو تجلبي لنا ورق حمَّامٍ حتى، إلَّا إذا طلبتُ منكِ أنْ تفعلي ذلك».

«نعم يا سيدي، لكنَّكَ قلتَ بنفسك أن ...».

«محطَّة الإطفاء هذه أُقيمَتْ هنا، على هذه الرقعة بالذات، منذ مئةٍ وعشرين سنةً...».

يا إلهي، لقد أهنتُه.

«... وقد ظللْنا واقفين، في كلِّ واحدةٍ من هذه السنوات، من دون مساعدتكِ».

«أنا فقط ظننْتُ...».

قاطعني مجدداً: «ظننتِ أنَّه يمكنكِ المجيءُ إلى هنا بأكياس سمادٍ عضويٍّ وألواحٍ شمسيةٍ لتُرينا كيف نقوم بالأمور».

«لا، أنا...».

«ألا ترينَ أنَّ ما قمْتِ به يحمل بعض الإهانة؟».

«أنا فقط...».

«ألم يخطر لكِ أنَّكِ قد لا تكونين على درايةٍ بكلِّ شيءٍ بخصوص الأمور كلِّها؟».

انتظر إجابةً منِّي على ذاك السؤال.

أنزلتُ عينيَّ. «كنتُ فقط أحاول أنْ أكون مفيدةً، سيدي».

«ربَّما آخر شخصٍ ينضمُّ إلى الطاقم لا يجب أنْ يشرعَ في تغيير

كلّ شيءٍ فوراً. ربَّما يجب على آخر شخصٍ ينضمُّ إلى الطاقم أنْ يُمضيَ بعض الوقت في المحطة قبل أنْ يُقرِّرَ إعادة دهنها».

لا تُوجَدُ كلماتٌ تَصِفُ كَمْ لم أكن أتوقَّع ردَّة فعلٍ كهذه.

«آسفةٌ، سيدي».

«يجدر بكِ أنْ تكوني كذلك».

«أيجبُ عليَّ...»، بدأتُ وأنا مشدوهةٌ لفكرة أنَّني أطرح ذاك السؤال، «... أيجب أنْ أُرجعهما؟».

«الأمر لا يتعلَّقُ بالعُدَّتَين، يا هانويل»، ردَّ الكابتن، «بل يتعلّق باحترام التسلسل القيادي».

«أنا أحترم التسلسل القيادي، يا سيدي»، قلتُ.

«حقّاً؟ أخبريني إذاً، ماذا تفعلين حين يطلب منك عضوٌ من الطاقم يعلوك رتبةً القيام بشيءٍ ما؟».

رمش وهو ينظر إليَّ، في انتظار إجابةٍ.

«أقوم به، سيدي»، قلتُ.

«وماذا إذا لم يطلب منكِ عضوٌ من الطاقم يعلوك رتبةً القيام بشيءٍ ما؟».

تنهَّدْتُ. «لا أقوم به، سيدي».

«أنحن واضحان بخصوص هذا؟».

«تمام الوضوح».

عاد إلى حاسوبه مجدداً. كنَّا قد انتهيْنا هنا. قال من دون أن يرفع رأسه: «حسنٌ، والآن انصرفي».

مضيتُ نحو خزانتي وأنا أشعر بالصدمة، وبأنَّني محظوظةٌ أيضاً لأنَّني لم أكن أواجه تداعيات الأمر الذي كان في ذهني. ربَّما كان

المبتدئ مُحقّاً. ربَّما كان خروجُنا في موعدٍ غراميٍّ لنْ يؤدِّيَ حتماً إلى إنهاء مسيرتي المهنية.

ربَّما كنَّا سنفلت.

أو ربَّما لا، لأنَّني حين فتحت خزانتي، اكتشفتُ أنَّ أحدَهُم قام بكتابةِ غرافيتي على كلِّ الجدار الداخلي للخزانة، بخطٍّ سيِّئٍ للغاية، وبحروفٍ علوّها عشرة سنيمترات. كُتِبَتْ كلمةٌ وحيدةٌ من خمسة حروفٍ: **عاهرةٌ**.

صفقْتُ بابَ الخزانة بقوةٍ حين رأيتُ ذلك، وشعرْتُ بلسعة اضطرابٍ تسري في كامل جسدي.

ليس حسناً، ليس منصفاً، ليس دقيقاً حتى. ولا حتى قريباً.

نظر العضلات الست نحوي. «هل كلُّ شيءٍ على ما يُرامُ؟».

«نعم»، قلتُ، لكنَّني كنتُ أتنفَّس بسرعةٍ.

كان التوقيت باهراً.

كان العضلات الست لا يزال واقفاً يرمقني بنظراتٍ فضوليةٍ.

«القفل يعلق أحياناً»، قلتُ وأنا مُتَّكئةٌ على بابها، أتنفَّس.

هل استطاع الكابتن التَّعرُّف عليَّ؟ أكان ذلك سبب حنقه الغريب بخصوص جلبي معداتِ سلامةٍ بقيمة أربعة آلاف دولارٍ للمحطة؟ أم أنَّه كان هناك شخصٌ آخر لم نَرَهُ؟ أو ربَّما أنَّ التَّناقُل الشفوي أتمَّ المهمَّة؟ فمع نهاية الحفل، عرف كلُّ شخصٍ من الحاضرين أنَّ أوين اختلى بفتاةٍ سَكْرَى في خزانة المعاطف.

كلُّ ما كان على أحدٍ القيام به هو التعرُّف عليَّ.

لقد تمَّ تحذيري طبعاً. حذَّرَتْني الكابتن هاريس، كما فعلَتْ حياةٌ طويلةٌ من كوني امرأةً. إذا ما خرقْنا القواعد، فسأكون أنا مَن

ينزل العقاب بها. كنتُ على وعيٍ تامٍّ بأنّني كنتُ أجازف بمرافقتي إيَّاه إلى الحفل، لكنَّني لم أكنْ أتصوَّر كيف سيكون الشعور بالعواقب. واستمررتُ، مثل الحمقاء.

والآن، مُوليةً ظهري إلى الخزانة، ومُتجمّدةً في مكاني، وقلبي يخفق بقوةٍ، والأدرينالين في دمي بأقصى درجات التنبُّه، بدأتُ أفهم.

هذا ليس جيّداً.

عبس العضلات السِّتُّ وهو ينظر إليَّ.

لكن لم تكن هذه أول مرةٍ أفتح فيها خزانتي لأجدَ كلمة «عاهرةٍ» داخلها. فآخر مرَّةٍ كانت في الثانوية، وقد تمَّ حفرُها على الدهان البرتقالي للباب المعدني. أمّا هذه المرة فكان حِبراً أسودَ، وقدْ بدا ذلك مثل مصادفةٍ مستحيلةٍ. فماذا كان احتمال أنْ يتمَّ التحرُّش بي بتلك الطريقة حتى ولو لمرةٍ واحدةٍ، فما بالك باثنتين؟

قد لا يكون معجم التَّحرُّش بهذا التنوُّع، أو ربَّما كان الناس الذين يقومون بمثل هذه الأشياء لا يحفرون عميقاً بحثاً عن بعض الإبداع.

فرؤية تلك الكلمة مكتوبةً هناك بغضبٍ جليٍّ تركَتْ صورةً سلبيةً لم أستطعْ طردَها من عينيَّ. لقد صُدمَتْ أعمق نقطةٍ في كياني في تلك اللحظة من حياتي الحالية، وبطريقةٍ شعرتُ أنَّها صدىً من المدرسة الثانوية.

وبطريقةٍ ما، جعلني ذلك حانقةً على أوين، فلو لم يكن مثيراً للإعجاب إلى ذاك الحد، ولو لم يطلب مني ذلك، ما كنتُ لأرافقه إلى الحفل في المقام الأول، وكان يمكن أنْ يكون اليوم مجرَّد يومٍ عاديٍّ آخرَ في مَحطَّة الإطفاء.

كما جعلني ذلك حانقةً على نفسي، فماذا دهاني؟ كم كنتُ مُعتدَّةً بنفسي، وكم كنتُ خرقاءَ، لظنّي أنّني أستطيع القيام بما شئتُ. كنتُ أعلم طبيعة العالم الذي أعيش فيه، وقمتُ بكامل إرادتي، وغبائي، بخرق القواعد، والآن يجب عليَّ تحمُّل العواقب.

وأخيراً وليس آخِراً، جعلني ذلك حانقةً على مَنْ كتبَ ذلك. فأحدهم تحمَّل عناء إيجاد أرقام قفل خزانتي، وإيجاد وقت يكون فيه المكان خالياً. أحدهم قام بشيءٍ لإيذائي. عن قصد. وبخبثٍ شيطانيٍّ.

كان شعوراً مُفزِعاً أنَّ أحدهم بدأ مطاردتي، ولم أكن أعلم مَنْ يكون حتى.

أمضيتُ اليوم كلَّه أشعر بغضبٍ عارم تجاه كلِّ كائنٍ بشريٍّ على وجه الأرض، بما في ذلك نفسي. فحدَّقْتُ في المرضى، وقمْتُ بتقييم كلِّ فردٍ من الطاقم بارتيابٍ، وكان تفكيري ومشاعري مبعثرين طوال اليوم، لكنَّ شيئاً وحيداً كان واضحاً: كان يجب عليَّ أنْ أبقى أبعد ما يمكن من المبتدئ.

إذاً...

إذا ما دخل إلى غرفةٍ، غادرتُها.

إذا ما طرح عليَّ سؤالاً، أوليتُهُ ظهري.

كانتْ تلك طريقتي لاستعادة إحساسي بالقوَّة. **أستطيع تجاوُزَ الأمر**، فكَّرتُ، فأنا أكثر صلابةً من ذلك. لم تكن خربشةُ غرافيتيٍ لئيمةٌ لتعرقلَني.

ثمَّ، وحين ذهب الرفاق إلى النوم، وبدأتُ أسمع إيقاع شخيرهم المطمَئِنّ، تسلَّلْتُ عائدةً إلى خزانتي.

لم أستطع النوم على أية حالٍ.

جزءٌ منّي كان يأمل أنّني إذا ما تحقَّقْتُ مجدَّداً، فقد تكون الكتابة اختفتْ.

كلا.

كانَتْ ما تزال هناك. **عاهرةٌ**.

كانَتِ الحروف مدوَّرةً ومُسنَّنةَ الحوافِّ في الآن ذاته، فالتاء المربوطة في النهاية كانَتْ أشبه بالرقم 6، بدَتِ الكلمة أقرب إلى: عاهر6. خَطٌّ سيِّئٌ للغاية. **بحقِّكَ**. إذا كنتَ ستقوم بشيءٍ فافعله على الأقل بطريقةٍ صائبةٍ.

ربَّما كان ذلك دليلاً يقود إليه. ربَّما كانَتْ هناكَ طريقةٌ لإلقاء نظرةٍ على بعض الأوراق من مكتب المدير، أو ربَّما لم تكنْ خمسة أحرفٍ كافيةً لحسم الأمر.

أخذتُ شهيقاً متذبذباً ثمَّ أطلقْتُهُ، وتركْتُ رأسي ينحني إلى الأمام حتى استقرَّ بين يديَّ، وأغمضتُ عينيَّ. كنتُ أشعر بالإرهاق.

حينها سمعتُ صوتاً قادماً عبر الممرِّ.

هرعتُ إلى وضعية تركيزٍ تامٍّ، وصفقْتُ الباب فأُغلِقَ بحركةٍ خاطفةٍ.

كان أوين. بدا نَعْسانَ، وشعرُه أشعثُ قليلاً، في قميصٍ داخليٍّ، وحسب ما ظننتُ كان قد ارتدى سروال العمل منذ وهلةٍ.

«أأنتِ بخيرٍ؟».

«بخير»، أجبتُ، وأنا مُتَّكئةٌ على الخزانة، حتى أصدَّها أكثر.

«ما الذي يحصل؟».

«لا شيء».

لم نكن قد تحدَّثْنا منذ أوصلَني بعد الحفل، قبل قرنٍ من الزمن، حين كان جسدي ما يزال منصهراً بالنشوة من المرح الذي

حظيْنا به في خزانة المعاطف تلك. فآخرَ مرةٍ تحدَّثْنا فيها كانَتْ كلٌّ ذرَّةٍ من الهواء بيننا حُبلى بالإمكانيات.

لكنَّ كلَّ شيءٍ كان مختلفاً الآن.

وذلك جعل حَنَقي يبلغ منتهاه.

«أكنتِ...»، حاول البحث عن الكلمة، «... تتلين دعاءً؟ أو شيئاً من هذا القبيل؟».

أريد أنْ أصرِّح بأنَّني كنتُ أعلم على المستوى الفكريِّ، أنَّ المبتدئ لا يُهاجمني بتاتاً، وبأيِّ حالٍ من الأحوال.

لكنَّني أحسستُ بأنَّني أُهاجَمُ. ألمْ أكنْ أستطيع الحصول على بضع دقائق لأُعالجَ ذلك في خلوةٍ؟ كان الشعور مضخَّماً، كنتُ متأكدةً من ذلك، فالغرافيتي كان بالفعل هجوماً، إلّا أنَّه لم يكن من فِعْلِ أوين طبعاً. ولكنْ مَنْ يدري؟ من الممكن أنْ يكون أيَّ شخصٍ. ربَّما كانَتْ هذه خطَّتَهُ الشريرة منذ البداية: كَسْب ثقتي بأنْ يبدوَ لطيفاً وطيِّباً للغاية، ثمَّ تقبيلي والسفر بي أعلى السحاب، ثمَّ القيام بتدميري من وراء ظهري.

فرضية سخيفة؟

لكنْ أليسَ الوضع برمَّته سخيفاً؟

«كنتُ أفكِّرُ»، قلتُ، فبدا صوتي أكثر انزعاجاً ممَّا توقَّعْتُ. «هل سمعْتَ بذلك من قبل؟».

«طبعاً»، أجاب وهو يعبس في وجهي. «يروقني التفكير كثيراً».

«ما الذي يُبقيكَ مستيقظاً في هذا الوقت؟».

«الأرق»، قال وهو يهزُّ كتفيه وينظر إليَّ بنظرةٍ مفادُها: الأمرُ المعتاد. «قد أذهب لخَبْزِ بعض كعكات الشُّوكولاتة».

حدَّقْتُ إليه.

سألني: «أتريدين بعضها إذا قمتُ بخَبْزها؟».

حتى فكرة قيامه بخبز شيءٍ مريحٍ ومبهِجٍ ككعك الشوكولاتة بدت مزعجة. «لا».

«حقّاً؟»، قال كأنّني كنتُ أتصرَّفُ ببرودٍ.

لاحقاً، سأحاول فَهْمَ سببِ الغضب الّذي انتابني تجاهه تلك اللحظة، فلمْ أكنْ أظنُّ أنَّ ذاك الوضع كان خطأه، بل كنتُ أعلم أنَّه كان يحاول فقط أنْ يكون صديقاً. لكن كانتْ هذه هي المشكلة. فهل كنتُ أريد كعكة شوكولانة؟ بالطبع. هل كنتُ أريد أنْ أكون قادرةً على إخباره بما كان يجري، وتجاذب أطراف الحديث بخصوص ذلك مع صديقٍ؟ بالطبع. لكنَّ المبتدئ، وبرغم كونه الشخص الوحيد الذي أردتُ التحدث إليه، كان آخر شخصٍ أستطيع التحدث إليه.

كان شعوري بالإحباط يفوق الوصف.

ماذا يسعُني القول؟ لقد خرج ذلك على شكل غضبٍ.

«لقد تصرَّفِ بغرابةٍ طوال اليوم»، قال حينها.

«إذاً؟»، سألتُ.

«إذاً... هل أنتِ بخيرٍ؟».

«لا، لستُ بخيرٍ. ولا، لا أريد التَّحدُّث بخصوص ذلك، أو الإفصاح عنه، أو الحصول على دعمٍ عاطفيٍّ. دعْني وشأني، فقط ارحلْ».

رفع المبتدئ يديه عالياً بمعنى: **لا داعي للانفعال**، ثمَّ قال: «حسنٌ، لا مشكلة، أنا راحلٌ».

«لا أريد كعكاتك»، صرختُ في ظهره.

ثمَّ رحل فعلاً. غادر الغرفة بكلِّ بساطةٍ، وقد كان الأمرَ الذي طلبْتُ منه فعله، لكنَّني مع ذلك تفاجأْتُ.

وحدي مجدَّداً.

شعرتُ بالارتياح وبخيبة أمل في آنٍ واحد جراء رحيله.

حاولْتُ مَسْحَ الكتابة باستعمال الكحول، ولكنْ من دون جدوى. أخيراً، وبعد أنْ جرَّبْتُ عدَّة مواد تنظيف، وحاولتُ كشطها بأليافٍ فولاذيةٍ، علَّقْتُ روزنامةً جلبتها معي من محطتي القديمة في أوستن فوق الكلمة باستعمال شريط لاصق ومضيْتُ لحال سبيلي.

كان حلّاً جيِّداً، فقدْ غطَّيْتُ الغرافيتي بصورةٍ لهيرنانديز، عاري الجذع، بارزِ العضلات. لكنَّ ذلك جعلني أشتاق إلى حياتي السابقة.

بعد تلك الليلة، عانيْتُ طوال أسابيع للتَّشبُّث بتوازني، من خلال الجَرْيِ والتدريب وتمارين الباركور. عانيْتُ من ذلك كلَّ دقيقةٍ من كلِّ مناوبةٍ. عانيتُ وأنا أتجاهل المبتدئ كلِّيّاً وتماماً، كأنَّه لم يكنْ موجوداً. وعانيْتُ كلَّما خرجْنا في مهمَّةٍ بعد أخرى، نساعد شخصاً مُسِنّاً يشكو من آلام صدره، وأُمّاً سقطَتْ سيَّارتُها في وادٍ، ومراهقةً وضعَتْ مولوداً من دون أدنى عِلْمٍ بأنَّها كانَتْ حاملاً.

ما عدتُ قادرةً على استنباط المعنى من أيِّ شيءٍ.

التفكير في أنَّ أحدهم قد ينزل إلى هذا المستوى خَرَقَ كلَّ ما كنتُ أعلمُهُ بخصوص الإطفائيين.

هاكَ الحقيقة الجوهرية بخصوص الإطفاء: إنَّها مهنةُ مساعدَةٍ، فالناس ينضمُّون إليها لأنَّهم يرغبون في مساعدة الآخرين. حسنٌ، ربَّما يرغبون في ارتداء زيِّ الإطفاء أيضاً، أو تحطيم أشياء بالفؤوس، أو قيادة شاحنةٍ حمراءَ كبيرةٍ ذات أضواءٍ وصفَّاراتٍ.

لكنَّ الإطفائيين أساساً أناسٌ طيبون في الجوهر. أنا لا أقول إنَّهم لا يقعون في المشاكل، أو ليسَتْ لديهم صعوبات في استيعاب مشاعرهم، أو لا يمارسون بعض التمييز الجنسي... أو أنواعٍ أخرى من التمييز. إنَّهم بشرٌ، وهم متخبِّطون وناقصون وخطَّاؤون، لكنَّهُمْ في أعماقهم، أناسٌ طيِّبون.

وهذا صلب الموضوع.

إذا لم يكن **الإطفائيون** أناساً طيِّبين، فربَّما إذاً لم يبقَ من الطيِّبين أحدٌ.

عمليّاً، الأسابيع التي تلَتْ لم تختلفْ كثيراً عن سابقاتها، فقدْ واصلتُ الذهاب إلى العمل في الوقت المُحدَّد، والقيام بكلِّ مهامِّي والتزاماتي بعنايةٍ. واصلتُ تلقِّي الاتِّصالات، والاعتناء بالمرضى والمصابين، وكنتُ أقوم بذلك بكفاءتي المعتادة. وواصلتُ الجَرْيَ لمسافة عشرة كيلومترات كلَّ يومٍ، وواصلتُ ممارسة الباركور، ودراسة المضمار حين لا يكون أحدٌ في الجوار، وربَّما تجاهلْتُ المبتدئ أكثر قليلاً من السابق.

سطحياً، بدَتِ الأمور كما كانت عليه تقريباً.

لكنْ، لمْ يكنْ أيُّ شيءٍ كما كان عليه سابقاً.

تلك الليلة برفقة المبتدئ جعلَتْني أتفتَّحُ وأنضج بعمق، فقدْ كان الأمر كأنَّني كنتُ برعماً أمام آلةِ تصويرٍ على فتراتٍ، ثمَّ انفجرْتُ إلى وُريقاتٍ... ورقّةٍ... وألوانٍ.

بقيْتُ أفكِّر في أنَّني لو كنتُ قدْ فتحتُ خزانتي وأنا في حالتي المحصَّنة المعتادة، ورأيتُ كتابة الغرافيتي تلك، كنتُ سأتأذَّى، نعم، لكنَّني لم أكُن لأُمزَّق كما حصل.

أيُّ خيارٍ تبقّى لديَّ بعد ذلك سوى الانسحاب؟ أيُّ خيارٍ تبقّى سوى تحصين نفسي من جديد؟ كانَتْ مسألةَ حفاظٍ على الذات.

لكنَّني الآن كنتُ أعلم ماذا كنتُ أفتقد. الآن كنتُ أتذكَّرُ ماذا كان شعورُ ألَّا أكون وحيدةً.

والآن، عندما صرْتُ على علمٍ بذلك، كان الأمر لا يُحتمَلُ.

لكنَّني احتملْتُهُ على أية حالٍ، فهذا ما نفعله، أليس كذلك؟ هذا أفضل شيءٍ لطالما أحببْتُهُ بخصوص الجنس البشريِّ: كيف نجمع أشتات أنفسنا، مرةً بعد أخرى، ونمضي قُدُماً.

إلّا أنّ الشعور بالوحدة كان مؤلماً للغاية بعد أنِ ابتعدْتُ عن المبتدئ. كان شعوراً جسديّاً لدرجة أنّني أحسسْتُ بأنّني قد أذبل فعلاً وأموت.

لذا، شغلتُ نفسي بشيءٍ آخر أرتاح له: نادي الكروشيه.

ربَّما، قلتُ في سرّي، إذا خفَّفْتُ وطأة الوحدة في مكانٍ آخر، فقدْ أستطيع إيجاد طريقةٍ لأكون بخيرٍ.

كانَتْ جوسي وديانا مسرورتين دوماً لانضمامي إليهما، وكانَتا تعطيانِني سلَّةً كبيرةً من كراتِ الصوف لغزلها. وحتى حين كنتُ أقف مشدوهةً أمام المستوى الذي هبطْتُ إليه (غزلُ كراتِ صوفٍ!)، كان يجب أنْ أعترفَ أنَّ نعومةَ ملمسِها وإيقاع الحركة كان مهدِّئاً في الحقيقة.

ولأكون صادقةً، لم يكنْ نادي الكروشيه فحسب، بل كنتُ أبحث عن أيِّ فرصةٍ لأكونَ رفقة إحداهما. بدأتُ أحضُر إلى المطبخ لاحتساء القهوة، وساعدتُ في تحضير العشاء، وتطوَّعتُ لمساعدة جوسي في محلِّها. وحين عرضَتْ عليَّ ديانا الذهاب إلى السينما أجبْتُ بنعم، وحين طلبَتْ منّي مساعدتها في أعمال الحديقة، وافقت

على ذلك أيضاً، وحين عانقَتْني، ومهما بدا ذلك غريباً، عانقتُها أنا بالمقابل.

كان الأمر كأنَّني كنتُ متعطِّشةً للتواصل البشري، وقد كنتُ كذلك منذ البداية، لكنَّني أدركتُ ذلك الآن فقط.

كانَتْ خطَّتي تتمثَّل في أنْ أتغذَّى على الصداقة في البيت حدَّ التخمة، كي أكون مُشبَعةً خلال وجودي في المحطة.

وقد نجح ذلك إلى حدٍّ ما.

إلّا أنَّني لم أبدُ مُشبَعةً قَطُّ، فكلَّما حظيْتُ بتواصُلٍ بشريٍّ صرْتُ راغبةً في المزيد منه، والأمر مثل أنْ تحظى بقيلولةٍ، ثمَّ تستيقظ راغباً في المزيد من النوم. كانتْ تلك أنا مع البشرية، طوال الوقت.

لم يتوقَّعْ أحدٌ أنَّه بعد أنْ حاولَتْ ديانا وجوسي جاهدتَين، ولوقتٍ طويلٍ، إخراجي من غرفتي، لم تكونا قادرتَينِ الآن على التَّخلُّص منِّي. وما أراحني أنَّهما كانتا مسرورتين لذلك، وكانتا مصمِّمتين على حَلِّ «قضيَّة عاهر الخزانة».

تعاملتا مع الأمر كأنَّه حلقةٌ من حلقات مسلسل نانسي دْرُو[1]، وطرحتا عليَّ أسئلةً بخصوص كلِّ واحدٍ من أفراد الطاقم، في محاولةٍ لكشف هوية المعتدي.

«قد يكون أيَّ واحدٍ منهم»، قالت ديانا ذات ليلةٍ.

«قد يكون الكابتن»، قالت جوسي قبل أنْ تُضيف: «كان هو مَنْ رآها في الحفل برفقة المبتدئ».

قالت ديانا داعمةً هذه الفرضية: «أعتقد أنَّ الكابتن هو مشتبه به مناسب لهذه القضية».

---

(1) مسلسل عن مراهقة تساعد الشرطة في كشف ملابسات الجرائم في مدينتها - المترجم.

قلتُ: «حسنٌ، هو لا يظنُّ أنَّ النساء يجب أن يعملن في خدمة الإطفاء».

قالت جوسي: «أمرٌ مريبٌ هنا».

سألَتْ ديانا: «أيعاملكِ بلؤمٍ؟».

«لا، إنَّه في الأغلب لطيفٌ جدّاً. بطريقتِه الخشنة».

«هل قسوتُه عليك تتجاوز قسوتَهُ على الباقين؟».

«هو في الواقع يستعملني مثالاً يُحتذى به في كيفيَّة القيام بالأعمال».

«أتروقينه؟».

«لن أذهب إلى هذا الحد».

«لكنَّه يقدِّر عملَكِ؟»، سألت ديانا.

«غالباً».

«أيُدركُ أنَّكِ امرأةٌ؟»، سألت جوسي.

«يقول إنَّني الاستثناء الذي يثبتُ القاعدة».

«أيّاً كان ما يعنيه ذلك»، قالَتْ ديانا.

«إذا شعر أنَّكِ تشكّين فيه»، اقترحَتْ جوسي، «قد يطردُكِ».

«لن يطردَني»، قلتُ.

ابتسمتْ لي جوسي. «أنتِ طيّبةٌ للغاية. بل سيفعل».

أومأتْ ديانا في تأكيدٍ. «نعم، على الأرجح سيطردُكِ... إذا كان هو المذنب».

«مَنْ غيرُهُ قد يكون؟»، سألَتْ جوسي.

هززْتُ كتفيّ. «قد يكون أيَّ واحدٍ منهم حقّاً. العضلات السّتُّ خسر الكثير من المال، مئات الدولارات، في رهاناته ضدِّي. وقد

دمَّرْتُ ضئيلاً تماماً في تسديدات كرة السلة ذات مرَّةٍ. ودي ستاسيو والحقيبة لم يكونا قَطُّ متحمّسَين لوجود امرأةٍ في المركز. ولكنْ لا يُوجَدُ شرِّيرٌ ظاهرٌ بينهم، فكانُوا جميعهم لطفاء معي، وبشكلٍ مفاجئٍ».

«لقد قلّلوا من شأنكِ»، أشارتْ ديانا.

«لكنْ ليس بطريقةٍ خبيثةٍ»، قالتْ جوسي قبل أن توضِّح: «بل بطريقةٍ ذكورية، فيها شيءٌ من التعالي. ليس بطريقةٍ لئيمةٍ».

«ربَّما كان المبتدئ»، قلتُ حينها، فأنزلَتْ كلتاهما الكروشيه وحدَّقَتا فيَّ.

«حتماً لا»، قالتْ جوسي.

حرَّكَتْ ديانا رأسها أيضاً. «مستحيلٌ».

«لمَ لا؟ إنَّها حجَّةُ غياب مثالية. تظاهرْ بأنَّكَ حليفٌ، ثمَّ اطعنْ في الظهر. إنَّها أقدم حيلةٍ في التاريخ».

«هو لا يدَّعي. لقد رأيْتُ الطريقة التي كان ينظر بها إليكِ».

لديها وجهة نظر.

«لِمَ تَودِّين العمل مع هؤلاء الرفاق على أيَّة حالٍ؟»، سألَتْ جوسي، «يبدو أنَّهم سيِّئو الطبع».

هززْتُ كتفيَّ. «لأنني أحبُّ الوظيفة».

«وهي تبرعُ فيها»، أضافتْ ديانا.

«أحبُّ الوظيفة لأنَّني أبرعُ فيها».

«ربَّما كونُك تبرعين فيها هو المشكلة، فلا بُدَّ أنَّ أحدهم يغار منكِ، أو يراكِ تهديداً له»، قالتْ ديانا.

«قد يكون ذلك أيَّ شخصٍ»، قلتُ بعد وهلةٍ.

«ربَّما تستطيعينَ وَضْعَ فخٍّ»، قالتْ ديانا مقترحةً، «وَضْعَ كرةٍ مطّاطيَّةٍ مملوءةٍ بالدهان مثلاً لتنفجر في وجهه إنْ فتحَ أحدُهم خزانتَكِ».

«إنها خطَّةٌ ضعيفةٌ إلى حدٍّ ما»، أشرْتُ، «فأنا أيضاً يتوجَّب عليَّ أنْ أفتح خزانتي».

كانت ديانا وجوسي مقتنعتين أنَّ عليَّ تقديم شكوى بما حصل، لكنَّني لن أستطيع فعل ذلك.

لن أستطيع الاتِّصال بالجهات العليا، لأنَّ ذلك لن يعنيَ اشتكاءً فحسب، بل وشايةً وخَرْقاً للتسلسل القيادي. ولن أستطيع مواجهة المتربِّص، لأنَّني لا أعلم هويَّتَهُ. في ظروفٍ مُختلفةٍ، كنتُ سأعمل بجدٍّ أكبر، وأحاول التَّحسُّنَ، على أمل أنَّه، أيّاً كان ذاك الذي لا يحبُّني، قد يرى أخيراً قيمتي.

شككْتُ في أنَّ صاحب الغرافيتي لم يكنْ يريدُني هناك، وأنَّه توقَّع أنْ يستنزفَني العمل وأستقيل. حسنٌ، لم أُستنزَفْ. وحين أدركَ أنَّني لن أفشلَ من تلقاء نفسي، قرَّرَ جعلي بائسةً إلى الحدِّ الذي سيجعلني راغبةً في المغادرة.

ما كنتُ لأفعل ذلك أيضاً.

لكنْ كم كان على الأمور أنْ تبلغَ من سوءٍ حتى يفهم ذلك؟

كنتُ مهمومةً بذلك طوال الوقت... حتى أعطانا الكابتن شيئاً آخر يُشعرنا بالهم.

20

ذات مساءٍ، بعد أنْ قُمْنا بتنظيف بقايا وجبة العشاء، دعانا الكابتن جميعاً للاجتماع حول طاولة المطبخ.

«وردَني للتَّوّ أغربُ اتِّصالٍ هاتفيٍّ في مسيرتي المهنية».

انتظرْنا جميعاً.

تابع الكابتن: «يبدو أنَّ مجلس المدينة يعاني من عجزٍ في الميزانية، ولا أحدَ متأكِّدٌ ممَّا حصل بالضبط، ولكنْ يبدو أنَّ هناك بعض الاختلاسات، بعضَ الفساد... بعضَ الاستثمارات السَّيِّئة التي تمَّ القيام بها. بطريقةٍ ما، الميزانية المُتوَقَّعةُ للمدينة ليسَتْ كما يجب أنْ تكون عليه، وليست كما كانَتْ عليه السنةَ الماضية. هناكَ تحقيقٌ يجري، إلخ، إلخ، إلخ... لكنَّ هراءَ الحديث وزُبدته هي أنَّهم يُنقصون من خدمات المدينة».

انتظرْنا.

«يُنقصون عدد العاملين في خدمات المدينة، هذا ما أقصد». تنحنح، ثمَّ تابع: «لم تسبقْ لي رؤية شيءٍ كهذا. لقد وظَّفُوا بعض مستشاري التخطيط للقدوم وإرشادهم إلى كيفية سَدِّ الفجوة، وكانَتْ توصياتُ هؤلاء الخبراء بأنْ يُنقِصُوا اثنين في المئة من عدد

المُعلّمين، وعناصر الشرطة، والإطفائيين في المدينة، بالإضافة إلى أمورٍ أخرى».

وجَّه الكابتن نظرَهُ إلى الأرضية وغيَّر الرِّجل التي يرتكز عليها.

«يجعلون بعض القُدامى يتقاعدون مبكراً»، ومع تحوُّل نظري باتِّجاه دي ستاسيو الذي كان أكبر شخصٍ في الطاقم، واصل: «ويوقفون عقود بعض الموظفين الجدد».

حينئذٍ نظر الجميع باتِّجاهي أنا وأوين.

«ما أودُّ قوله»، تابع الكابتن، «هو أنَّ اثنين من العقود الجديدة في المدينة هما عنصران من مناوبتنا، ويبدو أنَّنا لن نتمكَّن من الحفاظ عليهما معاً».

«هل سيغادران؟»، سأل الحقيبة.

«أحدهما فقط»، قال الكابتن، كأنَّ ذلك كان الجزءَ المشرق من الأمر.

«أيهما؟»، سأل ضئيلٌ.

قبل أنْ يتمكَّن الكابتن من الإجابة، بدأ الرفاق يصرخون، مقدِّمين اقتراحاتهم.

«أبقِ على الفتاة!»، صرخ دي ستاسيو، في اللحظة التي صرخ باقي الرفاق بإبقاء المبتدئ، وشعرْتُ بومضة امتنانٍ نحوَهُ قبلَ أنْ أتساءلَ إن كان ساخراً. الفتاة؟ حقّاً؟ أنا أعمل هنا منذ خمسة أشهرٍ، ألا أحصل على اسمٍ؟

«لا يستطيع طردَ المبتدئ!»، صرخ الحقيبة، «إنَّهُ ابن بيغ روبي».

«حسنٌ، لا مجال لأنْ يفكِّرَ في إبقاء الفتاة»، كان ذلك ضئيلاً.

شرع الرفاق في مناقشة مزايانا وعيوبنا، دفعةً واحدةً، والكلُّ يتحدَّثُ ولا أحد يستمع. كانت مزاياي، كما يبدو: «الكفاءة والمهارة، في حين إنَّ الآراء الداعمة للمبتدئ كانَتْ تقول إنَّه شخصٌ طيبٌ». سمح الكابتن للجميع بالتصويت والإدلاء بآرائهم بضعَ دقائق قبل أنْ يُسكتَنا مُجدَّداً.

«إنَّه وضعٌ صعبٌ»، تابع، «لا أعلم عن أيهما سأتخلَّى، لكنَّني أعلم أنه سيكون لدينا طاقمٌ مصغَّر في هذه المناوبة ومناوبات أخرى. هذا الأمر غيرُ آمنٍ بالنسبة إلينا، وهو غير جيِّدٍ بالنسبة إلى المجتمع، ولكنْ ليس هناك شيءٌ يمكننا القيام به بخصوص ذلك في الوقت الراهن. يجب أنْ نمضي مع التَّيار حتى يتمكَّنُوا من معالجة الأمور، فالمصاعب ليستْ غريبةً على أيٍّ منَّا هنا، وستولَّى ذلك».

«لكنْ، مَنْ منهما ستَفصل؟» أراد ضنيلٌ أنْ يعرف.

«في ظروف أخرى، كنتُ لأطرد أحدَهُما، لكنَّ هذين الاثنين» (أشار إلينا) «بدآ عملهما في اليوم نفسِه. لقد منحني الرئيس مُهلة بضعة أسابيعَ لأقرِّرَ، وخلافاً لما قد تظنُّون، فلم يقع اختياري على أحدٍ بعدُ. سيكون قراراً صعباً بحقٍّ».

لحظةً، وجدْتُ نفسي أتساءلُ إنْ كان الكابتن هو المتربِّصَ، وكان يقوم بكلِّ هذه التمثيلية حيلةً للتَّخلُّص منِّي، ولكنَّه أرانا رسالة الرئيس، وكشف كلَّ تفاصيل الموضوع، ولا بُدَّ أنْ أقرَّ بأنَّ ذلك بدا رسميّاً للغاية.

لم يبدُ الكابتن غاضباً مني مؤخَّراً بالقدْر الذي كان عليه، على أيَّة حالٍ. برغم كلِّ الجَلَبَةِ التي أحدَثَها بخصوص عدَّتَي السيانيد، فقد تمَّ في النهاية وَضْعُ واحدةٍ في كلٍّ من مبنَيَي المحطة، وقد وصلَتْ أشياءُ أخرى أيضاً: نشّافة ملابس، وثلاثُ كاميراتٍ بأشعَّةٍ

تحت-حمراء، وإيصالٌ لاستلام سبعة فُرُشٍ من محلٍّ في المدينة، وقد احتفظَ بها جميعها.

وبرغم غِلظتِهِ، فقدْ كنتُ أعلم أنَّ فراشه الجديد قدْ راقَهُ.

ربَّما سيعمل ذلك لصالحي.

عدَّل الكابتن وقفتَه، وبدا غير مسرور بالوضع.

«ماذا سيحدث للذي يغادر؟»، سأل ضئيلٌ.

«هو أو هي»، تابع الكابتن بحذرٍ، «سيتوجَّب عليه/عليها إيجاد وظيفةٍ في مكانٍ آخر. وتأكّدوا أنّني سأكتب له/لها رسالة توصيةٍ لا مثيلَ لها».

رفع الكابتن رأسه، والتقَتْ نظراتُنا لأول مرَّةٍ، ثم نظر بعد ذلك إلى أوين. «أكره فكرة القيام بذلك، ولكنْ لا خيار لديَّ. ليكنْ هذا إشعاري لكما بالأمر: فمنذُ اللحظة، كلُّ اختيارٍ تقومان به، كلُّ مريضٍ تتعاملان معه... كلُّ ذلك سيتمُّ رصدُه وتقييمُه، لذا كونا على أحسن أحوالكما. وحين يحين الوقت، سأقوم باتِّخاذ القرار. لكنَّني أقولها لكما بصراحةٍ: أتمنَّى لو أنَّني لم أكنْ مضطرّاً لفعل ذلك».

وأنا أسيرُ نحو شاحنتي للعودة إلى البيت بعد المناوبة، راودَني إحساسٌ سيِّءٌ جدّاً بما سيقع.

كان الكابتن سيختار أوين. حاولْتُ وضع نفسي مكان الكابتن مورفي، حيث أقوم بالاختيار بين أوين - وهو شابٌّ في لياقةٍ بدنيةٍ عاليةٍ، ودودٌ، يعمل بجدٍّ، ابن كابتنٍ من محطَّة إطفاء بوسطن، منحدرٌ من سلالةٍ طويلةٍ من الأبطال، فتى محلِّيٌّ بلكنةِ ماساشوستس، لكنة الكابتن نفسها - وبيْني.

ماذا يرى الكابتن حين ينظر إليّ؟ فتاةً من تكساس، غريبةً، دخيلةً.

فتاةٌ، على وجه الخصوص.

ونعلم كلُّنا كم أنَّ الفتيات شنيعاتٌ.

لقدْ عرفْتُ ذلك. كنتُ سأخسر وظيفتي.

كنتُ غبيَّةً للغاية. فقدْ كانتْ هذه اللحظة مجرَّد بَلوَرةٍ لما كنتُ أَعلمه طوال الوقت: سيكون المبتدئ سبب نهايتي، بطريقةٍ أو بأخرى.

طوال شهورٍ عديدةٍ، كانت مَهمَّتي أن أدَرِّبه، وأجعله يتأقلمُ ويجاري سرعتنا. ساعدته، وسمحْتُ لنفسي بالاعتقاد أنَّنا في الفريق نفسِه. ونظرياً كنتُ أظنُّ أنَّني بمساعدتي إيَّاه على التَّطوُّر، فأنا أساعد الطاقم، وأساعد المرضى كذلك. كان شخصاً طيِّباً وكنتُ أريده أنْ ينجح.

ولكنْ ليس بدلاً منِّي.

كان ذلك الجانب السلبي لمساعدته، فوظيفتي هنا ما عادَتْ مضمونةً على الإطلاق، وتلك الحقيقة كانَتْ منتصبةً أمامي بجلاءٍ عندما بلغْتُ شاحنتي لأكتشفَ أنَّ العجلات تمَّ تمزيقها.

العجلات الأربع جميعها.

كانَتْ هناكَ رسالةٌ تحت ماسح الزجاج الأماميّ تحمل نصيحةً بسيطةً: **استقيلي يا عاهرة.**

كان يصعب ألّا أحكمَ على النَّحوِ والفاصلة التي كان يجب أنْ تكون وسط الجملة، وهذا من دون ذِكْرِ خَطِّ الكتابة السَّيِّئ؛ إذْ تبدو كأنَّ طفلاً لم يبلغْ مستوى التعليم الابتدائي هو مَنْ خربشها. مُجدَّداً، كانَتِ التاء المربوطة على شكل الرقم 6: **عاهر6.**

لكنَّ المعنى كان أكثر من واضحٍ.

كوَّرْتُ الرسالة في راحة يدي وحدَّقْتُ في العجلات. كانتْ مُسَطَّحةً تماماً، الأربع جميعها. سيكون سعرها مئة دولارٍ للواحدة، على الأقل، وهو مالٌ لم أكنْ أملكُه. لكنَّ المشكلة العاجلة كانَتْ كيفيَّة وصولي إلى البيت.

مثلما حدث بخصوص الخزانة، لم أكن أنوي إخبار الطاقم بذلك. لم أكنْ لأسمحَ بأيِّ حالٍ من الأحوال بأنْ يتمَّ تعريفي على أنَّني أضعفُ حلقةٍ في الطاقم، ولا سيَّما الآن. ولحسن الحظ، كان معظمهم قد غادروا إلى بيوتهم، ولأنني أنا وأوين كنَّا أحدث عضوين في الطاقم، فقد أعطونا أبعدَ مكانين في موقف السيارات.

ربَّما لم يلاحظ أحدٌ.

كنتُ أفكِّرُ في تلك النعمة حين سمعتُ خطواتٍ خلفي.

كان المبتدئ.

«ما الذي حصل بحقِّ السماء؟»، سأل وهو ينظر إلى العجلات.

لم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ عمَّا يجب قوله، لذا رفعتُ كتفيَّ.

«أحدُهُم قام بذلك؟».

كان سؤالاً غريباً. بالطبع أحدُهم قام بذلك. «يبدو الأمر كذلك».

«مَنْ؟».

«لا أعلم».

«أراهنُ أنَّه شخصٌ من الحيِّ المجاور»، قال، «طفلٌ غبيٌّ».

«لا أظنُّ ذلك».

التفت نحوي. «ماذا تقصدين؟».

مددْتُ له الورقة المكوَّرة وشاهدْتُه يفتحها.

حين قرأها نظر إليّ. «ما هذا بحقّ الجحيم؟».

هززْتُ كتفيّ.

«مَنْ كتب هذا؟».

هززْتُ كتفيّ مجدّداً. «وجدْتُها تحت ماسحة الزجاج الأمامي».

كان مصدوماً للغاية، لدرجةٍ جعلَتْني أتساءلُ إن كان يدّعي ذلك. «أحدهم وضع هذه تحت ماسحة الزجاج؟».

أومأتُ بالإيجاب.

«يجب أنْ تُخبري الكابتن».

«لن أخبرَ الكابتن، ولا أنتَ ستفعل».

تقدَّم المبتدئ نحو شاحنتي وقام بمعاينتها بحثاً عن أدلّةٍ أو إشاراتٍ تُعينه على التفكير، ثمَّ رجع ليتفحّص ملامح وجهي. «هذه ليستِ المرة الأولى».

«بخصوص ماذا؟» قلتُ وأنا مدركةٌ قصده تماماً.

«المرة الأولى التي يعبث فيها أحدهم معك بهذه الطريقة».

حرَّكْتُ رأسي بالنفي.

«ماذا أيضاً؟ ماذا حدث أيضاً؟».

تنهَّدْتُ، فلا معنًى لإخفاء ذلك الآن. «أحدهم كتب كلمة 'عاهرة' في خزانتي».

عبس أوين وخطا خطوةً باتّجاهي. «متى؟».

«في أول مناوبةٍ بعد حفل والديكَ».

شاهدْتُه يتشرَّب ذلك. شاهدْتُه يجُمِّع القطع بعضَها مع بعضٍ. «هذا ما حدث إذاً، أحدهم أخافَكِ».

«لا أحدَ يُخيفني»، قلت قبل أنْ أردفَ: «كان ذلك تذكيراً جيِّداً فحسب».

«تذكيرٌ بماذا؟».

«بأنَّني هنا لأعمل، وليس لِ. . .»، لم أستطع التفكير في كلمةٍ مناسبةٍ، «. . . القيام بأيٍّ من ذلك الذي كنَّا نفعله».

«ما نفعل أو لا نفعل لا علاقة له بهذا النذل».

«أظنُّ أنَّ هذا النَّذلَ يرى ذلك بطريقةٍ مختلفةٍ».

«لماذا لمْ تخبريني؟». كان غاضباً. كنتُ أستطيع رؤية ذلك في عينيه، والتوتر في كتفيه.

أنا بالمقابل كنتُ أقوم بما أقوم به حين أقرِّرُ ألَّا تكون لديّ مشاعر. «شعرْتُ بأنَّ أفضل خيارٍ لديَّ حينها كان الحفاظ على مسافةٍ بيننا». بدا صوتي مثل روبوتٍ، حتى بالنسبة إليَّ.

«يجب أنْ نكتشف مَنْ فعل ذلك».

«وماذا برأيكَ كنْتُ أحاول أنْ أفعل طوال هذا الوقت؟».

لكنَّ ذهنَهُ كان يفكِّر بسرعةٍ محمومةٍ. «يجب أنْ نتحقَّقَ من تسجيلات كاميرا المراقبة. يجب أنْ نضع فخّاً ما. يجب أنْ نستجوب كلَّ الرفاق. . .».

قاطعْتُه. «لا، لنْ نستجوبَ أحداً».

«ولكنْ كيف سنجده إذا لم. . .؟».

«لا أعلم، لكنَّ آخر شيءٍ قد أفعله هو إخبار الطاقم».

«لكنَّنا. . .».

«وتوقَّفْ عن التَّحدُّث عنَّا بـ'نحن' فهذه ليسَتْ مشكلتَكَ. إنَّها مشكلتي أنا».

«لكنَّني. . .».

«أوقفْ ذلك!»، قلتُ بنبرةٍ حادَّةٍ. «توقَّفْ عن محاولة إنقاذي، فأنا أستطيع إنقاذ نفسي بنفسي!».

رمش أوين، ثمَّ أغلق فمه، وأومأ في استسلامٍ. «حسنٌ»، قال أخيراً. ثمَّ أرجع الورقة إليَّ. «لن أنقذَكِ».

«رائعٌ. عظيمٌ. شكراً لكَ».

«فقط اسمحي لي بالإشارة إلى شيءٍ واحدٍ».

«ماذا؟».

«سوف تحتاجين توصيلةً إلى البيت».

في الطريق، أخبرَني أوين أنَّ أحدَ أقاربه لديه شركة سحب سيارات. «سيتولَّى الأمرَ عنكِ».

«ما الذي يعنيه ذلك؟»، سألْتُ.

«سينقل مركبتَكِ، ويغيِّر العجلات، ويعيدها إليكِ. فقدْ أرسلْتُ إليه رسالةً نصِّيَّةً».

«لسْتُ متأكِّدةً من أنَّني أستطيع تحمُّل تكلفة عجلاتٍ جديدةٍ».

«لنْ تتحمَّلي تكاليف شيء».

«تقصد العجلات؟».

«أيَّ شيءٍ».

«كيف ذلك؟».

ابتسم أوين: «إنَّه مدين لي بمعروفٍ أو اثنين، أو أكثر من ذلك، في الواقع».

لم أردّ على ذلك. اكتفيتُ بإسناد رأسي على مسند مقعد الراكب، في محاولةٍ ألَّا أسمح لذهني بالانسياق نحو ذكرى آخر مرةٍ كنتُ فيها داخل شاحنة المبتدئ هذه.

ثمَّ قلتُ حين طال الصمت: «فلنتحدَّثْ عن شيءٍ آخر».

«مثل ماذا؟».

«أيُّ شيءٍ، أيُّ شيءٍ مُلهٍ».

«هنالكَ شيءٌ، في الحقيقة، أودُّ مشاركتك إياه».

«مشاركةٌ؟» سألتُ، سيكون ذلك مُلهياً بكل تأكيد، فالإطفائيون لا يشاركون.

«الأمر مُتعلِّقٌ بوظيفتَينا».

«وظيفتَينا؟». لمْ أنظر إليه. «تقصدني أنا، الوافدةَ الجديدةَ المؤهَّلة أكثر من اللازم، والتي تمَّ التَّقليل من شأنها، وأنتَ، المبتدئ الذي يرغب في وظيفتي؟».

«نعم».

وجَّهْتُ نظري إلى النافذة. «تفضل، يا صاح».

«أولاً، وقبل كلِّ شيءٍ»، بدأ كلامه، «أريدُكِ أنْ تعلمي أنَّني أعلم أنَّك إطفائيةٌ أفضل منِّي».

شدَّ ذلك انتباهي.

«أنا أعلم ذلك تماماً»، قال قبل أنْ يُردفَ: «الجميع يعلم ذلك، ولو أنَّ الأمر بيدي، لتراجعْتُ وانسحبْتُ من كلِّ هذا الموقف اللعين، وتركْتُكِ تحظين بمكانك الشرعيِّ».

«رائعٌ»، قلتُ.

«لكنَّني لا أستطيع فعل ذلك».

«كيف ذلك؟ أليس الأمر بيدِكَ؟».

«ليس تماماً».

«إنَّه بِيَدِ مَنْ إذاً؟».

«هذا ما أودُّ التَّحدُّث إليكِ بخصوصه».

«حسنٌ» قلتُ، «تحدَّثْ».

لكنَّه تردَّد. «أنا على وشكِ إخبارِكِ بشيءٍ لم أخبرْ به أحداً من قبلُ».

«ربَّما لا يجب عليك فعل ذلك إذاً».

«أظنُّ أنَّني أرغب في ذلك. أرغب في ذلك منذ مدَّةٍ، في الحقيقة».

«كنتَ ترغب في إخباري بأعمق أسرارِكَ منذ مدَّةٍ؟».

«إخبارَ أحدٍ ما على الأقل. لكنْ حين بدأتُ التفكير فيمن أستطيع الوثوق بهم، كنتِ أنتِ على رأس اللائحة. وفي الحقيقة كنتِ أنتِ اللائحة. اللائحة برمَّتِها».

اللائحة برمَّتِها؟ ضيَّقْتُ عينيَّ وأنا أحدِّق به. «ماذا عن والدَيكَ؟».

«ليس لهذا الأمر».

«شقيقاتك؟».

«لا».

«أصدقائك؟».

«أنتِ صديقتي، ألستِ كذلك؟».

«صديقةٌ/ عدوَّةٌ».

«مُنصفٌ بما يكفي».

كان يماطل. «اكشفْ عن الأمر، إذاً».

«حسنٌ».

عدَّل وَضْعَ يديه على عجلة القيادة وشرع يقصُّ سرَّه الأعمق: «حين كنتُ طفلاً، كنتُ دوماً في رفقة طفلين من حيِّنا. كنتُ الأصغر في جماعةٍ من الأطفال، وبينما آباؤنا يعملون، كنتُ أنا وهؤلاء الأطفال نتجوَّل، ونجري في الأرجاء طوال الصيف بلا رقابةٍ تقريباً.

لم نتصرَّفْ تصرُّفاتٍ سيِّئةً، لكنَّنا فعلْنا ما يفعله الأطفال. بحثْنا عن أغطية القناني، وجمعْنا الملصقات، ولعبْنا ألعاب الجنود، لكنَّ الشيءَ المفضَّل لدينا كان إضرامَ نيرانٍ صغيرةٍ وإطفاءها، وذلك لأنَّ والدي كان إطفائياً، فبرغم أنَّهما كانا أكبرَ مني سناً، كانا يوقران تجربتي».

«حسنٌ...»، قلتُ، متسائلةً كيف لأيٍّ من ذلك أنْ تكون له علاقة بي.

«على أيَّة حالٍ، كانَتْ هناك منطقةٌ تجمَّعَتْ بها المستودعات في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن حيِّنا، فيها الكثير من المباني المهجورة. ولم يكن من المفترض بنا الذهاب إلى هناك، فقدْ كانَتْ أمَّهاتُنا قد رسمْنَ خطّاً أحمرَ عند شارع باتل لا يمكن مطلقاً، وبأيِّ حالٍ من الأحوال أنْ نتجاوزه. لذا كنَّا نتجاوزُه طوال الوقت».

«بالطبع ستفعلون»، علَّقْتُ.

«وفي أحد الأيام قرَّر أحدُنا، ولا أذكر حقّاً مَنْ كان، أنْ نُضرم النار في علبة أعواد ثقابٍ ونرميها عبر نافذة أحد المستودعات الخالية».

أحسسْتُ بانقباضٍ في صدري، فلم يكنْ ذلك لينتهيَ بخيرٍ.

«كنتُ أبلغُ من العمر ثماني سنواتٍ حينها» تابع أوين. «التفاصيل الدقيقة مشوَّشةٌ في ذهني، لكنَّني أذكر أنَّنا فتحنا علبة أعواد ثقابٍ، وسحبنا الأعواد، وأغلقناها مجدَّداً إلى الحدِّ الذي تبقى فيه رؤوس الأعواد بارزةً منها، ثمَّ أشعلناها. وبعد ذلك قام أحدنا برَمْيِ العلبة المشتعلة عبر نافذةٍ مكسورةٍ، وهربْنا ركضاً».

شيءٌ ممَّا قاله بدأ يعيدني إلى ذكرى بعيدةٍ. بدأَتِ القصَّة تبدو مألوفةً.

«ماذا كنَّا نفعل؟ ماذا كنَّا نتوقَّع؟ ما كانَتْ أهدافنا؟ أظنُّ أنَّنا كنَّا نودُّ أنْ يشتعل المبنى مثل ألعاب الرابع من يوليو النارية. كان قد سبق لنا اللعب في ذاك المستودع من قبلُ، مرَّاتٍ عديدةً: كان الطابق الأرضي خالياً. فكَّرْتُ في ذلك مراراً، ولا أستطيع أن أفهم كيف أنَّ أعواد الثقاب لم تُحرِقْ نفسها، وتنطفئ على الأرضية الصلبة».

«لكنَّها لم تفعلْ».

حرَّكَ رأسه مؤكِّداً كلامي وقال: «لم تفعلْ. فقدِ اتَّضح أنَّه كان مصنع ورقٍ قديماً».

التفتُّ لأنظر إليه.

يا إلهي. كنتُ أعرف ذلك الحريق. الكلُّ يعرف ذلك الحريق.

نظرتُ في عينيه، وحين فعلتُ، علمَ أنَّني أعلم.

أخفضْتُ صوتي، بلا سببٍ وجيهٍ. «نحنُ نتحدَّثُ عن حريق شركة بوسطن للورق؟».

أومأ.

«تسببتَ في حريق شركة بوسطن للورق؟».

أومأ مجدَّداً، ثمَّ واصل كلامه: «في طريق رجوعنا إلى البيت وقت الغروب، رأيناه. كانَتْ ألسنة النار تخرج من كلِّ نافذةٍ، دخانٌ أسودُ في كلِّ مكانٍ، وإعصارٌ ناريٌّ على شكل قِمعٍ يرتفع من السطح. فتمَّ استدعاء كلِّ فرق إطفاء في المدينة لذلك الحريق، وتمَّ إغلاق الطرقات، واضطرُّوا إلى قطع الكهرباء عن عشر تجمُّعاتٍ سكنيَّةٍ. كان حريقاً هائلاً. فقدْ كانَتِ الطوابق العلوية مملوءةً برُزم ورق جافَّةً وشِبْهَ متفتِّتةٍ. شاهدناه يحترق، وكنَّا نستطيع الشعور بالحرارة. بدا مثل قطار شحنٍ، صاخبٍ للغاية، لدرجة أنَّني كنتُ أستطيع الإحساس بدويّه على جلدي».

«أذكر ذلك. كان الحريق حارّاً لدرجة أنَّ الماء لم يكن له أدنى تأثيرٍ، فكان يجب انتظار أنْ تلتهم النار نفسها».

أومأ. «وحين انهارَتِ الجدران في النهاية، أخذَتْ معها الأبنية المجاورة».

«فَقَدَ أحدُ الإطفائيين حياتَهُ إثرَ سقوط أحد الجدران». تذكَّرْتُ ذلك للتَّوِّ.

أومأ المبتدئ. «لكنَّه لم يكن أيَّ إطفائيٍّ» قال، «كان عمِّي».

بدرَتْ منِّي تنهيدةٌ عميقةٌ. لم يكنْ أيَّ إطفائيٍّ. كان عمَّهُ.

تخلَّلَ شعره بأصابعه. «قال شاهد عيانٍ إنَّه رأى طفلَين يجريان بعيداً عن المستودع. ليس ثلاثةً، اثنان. الطفلان الآخران كانا أخوين، وقد شاهدَتْهما أمُّهما وهما متسمِّران أمام التلفاز بلا حراكٍ، يتابعان التغطية الإعلامية للحادث، وبطريقة ما، بالطريقة التي تعرف بها الأمهات، أدركَتْ الأمر. جعلَتْهما يعترفان، لكنَّهما لم يشيا بي، ولم يبحث أحدٌ عن طفلٍ ثالثٍ. فكانتِ الرواية الرسمية تتحدث عن 'طفلين'. ثمَّ اصطخب السيرك الإعلاميُّ وصار جنونياً، فاضطرُّوا في نهاية المطاف إلى الانتقال بعيداً... إلى فلوريدا، على ما أظنُّ».

«ولم تخبرْ أحداً أنَّكَ كنتَ هناكَ».

حرَّكَ رأسه نافياً.

«لذلك استغرق منكَ الأمر الكثير من الوقت للانضمام إلى مركز إطفاء، برغم أنَّ والدَكَ كان يدفعُكَ نحو ذلك».

نقرَ على عجلة القيادة وهو يقول: «كان الأمر كأنَّ ذلك اليوم ربطَني بقَدَرٍ مستحيلٍ. أنْ أمضي باقي حياتي في محاولة تجنُّب أيِّ شيءٍ مُتعلِّقٍ بالنيران، وأن يجبرني الواجب على الانضمام إلى مركز إطفاءٍ».

«لمَ يجبرك الواجب على الانضمام؟».

حرَّكَ كتفيه حركةً طفيفةً. «والدي يريدني أنْ أفعل ذلك».

«بلْ أظنُّه اعتذارَكَ».

«إنَّها أسوأ طريقةٍ للاعتذار، لكنَّها كلُّ ما لديَّ».

تفرَّسْتُ في وجهه بعضَ الوقت. «كلُّ ما تريده هو خَبْزُ الحلوى».

«تقريباً».

«لكنَّكَ لا تستطيع. أو تظنُّ أنَّكَ لا تستطيع».

«لقد خلَّف ذلك لوالدي حزناً لا يُوصَفُ».

«أتُكفِّرُ عمَّا اقترفْتَه بخصوص الحريق؟».

رفع كتفيه بشكل يكاد لا يُلاحَظ. «والدي ما زال متألِّماً حتى اللحظة، فإذا كان هناك أيُّ شيءٍ أستطيع فعله، فيجب أنْ أفعله».

«أتَفَهَّمُ ذلك»، قلتُ وقد تفهَّمْتُه فعلاً. لم أكنْ متأكِّدةً من أنَّني كنْتُ أوافقه الرأي، لكنَّني تفهَّمْتُه.

قال أوين حينئذٍ: «لم يسبقْ أنْ أخبرْتُ أحداً بالقصة كلِّها كما فعلتُ للتَّوّ». أخرج زفيراً طويلاً، ثمَّ تابع: «لا أستطيع وصف درجة غرابة ما أحسُّ به».

«كنتَ طفلاً حينها، والأطفال يقومون بأشياءَ غبيةٍ طوال الوقت، لقد كان حادثاً».

«قد يكون ذلك صحيحاً، لكنَّ عمِّي رايان ما زال ميْتاً. عمِّي أخو والدي الوحيد. ميْتٌ بسببي».

تساءلْتُ إنْ كانَ يركّز على الأجزاء السَّيِّئة من القصة.

«هذا عبءٌ ثقيلٌ على طفلٍ، ولا يمكنُه حمله».

«لمْ أعد طفلاً».

«لا يمكنُ لأيٍّ كان حَمْلُهُ».

أومأ. «على أية حالٍ، لهذا لا أستطيع الاستقالة من مركز الإطفاء. ولهذا يجب عليَّ الظَّفر بالمكان الوحيد المتبقِّي برغم أنَّني أعلم أنَّكِ تستحقِّينَهُ أكثر منِّي. وإذا منحنِي الكابتن إيَّاه، فسيتوجَّب عليَّ قبوله. هذا حلم والدي ويجب عليَّ التَّأكُّد من أنَّه سيحقّقه».

«ربَّما حلم والدك هو أنْ تكون سعيداً».

نظر إليَّ المبتدئ كأنَّني كنتُ مخطئةً لدرجة أنَّ ذلك جعلني أبدو لطيفةً. «لا، أنْ أكون إطفائياً أوَّلاً، وسعيداً ثانياً».

«أنتَ تتحدث إلى شخصٍ رآك تشحب، ويُغمَى عليك، أو تُفرغُ محتوى معدتكَ عند كلِّ اتِّصالٍ طبِّيٍّ، وأحياناً ثلاثتها معاً».

أخرج زفيراً عميقاً. «لا أعلم ماذا عليَّ أن أفعل».

«حسنٌ، أوَّلاً وقبل كلِّ شيءٍ، عليك أن تجد لنفسك معالجاً نفسيّاً».

«قمْتُ بذلك بالفعل»، قال كأنَّه شطب ذلك من اللائحة.

«في قسم السنة الثالثة. لم أتكلَّمْ مطلقاً لما يقرب السَّنة بعد ذلك الحريق، فجعلوني أرى اختصاصياً يعالج المحزونين المكتئبين، مرَّتين في الأسبوع».

«أتحدَّثْتَ عمَّا وقع؟».

«عن أجزاءٍ ممَّا وقع».

«الأجزاء المهمَّة؟».

حرَّكَ رأسه نافياً.

«أظنُّ أنَّه»، قلتُ حينها وأنا أتذكَّر كلمات والدتي: «يجبْ أنْ تبدأ التفكير في المغفرة».

رفع حاجبيه في وجهي كأنَّني مجنونةٌ. «أتقولين إنَّه يجب عليَّ إخبار والدي بالأمر؟».

«أفكَّرْتَ في ذلك؟».

حرَّكَ المبتدئ رأسه، ولسان حاله يقول: **لا لا لا، وألف لا.**

هززْتُ كتفيَّ. «لا أعلم ما يجب عليك إخباره به على وجه الخصوص».

عبس. «لكنَّك تظنِّينَ أنَّني بحاجة إلى أن يغفر لي؟».

حرَّكْتُ رأسي نافيةً. «لا، أظنُّ أنَّكَ تحتاج إلى أنْ تغفرَ لنفسكَ».

ظلَّ صامتاً بعض الوقت، كأنَّ تلك الفكرة لم تخطرْ له من قبلُ، ثمَّ قال: «ما كنتُ لأعلم من أين أبدأ حتى».

«يتصادف أنَّني أستطيع مساعدتَكَ في هذا الخصوص، فقد كانتْ والدتي تعلِّمُني في الآونة الأخيرة فوائد المغفرة وتحدِّياتِها».

لم يستطعْ تبيُّن ما إذا كنتُ أمزح.

«الأمر أسهل ممَّا يبدو عليه»، تابعتُ بفرحٍ دفينٍ لم يَبْدُ على ملامحي. «الأمر عبارةٌ عن تحوُّلٍ في التفكير أكثرَ من كونِهِ أيَّ شيءٍ آخر. يجب أنْ تفكِّر في الشخص الذي تشعر بالغضب تجاهه، وفي هذه الحال، نفسَكَ حين كنتَ طفلاً في الثامنة، وتحاولَ أنْ تكون متعاطفاً معه، فالتعاطف يُطفئ الغضب، كما تعلم...» قلتُ وأنا أشعر بأنَّني غدوْتُ حكيمةً فجأةً: «... ثمَّ يجب عليكَ العمل على إيجاد أمور جيِّدة نتجتْ عمَّا حصل، برغم كلِّ الأمور السيئة. وأخيراً يتوجَّب عليك أنْ تسمح لكلِّ شيءٍ بأنْ يُطوَى ويلتهمَه النسيان».

«هذه نصائحُ جيِّدةٌ».

«أنا ملآى بالنصائح الجيدة».

«لكنَّ ذلك لا يغيِّرُ شيئاً بشأن وَضعِنا، أليس كذلك؟».
«ليس في اللحظة الراهنة»، قلتُ، «لا».
«أنتِ ما زلتِ تريدين هذه الوظيفة، وأنا ما زلتُ في حاجة إليها».
كنتُ أستمرُّ في فعل ذلك - نسيانَ مَنْ يكون - فأومأتُ: هذا صحيحٌ. ثمَّ قلتُ: «ما زلنا أعداءً».
عبس على اختياري للكلمات. «متنافسان وديّان»، صحَّح.
«مُقاتلان حتى الموت»، قلت.
«زميلان في التدريب».
«اسمع»، قلت له، «مهما كنَّا سابقاً، نحن الآن عدوَّان، ونتنافس على المركز ذاته».
«أنتِ فعلاً تحبِّين تلك الوظيفة، هاه؟».
«وما الذي لا يُحَبُّ فيها؟».
«لا أعلم»، قال وهو ينظر خارج النافذة، «الدم؟ الأحشاء؟ الإسهال؟».
«البطولة؟ الزمالة؟ إنقاذ حيوات الناس؟».
«طبعاً، هنالك ذلك أيضاً».
صوَّبتُ نظري نحوه. «لقد رأيتُ مبتدئين أسوأ منكَ بكثيرٍ».
ردَّ بإيماءةٍ ولسان حاله يقول: ربَّما. «أنا أتقيَّأ بوتيرةٍ أقلَّ الآن... لكنَّكِ أنتِ مَنْ سيُبقون عليها».
بدرَتْ منِّي ضحكةٌ صاخبةٌ وأنا أقول. «أنتَ مَن سيُبقون عليه».
نظر إليَّ كأنَّني مجنونةٌ. «الكابتن لن يختارَني».
«أظنُّ أنَّه سيفعل».
حرَّك رأسه نافياً. «ولِمَ سيفعل ذلك؟».

«لأنَّ» قلتُ وأنا أحاولُ انتقاء كلماتي، «لأنك سليل سلالةٍ طويلةٍ من الأبطال البواسل، ولأنَّ الكابتن يعرف والدكَ، ولأنَّك مرحٌ ولطيفٌ وسهلُ المعشر، ولأنَّكَ تبدو مثل إطفائيٌ... مثل لوحة إطفائي لنورمان روكويل على غلاف مجلَّة *GQ*. ولأنَّ الكابتن لا يظنُّ أنَّ النساء يجب أنْ ينضممْنَ إلى خدمة الإطفاء».

«لا يمكن أنْ يظنَّ ذلك».

«بل يفعل. فقد أخبرَ كابتن محطَّتي السابقة في أوستن بذلك. وهم قبلوني فقط لأنَّهم كانُوا يائسين».

«كان ذلك قبل أنْ يرى عملكِ على أرض الميدان. مستحيل أنْ يكون ما يزال على رأيه القديم».

«أتريدُ الرهان على ذلك؟».

«إنَّه يعلم أنَّكِ جيِّدةٌ»، قال قبل أنْ يضيف بحزمٍ، «يعلم أنَّكِ أفضل من نصف الرجال في المحطَّة».

«نصفهم؟ بل كلُّهم».

«تستطيعين حمل الحقيبة ورفعَه بلا مجهودٍ...».

«أيُّ شخصٍ يستطيع حَمْلَ الحقيبة بلا مجهودٍ».

«أنتِ تستحقِّين تلك الوظيفة»، قال أوين محاولاً إنهاء الجدال.

«أجل أفعل»، وافقته الرأي قبل أنْ أضيف لإنهاء الجدال فعلياً، «لكنَّكَ أنتَ مَن سيحصل عليها».

21

بعد بضعة أيامٍ، وقبل انبلاج الفجر مباشرةً، أقدَمَ المتربِّص المجهول على رَمْيِ قرميدةٍ عبر نافذة مطبخ والدتي.

حدث ذلك بالفعل.

كانَتْ لديَّ يومها مناوبةٌ صباحيةٌ، والظلام كان ما يزال حالكاً في الخارج. لم يكنْ مُنبِّهي قد رنَّ بعد، وأيقظني صوت انكسارٍ، فهرعتُ إلى الطابق الأرضي، طابقين نحو الأسفل، بقدمين حافيتين، لأتسمَّر في مكاني عند عتبة المطبخ حين رأيتُ قطع الزجاج اللَّمَّاعة على المنضدة والأرضية.

كانَتْ ديانا خلفي مباشرةً.

كان الصوت صاخباً على نحوٍ مفاجئٍ، صاخباً لدرجة أنَّه أيقظ جوسي في البيت المجاور. ظهرَتْ بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ في ثوب نومها، بعد أنْ وجدتُ شبشباً وشرعتُ أكنس المكان. كانت ديانا تراقبني من الباب، بينما كانتْ جوسي تراقب من الباب الخلفيِّ.

لم تكن نوافذ بيت والدتي العتيق من زجاجٍ مدعَّم، فوجدْتُ شظايا زجاجٍ دقيقةً منتشرةً في كلِّ ركنٍ وزاويةٍ، إلى درجة أنَّني وجدتُ إحداها مستقرّة في شطيرة موزٍ كانَتْ في ركنٍ قَصِيٍّ. كنسْتُ

المكان ثلاث مرّاتٍ، ثمَّ مسحْتُه بمنديلٍ جافٍّ، ثمَّ بآخرَ مُبَلَّلٍ، وقد استغرق ذلك بعض الوقت، لكنَّني لا أذكر أنَّني أحسستُ بمروره. فالغضب، على ما أعتقد، بدَّدَ كلَّ إحساسٍ بالوقت من ذاكرتي، وكلَّ التفاصيل الأخرى عدا ألم يدَي الناتج عن القبضة التي كنتُ أطبقها على عصا المكنسة.

لم أسمح لديانا وجوسي بأنْ تخطُوَا داخل المطبخ إلا بعد أنْ مسحتُ كلَّ الأسطح.

«لا أظنُّ أنَّ المكان كان بمثل هذه النظافة من قبل قَطُّ»، علّقتْ ديانا.

قلت وأنا أشير إلى القرميدة على المنضدة: «لقد كان ذلك المُتربِّص».

اقتربَتْ جوسي وضيَّقتْ عينيها. «في هذه الساعة؟»، قالتْ عابسةً.

تدخَّلَتْ ديانا. «من ذا الذي يملك هذه الطاقة؟».

كان الأمر مُفزِعاً وعصيّاً على الفهم.

قرَّرَتْ جوسي إعداد القهوة بعد أنْ تأكّدت من عدم وجود أيِّ شظايا في الوعاء أولاً. «ما مقدار الحنق بصدر هذا الشخص حتى يستيقظ قبل الفجر ليُرهب شخصاً آخر؟».

«لا شيء يوقظني قبل الثامنة»، قالتْ ديانا وهي تحمل القرميدة لتلقي عليها نظرةً قريبةً، ثمَّ أضافَتْ: «عدا الإرهاب».

«حاذري»، قلت.

قالت ديانا وهي تقلبها: «إنَّها تحمل رسالةً».

فعلاً، كانَتْ هناك ورقةٌ ملفوفةٌ حولها.

وقفتُ هناك مشدوهةً بلا حراكٍ أحدِّقُ فيها. أكنتُ أرغب في

قراءتها؟ لم أكن متأكدةً، فقد كان ذلك بالتأكيد هو ما يَوَدُّ منّا أن نفعله، وجزءٌ منّي لم يرغبْ في مَنْحِهِ لذّة إخافتنا أكثر ممّا فعل. ماذا لو تجاهلناه؟ ماذا لو رفضْنا أنْ يتمَّ ترهيبنا؟

لم أكن متأكدةً أيٌّ هو المسار الأنسب.

في النهاية، اتّخذَتْ ديانا القرار بدلاً منّي. فكّتِ الشريط وفتحت الورقة، ثمَّ قرأَتْها بصوتٍ عالٍ. «إنَّها تقول: 'استقيلي أيّتها الفاجةُ'». رفعتْ بصرها، ثمَّ عبستْ. «الفاجةُ؟».

انحنَتْ جوسي نحوها وألقَتْ نظرةً. «أظنُّ أنَّه يقصد 'الفاجرة'».

«اااه»، قالت ديانا وهي تتفقّد الورقة مجدَّداً. «لقد نَسِيَ حرف الراء!».

«لا يجيدُ الإملاء»، علّقتُ.

«ولا يجيد استعمال علامات الترقيم، كذلك»، قالت جوسي وهي ترفع الورقة الصغيرة دليلاً. «يجب أنْ تكون هناك فاصلةٌ بعد 'استقيلي'».

أضافتْ ديانا: «وعلامة تعجّبٍ في النهاية من أجل مَنْحِ الجملة مزيداً من التوكيد».

ألقتْ جوسي نظرةً أخرى. «كما أنه لن يفوز بأيِّ جوائزَ تتعلّق بالخطّ، فالتاء المربوطة تبدو غريبةً شيئاً ما... وأقرب إلى الرقم 6».

ثم انخرطَتْ ديانا وجوسي في الضحك، ذاك النوع من الضحك الشاذ الذي تُقدم عليه حين تكون الأمور غير مضحكةٍ، بل عكس مضحكةٍ تماماً، لكنَّه يبقى ضحكاً في كلِّ الأحوال.

«إذاً»، قالتْ ديانا وهي ما تزال تضحك، «ليس مدرِّسَ لغةٍ».

«أو خطّاطاً»، أضافت جوسي.

«والأرجح أنه لم يُنهِ دراسته الابتدائية».

كانتا تضحكان الآن بصخبٍ، فعلى ما يبدو لقدْ قرّرَتا أنَّ الأمر مضحكٌ، وهو ما أثار إعجابي.

لكنّني لم أكنْ أرى أيَّ شيءٍ مضحكٍ في الأمر، وكان وقت مغادرتي قد حان، وفات حتى. كنتُ سأصل متأخّرةً إلى العمل هذه المرَّة. فعليّاً، هذه المرة.

«أنتِ متأخِّرةٌ، يا هانويل»، قال الكابتن مورفي حين دخلت المطبخ، «مجدَّداً».

كان الرفاق جميعهم هناك، وكان دي ستاسيو قد شرع في إعداد الفطور.

لم أردَّ على الكابتن، وعوضَ ذلك، مددْتُ يدي، حاملةً القرميدة. رفعْتُها عالياً فوق رأسي حتى صمتَ الجميع وحظيْتُ بكامل انتباههم.

لن أسكُتَ بعد ذلك، فقدْ بلغ السيلُ الزبا.

تجاهلُ الأمرِ لم يفلحْ، وانتظارُ أنْ يختفيَ من تلقاء نفسه لم يفلحْ أيضاً. لقد حان وقت المرور إلى الخيار النووي.

برغم أنّني لم أكنْ متأكِّدةً ممَّا يعنيه ذلك.

لكنّني سأكتشف ذلك مع تطوُّر الأحداث.

ماذا عساي أفعل غير ذلك؟ أطلب من غرفةٍ كاملةٍ من الرجال أنْ يعاملوني بطريقةٍ ألطفَ؟ هل أُجلسهم جميعاً لأشرح لهم كم كنت أشعر بالغرابة واللاطمأنينة والضعف طوال هذا الوقت، منذ مغادرتي

تكساسَ؟ هل أحدِّثُهم عن الذنب والندم؟ عن الفرص الضائعة؟ هل أبدو ضعيفةً أمامهم؟

الإطفائيون لا يمارسون الضعف.

كانت الحياة في المحطة تتمحور حول عدم كونكَ ضعيفاً. كانتْ تتعلّق بكون المرء صلباً، وشجاعاً، وقوياً. إذا كان أحدهم في حاجةٍ إلى الإنقاذ، تنقذه. وإذا نشبَتِ النيران في شيءٍ ما، تطفِئُها، أكنتَ تشعرُ بالخوف؟ ذلك لا يهمُّ. أكانتْ لك مشاعرُ بخصوص ذلك؟ لا علاقة لذلك بالأمر. تقومُ بعملكَ، وتقومُ به جيِّداً، وذلك كلُّ ما في الأمر. أولئك الذين أرادُوا مصارعة المشاعر المعقدة صاروا معالجين نفسيين، أو شعراء. وأولئك الذين أرادوا إبقاء الأمور بسيطةً، صاروا إطفائيين.

أردْتُ إبقاء الأمور بسيطةً، لكنَّ الحياة لم تكنْ تسمح لي بذلك. أحدهم في المحطة، لأكون دقيقةً، لم يكنْ يسمح لي بذلك.

تقدَّمْتُ نحو رأس الطاولة. «في الساعة الخامسة صباح هذا اليوم، قام أحدهم برَمْيِ قرميدةٍ عَبْرَ نافذة مطبخ والدتي. أحدهم من مناوبتنا هذه، وأريدُ أنْ أعرف مَنْ يكون».

تفرَّسْتُ في وجوههم. بدَوا جميعهم مصدومين، باستثناء المبتدئ، الذي بدا على وجهه غضبٌ عارمٌ، ودي ستاسيو، الذي بدا على وجهه الملل كالعادة. كنتُ آملُ أنْ أتمكَّنَ من رَصْدِ آثار الذنب على أحد الوجوه في الحال، ولكنْ كان عليَّ أنْ أتوقَّع ألّا يكون الأمر بهذا اليُسْرِ.

تقدَّم الكابتن مورفي. «تظنِّينَ أنَّه أحد أعضاء هذه المناوبة؟». بدا جليّاً من صوته أنَّه كان يرى الأمر تُرَّهاتٍ عاريةً عن الصِّحَّة تماماً.

«نعم».

اتّهامي أهانَهم.

تركْتُهم يحسُّون بالإهانة لوهلةٍ، ثمَّ قلتُ: «لم أكنْ أعتزم أنْ أقول شيئاً. كنتُ سأنتظر أنْ يزول الأمر من تلقاء نفسه. أنا لا أحبُّ التشكّي. أستطيع تحمُّلَ ذلك بالطبع، وأنا لستُ هنا من أجل نفسي، لكنَّني أضع خطّاً أحمرَ على رَمْيِ قرميدةٍ عبر نافذة بيت امرأةٍ عجوزٍ. اعبثُوا معي كما تشاؤون... لكنْ أبقُوا أفعال الأنذال هذه بعيداً عن والدتي».

رمشَ الرفاق في صدمةٍ طفيفةٍ بسبب اللغة الَّتي أستخدمها.

«لم يتأذَّ أحدٌ، إذا كنتمْ تتساءلون»، شرعتُ مجدَّداً، «لكنَّ الزُّجاج انتشرَ في المكان كلِّه، ولم يكنْ زجاجاً مدعَّماً، كما أنَّ نافذةً أثريةً جميلةً تمَّ تدميرها».

تفحَّصتُ وجوههم واحداً تِلْوَ الآخر: متعاطفٌ، مهتمٌّ، مصدومٌ.

لكنْ أحدهم هنا مسؤولٌ.

«إذاً، مَنْ كان الفاعل؟» طالبْتُهم، ثمَّ مجدَّداً: «مَنْ منكم، بحقِّ الجحيم، ظنَّ أنَّ ترويعَ عجوزٍ لطيفةٍ فكرةٌ جيِّدةٌ؟ مَنْ مِنْ هذا الطاقم يريد التَّخلُّصَ منِّي بشدَّةٍ، لدرجة أنَّه أقدم على فعل ذلك؟».

«الأمر رهيبٌ»، قال الكابتن، قبل أنْ يردف: «لكنَّ الفاعل لم يكن أحدَنا».

«بل أظنُّ أنَّه كذلك».

«وما يجعلكِ تظنِّين ذلك؟» سأل الحقيبة، وبصوته شيءٌ من الأذى.

بدأتُ أتمشَّى في المكان الآن. «قبلَ بضعة أسابيع، قام أحدهم

بفتح قفلِ خزانتي هنا في المحطَّة، وخربش كلمة 'عاهرة' على الجدار الداخليّ».

نجح ذلك في الاستئثار بانتباههم كاملاً.

«تجاهلتُ الأمر، وحاولتُ مَسْحَ الكتابة، وعلَّقْتُ روزنامةً كرتونيةً من محطَّتي القديمة في أوستن فوق تلك البقعة. لم أشتكِ، ولكنْ بعدها، وخلال هذا الأسبوع، قام أحدهم بتمزيق عجلات شاحنتي، عجلاتٍ بقيمة أربعمئة دولارٍ، وتركَ لي رسالةً على الزُّجاج الأماميِّ تقول: 'انسحبي يا عاهرةُ'».

تبادل الرِّفاق النَّظرات ولسانُ حالهم يقول: **ما الذي يحدث بحقِّ الجحيم؟**

«حسنٌ»، واصلتُ كلامي، «تجاهلْتُ ذلك أيضاً، فلم تكنْ تلك المرَّة الأولى التي يدعوني فيها أحدهم بالعاهرة، على أية حالٍ».

نظرْتُ حولي.

«لكن بعد ذلك، هذا الصباح، والدتي، **والدتي**، يا رفاق».

أجلْتُ بصري. «وهذه المرَّة أيضاً كانت هناك رسالةٌ».

«ماذا قالَتْ؟»، سأل الكابتن.

حملْتُ الورقة أمامهم.

تقدَّم الكابتن ونظر إليها بتمعُّنٍ، ثمَّ قرأها عابساً.

«'استقيلي أيَّتها الفاجة'؟ ما الذي يعنيه هذا؟».

«أظنُّ أنَّها تعني 'الفاجرة'، يا كابتن»، اقترح ضئيلٌ.

«لا يستطيع الكتابة حتى»، قال الكابتن.

حينئذٍ أحسستُ أنَّ حلقي ينغلق، فانتصبتُ في مكاني بلا حراكٍ حتى يمضي الأمر. لن أبكي، أو أسمحَ لصوتي بالانكسار، أو أرتجف حتى. فباستثناء الغضب، كانتْ كلُّ المشاعر غيرَ مقبولةٍ

الآن. كان يجب أنْ تكون هذه اللحظة استعراضاً للقوَّة والتَّحدِّي، ولا شيءَ آخر. لكنَّني سأخبرهم عن والدتي، ربَّما سيجعلهم ذلك يخجلون من أنفسهم ويتصرَّفون بطريقةٍ أفضل. أو ربَّما لن يفعلوا، ولكن، حين أنتهي من كلامي سيعرفون الحقيقة كاملةً على الأقل.

«إنَّها مريضةٌ»، قلتُ، مفاجِئةً نفسي أيضاً بانفجارِ مشاعرَ جيَّاشةٍ في صوتي. «هذا سبب قدومي إلى هنا. لقد فقدَتِ القدرة على الإبصار بإحدى عينيها بعد خضوعها لعمليَّةٍ جراحيةٍ، وبصرُها كَليلٌ بالعين الثانية. إنَّها تعاني من صداع الرأس، وترتدي رقعة عينٍ، وكلُّ إدراكاتها العميقة تخرَّبتْ، فهي تجد صعوبةً في صعود السلالم، ولا تستطيع القيادة بتاتاً. ولهذا أنا هنا».

كان الرفاق صامتين تماماً.

ما كنتُ لأبكي.

تابعتُ: «وأحدهم قام برَمْيِ قرميدةٍ عبر نافذتِها. أحدٌ ما، في هذه الغرفة. شخصٌ نَذَرَ حياتَهُ لمساعدة الآخرين. شخصٌ يُفترَضُ به أنْ يكون بطلاً».

بدأتُ أتمشَّى من جديدٍ.

«لا يهمُّ أنَّني لستُ عاهرةً في الحقيقة، مهما كان معنى تلك الكلمة. لا يهمُّ أنَّ هذا المُتجبِّر اللئيمَ لا يؤثِّر فيَّ البتَّة. ولا يهمُّ حتى أنَّه لا يُوجَدُ سببٌ لكي يلاحقني بهذه الطريقة، فقد بدأ ذلك قبل أنْ يتَّخذَ الكابتن قرارَهُ بالمفاضلة بيني وبين المبتدئ ببضعة أسابيع. كلُّنا نعلم رأيه في النساء. كلُّنا نعلم رأينا جميعاً في النساء. أنا مغادرةٌ، سأغادر قبل أنْ تدركُوا ذلك حتى. على أية حالٍ، أيًّا كان هذا النَّذلُ، فهو يتكلَّفُ عناءً كبيراً لمحاولة تحقيق أمرٍ يكاد يكون مُحَقَّقاً.

إليكم ما يهمُّ: ما يفعله هذا الشخص **باطل**، لا يمكنكَ أنْ تقوم بما نقوم به وترى شتَّى أنواع العذاب التي نراها كلَّ يومٍ لعينٍ، وترغب في خلق المزيد من ذلك في العالم. لا يمكنك أنْ تقوم بما نقوم به، وتعجز عن معرفة الفرق البسيط بين الحقّ والباطل. هذا ما جعلني جدَّ، جدَّ غاضبةٍ».

بدأتُ مجدَّداً: «يفترض بنا أنْ نكون الأبطال. يُفترَض بنا أنْ نكون المساعِدين. أولئك الذين يقدِّمون الرعاية. أنْ نكون الخَيْرَ في هذا العالم. بمَ عسايَ أؤمنُ، بحقِّ الجحيم، إنْ لمْ أؤمنْ بكم؟».

يا إلهي، الآن كانتِ الدموع على وجهي. الأمر مهينٌ.

جعلني ذلك أكثر غضباً.

«أعلم أنَّنا جميعاً بشرٌ، ولا أتوقَّع أنْ تكونُوا مثاليين، لكنَّني أتوقَّع منكم، على الأقل، أنْ تكونُوا أفضل من ذلك».

وكانَتْ تلك اللحظة التي خطرَتْ لي فيها فكرةٌ. ليستْ فكرةً مثاليَّةً، ربَّما ليستْ فكرةً جيِّدةً حتى، لكنَّها كانَتْ أفضل ما كنْتُ أستطيع ابتداعه لحظتها.

«لذا، سأقترح عليكم جميعاً صفقةً»، قلتُ وأنا أمسحُ وجهي مجدَّداً. «اختارُوا أفضلكم، ولنذهبْ إلى الخارج ونتسابقْ على المضمار. سأهزمه، سأهزم أيَّ واحدٍ منكم هنا. سأثبت نفسي لكلِّ واحدٍ منكم، مجدَّداً، وللمرَّة الألف. وإذا لم أستطعْ هزيمتَهُ، سأستقيل. سأستقيل في هذه اللحظة، هذا الصباح، ولن ترَوا وجهي مجدَّداً، وكلُّ مشاكلكم مع كوني فتاةً ستنتهي».

عبس الرجال جميعهم في وجهي.

«لكنَّني سأفوز»، تابعتُ كلامي، «وحين أفعل، سيكون على

هذا النَّذلِ المتربِّص في هذه الغرفة أنْ يتَّخذَ القرار بأنْ يكون شخصاً أفضل... ويُنهيَ كلَّ هذه الألاعيب اللعينة».

نظر الرفاق بعضهم إلى بعضٍ.

«وإذا لم يفعلْ... إذا نجح في طردي من هنا في النهاية؟ على الأقل سيعلم كلُّ واحدٍ منَّا أنَّني كنتُ أستحقُّ أن أكون هنا».

كنتُ غاضبةً للغاية، لكنَّ الرفاق بدَوا آسفين. كانُوا واقفين في ارتياحٍ، لكنْ بعدها، كأنَّهم كانُوا سرباً متماسكاً من الأسماك، تقدَّمُوا جميعهم باتجاهي. بعد ذلك، كان الكابتن، من بين الكلِّ، مادّاً ذراعيه نحوي. «أتعلمين ما تحتاجينه، يا هانويل؟».

«عناقٌ جماعيٌّ»، صرخ الرفاق دفعةً واحدةً، فاتحين أذرعهم أيضاً.

أكانُوا يسخرون منِّي؟ أكانُوا يتهكَّمون؟ بدَوا صادقين للغاية، لكنْ لا يمكن أنْ يكون ذلك صحيحاً. مسحتُ الدموع عن وجهي بِيَدٍ متسرِّعةٍ، ثمَّ أشرْتُ إليهم جميعاً: **ابقَوا بعيدين عنِّي**، ثمَّ قلتُ حين لم يتراجعُوا: «لا تحضنوني، لا أحد في هذه الغرفة يحضن أحداً».

بعد ذلك اتَّخذْتُ بضع خطواتٍ إلى الخلف، كأنَّ إصبعي الموجَّهة نحوهم مسدَّسٌ، وأنا الشريرة التي تحاول الفرار.

واحداً تِلْوَ الآخر، نظرْتُ في عينَي كلِّ رجلٍ في الغرفة.

كان هذا هدفي على ما أعتقد. أنْ أتيقَّنَ أنَّه، مهما حصل، فسيعلم الجميع ما خسرُوه بالضَّبط.

ظلَّ الرجال جميعهم صامتين، يترقَّبون ما سيحدث.

ثمَّ قال الكابتن: «أهذا ضروريٌّ حقّاً؟».

أدلى الحقيبة بدَلْوِهِ: «أنتِ ضئيلةٌ للغاية حتى تتمكَّني من هزيمة أيٍّ كان على ذاك المضمار، يا هانويل».

«لا تفعلي ذلك»، قال العضلات السّتُّ.

«لا أملَ لديكِ في الفوز»، أضاف دي ستاسيو.

حينها تقدَّم الكابتن. «لا أحدَ يريد منكِ أنْ تستقيلي، يا هانويل. ليس عليكِ فِعْلُ ذلك».

لكنْ كان لذلك تأثيرٌ مضادٌّ. «يجب عليَّ فِعْلُ هذا الأمر اللعين. والآن اخترْ أحداً ثمَّ أرسلْهُ إلى الخارج».

وقفتُ بالخارج في موقف السيارات، أتفقَّد المضمار، وانتظرْتُ.

بعد ذلك بدقائقَ، ظهر الكابتن وقال: «كان ذلكَ خطاباً جيِّداً لعيناً بحقٍّ».

انتصبْتُ مكاني بلا حراكٍ، عينايَ مثبَّتتان على المضمار.

«أتعلمين؟ قد يكون شخصاً من مناوبةٍ أخرى».

«مُحتمَلٌ» قلتُ، قبل أنْ أردفَ: «لكنَّه ليس كذلك».

«لا أستطيع تخيُّلَ أنَّ أحدَ رجالنا قد يفعل بكِ ذلك».

«ربَّما كان أنتَ»، تابعْتُ من دون أنْ أنظرَ إليه. «أعلم أنَّكَ أخبرْتَ كابتن محطَّتي السابقة أنَّ وجود النساء في خدمة الإطفاء سيؤدِّي إلى انهيار الحضارة البشرية».

انحنى الكابتن نحوي حتى التقَتْ عيناه بعينَي، ثمَّ قال: «ليس أنا مَنْ فَعَلَ ذلك، يا هانويل. أتعلمين لماذا؟».

هززْتُ كتفيَّ، من دون أنْ أنظر إليه.

«لقد قلتُ ذلك لكابتن محطَّتِكِ السابقة فعلاً، إلَّا أنَّه خلال الوقت القصير الذي أمضيْتِهِ هنا، جعلْتِني أغيِّرُ رأيي».

نظرْتُ إلى الأسفل.

صدَّقْتُه، لكنَّني ما كنتُ لأمنحَهُ لذَّة الإقرار بذلك. «هذا ما تقوله».

«الرفاق لا يودُّون قبولَ تحدِّيكِ. يقولون إنَّك لستِ بحاجةٍ أنْ تثبتي نفسكِ، ويريدون منِّي أنْ أتغاضى عن الأمر».

«لا، لنْ أقبل بذلك».

«ذلك بالضبط ما قلتُه لهم».

«عُدْ إلى الداخل واطلبْ منهم أنْ يختارُوا أحداً إذاً».

«مَنْ يُعطي الأوامر هنا، يا هانويل؟».

«أنتَ مَنْ يفعل، سيدي. لذا عُدْ إلى الداخل وأرِهِمْ مَنْ يُعطي الأوامر».

دخل الكابتن، وبعد دقائق، أرسلوا الحقيبة.

«لا»، صرخْتُ حين لمحْتُهُ، «هذا مُهينٌ».

«أنا مَنْ وقع عليه الاختيار»، وضَّح الحقيبة وهو يهزُّ كتفيه، «تقبَّلي الأمر».

«يا حقيبة»، قلتُ، «أنتَ لن تستطيع التَّسابُق في هذا المضمار حتى لو كانتْ حياتُكَ رهينةً بذلك».

«لذلكَ قمْنا جميعاً باختياري، فلا أحدَ يُريدُكِ أنْ تخسري».

«أنا لن أخسرَ»، قلتُ، قبل أنْ أردف: «والآن عُدْ إلى الداخل واختارُوا شخصاً حقيقياً».

بعد دقائق، خرج المبتدئ.

«لمَ لمْ تتَّصلي بي؟» سأل. كان يقصد القرميدة، على ما اعتقدْتُ.

«ماذا كنتَ ستفعل؟».

حرَّكَ رأسه في حيرةٍ، وهو ينظر إلى المضمار. «لا أعلم، أساعدُكِ في ترتيب المكان، ربَّما».

«ربَّما كنتَ أنتَ مَنْ رماها»، قلتُ حينئذٍ.

«لا يمكنُكِ حقّاً أنْ تظنّي ذلك»، قال وهو يبحث في عينيَّ.

هززْتُ كتفيَّ. «ربَّما كنتَ لطيفاً معي طوال هذا الوقت كي تغدر بي بعدها. ربَّما تتمنَّى في سرِّكَ لو أرحل».

«صدِّقيني»، قال بنبرةٍ ملؤُها الرجاء، «بل عكس ذلك تماماً، أريدُكِ باقيةً».

نظرْتُ بعيداً وأنا أقول بغضبٍ باردٍ: «ما عدتُ أثقُ بأحدٍ».

«لستِ مضطرَّةً للقيام بهذا... لا أحد يريدكِ أن تفعلي ذلك».

«ماذا تفعل هنا على أيَّة حالٍ؟»، سألْتُه، «ألا يُفترَضُ بكَ أن تكون في الداخل، تقرِّرُ معهم؟».

«لقد قرَّرُوا بالفعل».

أدرْتُ وجهي نحوه. «وعلى مَنْ وقع الاختيار؟».

هزَّ كتفيه. «عليَّ أنا».

سمعْتُ لضحكةٍ ممتعضةٍ بالخروج. «بالطبع، سيقع عليكَ».

«ماذا يعنيه ذلك؟»، سأل.

كنتُ أمضي نحو المضمار، وقلتُ من دون أنْ ألتفتَ: «نادِ على الرفاق، فلْننتَهِ من هذا الأمر».

اجتمع الرفاق قرب عارضات تمارين العقلة.

«مَنْ منكمْ لديه ساعة توقيف؟»، سألتُ.

رفع ضئيلٌ هاتفه، وقد أعدَّهُ على نظام ساعة التوقيف.

لم تكنْ خطَّةً مثاليةً، بالطبع، ولكن كان عليَّ القيام بشيءٍ ما، أيِّ شيءٍ.

أخذْتُ أنا والمبتدئ مكانَينا.

كنتُ قد تدرَّبتُ بأقصى ما استطعْتُ من تخفٍّ. تدرَّبْتُ على عناصر من المضمار حين لم يكن أيٌّ من الرفاق في الأرجاء، ومَردُّ ذلك في معظمه إلى عدم رغبتي في أنْ يرَوْني أقوم بشيءٍ لا أجيدُهُ. مرَّتان سنويّاً، قال الكابتن، سنتسابق فيه سويَّةً، ولم أكنْ أرغب في أنْ يتمَّ إحراجي. بل أكثر من ذلك، رغبتُ في أنْ أقضيَ عليهم.

إذاً، الآن فجأةً كان اليوم الموعود.

إنَّها اللحظة التي سأرى فيها إنْ كان ذاك التدريب السِّرِّيُّ والباركور الذي تعلَّمْتُهُ بنفسي سيُفلحان.

الحاجة دوماً أمُّ الاختراع.

شاهدتُ الرفاق يجتازون المضمار من قبل. حين كانوا يقفزون للإمساك بالعارضة، كانوا يتشبَّثون بأيديهم ويرفعون أجسادهم ضدَّ الجاذبية. إلَّا أنَّ القفز وإمساكَ العارضة لم يكن خياراً مُتاحاً بالنسبة إليَّ، فالطريقة الوحيدة لأن يبلغ شخصٌ بحجمي تلك العارضة كانت الجريَ عموديّاً على الحائط ثمَّ القفز والالتفاف.

كانَت تلك الطريقة الوحيدة بالنسبة إليَّ، وكانتْ طريقةً أفضل كذلك.

سيتولَّى زخم القوة الدافعة جُلَّ العملِ من أجلي. لم أكن لأزحفَ فوق العارضة بقدر ما سأكون ممسكةً بها وأنا أمرُّ من فوقها. يبدأ الرفاق ورؤوسهم أسفلها، إلَّا أنَّ استعمال العمود ليكون نوعاً من منصَّات الوثب سيساعدني على إمساك العارضة ورأسي فوقها، ثمَّ بعد ذلك يتبقَّى أنْ أقفز، وأطوي جسدي ممسكةً العارضة عند وسطي، فأستطيع الدوران عليها والسقوط في الجهة المقابلة.

استعملْتُ إحدى صِيَغ الجَرْيِ على الحيطان للتَّعامُل مع كلِّ بناءٍ

عالٍ في المضمار، محوِّلةً اتِّجاه قوَّتي الدافعة من الأمام إلى الأعلى. استعملْتُ قفزة القط للمرور فوق حائطٍ بعلوِّ مترين ونصف، واستعملْتُ قفزتَي اللّص والكسول للمرور فوق معظم الحواجز، مضيفةً قفزة مباغتة للعالية منها.

مَنْ قال إنَّ ساعات مشاهدة اليوتيوب ذهبتْ سُدًى؟

واستعملتُ تقنية التأرجح التي تدرَّبْتُ عليها لعبور العارضات المتوازية الثماني، ممّا جعلني أربح وقتاً ثميناً. كان الرِّفاق يتدلَّون من العارضة، ثمَّ يرفعون يداً للتَّشبُّث بالعارضة التي تليها، ثمَّ يطلقون اليد الأولى. لم يكن ذلك خياراً وارداً بالنسبة إليَّ، لأنَّ ذراعيَّ لم تكونا طويلتين كفايةً لألمس العارضتين في الآن ذاته، فكان عليَّ دفع جسدي باستعمال ساقَيَّ و«التَّحليق» من عارضةٍ إلى أخرى. وإذا نجحْتَ في التَّحرُّكِ بالوتيرة المناسبة، فلن تخفَّ سرعتكَ أبداً، فقط تمسَّكْ جيِّداً أسفل العارضات، بذراعين ليِّنَتَي الحركة.

على عكسي، الرفاق لم يكن عليهم اللجوء إلى التحليق أبداً.

وحتى هبوطي كان أفضل. فكان الرفاق يسقطون، فيمتصُّون جزءاً من الصدمة بِرُكَبِهم، ثمَّ يواصلون حركتهم إلى الأمام. أما أنا فأسقط مثل قطٍّ وأقوم فوراً، مستغلَّةً ذلك الزخم لدفع نفسي إلى الأمام.

لذا كنتُ أشعرُ بثقةٍ عاليةٍ وأنا أقفُ هناك على وشك أنْ أبدأ.

كان أوين أصغر الرفاق سنّاً، وعلى الأرجح أعلاهم لياقةً بدنيَّةً.

لكنَّني، برغم ذلك، كنتُ أستطيع التَّغلُّب عليه.

قام الحقيبة بجلجلةِ أنبوبٍ معدنيٍّ على آخر مانحاً إيَّانا إشارة الاستعداد للانطلاق.

«انطلاقٌ»، صرخ، فانطلقْنا.

لم أنظر ناحية أوين، انطلقْتُ فقط: أرتفعُ وأرتدُّ، ألتفُّ، وأقفز نحو تقدُّمٍ كبيرٍ عليه قبلَ أنْ نبلغ نصف المضمار حتى.

مررْتُ عبر المضمار مثل مُحترفةٍ. كان الأمر أقرب إلى تصميم رقصة باليه من أيِّ شيءٍ آخر، فتأرجحْتُ على العارضات الأفقية، والْتففْتُ حول كلِّ الحواجز من دون أن أخفِّف من سرعتي، واعتليْتُ حائط المترين ونصف من دون أدنى تذبذبٍ.

أعلى الحائط، ومع تبقِّي تسلُّقِ الحبل فقط، كان لي تفوُّقُ دقيقةٍ كاملةٍ على المبتدئ.

لكنّي هبطتُ بطريقةٍ خاطئةٍ.

ربَّما كان زخم قوَّتي الدافعة أكبر من اللازم. ربَّما تشتَّت انتباهي بفِعْلِ وجود كلِّ الرفاق هنا لمشاهدتي، لكنَّ اللحظةَ التي لمسْتُ فيها الأرضية على الجانب الآخر من الحائط، وعِوَضَ أنْ أغيِّر وضعيَّتي إلى لفَّة باركور، علقَ جانبُ قدمي وأحسستُ بها تلتوي تحتي.

سمعْتُ بعد ذلك صوت فرقعةٍ خافتةٍ.

أحسستُ بالألم يُشيط دماغي ثمَّ يعود أدراجه نحو الأسفل، وسأعترف: لقد زعزع ذلك توازني. قمتُ بتقييمٍ ذاتيٍّ سريعٍ: إنَّه خلعٌ بكلِّ تأكيدٍ، وربَّما يكون كسراً. سمعتُ طنيناً على يميني والتفتُّ لأرى أوين وقد اعتلى حائطه ثمَّ تجاوزه وسقط، فانطلقتُ في جَرْيٍ محمومٍ، وأنا أعرج بشدَّةٍ، بينما كان يجري بتضعضع خلفي.

العقبة الأخيرة: تسلُّق الحبل.

لم يكنِ الباركور لينفعَني كثيراً هنا، فقدْ كان الأمر يستدعي التِّقنيَّة الكلاسيكية: لفَّ الحبلِ حول إحدى القدمين. سبق أنْ قمتُ

بذلك من قبل، ولكنْ هذه المرة لم يكنْ كاحلي المصاب ليعملَ جيّداً: آمُرُهُ بأنْ يدفع، لكنَّه لا يستجيب.

كان للمبتدئ امتيازٌ كبيرٌ عليَّ هنا، فلم يكنْ له كاحلان يعملان جيّداً فقط، بل كان له كتفان عريضان أيضاً. كنتُ قويَّةً جدّاً بالنسبة إلى امرأةٍ، لكنَّ كتفيه كانتا بضعف حجم كتفيَّ. ولم تكن هناك طريقةٌ فعليَّةٌ لأتغلَّبَ عليه في تسلُّق الحبل، لكنَّني ما كنتُ لأستسلمَ.

كنَّا - أنا والمبتدئ - نتسلَّق الحبل بأقصى ما نستطيع من جهدٍ، ندَّا لندٍّ، حين تخلَّيْتُ عن ساقَيَّ وشرعْتُ في التَّسلُّق باستعمال ذراعيَّ فقط، يداً فوق يدٍ، تاركةً باقي جسمي متدلِّياً في الأسفل. كان الأمر أصعب وأبطأ، لكنَّه كان خياري الوحيد، والحقيقة أنَّه سبقَني إلى القمَّة. ولكنْ بعد ذلك، وفي تسرُّعه في الهبوط إلى الأرض والقيام ليتوجَّه نحو خطِّ النهاية، هبط أسرع ممَّا يجب، فخبط الأرض بقوَّةٍ وسقط على جانبه. سقطْتُ بسرعةٍ أيضاً - والحبل قد ألهبَ راحتيّ وأنا أنزل - لكنَّني لم أفقدْ توازُني قَطُّ، بل هبطْتُ على رجلٍ واحدةٍ، في اللحظة التي كان يحاول فيها أنْ يقوم مجدَّداً، وانطلقْتُ أجري، متجاهلةً الألم الحارق الذي ينبع من كاحلي ويمتدُّ حتى خصري، ولم أتوقَّفْ حتى اجتزْتُ خطَّ النهاية قبله بثانيتين اثنتين.

ثم إليك الأمر الأغرب بخصوص الفوز في ذلك السباق: لم يكنْ هناكَ أيُّ تشجيعٍ، أو عناقٍ، أو أكفٌّ مرفوعةٍ في انتظاري لأضربَ كفِّي بها. كلُّ ما كان هناك هو أنا، وخفقان قلبي، وكاحلي الحارق المُستعرُ، وأنا أتهاوى على الأرض ويتجمهر حولي طاقمٌ كاملٌ من الإطفائيين في عدم تصديقٍ، وإعجابٍ وتقديرٍ... وربَّما القليل من الاحترام.

«أتحسِّين بالألم؟»، سأل العضلات السِّتُّ.

كان الألم رهيباً، لكنّني قلتُ: «لا».

«سنحتاج إلى مُسعفٍ»، نادى الحقيبةُ، فرفع كلُّ الرفاق أيديهم متطوّعين.

«دعوني أخمّنْ...»، قلتُ وأنا أعلم ما سيفعلون، «ستجعلون المبتدئ يتولّى ذلك».

وذلك بالضبط ما فعلوه.

حملني العضلات السّتُّ والحقيبة من ذراعَيّ حول كتفيهما، وساعداني على الرجوع إلى المحطّة، بينما مضى ضئيلٌ بحثاً عن عكّازَين.

أكنْتُ قد حللْتُ كلَّ مشاكلي المتعلّقة بالمتربّص؟

ربّما لا.

لكنّني نجحْتُ في إبهار الرفاق. لقد عطبْتُ نفسي لفعل لذلك، لكنّني أبهرْتُهم.

بل وأفضل من ذلك: لم يرغبْ أيٌّ منهم في أنْ يراهن ضدّي.

اغتبطْتُ جدّاً بسماع ذلك.

«لم تكوني لتستقيلي فعلاً، أليس كذلك؟»، سأل الحقيبة.

«بلى، كنت سأفعل»، أجبْتُ بنبرةٍ جادّةٍ وقويّةٍ.

«ما كنتُ لأقبلَ استقالتَكِ»، قال الكابتن.

«ربّما ليس في هذا الأسبوع»، قلتُ مذكّرةً إياه بالخيار الذي ما زال عليه القيام به.

في الداخل، عاد الرفاق إلى مشاكساتهم وصَخَبِهم المعتادين، وقد بدؤوا يَقصُّون ما حدث، ويتخيّلون كيف كان الأمر سيكون لو أنَّ الحقيبة كان منافسي، ويصيحون لفكرة بطنِهِ المدوَّر وهو يحاول تمريرَه فوق تلك الحواجز.

أخذ أوين يعالج كاحلي.

ومع تعالي صخب الرفاق، بدا أنَّ رُكْنَنا - أنا وأوين - يصير أكثر هدوءاً.

شاهدتُ يديه تحزمان أكياساً باردةً حول كاحلي.

«أأنتَ بخيرٍ؟» سألْتُه.

«بخير»، أومأ إليَّ، ثمَّ سأل: «هل أنتِ بخيرٍ؟».

«بخيرٍ تماماً».

ابتسم المبتدئ. «كان ذلك مذهلاً، بالمناسبة. كيف تعلَّمْتِ القيام بكلِّ ذلك؟».

رفعتُ كتفَي. «يوتيوب».

وبينما كنتُ أراقبه وهو يعمل، ظلَّ عقلي يعيدُ اللقطة ذاتها من السباق، تلك اللحظة التي سقط فيها أسفل الحبل. شيءٌ ما بخصوص الطريقة التي سقط فيها بدَا لي شاذّاً شيئاً ما.

«لماذا سقطْتَ أسفلَ الحبل؟»، سألْتُهُ حينها بصوتٍ خفيضٍ.

أبقى رأسه مطأطأً وهو يلفُّ الضِّماداتِ حول كاحلي.

«اصطدمْتُ بالأرض أقوى ممَّا كان يجب، على ما أظنُّ».

«هل آذيتَ نفسَكَ؟».

أبقى رأسه في الأسفل، لكنَّهُ حرَّكَهُ نافياً. «لا».

«غريبٌ»، علَّقْتُ.

«محظوظٌ»، قال من دون أن يرفع رأسه.

كنتُ أدقِّقُ النظر فيه. «لو أنَّكَ لم تسقط في تلك اللحظة، لكنتَ فزتَ بالسباق».

قال ورأسه ما زال مطأطأً: «ما كنتِ لتعرفي».

«يا مبتدئُ»، سألتُ حينئذٍ بصوتٍ خفيضٍ للغاية: «هل سقطْتَ عمداً؟».

انتهى من لفّ الضمادات وإلصاقها، ثمَّ رفع رأسه ونظر إلى عينيَّ مباشرةً، فعرفْتُ الإجابة.

«يا مبتدئُ»، قلتُ وأنا أستعدُّ لتوبيخه.

لكنَّهُ انحنى نحوي وهمس: «لم يكن هناك أدنى مجالٍ لأسمحَ لك بالاستقالة من خدمة الإطفاء اليوم. أنتِ تستحقِّين الفوز، وقد حصلتِ عليه. والآن اصمتي».

كنتُ سأقبّله.

كما كنتُ سأجادله كذلك.

كنتُ سأصرُّ على أنْ يعترفَ بكلِّ شيءٍ أمام الرفاق. كنتُ سأطالبُ بإعادة السباق، في وقتٍ لاحقٍ، حين يتعافى كاحلي.

لكنْ لم تُتَح لي الفرصةُ للقيام بأيٍّ من ذلك.

فقبل أنْ أتمكَّنَ من الإجابة، رنَّ هاتفي. كان الهاتف في حقيبتي، فالعضلات السِّتَّ جلبه إلي.

كانَتْ جوسي على الطرف الآخر من الخطّ. «أهلاً»، قلت.

«أهلاً. آسفةٌ للاتِّصال بك في العمل».

«لا عليكِ»، قلتُ، لكنَّني أحسستُ أنَّ شيئاً ما لم يكنْ على ما يُرامُ.

«الأمر يتعلّق بديانا»، قالَتْ جوسي، ثمَّ أضافَتْ بعد ثانيةٍ: «لقد سقَطَتْ». صمتَتْ مجدَّداً بحثاً عن وصفٍ أدقَّ: «في الحقيقة، ليس ذلك ما حدث، لقد سقطَتْ إثرَ نوبةٍ».



سقطتْ والدتي إثرَ نوبةٍ.

في العادة، كانَتْ كلمةٌ مثل «نوبةٍ» ستحفِّزُ نظام الهدوء وسط العاصفة في دماغي.

لكنْ، لم يكن ذلك ما حدث هذه المرة.

لطالما كنتُ في أفضل أحوالي وقتَ الأزمات، لكنَّني لم أكن كذلك اليوم.

هذه المرة كان الأمر أشبه برؤية البرق يلتمع في السماء، ثمَّ تسمع بعدها دويَّ الرعد، فانتشر الرعب في صدري، ثمَّ سمعتُه في صوتي: «ماذا حصل؟».

«كانتْ تقوم بإعداد الفطور، فراودَتْها نوبةٌ وسقطَتْ على الأرضية، لكنَّها ضربَتْ رأسَها على المنضدة قبل ذلك».

اشتعلَتْ كلُّ دارات دماغي ليصير مثل مصباحٍ مضاءٍ. «هل اتصلت بخدمة الطوارئ؟».

«أجل، نحن الآن في المستشفى، مقاطعة روكبورت».

كانت تلك المنضدة من الجرانيت. «هل أصيبَتْ بارتجاجٍ؟».

«إنَّهم يقومون بتقييم وضعها الآن»، قالت جوسي، ثمَّ تردَّدَتْ

قبل أنْ تضيف: «الديها كدمةٌ على جبينها بحجم تفَّاحةٍ».

«كدمةٌ في الخارج أفضل بكثيرٍ من كدمةٍ في الداخل»، قلتُ مُطَمْئنةً إيَّاها، ونفسي كذلك.

بدَتْ جوسي مرتبكةً للغاية. «كانتْ تُعِدُّ خبز توستٍ فرنسيٍّ»، قالَتْ بصوتٍ مرتابٍ وهي تستحضر ذكرى ما حصل، «ثمَّ تجمَّدَتْ في مكانها لوهلةٍ، وسقطَتْ بعد ذلك، كأنَّها انطفأَتْ فجأةً. حدث كلُّ ذلك بسرعةٍ رهيبة، وكان صوت ارتطامها بالمنضدة...». لمْ تكمل الجملة، وصَدَرَ عنها صوتٌ شبيهٌ بالنشيج. «جريْتُ نحوها، لكنَّني لم أعرفْ ما يجب عليَّ فعلُهُ. لم أرَ قطُّ شيئاً مثل ذلك في حياتي».

«لقد كانَتْ محظوظةً لكونِكِ في المكان». «كم استمرَّ ذلك؟».

«لا أعلم»، قالتْ جوسي، «دقيقتين؟ ثلاثاً؟ بدَتْ لي ألْفاً»، ثمَّ سألَتْ وهي تكاد ترجوني: «أتستطيعين القدوم؟ الآن؟».

«بالطبع»، أجبْتُ. «أنا في طريقي».

قبل أنْ أضغط الزِّرَّ الأحمرَ على الشاشة حتى، كان أوين يساعدني على النهوض. عَلِمَ أنَّ شيئاً ما لم يكنْ على ما يُرامُ، لكنَّه لمْ يسألْ. مدَّ لي العكازين اللَّذين وجدهما ضئيلٌ.

مضيْتُ بهما نحو الرفاق الذين كانُوا ما يزالون متحلِّقين حول الطاولة. أحسسْتُ بكامل جسدي متذبذباً، لكنَّني أجبرْتُهُ على العمل بطريقةٍ سويَّةٍ، على طريقة: **العقل قبل البدن**.

«أأستطيع التَّحدُّث إليكَ، يا كابتن؟»، سألْتُ.

صمت الرفاق جميعهم. أدركُوا مَسْحَة الذُّعر في صوتي، واستدارُوا جميعاً باتِّجاهي.

أدرك الكابتن ذلك هو الآخر، «تفضَّلي».

فقلت: «سقطَتْ والدتي إثرَ نوبةٍ».

أومأَ إليَّ بملامح في منتهى الجدِّيَّة: «هل هي في مستشفى فيرمونت؟».

«نقلُوها إلى مستشفى مقاطعة روكبورت».

أومأ الكابتن مجدَّداً ثمَّ قال: «سنغطِّي مكانك، يا هانويل. اهتمِّي بما يجب عليك القيام به، وسنستدعي شخصاً من المناوبة 'ب'».

«شكراً لك»، قلت.

وبينما كنتُ أعرجُ في هذين العكَّازَين محاولةَ الإسراع، نادى عليَّ الكابتن، «هانويل!».

التفتُّ نحوه.

«أيُّ شيءٍ تحتاجينه، أيُّ شيءٍ على الإطلاق... فهو لكِ».

ثمَّ أخبر الحقيبة أنْ يُرافقني، وأنْ يُشعلَ الأضواء والصُّفَّاراتِ.

في المستشفى، كانَتْ جوسي تنتظر عند باب غرفة والدتي، وهي تحتضن بين راحتيها كوب شايٍ ورقيّاً بقصاصةٍ تتدلَّى من أحد جوانبه.

«ماذا حدث لكِ؟»، قالتْ حين رأتِ العكَّازين.

«مجرَّد الْتِواءٍ طفيفٍ»، قلْتُ، قبل أنْ أردف: «لا تشغلي بالك على الإطلاق».

تقدَّمْتُ نحو الباب المُغلَق، لكنَّ جوسي همسَتْ: «إنَّها نائمةٌ الآن».

«هل أخبروكِ بأيِّ شيءٍ بخصوص التقييم؟»، سألْتُها.

ردَّتْ جوسي: «لا تُوجَدُ إصابةٌ في الرأس يستطيعون رؤيتَها».

«هذا جيِّدٌ»، قلتُ وأنا أومئ مؤكِّدةً.

«يريدون إبقاءها هنا الليلة»، واصلَتْ، «من أجل مراقبة حالتها».

بدَتْ جوسي مهتزَّةً. كانَتْ تبدو عليها تلك الشِّدَّة التي تنتاب الناس خلال أوضاع الطوارئ، حين يكون كلُّ تفصيلٍ بالغَ الأهمية. لم تكن الساعات القليلة الماضية سهلةً على الإطلاق. لا يكون ذاك النوع من التَّوتُّر جيِّداً مُطلقاً، أمّا حين تكونين حاملاً في الثُّلث الأخير، فربَّما يكون الأمر أسوأ بكثيرٍ.

رؤيتها بثَّتْ فيَّ باعثاً قويّاً استسلمْتُ له، فتطوَّعْتُ لعناقٍ لأوَّل مرةٍ منذ عقدٍ من الزمن.

«لقد أبليْتِ بلاءً رائعاً»، قلتُ وأنا ألفُّ ذراعيَّ حولها وأعتصرها داخلهما. «قمْتِ بعملٍ جيِّدٍ»، أكَّدْتُ مجدَّداً.

قالتْ حين أفلتُّها: «كنتُ في حاجةٍ إلى ذلك».

ابتسمْتُ في وجهها. «يلزمني بعض التدريب والممارسة».

«لكنَّكِ موهوبةٌ».

«اذهبي إلى البيت الآن»، قلتُ حينئذٍ، «احظَي ببعض الراحة. لقد أمضيْتِ يوماً شاقّاً حتى الآن».

أومأَتْ جوسي. «لا تستهويني المستشفيات».

«سأتولَّى الأمر»، قلتُ محاوِلةً أنْ أظهرَ مرتاحةً أكثرَ بكثيرٍ ممَّا كنْتُ عليه، «أنا أقوم بمثل هذه الأمور كلَّ يومٍ في العمل».

أخذَتْ جوسي يدي وأمسكَتْها، ثمَّ ضيَّقَتْ عينيها ودقَّقَتِ النظر فيَّ كأنَّها كانَتْ تتَّخذُ قراراً، ثمَّ قالت: «أتعلمين؟ لقد اِلْتقَتْ».

عبسْتُ في وجهها، ظننْتُ أنَّها ما زالت تتحدَّث عن النوبة: «اِلْتقَتْ؟».

«يوم عيد ميلادكِ. يومَ رحلَتْ. لقد قادَتْ سيَّارتَها ساعاتٍ، ودموعُها تنهمر طوال الطريق، حتى توقَّفَتْ أخيراً في مكان ما بولاية

أركانساس وقرَّرَتْ أنْ تعود أدراجها. لم تستطعِ المضيَّ قدماً. لم تستطع الرحيل. توقَّفَتْ في إحدى محطّاتِ الوقود، وقرَّرَتِ اتّخاذَ اتّجاه الجنوب عِوَضَ الشمال في تقاطع الطريق القادم.

وهي ما تزال في المحطّة، تلقَّتِ اتّصالاً من والاس. كان قد اتَّصل ليتفقَّدَها فحسب، لِيُلقيَ التحية لا أكثر، لكنَّ سماعَ صوتِهِ أوقفَها. وقفَتْ هناك بضع دقائق بعدَ أنْ أقفلا الخطَّ، ثمَّ اتَّخذَتْ قرارَها: لن تدعَهُ يواجهُ كلَّ ذلكَ وحدَهُ».

«وواصلَتْ طريقَها»، علَّقْتُ.

أومأَتْ جوسي. «كان في حاجةٍ إليها».

قلتُ، بما يشبه الهمس: « أنا كنتُ في حاجةٍ إليها».

«لكنْ أنتِ كان لديكِ والدكِ، فأقنعَتْ نفسها أنَّكِ ستكونين بخيرٍ».

أحسسْتُ بحلقي يتصلَّب. يا إلهي، ماذا لو التفَّتْ وعادَتْ أدراجها؟ ماذا كان سيحصل لو أنَّها ظهرَتْ مجدَّداً في البيت تلك الليلة؟ أكانَتْ حياتي ستأخذُ شكلاً مُغايراً تماماً لما هي عليه الآن؟

لكنَّ ذلك لم يكنْ سؤالاً حقيقياً، فحتى لو كانت قد عادَتْ حينها، فكان الأوان قد فات. حتى حين توقّفت في أركانساس لترى أيَّ قرارٍ تتَّخذُ، كنتُ قد اتَّخذْتُ قراراتي الخاصة.

لم يكنْ أيُّ شيءٍ ليغيِّر الواقع. لم تكن هنالك احتماليةٌ لقصَّةٍ مختلفةٍ.

كانَ هناكَ ما حدث فقط، وكيف أواصل بعد ذلك.

رفعتُ رأسي لأرى جوسي وهي تبتسم في وجهي. مدَّتْ ذراعها وأدخلَتْ خصلةَ شعرٍ خلف أذني. «لقد كانَتْ تعتقد أنَّكِ ستكونين بخيرٍ»، قالَتْ قبل أنْ تضيف: «وقد كانَتْ مُحقَّةً».

كانَتْ جوسي قد خرجتْ للتَّوِّ حين وقف طبيبٌ بجانبي.
«هل أنتِ الإطفائية؟»، سأل الطبيب وهو يدقِّقُ فيَّ النظر.
«أنا الإطفائية»، قلتُ وأنا أدقِّقُ فيه النظر بالطريقة ذاتها.
«لقد أخبرَتْني عنكِ».
كانَتْ رؤوس بضع شعيراتٍ سوداءَ تخرج من فتحة أنفه اليُمنى.
«ماذا حصل؟»، سألْتُ وأنا أحدِّق بها.
«الأمر شائعٌ في مثل حالتها»، قال. «أنا متفاجئٌ أنَّه لم يحصل من قبلُ».
نظرْتُ إليه بتركيزٍ. «تقصد حالة عينها؟ العمى؟».
«كانَتْ نوبةَ فص صدغي»، أكَّدَ لي. «هذا يفسِّرُ الهلوسات والرؤية المشوَّشَة بعد ذلك. وآلام الرأس أيضاً. كلُّ ذلك شائعٌ للغاية فيما يتعلَّق بهذه المنطقة من الدماغ».
هَلْوَساتٌ؟ رؤيةٌ مشوَّشةٌ؟
قلتُ: «لا أفهم كيف أنَّ العمى بعينٍ واحدةٍ قد يؤدِّي إلى حدوث نوبات دماغية».
عقَدَ حاجبيه. «ليسَتِ العين هي ما يُحدِثُ النوبات، إنَّه الورمُ».
توقَّفْتُ عن التَّنفُّس.
لم أتنفَّسْ، ولم أرمشْ.
تجمَّدْتُ في مكاني، وأحسسْتُ بالوقت يتوقَّفُ عن الجريان.
الورمُ؟
رافقني الطبيب إلى حاسوب في الرواق، ثمَّ عرض صُوَرَ الأشعة المقطعية على الشاشة. رسم بقلمه دائرةً حول بقعةٍ بيضاءَ بحجم كرة بينغ-بونغ داخل جمجمة أمِّي، كأنَّ أيَّ أحدٍ له عينان كان سيخطئها، وأشار إليَّ للدُّنوِّ منه. ولو كانَتْ لديه أيَّة هواجس بشأنِ السِّرِّيَّة التي

تطبع علاقة الطبيب بمريضه، أو بشأن كونها لم تخبرِ ابنتها الإطفائية بالوضع داخل جمجمتها، لما أشار إلى أيٍّ من ذلك.

«اللعنة»، قلتُ، فلاحظتُ أنني أشعر بالإحساس نفسه الذي راودَني حين اتَّصلَتْ بي جوسي وأنا في المحطّة. ليس الوضوح، وإنَّما نقيض ذلك تماماً.

أومأ إليَّ. «إنّه أمرٌ عجيبٌ».

لم أعلم بِمَ أجيب، لكنَّني أحسسْتُ أنَّه يجب أنْ يكون لديَّ شيءٌ لأقوله، من ناحيةٍ مهنيّةٍ على الأقل. تصفَّحْتُ معرفتي بأنواع الأورام الدماغية، وسألتُ: «وَرَمٌ أروميٌّ دِبْقِيٌّ؟».

حرَّكَ رأسه نافياً. «ليس ورماً أوَّليّاً، وإنَّما هو ثانويٌّ. عودةٌ لورمٍ ميلانينيٍّ بعد سنواتٍ، لكنَّه الآن كبيرٌ كفايةً ليستطيع التَّأثير في الدماغ».

ماذا؟ كان لديها ورمٌ ميلانينيٌّ؟ لطالما قامَتِ المستشفيات بخلط صور المرضى طوال الوقت، فربَّما كان هذا الطبيب يتحدث عن امرأةٍ مُسنَّةٍ أخرى تضع رقعةَ عينٍ منزلية الصنع.

«أهو خبيثٌ؟»، سألتُ بعد بضع ثوانٍ.

«نعم، هو كذلك»، أجاب الدكتور.

بدا أقرب إلى التَّحمُّس بخصوص الأمر، وتفهَّمْتُ ذلك. فحين ترى مثل هذه الأمور طوال الوقت، تبدأ النظر إلى الأشخاص خلفها بطريقةٍ روتينيةٍ.

رجعتُ إلى الخلف قليلاً.

«أقول إنَّهُ تتبقَّى لها بضعةُ أشهرٍ»، قال الطبيب وهو ما زال يحدِّق في شاشة الحاسوب، «سنةٌ على أكثر تقديرٍ».

أحسسْتُ بهوَّةٍ في صدري. **سنةٌ على أكثر تقديرٍ.**

وجَّه الطبيب نظره إليَّ أخيراً، وتفرَّس في وجهي، وبدا أنَّه تذكَّرَ أنَّه يتحدث إلى كائنٍ بشريٍّ، فقال: «أنا آسفٌ. يبدو أنَّها لم تخبرْكِ».

«لا، لم تخبرْني»، أكَّدْتُ له، مُبقيةً عينيَّ على صور الأشعة أمامي، كأنَّني كنتُ أقرَؤُها. لكنَّني لم أكنْ أفعل.

بدا لي الأمر قمَّةً في الفظاظة أنَّه لم يكلِّفْ نفسه عناء تشذيب شعيرات أنفه قبل أنْ يُلقيَ أخباراً كتلك، كأنَّها كانتْ لحظةً اعتياديةً من يومٍ اعتياديٍّ آخرَ.

حدَّقَ الطبيب في صور الأشعة وهو واقف بجانبي، لكنَّني شعرت أنه لم يكن يقرؤها هو الآخر.

أحسسْتُ بشيءٍ من الأسف تجاهه، فلم يكن يتوقَّع وهو يظهر في المكان أنَّه سيقوم بإخبارِ فردٍ من العائلة بخبرٍ كهذا. كنتُ أعرف بماذا يُشعِرُكَ ذلك، وكيف يُزلزلُ كامل نظامك الداخلي. كنتُ أعرف كيف يجب أن تُثبِّتَ دواخلَكَ من أجل القيام بأمرٍ كهذا، وتُقْدِمَ عليه محصَّناً تماماً. كانَتْ تلك اللحظات التي لا تتوقَّعُها هي أكثر ما يظلُّ يطاردُكَ بعدها.

لقد ألقيْتُ أخباراً سيِّئةً لمئات الأشخاص على مرِّ السنين. كانُوا ينهارون على الأرض أحياناً، ويصرخون أحياناً، أو ينفجرون في نشيجٍ طويلٍ. ويدخلون في صمتٍ مريبٍ أحياناً أخرى. وحدث مرَّةً أنَّ امرأةً صفعَتْني من أثر الصدمة.

للحظةٍ، شردْتُ أفكِّر فيما كان الطبيب يشعر به في تلك اللّحظة، أكثرَ ممَّا كنتُ أشعرُ أنا به، حتى انتشلني صوته من أفكاري. «حسنٌ، الخبر الجيِّدُ هو أنَّها تبدو بصحَّةٍ جيِّدةٍ، إلى القدر الذي نستطيع معرفته».

أحسسْتُ بالأسف تجاهه في تلك اللحظة بالذات، وهو يحاول

أنْ يجدَ أخباراً جيدةً. لكنَّني أحسسْتُ بأسف أكبر تجاه نفسي، لأنَّه لم تكن هنالك حقاً أيَّةُ أخبارٍ جيِّدةٍ.

مضى الطبيبُ إلى الغرفة بعد ذلك، لكنَّني بقيتُ في الرواق. لا أذكر أنَّني ودَّعْتُه، أو شكرْتُه، أو قلتُ أيَّ شيءٍ آخر، فكلُّ ما أذكره هو الشعور الحارق بالتنافر الإدراكيِّ. شخصٌ غريبٌ وبجملةٍ واحدةٍ غير متوقَّعةٍ، قام للتَّوِّ، وبطريقةٍ لا رجعة فيها، بتغيير قصَّة حياتي إلى الأبد.

في طريقي إلى المستشفى، فكَّرتُ في تصوير كاحلي بالأشعة السينية، ولكنَّ كاحلي نُسيَ الآنَ. سأبالي بأمره لاحقاً، إذا لم يتحسَّنْ. كان ذلك كلَّ ما أستطيع القيام به لترك الأخبار تتسرَّب إلى دواخلي. لم يستطعْ عقلي استيعابها، فقدْ كان الأمر أشبه بضبابٍ أبيضَ داخل رأسي حيث تَحدُثَ عمليَّة الفهم.

سنةٌ على أكثر تقديرٍ.

كانَتْ تعلم طوال هذا الوقت. كانتْ تعلم ولم تخبرْني. أحسسْتُ بركبتيَّ ترتجفان، ولأنَّني لم أكنْ مستعدَّةً لمواجهتها، فقدْ وجدْتُ مكاناً مخصَّصاً للجلوس في الممرِّ. لم يكنْ عقلي قادراً على الفهم، لكنَّ جسمي فعل.

لَمَ لمْ أحاول بجهدٍ أكبرَ؟ لَمَ لمْ أطالبْها برؤية تلك العين؟ كلُّ الإشارات بدأتْ تتَّخذ أمكنَتَها لتشكِّل الصورة الكبرى، وأحسسْتُ بالغباء لأنَّني لم أجمِّعْ أجزاءها بسرعةٍ أكبرَ. كنتُ قد رأيْتُ كلَّ الأجزاء، لكنَّني رفضْتُ أنْ أجمِّعَها.

ربَّما لمْ أكنْ أرغب في ذلك، فالأمور تكون مختلفةً أحياناً حين يكون القلب معنيّاً بها.

لكنّني أعلمُ الآن.

كنتُ في حاجةٍ إلى التفاصيل. كنتُ في حاجةٍ إلى مخطَّطات مرضِها وتاريخه، ومعلوماتٍ أكثرَ دقّة. أردْتُ رؤية كلّ صور الأشعة، والحصول على سجلّات الجراحة. أردْتُ جَمْعَ كلّ ذلك وفرشه فوق طاولة المطبخ مثل شيفرةٍ أستطيع قراءَتَها أفضل وأذكى من أيِّ شخصٍ آخر، وحلَّها من أجلها. كنتُ في حاجةٍ إلى معرفة ما كان يجري. كيف كان باستطاعتي مساعدتها إذا لم أكن على درايةٍ بكامل القصة؟

جزءٌ منّي فَهِمَ أنَّها تخطَّتْ مرحلة المساعدة، فالطبيب لم يقلْ: **أخضعيها لجراحةٍ في الحال!** ولم يتحدَّثْ عن أيِّ علاج. فإذا كان ذلك أمراً يُعالج، فسيكونون بصدد علاجه في هذه اللحظة. وحقيقةُ أنّنا كنَّا نقوم بحياكة بطَّانيَّاتٍ للخُدَّج عِوَضَ الذهاب إلى المستشفى لتلقّي علاجٍ بالإشعاع تؤكّد أنَّه لم تَعُدْ هناك أيّةُ علاجاتٍ ممكنةٍ.

بدا كلُّ شيءٍ منطقياً الآن.

نحافتها. تحفُّظها عن الكلام في التفاصيلِ. تشكيلةُ رقع العين الملوّنة. فَهِمْتُ الآن لماذا طلبَتْ حضوري. لماذا طالبَتْني بالتَّخلّي عن حياتي برمَّتها. هذا هو ما كنَّا نفعله طوال هذا الوقت: كنَّا نودِّع بعضنا.

لَمَ لمْ تخبرني؟ بدا ذلك غير عادلٍ على الإطلاق.

ربَّما لم أكنْ سأقوم بالأمور بطريقةٍ مُختلفةٍ، لكنَّني كنتُ سأفكِّرُ في الأمور بطريقةٍ مُختلفةٍ. ربَّما ما كنْتُ لأضيِّعَ كلَّ هذا الوقت.

ملأني ذلك بالهلع. كان الوقت يداهمنا! فماذا كانَتْ تفعل بجلوسها في الحديقة، وإعداد الحساء، وحياكة البَطَّانيَّات بالكروشيه مع أجلٍ وشيكٍ كهذا؟ لا بُدَّ أنْ يكون هنالك شيءٌ أكثر أهمِّيَّةً لتُفنِيَ

عليه أيامَها الأخيرة عِوَضَ مشاهدة أفلام الثمانينيات الرومانسية-الكوميدية. ألمْ يكن هناك أناسٌ لتراهم؟ محادثاتٌ لتحظى بها؟ أسفارٌ لتذهب فيها؟

أو ربَّما أنَّها أرادَتْ فقط أنْ تجلس في الحديقة وتتنفَّسَ.

الأمر معقَّدٌ... معقَّدٌ دوماً، مع ديانا.

لا أعلم المدَّة التي جلسْتُ فيها هناك في الرّواق ورأسي بين يديَّ. ساعةٌ؟ اثنتان؟ كلُّ ما أعرفه أنَّه حين سأدخل إلى غرفتها وأراها مجدَّداً، وأنا أعرف ما أعرفه الآن، سيصبح الأمر حقيقيّاً. ولم أكنْ أريده أنْ يكون حقيقيّاً.

ماطلْتُ قَدْرَ استطاعتي. ماطلْتُ لدرجة أنَّني حين نجحْتُ أخيراً في إجبار نفسي على دخول غرفتها، كانَتْ تغطُّ في النوم وقد حلَّ الظلام. كانَتِ الإضاءة خافتةً للغاية، وكانَتِ الغرفة غارقةً في الظلال. كنتُ أستطيع رؤية الكدمة على جبينها بسهولةٍ، فكانَتْ سوداءَ تقريباً، لكنَّني لم أقتربْ فلم أكن أرغب في إيقاظها.

كما أنَّها لم تكنْ تضع رقعة عينها. كانَتْ تلك أوَّل مرَّةٍ، منذ وصلْتُ، أستطيع رؤية وجهها كاملاً، بلا عائقٍ. أكنْتُ سأستطيع أنْ أخمِّن حالتها الصحية إنْ رأيْتُ وجهها من قبل؟ ربَّما، كان بإمكاني أنْ أرى أنَّ عينها مُنتفخةٌ شيئاً ما. ولكنْ سوى ذلك كانتْ كما أعرفها.

أمي. تماماً كما كانَتْ دوماً... ومُختلفةً تماماً.

جلسْتُ على كرسيِّ الزُّوَّار بجوار سريرها، ولم أحرِّكْ ساكناً. ظللْتُ أراقب وجهها النائم. حاولت تخيُّل عالمٍ من دون ديانا فيه، لكنَّني لم أستطعْ. فقط... لم أستطع.

كيف أمكنني أنْ أُضيِّعَ كلَّ هذا الوقت؟ كيف أمكنني أنْ أسمحَ

لخيبةِ أملٍ واحدةٍ بتشكيل مسار علاقتنا؟ وأكثر من ذلك، لمَ قرَّرْتُ أنْ ألومَها على كلِّ شيءٍ حدث مع هيث تومسون؟ غبيَّةٌ. ومخطئةٌ. لمَ لمْ أحاول بجهدٍ أكبرَ أنْ أرى الأمور بوضوحٍ؟ عشرُ سنينَ وأنا غارقةٌ في إحساسي بالظلم، أحمل ضغينتي تجاهها كأنَّ الطريقة الوحيدة للفوز كانَتْ في بقائي غاضبةً لأطول وقتٍ ممكنٍ.

كأنَّه كان هنالك شيءٌ للفوز به.

كأنَّكَ لا تخسر دائماً وفي أية حال، حين تدفع مَنْ يحبُّكَ بعيداً عنْكَ.

كلُّ ما أرادَتْهُ كان المغفرة. وأنا رفضتُ أن أمنحَها إيَّاها.

سأذكر تلك اللحظة طوال حياتي، تلك الليلة في المستشفى، جاثمةً على كرسيٍّ في غرفة والدتي الرمادية، أتلمَّس طريقي عبر خبر حُكْمِ الموت الصادر في حقِّها، أَتَشَرَّبُ الإحساسَ به كاملاً، لكنَّني فاقدةُ الإحساس في الآن ذاتِه.

أرى تلك اللحظة مُجمَّدةً في الزمن، كأنَّها لوحةٌ زيتيةٌ.

في ذاكرتي، لا أرى نفسي البالغةَ في زيِّ إطفاءِ محطَّةِ ليليان مع عكَّازيَّ جاثمةً في ذاك الكرسيِّ، بل نفسي الطفلةَ، أرتدي ملابس نومي المفضَّلة حين كنتُ أبلغُ من العمر ثماني سنواتٍ تقريباً، تلك التي عليها كشاكش وقلوبٌ صغيرةٌ. قدماي عاريتان، تلك الأقدام الصغيرة الناعمة والمكتنزة التي تكون للأطفال. شعري طويلٌ، وأمِّي قامَتْ للتَّوِّ بغَسْلِهِ قبل النوم. ثمَّ أنهض وسط اللوحة، وأخرج من مكاني. أزحف إلى سرير المستشفى بجانبها، فأصير فجأةً أكثر ضآلةً وضياعاً ممَّا كنْتُ عليه في حياتي. أرتجف، أبحث عن الهواء بأنفاسٍ متقطِّعةٍ، وأرى كلَّ شيءٍ، كلَّ التداعيات لكلِّ شيءٍ علِمْته، لكنني معميَّةٌ بضبابٍ من اللَّافَهْم في الوقت نفسه.

أُقحمُ نفسي بين جسدها وحاجز السرير المعدنيّ.
أدفع جسدي باتّجاه ذاكَ الدفءِ الناعم.
وأرجوها بكلِّ ما لديّ ألّا ترحلَ عنّي.

في اليوم التّالي، حين فتحَتْ والدتي عينَيها، كنتُ واقفةً بجوارِ سريرها، أقيّمُ كدمَتَها.

لاقَتْ بنظراتِها عينيَّ، ثمَّ قالَتْ: «آه، يا حلوتي، لقد أخبروكِ».

أومأتُ، محاولةً أنْ أنتفضَ بكلِّ طولي، كأنَّ ذلك كان سيجعلُني أكثر شجاعةً.

مدَّتْ إليَّ يدها.

أمسكْتُها. «لمَ لمْ تُخبِريني؟»، سألْتُها.

«أردْتُ أنْ نَحظَى ببعض المرح، ما دمْنا نستطيع ذلك»، ارتسمَتْ على وجهها ابتسامةٌ وديعةٌ وهي تقول: «هذا النوع من الأخبار يبثُّ الاكتئابَ في النفس».

صدرَتْ عنّي ضحكةٌ لاإراديةٌ.

«أردْتُ فقط رؤيتَكِ»، تابعَتْ وهي تعتصر يدي، «أردْتُ فقط أنْ أحسَّ من جديدٍ بما كان عليه الأمر من قبلُ... كنْتُ أعلم أنَّ والاس كانَ على فراش الموت حين تزوَّجْتُه، لكنّني أتمنّى أحياناً لو أنّني ما علمْتُ. فصعبٌ جدّاً أنْ يشعر المرء بالسعادة والحزن في الآن ذاتِهِ».

فجأةً، أحسسْتُ بها تماماً. لأوَّل مرَّةٍ على الإطلاق، رأيْتُ، من خلال عينيها هي، اللحظةَ التي قادَتْ فيها سيَّارتَها بعيداً... ومن خلال قلبِها. كيف كان إحساسها وهي تتخلّى عن زوجها وابنتِها من أجل رجلٍ تعلمُ أنّها ستخسرُهُ هو الآخر؟

لا بُدَّ أنَّه كانَ عذاباً في كلِّ الاتِّجاهات.

لأوَّل مرَّةٍ، فهمتُ. فكلُّ تلك المرَّات التي أعدْتُ فيها شريطَ الأحداث، كنْتُ أسترجع كلَّ جزءٍ من القصَّة من منظوري الخاصّ، واقفةً مكانَ نفسي ذات الستة عشر ربيعاً. أمّا الآن، ولأول مرةٍ، فأرى القصة تتفتَّحُ أمامي من منظورٍ مختلفٍ. منظورِها هي.

وقد غيَّر ذلك القصَّة برمَّتِها.

أحسستُ بسيلٍ من المغفرة يغسل جسدي.

وفجأةً، أصبحتُ أنا الآن مَن يطلبُ المغفرة.

قلتُ حينئذٍ: «آسفةٌ لأنَّني كنتُ غاضبةً منكِ طوال هذا الوقت».

كانَتْ مستعدَّةً لذلك، فربَّتَتْ على يدي، ولسانُ حالها يقول: هراءٌ. «كنتِ طفلةً، أحياناً يكون من الأسهل أنْ تكوني غاضبةً».

«كنتُ غبيَّةً للغاية، لُمْتُكِ على أشياءَ لم يكنْ لكِ ذنبٌ فيها».

«كنتِ تدافعين عن نفسك، وهذا أمرٌ جيِّدٌ».

لم أفكِّرْ في الأمر بتلك الطريقة.

استرسلَتْ في كلامها: «كنتِ تظنِّينَ أنَّني صددْتُكِ، فقمْتِ بصدِّي بقوَّةٍ أكبرَ. كانَ ذلك عقلانيّاً حقاً، دفاعاً عن النفسِ. أحترمُ ذلك».

«لكنَّ الأمرَ كان أكثر تعقيداً من ذلك».

«فعلْتِ ما توجَّبَ عليك فِعْلُه لتكوني بخيرٍ. لطالما آمنتُ بأنَّكِ ستعودين يوماً إليَّ، الأمر فقط» توقَّفَتْ للحظةٍ قبل أنْ تتابعَ: «أنَّ الوقت داهمني ولم أعد أستطيع الانتظار».

«أفهمُ ذلك الآن، على ما أعتقد»، قلتُ قبل أنْ أوضِّحَ: «أفهم ما قلْتِه عن قوَّة الحبِّ».

أومأَتْ. «أراهن أنَّكِ تفعلين».

مسحْتُ عينيَّ. «لقد ضيَّعْتُ الكثير من الوقت».

اعتصرَتْ يدي مُجدَّداً. «إنَّها حال البشر يا حلوتي. نحن مجبولون على تضييع وقتِنا».

كان عقلي يدور في حلقاتٍ لولبيةٍ، يحاول تجميع كلِّ تلك المعلومات الجديدة. «هذا ما هو الأمر عليه إذاً؟ لنْ تخضعي لعلاجٍ؟».

«هل أراكِ الطَّبيب صُوَرَ دماغي؟».

أومأْتُ.

رمقَتْني بنظرةٍ مفادُها: **تلك هي إجابتُكِ إذاً.**

«لا أعلم ما يجبُ عليَّ فِعْلُهُ الآن».

قالَتْ بصوتٍ حنونٍ: «فقطْ كوني هنا، فقطْ كوني بقربي».

انهمرَتِ المزيد من الدموع لتغطّي وجهي.

«لا بأس. الأمر أفضل هكذا بطريقةٍ ما»، تابعتْ، «ليس من المفترض أنْ نبقى إلى الأبد. ما كنتُ لأرغبَ في إمضاء السنة الأخيرة من حياتي وهم يفتحونني ويخدّرونني ويغرقونني في الأدوية، بل أفضِّلُ أنْ أكون في حديقةٍ، أو أصبغ الفخَّار، أو أتمشَّى على جنباتِ المحيط».

بالطبع، لا يمكنكَ أنْ تُجادل ضدَّ المشي على جنبات المحيط، لكنْ حينَ تكون النتيجة النهائية هي الموت، فالأمرُ يفقدُ مثاليَّتَهُ.

«ألا يُوجَدُ أيُّ شيءٍ آخرَ تجرِّبينَهُ؟ دواءٌ أو تقنيَّةُ علاجٍ جديدةٌ قيد التجربة؟».

«كانَتْ هناكَ تجربةٌ كنتُ أستطيع الانضمام إليها، لكنَّني رفضتُ، فقدْ بدَتْ مُفزعةً للغاية».

اتَّخذْتُ مقعداً. «ماذا؟ حقّاً؟ ما كانَتْ تلك التجربة؟».

«دواءٌ جديدٌ، تجاربُ إكلينيكية، فقلتُ: لا».
«ماذا؟ وما الباعث على ذلك؟».
«لا أريد أخْذَ المزيد من الأدوية. خضعْتُ لتدخُّلات طبّيّةٍ تكفيني لحياةٍ كاملةٍ».
«لكنّهُ مجرَّدُ دواءٍ».
«بآثارٍ جانبيَّةٍ شنيعةٍ، أقلُّها بُغضاً هو 'الْتهابٌ جلديٌّ قاتلٌ'».
«لكن، ماذا لو نجح ذلك؟».
«ماذا لو لم يفعل؟ ويقومُ جلدي بقتلي؟».
«على الأقلّ، بهذه الطريقة، هناك فرصةٌ يمكنك الاستفادة منها».
«ليسَتْ واحدةً تستحقُّ أنْ تُوخَذَ».
في تلك اللحظة، بدا أنها لم تكنْ تُحاول. «يجب أنْ تجرِّبيها! اتَّصلي بهم مجدَّداً! أخبريهم أنَّكِ غيَّرْتِ رأيكِ! لا يمكنُكِ أنْ تستسلمي! يجب أنْ تستمرّي وتُحاربي!».
حرَّكَتْ رأسَها نافيةً، ثمَّ قالَتْ بهدوءٍ: «أنا أحاربُ بطريقتي الخاصة».
«كيف؟»، سألْتُها، «كيف تحاربين؟».
نظرتْ إلى عينيَّ مباشرةً. «أنا أتأمَّلُ ثلاث مرَّاتٍ يومياً منذ خضعْتُ لفحصي الأخير».
«تتأمَّلين؟! تحاربين ورماً ميلانينياً عانداً، **بالتَّأمُّل**؟».
«أظنُّ أنَّ الأمرَ بدأ ينفع».
«ما الذي بدأ ينفعْ؟».
«كان يُفترض أنْ تنتابَني نوباتٌ أكثرَ خلال الفترة الماضية، في الحقيقة، وهذه علامةٌ مُبشِّرةٌ».

«ما الذي تتحدَّثين عنه؟».

ابتسمَتْ أمّي. «حينَ حصلْتُ على التشخيص أوَّلَ مرَّةٍ، قرأتُ كلَّ ما أمكنَني العثور عليه... كما تفعلين».

أومأتُ.

«وأحدُ البحوث التي قرأتُها كانَ يتعلَّقُ بامرأةٍ فرنسيَّةٍ في مثل حالتي، تمكَّنَتْ من تحجيم نموِّ الورم عبر جلساتِ استبصارٍ إبداعيٍّ».

حرَّكْتُ رأسي في حيرةٍ. «ماذا كانَتْ تستبصر؟».

«كانَتْ تتأمَّلُ ثلاثَ مرَّاتٍ يومياً، وما كانَتْ تتخيّلُه بشكلٍ محدَّدٍ هو قوقعةٌ صلبةٌ تنمو حول الورم، صلبةٌ لدرجة أنَّ داخلها مضغوطٌ، ولا تستطيع أنْ تتوسَّعَ».

قمْتُ بمجهودٍ إراديٍّ كي لا أديرَ مقلتيَّ إلى الأعلى.

«الأمرُ نجحَ»، قالتْ ديانا. «كان الورمُ يتطوَّرُ بسرعةٍ بالغةٍ، لكنَّه بعدها سار أبطأَ، ثمَّ توقَّفَ عن النُّموِّ تماماً. لَمْ تَمُتْ إلَّا بعد ذلك بسبع سنواتٍ، وكان ذلك نتيجةَ حادث سيَّارةٍ! فلم يكن ذلك مرتبطاً بالورم بتاتاً. وحينَ شرَّحُوا ورمَها، احزري ماذا وجدُوا؟».

«ماذا؟».

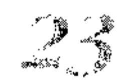
«قوقعةً! قوقعةً صلبةً حول الورم. ولم يكن الورمُ قد كَبرَ أبداً».

حرَّكْتُ رأسي نافيةً. «هذه أسطورةٌ. لا مجالَ لأنْ يكون ذلك حقيقيّاً».

«بلْ هو حقيقيٌّ. وهو مُوَثَّقٌ».

«لا يمكنُكِ أنْ تقضي على ورمٍ بالتخيُّل فقط!».

«ربَّما، لا»، قالَتْ، «لكنْ لا ضررَ أبداً في المحاولةِ».



فعدنا إلى البيت، وأعددْنا العشاء، وجلسْنا في الحديقة والشمس تغيب لتنسحبَ خلف الأفق. لم يكن هناك شيءٌ آخر لفعله.

بعد ذلك، كانت ردودُ أفعالي غريبةً ومتخبِّطةً. كانَتْ هنالك لحظاتٌ شعرْتُ فيها بفيضٍ من الشجاعة يشدُّ أزري، ولحظاتٌ شعرتُ فيها بأنَّ كلَّ شيءٍ عاديٌّ تقريباً، ولحظاتٌ غمرَني فيها شعورٌ بالسلام مع تقبُّل ديانا للأمور، ولحظاتٌ غَزَاني فيها الهلعُ وشَلَّ حركتي حتَّى إنَّني ما عدْتُ أقوى على فعل شيءٍ، ولحظاتٌ شعرْتُ فيها أنَّه، بطريقةٍ ما، سيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يُرامُ، ولحظاتٌ بدا فيها أن لا شيءَ على الإطلاق سيكون أبداً على ما يُرامُ.

أتذكرون حين كنتُ أحاول الإبقاءَ على حياتي بعيدةً عن أيِّ شيءٍ يُزعزع استقرارَها؟

حسنٌ، ذاكَ المفهوم برُمَّتِه تمَّ رَمْيُهُ في الجحيم.

تبقَّتْ لديَّ أربعةُ أيَّامٍ قبل مناوبتي القادمة. أربعة أيامٍ لأتدبَّرَ طريقةً لمواجهة القادم من حياتي. فساعدْتُ ديانا على تشذيب حديقتها، وساعدْتُها في إعداد العشاء، وتصفَّحْنا ألبومات الصور

القديمة، وغنَّيْنا أغاني الميلاد، برغم أنَّه لم يكن الميلاد. أرَتْني يوميّاتِها القديمة وملفَّاتِ أعمالها من مدرسة الفنون، وأطلعَتْني على علبة مجوهراتها، وحاولَتْ تعليمي مَنْ مِنْ أسلافنا كان يملك هذا الخاتم، وتلك القلادة، والسوار الجالب للحظِّ ذاك. شربْنا الكثير من القهوة وأعدذْنا الكثير من الشاي، وحرصْنا على ألا نفوِّتَ أيَّ غروبٍ.

حاولْتُ، بنجاحٍ جزئيٍّ، تذوُّقَ ما تبقَّى لنا من وقتٍ. كان ذلك هو الهدف على أية حالٍ: الاستمتاعَ بوجودها حيَّةً بقربي، وتفادي الوقوف على الأسف القادم. وحاولتُ تعلُّمَ استغلال الفرص التي تمنحُكَ إيَّاها الحياة، وبأسرع ما يمكن.

كلَّ ليلةٍ طوال ذلك الأسبوع، بعد وجبة العشاء، كان المبتدئ يظهر عند عتبة الباب ليتفقَّدَنا، راغباً في أن يقومَ بشيءٍ من أجلنا أو يساعدنا.

لكنَّني لم أستطعْ استقباله.

ولكنَّهُ ظلَّ يأتي، على أيَّةِ حالٍ، ويتركُ الكعك المُحلَّى وفطائر المافنز والكوكيز لمواساتنا.

في النهاية، في آخر ليلةٍ قبل مناوبتي القادمة، طرقَ الباب... وظلَّ يطرقُه.

«إنَّهُ أنا مُجدَّداً»، قال حين فتحتُ الباب أخيراً.

كان يُرسل لي رسائلَ نصِّيَّةً أيضاً، ويسأل عن حال والدتي، وعن حالةِ كاحلي، وعن حالتي بخصوص تلك القرميدة.

كان قد ترك بضع رسائل صوتيّة كذلك، لكنَّني لم أَرُدَّ على أيٍّ منها.

لم أكنْ أتجاهله بالضبط. إنَّني فقط لم أكنْ أعرف ماذا أقول.

كيف أستطيع أنْ أعبِّر عن أيٍّ من هذا بكلمات؟

رؤيتُهُ هناك، وسط إطار الباب، منحَتْني إحساساً أقربَ إلى الخلاص. أردْتُ التَّشبُّثَ به كأنَّه طوقُ نجاةٍ في محيطٍ شاسعٍ.

لكن عوضَ ذلك، واصلتُ التخبّط في الماء لوحدي.

وقفْتُ خلفَ العتبة كأنَّها حاجزٌ لا يمكنُ لأيٍّ منَّا تجاوزُهُ، وقلتُ له: «لا يمكنُكَ أنْ تكونَ هنا».

«أنا بحاجةٍ إلى التَّحدُّث إليكِ».

«لا أستطيع ذلك. الأمر يفوق قدرتي».

«أعلم. لقد عالجتِ لتوِّكِ أمرَ ذاكَ المتربِّصِ - أو أتمنى ذلك على الأقل - وآخرُ ما تريدينه هو ظهوري هنا مسبِّباً لكِ إزعاجاً إضافياً».

«الأمر ليس كذلك».

«أنا فقط بحاجةٍ إلى رؤيتكِ».

حرَّكْتُ رأسي يمنةً ويسرةً.

«خمسُ دقائق. أرجوكِ».

كنتُ أتجنَّب تَرْكَ البيت منذ عِلمي بحالة أمِّي، مَخافة أنَّها قد... تختفي، ربَّما. لكنَّها كانَتْ قد أخذَتْ مكانها في السرير، وشغَّلَتْ آلة الضوضاء البيضاء، وأغلقَتِ الباب. فماذا كان عليَّ أنْ أفعل؟ أن أجلسَ في الرواق وأحرس السلالم بينما هي تغطُّ في النوم؟

كان بإمكاني مَنْحُ أوين خمس دقائق.

علَّقْتُ منشفة المطبخ في خزانة المعاطف، وتقدَّمْتُ نحو عتبة الباب.

تراجع أوين أقلَّ ممَّا كان يجب عليه، فوقفْنا هناك، متقاربَين أكثر من اللازم.

«ماذا الآن؟»، سألتُ.

«أريد فقط أنْ أراكِ».

فتحتُ ذراعيَّ على مصراعيهما، ولسان حالي يقول: **ها أنا ذي أمامَكَ.**

«أيمكنُنا أنْ. . . نتحدَّث؟ لديَّ بضعة أسئلةٍ لكِ».

«حسنٌ». خَطَوْتُ نحو الممشى الممتدِّ أمام البيت وأخذْتُ أتمشَّى، ولم أعرجْ حتّى. تساءلْتُ إنْ كانَ قد نسيَ أمرَ كاحلي.

«كيف حال كاحلكِ؟»، سأل حينئذٍ.

«بخيرٍ، استغنيتُ عن العكَّازين في الأمس».

«بخيرٍ فعلاً؟»، استفسر، «أم بخيرٍ بحسب ما يعنيه الإطفائيون؟».

«بخيرٍ بحسب ما يعنيه الإطفائيون»، تنازلتُ. «لكنَّني أفضلُ حالاً من السابق بكثيرٍ، وأتصرَّف بحذرٍ».

«أنتِ تعرجين قليلاً».

لم أوافقْهُ الرأي. «أنا لا أعرج على الإطلاق».

«تمشين بحذرٍ شديدٍ إذاً».

كان غريباً أنْ نبدأ بأمر الكاحل، فهو أقلُّ ما يشغل بالي حالياً، فقلت: «السؤال التَّالي».

«حسنٌ»، قال مسايراً إيَّايَ، «أخبريني عن حال والدتكِ».

أخذتُ شهيقاً عميقاً، ثمَّ قلتُ ذلك بسرعةٍ، كأنّني أنتزع ضمادةً لاصقة: «لديها ورمٌ في الدماغ. هذا ما سبَّبَ النوبة. إنَّه ورمٌ ميلانينيٌّ راجعٌ، خبيثٌ وشرسٌ للغاية. لديها سنةٌ لتعيشَها على أكثر تقديرٍ».

لم يتوقَّعِ المبتدئ ذلك. ظلَّ صامتاً بعضَ الوقت.

كنتُ أعتزم المضيَّ في الكلام، ولكنْ حين بلغْتُ باب الحديقة، خفَّفْتُ مَشيي إلى أنْ توقَّفْتُ.

توقَّف المبتدئ بجانبي، ثمَّ سألني بصوتٍ أرقّ: «أكنتِ على عِلْمٍ بذلك؟».

«لم أكنْ على علمٍ بأيِّ شيءٍ. لم تخبرْني، بل في الواقع لفَّقَتْ بعض الأكذوبات لتخفيَ الأمر عنِّي، لكنَّني كنتُ أشعرُ أنَّ شيئاً ما لم يكنْ على ما يُرامُ».

«كيف حالها؟».

«لغرابة الأمر، إنَّها بخيرٍ معظم الوقت».

«كيف حالك؟».

علق الصوت في حلقي. أحسسْتُ بنفسي أقوِّم وقفتي وأتصلَّبُ، وكأن ذلك سيساعدني بطريقةٍ ما. «أنا أكافح»، قلتُ أخيراً.

فقال أوين: «الآن، أنتِ فعلاً بحاجةٍ إلى ذلك العناق».

ربَّما كنتُ بحاجةٍ إليه فعلاً. ولكن، وبطريقة ما، أحسسْتُ أنَّ ذلك كان سيجعل الأمور أسوأ، فحرَّكْتُ رأسي بالنفي قائلةً: «لا تعانقني»، وشرعْتُ أمشي مجدَّداً.

«حسنٌ».

مشيْنا بعض الوقت بلا كلامٍ. صدقاً، بمَ يمكنكَ أنْ تُتبعَ ذلك مثلاً؟ كنتُ قد أجهزْتُ على المحادثة تماماً.

لذا لم نتكلَّم، لكن ظلَّ أوين هناك معي. في تلك اللحظة، وبالنظر إلى كلِّ شيءٍ، كان ذلك أفضل من الكلام.

بعد مدَّةٍ بدَتْ طويلةً، قال أوين: «كيف يمكنني أن أخفِّف عنكِ؟ ماذا أستطيع أنْ أفعل؟».

«ما كانت أسئلتك الأخرى؟».

«جميعها صارَتْ تبدو بلهاء الآن».

«اسألْ، على أية حالٍ».

«حسنٌ. أتعلمين إلى أيِّ حدٍّ صدمْتِ كلَّ الرفاق على المضمار يوم السباق؟».

ابتسمْتُ قليلاً لنفسي. كانت تبدو مثل حياةٍ مختلفةٍ الآن، لكنَّ ذكراها منحَتْني شعوراً طيباً، كأنَّها وسَّعَتْ منظوري ليشمل الأمور المهمَّة الأخرى.

«لا يستطيعون التَّوقُّف عن الحديث عن ذلك... لقد صرْتِ أسطورةً».

«هذا جيِّدٌ»، علَّقتُ، «تناسبُني كلمة 'أسطورة'».

بدا وكأنَّنا انتهينا من الأسئلته. واصلنا مشينا حتى بلغْنا المكان الذي ينتهي فيه الطريق، وتبتدئ فيه أرضية الميناء الصَّخريَّة، ثمَّ جلسْنا على أحد المقاعد هناك، عند التَّحوُّل، نشاهد السماء المسائية فوق المياه.

منحني الخروج من البيت إحساساً منعشاً. الريح، المحيط، النجوم، الكون. تفاجأتُ إلى أيِّ حدٍّ كان ممكِّناً أنْ يكون المرء رفقة أشياء أعظم من نفسه.

«أريد أنْ أخبرَكِ أيضاً»، قال أوين بعد برهةٍ، «أنَّني تحدَّثْتُ إلى والدي، بخصوص الحريق».

نظرتُ إلى وجهه لأولِ مرَّةٍ منذُ أنْ وصلْنا. «أحقّاً فعلتَ؟».

أومأ. «احتسيْنا بعضَ الجعة أولاً، لكنَّني أخبرْتُهُ بكلِّ شيءٍ».

«لم أكنْ أحاول دَفْعَكَ إلى فعل ذلك».

«أعلم، لكنَّني أحسستُ أنَّه الأمر الصَّائبُ الواجبُ فعلُه».

«كيف تقبَّل الأمر؟».

«كان أمراً قاسياً»، قال، «في البداية، ظلَّ يحرِّكُ رأسَهُ منكِراً الأمرَ وهو يقول: 'ولكنْ، كان هنالك طفلان فقط'، لكنَّني ظللْتُ أردِّدُ له أنَّ الشاهد كان مخطئاً حتى استوعب كلامي. حرَّكَ ذلك الكثيرَ من ذكرياته بخصوص عمِّي، وصار صوتُهُ أجشَّ، وعيناه حمراوين».

«أكان غاضباً؟».

«لا أظنُّ ذلك، مع أنَّه يصعب جزم الأمر حين يتعلَّق الأمر بوالدي».

«ماذا قال؟».

«في الحقيقة، لقد أخبرْتُهُ أنَّني كنْتُ دوماً قلقاً من احتمال كوني أنا مَنْ رمى علبة عيدان الثقاب... أنَّني طوال العشرين سنةً الماضية، كنتُ أحاول تذكُّرَ أكنْتُ أنا الفاعل أم لا. لكنَّه نفى ذلك، وبحزمٍ. فكان هناك في القاعة حين أدلى صديقي ستيفي بشهادته، وقد قام هذا الأخير بوصف كيفية رميه للعلبة. وتذكَّرَ والدي ذلك على وجه الخصوص، لأنَّ ستيفي قال يومها شيئاً غريباً: قال إنَّه حين أشعلَها بدَتْ له مثل قنفذٍ مشتعلٍ. وحين قال والدي ذلك، تذكَّرْتُ شيئاً: رأيت ومضةً بذاكرتي لستيفي يُلقِي العلبةَ وهو يصرخ: 'قنفذٌ'، ثمَّ استرجعْتُ ذكرى كلِّ شيءٍ».

أطلقتُ تنهيدة انشراحٍ طويلةً. لم يكن المبتدئ مَنْ أَلقى العلبة. لم يكنْ هو مَنْ أضرمَ النار، ليس بطريقةٍ مباشرةٍ على أية حالٍ. لا بُدَّ أنَّه شعر بارتياحٍ لا يوصف لدى معرفته بذلك.

«إذاً، الآن تعلمُ أنَّكَ لم تكن الفاعل»، قلت بارتياحٍ.

فكَّرَ لوهلةٍ. «لكنَّني كنتُ جزءاً من المجموعة. مع ذلك، من المريح معرفة أنَّني لمْ أقمْ برَمْيِ القُنفذ».

دفعْتُ يديَّ نحو الأسفل وأسكنتهما بجيبَيّ، والتفتُّ صوب المياه.

مال المبتدئ قليلاً باتّجاهي. «على أيّةِ حالٍ، شكراً لكِ. لقد فكَّرْتُ مليّاً بشأن المغفرة منذ تحدَّثْتُ إليكِ ذلك اليوم. وحاولْتُ إيجاد أشياء حسنة نتجَتْ عمَّا حدث، حتى لو أنَّ الأمر كان بالغ السوء».

«إذاً؟».

«بدأْتُ أرى أنَّ نتائج ما حدث انتهَتْ بتشكيل حياتي، بطرقٍ حسنةٍ، كما بطرق سيئةٍ. لم أستطع تغيير الماضي، ولكن، ومع كلِّ اختيارٍ يَمضي نحو الأمام، حاولْتُ وبكلِّ جهدي أنْ أقوم بالأمر الصائب». هزَّ كتفيه قليلاً، قبل أنْ يُضيف: «لقد أجبرني ذلك حتماً على تحديد مَنْ أريد أنْ أكون».

«وهل تشعر بالارتياح منذ أخبرت والدك؟».

«أعتقد ذلك»، تابع وهو يومئ، «رغم أنَّه يتبقَّى لديَّ أمرٌ آخر أودُّ إخبارَهُ به».

«وما يكون هذا الأمر؟».

تردَّدَ لوهلةٍ، ثمَّ قال: «سأستقيل من خدمة الإطفاء».

انتظر لحظةً... ماذا؟!

«يجب عليَّ التحدّث إلى والدي أولاً طبعاً. هو ووالدتي في بوسطن هذا الأسبوع، لكنَّني أنوي إعداد عشاءٍ لهما حين يعودان، وحينها سأكشف لهما عن قراري. المقصود هو أن أُدخل البهجة إلى قلبيهما، أقصد بطنَيهما أولاً، ثمَّ أقول، 'ذلك الطعام في بطنيكما؟ هذا بالضبط ما أودُّ القيام به طوال الوقت'. ثمَّ بعد ذلك، أجعل الأمر رسميّاً مع الكابتن».

كنتُ لا أزال أحاول استيعابَ الأمر. «انتظر لحظةً، أنتَ...
ستقوم بماذا؟».

أومأ. «كنتِ محقَّةً: الطبخ هو موهبتي الأولى».

كنتُ محقَّةً؟ لم أكنْ أرغب في أنْ أكون محقَّةً! فقدْ كان ذلك آخر شيءٍ أريده، بغضِّ النظر عن الحدِّ الذي كنتُ سأستفيد منه. كان هو الشَّخصَ المُفضَّلَ لديَّ في محطَّة الإطفاء، بل إنَّه قد يكون الشخصَ المُفضَّلَ لديَّ في المطلق! فجأةً، الْتَمعَتْ في ذهني كلمات الكابتن: **جِدي شخصاً واحداً تستطيعين الاعتماد عليه.**

تراجعْتُ خطوةً إلى الوراء وسألْتُهُ: «ألا تستطيع القيام بالأمرين معاً؟»، فمعظم الإطفائيين كانَتْ لديهم وظيفتان، وبعضهم كانت لديهم ثلاثٌ.

حرَّكَ رأسه يمنةً ويسرةً.

كنتُ أعلم أنَّ ردَّةَ فعلي كانَتْ غير منطقيةٍ، فلم يكنْ مُمكناً أنْ يبقى كلانا في المحطة: إذا بقي وحارب من أجل مركزه وربح، فسأخسر. أمّا رحيله فسيعني أنَّني أستطيع البقاء. قد يكون ذلك جزءاً من السَّبب الذي جعله يفعل ذلك... ليقوم بشيءٍ لطيفٍ من أجلي.

لكنْ، لحظَتَها، وبالنظر إلى كلِّ الحزن الذي كان يحيط بي، كلُّ ما كنتُ أستطيع التركيز عليه هو رحيلُه. تسارعَتْ دقَّاتُ قلبي. أكان ذلك هلعاً؟ أكان غضباً؟ كلُّ ما أستطيع قوله هو أنَّني لم أكنْ قادرةً على تحمُّل رحيل شخصٍ آخر من حياتي.

ليس اليوم.

«أنا لستُ أكفأ مَن يكون لهذا العمل»، تابع كلامه وهو يرمقني بنظرةٍ جادَّةٍ، «وأنتِ أفضلُ مَنْ يعلم ذلك».

«تستطيع أنْ تتدرَّبَ!»، قلتُ، «تستطيع أنْ تعمل وأن تتحسّن».

حرَّكَ رأسه مجدَّداً. «لا أظنُّ أنَّني أريد أنْ أتحسَّن».

حقّاً؟ ألن يحاول حتّى؟ ألَمْ نُصبحْ صديقَين؟ ألَمْ يصبح - على نحوٍ ما - أحدنا يعني شيئاً للآخر؟

«أين ستذهب؟»، سألته، «ستعود إلى بوسطن؟».

هزَّ كتفيه، علامةً على أنَّه لا يعلم.

أحسسْتُ بوخزةٍ في صدري، مباشرةً خلف عظم الترقوة. أوين سيرحل. فباستثناء الليلة التي قادَتْ بها والدتي سيارتها مبتعدةً عني، كان هذا الشعور بالهجران الأكثر حدَّةً الذي أحسستُ به على الإطلاق.

لكنَّني لم أكنْ جيِّدةً قَطُّ مع مشاعر الأسف. كنتُ أفضِّلُ عليه الغضب. لذا قمْتُ من مكاني وابتعدتُ، بأسرع ما أمكنني وأنا حذرةٌ بشأن كاحلي.

«رويدكِ!»، قال وهو يتبعني، «إلى أين أنتِ ذاهبةٌ؟».

واصلتُ المشيَ. «لا بأس، اذهبْ إلى بوسطن».

«أنا أحاول مساعدتكِ!».

«أنا لستُ في حاجةٍ إلى مساعدتك!».

«أنتِ، من بين كلِّ الناس، تعلمين أنَّني لستُ مناسباً لهذه الوظيفة»، قال كأنَّه حجّةٌ منطقيةٌ.

«هذا ليس سبباً للانسحاب. أهذا ما تريد أنْ تكونه؟ منسحباً؟ أمضيتُ شهوراً في محاولة مساعدتكَ. صارتْ عروقي مثل جبنةٍ سويسريةٍ بسبب كلِّ تلك الإبر. علَّمْتُكَ كلَّ ما أعرفه، ولكنْ إليكَ شيئاً آخر أعرفه: لا يمكنك جَعْلُ الناس يَبقَون إذا كانوا لا يرغبُون في ذلك. الناس يرحلون طوال الوقت. ينظرون حولهم يوماً ويقولون: 'أتعلم أمراً؟ لا عليك. أنا راحلٌ عن هذا المكان'. أنا

بالتأكيد لا أستطيع منعكَ من الرحيل، وأنا متأكدةٌ تماماً أنني لن أحاول حتى».

«تمهَّلي!»، قال وهو يحاول أن يمسك ذراعي. «أنا لم أُنْهِ كلامي بعدُ».

سرْتُ مبتعدةً مجدَّداً. «أنا فعلتُ».

ثمَّ شرعتُ أجري، بكاحلي المصاب. يريد أنْ يرحل؟ لا بأس. سأرحل أبعد.

لكنَّه هبَّ يجري هو الآخر. كنتُ أسمع صوت قدميه على الرصيف خلفي، فأسرعت، أو حاولتُ ذلك، برغم علمي أنَّ كاحلي لن يتحمَّلَ ذلك وقتاً طويلاً. أكان الهرب يستحقُّ أنْ أعرِّضَ نفسي للإصابة من جديدٍ؟ مَنْ يهتمُّ؟ حسنٌ. لا بأس. لا يهمّ.

أمسك بي أوين حينَها. مدَّ ذراعه وأمسك قميصي من الخلف، ما جعلني أفقد زخمي. بدا الأمر وكأنَّه جذب شريطاً مطاطياً، فتوقَّفْتُ عن الحركة في الحال، واستدرتُ لأواجهه، هناك وسط الطريق، لاهثةً.

«ماذا؟»، قلتُ بطريقةٍ أقرب إلى الصراخ.

«أوقفي هذا العناد! ستعرِّضين الكاحل الآخر للالتواء أيضاً».

«لا يهمُّني».

كان يلهث أيضاً. «أيمكنُني التَّحدُّث إليكِ؟».

إليك ما كنتُ أقوم به: التقوقع على نفسي من جديد. حين أشاهد هذه اللحظة في ذاكرتي، وأنا أعرف كلَّ ما أعرفه الآن، يبدو لي غضبي غير مبرَّر. كان يحاول مساعدتي. كان يحاول دعمي كي أحتفظ بوظيفتي. كان يمنحني أكثر شيءٍ كنتُ أريده في العالم.

إلّا أنَّ أكثر شيءٍ كنتُ أريده في العالم كان هو.

كلُّ ما أستطيع قوله هو أنَّني لم أكنْ جيِّدةً في التعامل مع المشاعر. كنتُ قد أمضيْتُ حياتي أتجنَّبُها بحذرٍ. والآن، ومنذ انتقالي إلى روكبورت، كان الأمر عبارةً عن موجةِ مدٍّ عالٍ تِلْوَ الأخرى: الافتتان، القبلة، المتربِّصُ، والدتي... يبدو من السهل الآن أنْ أقطع المشهد في ذاكرتي وأقول: **دعي الرجل يُنهِ كلامه**، لكنَّني لحظتها أحسسْتُ كأنَّني كنتُ أوشك على الغرق في طوفانٍ من المشاعر، مع إطلاق العنان لكلِّ مشاعر الفقد والهجران. لذلك قمْتُ بالشيء الوحيد الذي استطعتُ أنْ أفكِّرَ فيه لإنقاذ نفسي، الشيء الذي لطالما قمْتُ به طوال هذه السنين لأحافظ على أمانيّ...

التقوقع على نفسي.

«لا»، قلتُ، «يجب أنْ أذهبَ».

«أنا فقط...».

«لا»، قلتُ، ثمَّ استدرْتُ وخطوْتُ باتِّجاه مدخل بيت ديانا، «لا أستطيع».

توقَّعْتُه أنْ يتبعَني.

لكنَّه لم يفعل.

تركني أذهب.

حين بلغت الباب واستندتُ إليه، ممسكةً بالمقبض، التفتُّ جانبياً، مستعدَّةً لأن أطلب منه أنْ يرحلَ مجدَّداً، لكنَّني تفاجأتُ بأن وجدتُ نفسي لوحدي.

ثانيةٌ من الارتياح... ثمَّ بعدها خيبةُ أملٍ شاسعةٌ.

التفتُّ أكثر، ورأيْتُهُ يسير بعيداً.

تداعَتْ كتفاي.

شاهدْتُهُ يفتح باب شاحنته ويركبها. سمعت صوت تشغيل المحرِّك. ثمَّ رأيته يبتعد.

حسنٌ. رائعٌ.

لكنْ، لم يرحني التَّخلُّص منه. بل بالعكس.

«انتظرْ»، همسْتُ وأنا أحدِّقُ في المركبة وفي الذيل الضوئيِّ خلفها.

ثمَّ، كأنَّه سمعني...

اشتعلَتْ أضواء الفرامل الحمراء، وبقيَتْ على تلك الحال.

خطوْتُ بعيداً عن الباب لأحظى بإطلالةٍ أفضل.

ثمَّ استدار وكان الآن يعود أدراجه باتِّجاهي.

توقَّفَ على بعد بضعةِ منازلَ وأطفأ أضواءه. وقبل حتى أنْ يفتح بابه، كنتُ قد عبرتُ الحديقة وأخذْتُ أمشي لملاقاته. فليذهبِ الكاحل إلى الجحيم.

توقَّفتُ حين صرْتُ على مقربةٍ منه.

أغلق باب الشاحنة خلفه، استدار لمواجهتي، ثمَّ اتكأ عليه.

نظرْنا إلى بعضنا قرابة دقيقةٍ.

قال أخيراً: «هل آذاك شخصٌ ما، يا كاسي؟».

أحسستُ بومضة إنذارٍ تُذكَى بداخلي، كأنَّه كُشِفَ أمري.

«ماذا؟».

«الطريقة التي بها تصدينني بها توحي أنك ترين الناسَ خطيرين».

«الناس حقّاً خطيرون».

انتظرَ أنْ أوضِّح أكثر، وحين لم يَبدرْ مني شيءٌ، قال: «إذاً، هل آذاكِ شخصٌ ما؟».

كانَتْ أوَّلُ فكرةٍ تبادرَتْ إلى ذهني هي أنْ أبدوَ بصلابة الرفاق

وأقول شيئاً مثل: «بحقِّكَ»، لكنَّ ذلك لم يكنْ ليفلحَ؛ لأنَّ الدموع بدأتْ تغطِّي وجهي.

كنتُ قد أجبْتُ عن سؤاله مسبقاً، ولم يكن هنالك أي داعٍ للتَّظاهُر.

لذا، وببطءٍ شديدٍ، أومأتُ بالإيجاب.

«أكان رجلاً؟».

أومأتُ مجدَّداً.

«أكان الأمر سيئاً؟».

أومأتُ مجدَّداً.

ثمَّ عَلِمَ. كلُّ القطع أخذَتْ مكانها، وعَلِمَ، ببساطةٍ.

قلتُ بصوتٍ خافتٍ: «لا أريد الحديث عن الأمر».

«لستِ مضطرة أنْ تفعلي».

«حسنٌ»، قلتُ وأنا أمسح الدموع عن خدَّيَّ براحتَيَّ.

خلال حياتي كلِّها، لم يكنْ أحدٌ يعلم بذلك، باستثناء كابتن محطَّتي السابقة في أوستن ربَّما، ويُحتمَلُ أيضاً أنْ يكون طاقمي قد عَلِم بالأمر بعد أنْ رأَوْني أبرحُ هيث تومسون ضرباً، ومن ثمَّ، امتداداً عنهم، أظنُّ أنَّ قاعةً كاملةً مِنْ أشجع رجال المدينة الذين حضرُوا الحفل تلك الليلة قد علموا.

ومع ذلك، أحسسْتُ أنَّني قمتُ بإنجازٍ مهمٍّ.

لم يرفع المبتدئ ناظريه عنِّي. «أأستطيع إخباركِ بشيءٍ؟».

«حسنٌ».

«أنا لنْ أؤذيَكِ».

«الجميع يؤذون الجميع... في نهاية المطاف».

«قد يكون ذلك صحيحاً إلى حدٍّ ما»، تابع، «قد أقوم بأشياءَ

غبيَّةٍ. قد أنسى إحضار الحليب من محلِّ البقالة، أو أدوس على إصبع قدمكِ من دون أن أنتبه، أو أقوم بشيءٍ لا أفهمه حتى، مثل ما فعلتُ للتَّوِّ هذه الليلة. لكنَّني لن أكون قاسياً معكِ أبداً... ليس قصداً».

لا فائدةَ من الجدال. كنتُ أعلم أنَّ ما قاله كان صادقاً.

ثمَّ قمْتُ بأمرٍ جنونيٍّ.

عانقْتُهُ.

لم يكنْ ذلك أولَ عناقٍ أقوم به في الآونة الأخيرة، فكنتُ قد عانقتُ ديانا وجوسي مراراً في الأيام القليلة الماضية، لكنَّ هذا كان أوَّلَ عناقٍ منذ مدّةٍ طويلةٍ أقوم به من أجل نفسي. شيءٌ ما في اتساع صدره، القريب جدّاً منّي، بدا صلباً ومُطَمْئِناً، وكمكانٍ أردتُ أن ألتجئ فيه. انْحنيْتُ لأضعَ رأسي عليه، فتبعَ باقي جسدي ببساطةٍ.

اتَّكأْنا على المركبة وبقيْنا على تلك الحال بعض الوقت. استمعْتُ لدقّاتِ قلبه وتنفُّسه.

ثمَّ، وعبر صدره، سمعْتُ صوتَهُ المكتوم. «وهنالكَ شيءٌ آخرُ».

رفعْتُ رأسي وتراجعْتُ قليلاً حتى تتسنَّى لي رؤية وجهه.

أخذَ نفساً عميقاً، كأنَّهُ لم يكنْ متأكِّداً إلى أين سيُفضي به كلامه، ثمَّ قال: «أنا مغرمٌ بكِ».

لا أعلم ما كنتُ أتوقَّعُهُ بالضبط... لكنَّني حتماً لم أكنْ أتوقَّعُ ذلك.

واصل كلامه: «الأمر خطيرٌ، وتلك القبلة، تلك الليلة... جعلتِ الأمور أخطر بكثيرٍ. لهذا السبب سأستقيل... جزئيّاً، على أية حال. فمشاعري تجاهكِ جعلت الأمور لا تُطاقُ في المحطة

بالنسبة إليَّ. أظنّكِ كنتِ تعلمين طوال ذلك الوقت، ولا بُدَّ أنَّ ذلك أغضبكِ. كنتِ هناك للقيام بوظيفتكِ، في مركزٍ مليءٍ برجال يستخفُّون بكِ في كلِّ دقيقةٍ من كلِّ يوم... وآخرُ ما كنتِ بحاجةٍ إليه هو مبتدئٌ ما... مُولعٌ بكِ».

جعلني أبتسم الآن: «مُولَعٌ؟».

«تقريباً».

«منذ متى؟».

لاقى عينيَّ بنظراته. «منذ اليوم الأوَّل».

«اليوم الأوَّل؟» سألتُ مجدَّداً لأتأكَّدَ. «اليوم الأوَّل في المحطَّة؟».

أومأ.

«اليوم الذي رشُّوكَ فيه بخرطوم المياه؟».

أومأ مجدَّداً.

اللعنة.

تابع كلامه: «لم يكن ليحدث شيءٌ، طبعاً. لم أكنْ أعتزم إخباركِ بذلك أبداً. أتستطيعين تخيُّل الرفاق؟ إذا حدث أنْ راودهم أدنى شكٍّ في الأمر، حتى ولو لم تباركي الأمر، أو أنَّكِ لم تعلمي به حتى، فسيذيقونكِ الأمرَّين بخصوصه. سيحوّلون مركز الإطفاء إلى جحيمٍ، بالنسبة إلى كلينا. أليس كذلك؟».

«نعم»، قلتُ مؤكِّدةً.

«لذا كان عليَّ طمس مشاعري... أو إخفاؤها جيِّداً لدرجة أنْ لا يشكَّ أحدٌ في الأمر».

أبقيْتُ صوتي هادئاً. «أنا لم أحزر ذلك».

«كانَتِ الأمور تمضي بخيرٍ... كنتُ أعمل على ذلكَ حقّاً».

«تعمل على ماذا؟».

«امم»، تابع، «على عدم السماح لنفسي بالتَّحدُّث إليكِ إلَّا عند الضرورة. عدمُ لَمْسِكِ إلَّا إذا ألزَمَني الكابتن بذلك. عدم ملاحقتكِ في الأرجاء. عدم طلب النصائح. عدم... التحديق بكِ مطوَّلاً، أو حتى استراق نظراتٍ كما كنتُ لأفعل لو كنتُ الشخص الوحيد على المحكّ. وأساساً، محاولةُ عدم التفكير فيكِ حتى». هزَّ كتفيه قليلاً ثمّ أضاف: «كنتُ أفشل في تلك الأخيرة معظم الوقت، لكنَّني كنتُ أحاول بصدقٍ».

طأطأ رأسه ونظر إلى حذائه. «لكنْ، بعدها... حدثَتْ تلك القبلة، وقد أطلقَتِ العنان لكلّ شيءٍ. جعلَتْني أفكِّرُ فيما لو لمْ أكنْ لوحدي في خِضَمِّ كلِّ ذلك».

امم، لا، لم يكن لوحده، لكنَّني حافظتُ على سكوني.

تابع: «ولذلك أشاركُكِ مشاعري الآن، لأنَّني لستُ متأكِّداً أبداً من أنَّكِ حين تصدينني، فأنتِ تُريدينني أنْ أرحل فعلاً».

أخذتُ خطوةً نحوه، ثمَّ أخرى، حتى صار جسدي لصيقاً به، كما كنَّا منذ لحظات، إلّا أنِّي هذه المرة، عِوَضَ التَّكوُّر على صدره، مدَدْتُ نفسي إلى الأعلى، وقرَّبتُ وجهي من وجهه.

شعورٌ مختلفٌ تماماً.

ثمَّ نظرْتُ في عينيه.

قلتُ له: «لا أريدُكَ أنْ ترحل».

ثمَّ أحطْتُ عنقه بذراعيَّ، وجذبْتُه نحوي، ووقفْتُ على رؤوس أصابع قدميَّ، وقبَّلْتُهُ.

لم أختر فعل ذلك، أو ربّما كنتُ قد اخترته منذ زمنٍ طويلٍ.

قبَّلْتُهُ هناك في الشارع، ونحن مستندان إلى شاحنته. مِلْتُ

نحوه، وأمسكتُ بزمام الأمور، ودفعْتُ بجسدي نحوه، وحاولتُ امتصاص صلابة صدره. داعبْتُ وجهه، وتذوقْتُ شفتيه، وسمحْتُ لنفسي بالذوبان في اللحظة كاملةً. ثمَّ رجعتُ إلى الخلف وقلتُ بأنفاسٍ متقطِّعةٍ: «إذا أخذْتُكَ إلى طابقي العلوي، أنستطيع مواصلة القيام بما نقوم به الآن؟».

ردَّ بابتسامةٍ ساحرةٍ: «أنا ممتنٌّ للغاية لما نقوم به الآن».

«لكنْ»، أضفْتُ، بغرض الإيضاح: «لن نذهب أبعد من ذلك».

«نقبِّلُ بعضنا فقط، هذا ما تقصدين؟».

أومأتُ.

«أنتِ تسألين إن كنتُ أرغب في مرافقتك إلى غرفتك وتقبيلك؟».

أومأتُ مجدَّداً. «لمدَّةٍ محدودةٍ من الزمن».

قبَّلني مجدَّداً. «أنا حتماً راغبٌ في القيام بذلك».

«سيتوجَّبُ عليَّ أَخْذُ الأمور برويَّةٍ، هذا ما أحاول قوله».

أومأ. «بالطبع».

«أنستطيع الصعود إلى غرفتي والنوم معاً... نوماً فعليّاً؟».

قال بابتسامةٍ عريضةٍ، وملامحَ لَعوبةٍ: «أيتها الإطفائية هانويل، أتقترحين عليَّ أنْ نتحاضن؟».

استسلمتُ لابتسامةٍ عريضةٍ أيضاً. «أظنُّ أنَّها طريقةٌ مختلفة لوصف ذلك».

«سأقبلُ بأيِّ شيءٍ. سأنام على سريرٍ من المسامير لأكونَ بقربكِ».

استدرْتُ، وأخذْتُ يده، وسرْتُ به نحو البيت. «هذا رائعٌ حقّاً، لأنَّ سريري مصنوعٌ من المسامير فعلاً».

«تمَّ»، قال، ثمَّ أضاف: «موافقٌ».

قُدْتُهُ عبر الحديقة، وفوق العتبة، وعلى السلالم المائلة، ثمَّ عبر باب علِّيَّتي.

إنَّه لمن المدهش كم تغدو جَسوراً حينَ تشعرُ بالأمان. قُدْتُه إلى حافَّة سريري، ثمَّ دفعْتُهُ، وسقطنا على السرير.

«شكراً لقدومِكَ إلى غرفتي»، قلتُ.

لاقى عينيَّ بنظراته. «شكراً لدعوتكِ إيَّاي».

«إنَّه أمرٌ جللٌ بالنسبة إليَّ».

«وهو كذلك بالنسبة إليَّ أيضاً».

«لكن سبق لك أن تكون في غرفة فتاةٍ من قبل».

حرَّكَ رأسه نافياً. «ليس في غرفةِ بَطَلَةٍ خارقةٍ».

«أنا لستُ بطلةً خارقةً».

«أنتِ قريبةٌ جدّاً من ذلك».

«أنا عكس ذلك، بطُرُقٍ عديدةٍ».

«قد لا تعرفين إلى أيِّ حدٍّ أنتِ مذهلةٌ».

«قد لا أعرف ذلك فعلاً».

لاقى نظراتي. «لكنَّني أعرف».

حدَّةُ نظرته جعلتني أشعرُ بالخجل.

«أفكِّر فيكِ طوال الوقت...»، اعترف حينها، «فكلُّ ما أفعله بين المناوبات هو انتظار رؤيتكِ مجدَّداً. وأثناء المناوبات، لا أستطيع التركيز. من المفترض أنْ أقوم بجدولِ عملٍ معيّنٍ، لكنَّ كلَّ ما أستطيع رؤيتَهُ هو تلك الخصلة المتمرِّدة التي فلتت من تسريحة شعرك المشدودة».

انحنيْتُ من أجل قبلةٍ أخرى، لكنَّه أوقفني.

«أظنُّ أنَّكِ جميلةٌ للغاية»، تابع ببطءٍ وعن عمدٍ، «الأمر خاطفٌ

للبصر، لكنْ ليس ذلك فحسب. فحين أنظر إليك أرى كلَّ تلك الأمور التي أُجلُّها. إنَّها كلُّ تلك الصلابة فيكِ طبعاً، وأعني مثلاً هدوءك العجيب بينما أبواب الجحيم مفتوحةٌ على مصراعيها، والطريقة التي تسجيلين بها رميةً ثلاثيةً خلف ظهركِ من دون أنْ تنظري حتى، ناهيكِ عن تمارين العقلة التي تقومين بها بذراعٍ واحدةٍ. وكيف أنَّكِ لا تهلعين، ولا يخيفك شيءٌ. ولكنْ أيضاً أنَّ أول أحلامك كان أنْ تصبحي جنِّيَّة أسنانٍ. وأنَّكِ تدندنين لنفسك في أثناء غسل الصحون. وأنَّه حين تضحكين، تضحكين بإفراط، فتنقطع أنفاسك، وتبدئين في إصدار صريرٍ مثل صرير فأرٍ».

«أنا لا أصدر صريراً مثل صرير الفأر».

«هنالك كلُّ هذه الصلابة بخصوصك... لكنَّ الشيءَ الأكثر إثارة للإعجاب بخصوص تلك الصلابة، هو أنَّكِ بنيْتِها لتحمي الرقة والحنان في داخلك».

رمشْتُ في وجهه. مَنْ كان هذا الرجل؟ «ليس صحيحاً أنْ لا شيءَ يخيفني»، ثمَّ اعترفْتُ: «أنتَ تخيفني».

أطلق ضحكةً. «أنا جِدُّ ولهان كي أخيفَ أيّاً كان».

كان عليَّ استيضاح شيء: «أأنتَ ولهان؟»، سألته.

لاقى عينيَّ. «وعلى نحوٍ رهيبٍ».

«بي أنا؟»، سألْتُ فقط لأتأكَّدَ.

نظر إليّ كأنَّني فاتنةٌ، وسخيفةٌ، ومحبوبةٌ، كلُّها في الآن ذاته، ثمَّ أومأ واستعاد جدِّيَّتَهُ مجدَّداً. «في كلِّ دقيقةٍ من كلِّ يومٍ».

«لستَ أنتَ مَنْ يُخيفني»، وضَّحْتُ، «إنَّها الأشياء التي أشعر بها تجاهكَ».

«الأشياء التي أشعر بها تجاهَكِ تُخيفني أيضاً»، قال، ثمَّ أضاف

بنبرةٍ جادَّةٍ للغاية: «سيتوجَّبُ علينا أنْ نكون حذرَين جدّاً في التعامل مع بعضنا».

«حسنٌ»، قلتُ موافقةً. وبعدها قبَّلْتُه بأنفاسٍ مقطوعةٍ.

«نستطيع أنْ نتوقَّفَ وقتما شئتِ...» استمرَّ بالقول.

لـم نتوقَّفْ.

لم أفكِّرْ في التَّوقُّف بعد ذلك أبداً.

كلُّ ذاك التقارب، وتلك الثقة، وذاك الوقت الذي أمضيْناه معاً، جعلَتِ الأمر سهلاً للغاية. كانَتْ هناك بعض التَّخبُّطات والزَّلَّاتِ، وبعض لحظات الضحك المرتبك. ضحكْنا كثيراً، وتعثَّرْنا، وأخذْنا الأمور برويَّةٍ وسرعةٍ، في الآن ذاته. شدّ شعري في لحظةٍ ما عن غير قصدٍ، وبعدها بوقتٍ قصيرٍ، ضربْتُهُ بمرفقي على عظم وجنته عن غير قصدٍ.

ولكنْ بقدر ما كانت درجة حماقة كلِّ ما حدث بيننا في تلك الغرفة وخفّته ومتعته، فتلك الليلة، على سريري الأبيض العذري، كانت... كانت جادّةً أيضاً. ولم تكنْ لها علاقةٌ بالماضي أو بالمستقبل. كنَّا أحياءً فقط، ومعاً، وسعداءَ... في تلك اللحظة وذلك المكان.

أسيكون الأمر على هذا المنوال دوماً؟ بالطبع لا.

كان المبتدئ سيرحل، وكانتْ أمي تموت، وكان العالم مليئاً بالوحوش. فالأشياء الجميلة لا تدوم، والناس يُؤذون بعضهم بعضاً كلَّ يومٍ، ولا أحد يحظى بنهايةٍ سعيدةٍ. لكنَّ تلك الليلة معه جعلَتْني أرى الأمور بطريقةٍ مختلفةٍ. كلُّ تلك المصاعب والإهانات والخذلان في الحياة لم تجعل نعيم هذه اللحظة أقلَّ أهمِّيَّةً، بل

تجعلها أكثر أهمّيّة. فحقيقةُ أنّها لن تدومَ كانَتِ السبب للتّشبُّث بها... كيفما أمكننا ذلك.

أجل، العالم مليءٌ بوحشيَّةٍ لا تُوصَفُ، لكنَّ الردّ على ذلك لا يكون بألّا نشعر بالأمل، أو السّعادة، أو الحبّ، بل أن تذوّق كلَّ ثانيةٍ عابرةٍ ثمينةٍ من تلك المشاعر حين تأتي.

الجواب ليس ألّا نحبَّ أحداً أبداً.

بل أنْ نحبَّ بجنونٍ كلّما أمكننا ذلك.

لذا قبّلْتُهُ أيضاً حين فعل، واخترتُ أن أؤمن بتلك القُبلة.

ما حدث بيننا تلك الليلة كان جميلاً جدّاً. ما حدث كان بالضبط ما كنتُ في حاجةٍ إليه.

كان هنالك شيءٌ قويٌّ بيننا، وتملّكني شعور راسخ بأنّه يستطيع إعادة بناء شيءٍ أساسيٍّ كان قد تحطّم في داخلي، تماماً كما يخفِّفُ الضحكُ الأسى، أو تخفِّفَ الرفقةُ الوحدةَ، أو تخفِّفَ وجبةٌ جيدةٌ الشعورَ بالجوع.

كان ذلك شيئاً عميقاً اكتشفته حينها. كان بإمكان الحبِّ أن يشفيني. ليس المبتدئ، ولا رجلاً آخر، ولكنْ الحبّ ذاته، وربّما قراري الجريء بممارسته.

اتّضح حقّاً أنّه قوّةٌ، وليس ضعفاً. قوّةُ رَفْضِ السّماح لوحوش العالم بتدمير كلِّ شيءٍ. قوّةُ استرجاع حقّي في أنْ أكونَ سعيدةً.

24

صباح اليوم التَّالي، استيقظتُ بمبتدئٍ نائمٍ في سريري.

أظنُّ أنَّ هناك مرةً أولى لكلِّ شيءٍ.

استيقظْتُ متأخِّرةً، يجب أنْ أضيف؛ لأنَّني وبشكلٍ بديهيٍّ للغاية، نسيْتُ ضَبْطَ المنبِّه في الليلة الماضية.

لا شيء في ذلك الموقف الوضع أثار حفيظة أوين، لكنَّ كلَّ شيءٍ فيه أثار حفيظتي.

«استيقظْ، هيَّا، استيقظْ!»، قلت وأنا أجرّ البطانية نحوي، «والدتي بالأسفل! إنَّه الصباح! نحن متأخِّران! لدينا مناوبةٌ اليوم! هيَّا، هيَّا!».

فتح عينيه، وأبصرني بطريقةٍ لا أستطيع وصفها إلَّا بأنَّها كانَتْ تشي بالتَّنعُّم.

«هيَّا، يا رجلُ! ستفقد وظيفتكَ!». خطوْتُ نحو الحمَّام لأفتح الدُّشَّ، وحين رجعْتُ إلى الغرفة، كان يقف هناكَ، يبحث عن سرواله. «يا إلهي»، قلت، وأنا أضع كلتا يديَّ على وجهي.

استرقْتُ النظر عبر أصابعي. «أتريد أنْ تعرف عدد الرجال الذين كانُوا برفقتي في هذه الغرفة؟».

«ليس فعلاً».

«صفرٌ».

«حتى هذا اليوم».

«حتى هذا اليوم»، كرَّرْتُ. «سوف نتأخَّر»، قلتُ بعد أنِ استعدْتُ جدِّيَّتي، «كلانا، وفي الوقت نفسه. سيعلمون ما حدث تماماً».

«لنْ يفعلُوا، لأنَّ لديَّ وجهاً أسطوريّاً خالياً من التعابير تماماً».

«أما أنا، فلا». كنتُ ألهث قليلاً. «لم يسبقْ لأيٍّ منَّا التَّأخُّر! وأنْ نتأخَّر كلانا... معاً؟ أظنُّ أنَّه قُضِيَ علينا».

«لا داعي للهلع»، أصرَّ وكلُّه هدوءٌ. «سأرسل رسالةً نصيةً للكابتن أخبره فيها أنَّ سيَّارتَكِ تعطَّلَتْ وأنَّني سأوصلكِ».

في الحقيقة، كانَتْ تلك فكرةً جيِّدةً.

قابلةً للتَّصديق، على أيةِ حالٍ.

«اذهبي وخذي دشّاً»، قال بعدها، «سأعدُّ القهوة».

بدأْتُ أستدير، لكنَّه قال: «انتظري، أمرٌ أخيرٌ سريعٌ».

ثمَّ صار بجواري، بلا قميصٍ، بلا حذاءٍ، وكان يلفُّ ذراعيه حولي أنا والبطانية. ضغط بوجهه على عنقي وعلى شعري ثم همس: «شكراً لكِ... على كلِّ شيءٍ».

لم يراودِ الرفاقَ الشَّكُّ بنا إطلاقاً.

لو حدث ذلك لضايقُونا بلا رحمةٍ. انتظرتُ حدوث ذلك طوال اليوم، لكنَّه لم يحدثْ أبداً.

لذا فعلتُ أفضل ما أجيدُ فعله: تجاهلْتُ المبتدئ تماماً، وقمتُ بعملي.

كان ذلك قبل أسبوع من توفُّر فرصةٍ لأوين للتَّحدُّث إلى والده،

لذا كانتْ لدينا على الأقل مناوبتان كاملتان للقيام بذلك قبل أنْ يتغيَّر أيُّ شيءٍ. أيّاً يكن «ذلك». لم يكنْ مواعدةً، هذا أكيدٌ. لقد حرَّمْتُ عليه الوجود بقربي مجدّداً حتى يُحَلَّ هذا الوضع برمَّتِهِ. أظنُّ أنَّنا كنَّا نكتمُ سرّاً مشتركاً لا غير، أو ربما كنَّا نغذّي افتتاناً متبادلاً. أو نحظى بومضاتِ ذاكرةٍ، باذخةٍ، صادمةٍ، لذيذةٍ، بخصوص تلك الليلة المجيدة في غرفتي في العلِّيَّة، والطريقة التي كان النسيم البحريُّ العليل يجعل بها أهداب الستائر تتراقص.

أو ربما أننا كنَّا، وبطريقةٍ صامتةٍ، من دون القيام بأيِّ شيءٍ على الإطلاق، نجعل بعضنا سعيدَين.

كان غريباً أنْ نشعر بالسعادة، ولا سيَّما أنَّه كان هنالك الكثير من المشاكل والأسى من حولنا، ولكنْ بدا أنَّني لم أستطع مَنْعَ ذاك الشعور بالبهجة.

لذا تركْتُ الأمر على ما هو عليه. تركتُ ذاك الشعور يغيِّر تجربة كوني في مناوبةٍ بطُرُقٍ لم تكن مهمَّةً، وأخرى كانتْ كذلك. كان من المفترض أن أكون روبوتاً، لكنَّني أصبحتُ نقيض ذلك. عِوَضَ المعدن والآلات تحت قفصي الصدري، كانَتْ هنالك موسيقا ومشاعر وألوانٌ. كان ألماً بخصوص والدتي، ونشوةً بخصوص أوين، وأملاً في المستقبل، وندماً على الماضي.. كلُّها تتمازج وتدور في سيمفونية لا تتوقَّفُ عن العزف في داخلي.

كان ذلك مُشتِّتاً.

لم أكنْ متأكّدةً أنَّ ذلك جعل أدائي أسوأ في العمل، بالرغم من ذلك.

وإن كان له أيُّ تأثيرٍ فِيَّ، فقد بدا أنَّه جعلني أفضل: أكثر الْتزاماً، أكثر تنبُّهاً، أكثر حياةً.

لم يكنِ الأمر أسهل. كان أصعب.

لكنَّه كان أفضل.

أمضيْتُ أسبوعاً كاملاً على ذلك المنوال، أحاول السماح لدواخلي بتشرُّب كلِّ ما حصل، والشروع في تجميع الأجزاء لفهمه بعقلي. نجحْتُ، ولم أنجحْ. وأصرَّتْ أمِّي على أنَّ ذلك كان طيِّباً وأنَّه لا داعي للقلق. هكذا يعمل القلب، قالتْ، يعمل في حلقاتٍ أكثرَ من عمله في خطوطٍ مستقيمةٍ.

احترم أوين بلطفٍ رغباتي، ولم يقمْ بزيارتي خلال الأيام التي لم تكن لنا بها مناوبةٌ.

لكنَّه اتَّصل كلَّ ليلةٍ مع موعد النوم.

فأستلقي على سريري، هناك في العلِّيَّة، وهو على الطرف الآخر من الخطِّ، مثل المراهقة الحالمة التي لم يتسنَّ لي أنْ أكونها، رِجلاي الحافيتان على النافذة، أشاهد القمر عبر الستائر الرقيقة لساعاتٍ، ونحن نتحدَّث إلى أنْ نستسلم للنوم.

ثمَّ، وخلال آخر مناوبةٍ قبل أنْ يشرح أوين كلَّ شيءٍ لوالده ويستقيل بصفةٍ رسميةٍ، تلقَّيْنا اتِّصالاً بشأنِ حريقٍ في مبنًى.

لم يكنْ هذه المرَّة حريقاً في مرآبٍ صغيرٍ بضواحي البلدة، بل كان محلَّ بقالةٍ، في وسطها تماماً، وكان حريقٌ قد بدأ في الساعات الأولى من الصباح، وواصل الْتِهامَ كلِّ ما يجد أمامه حتى شروق الشمس حين رأى مدير المحلِّ عموداً دخانياً متصاعداً من السقف بعد أنْ توقَّف أمام المحلِّ ليبدأ يومه.

حين وصلنا، كان حشدٌ غفيرٌ من الناس قد اصطفُّوا على جنبات الطريق، وكنَّا أوَّلَ فريقٍ يصلُ إلى عين المكان.

كان حريقاً هائلاً.

مشهدُ بنايةٍ تضطرم بها ألسنة اللهب آسرٌ حقّاً. تكون هنالك دوماً حشودٌ متجمهرةٌ، والحشود أغبى ممَّا قد تظنُّون، فأحياناً يقومون بمضايقة الإطفائيين، وأحياناً يحاولون تقديم يد العون، وأحياناً أخرى يحاولون الاقتراب من الحريق لأخذِ صور سيلفي.

أخذْنا بضع دقائق لتقييم الوضع.

كنَّا في حاجةٍ إلى الدعم، الكثير من الدعم.

أطلق الكابتن إنذاراً ثانياً. كان رئيس قسم الحرائق في طريقه إلى المكان، لكنَّه كان قادماً من المحطَّة المركزية البعيدة. تلقَّيْنا معلومةً من مركز الاتِّصالات مفادها أنَّ فريق المحطة الثالثة كان في طريقه إلينا، وفريق غلوستر[1]، أيضاً.

أمضَتِ البناية التي لم تكن بها مراوحُ تهويةٍ صباحها وهي تحترق، وتمتلئ بالأدخنة السوداء. كان محلّاً على طراز الستينيات، بمدخلٍ واحدٍ من الزجاج في الأمام، وربَّما بابٍ ومكانٍ لتحميل السلع في الخلف. لا تنكسر النوافذ حتى تبلغ الحرارة 250 درجة تقريباً، وقد كان صفُّ النوافذ على الواجهة الأمامية ما يزال سليماً.

كان التصميم بسيطاً للغاية، لكنَّ ما جعل الوضع معقَّداً هو أنَّ طريق الدخول من الأمام أو الخلف كان مقطوعاً بجدارٍ سميكٍ من الإسمنت. ينفتح المدخل الأمامي على طريقٍ سريعٍ، لكنْ لم يكن بالإمكان الوصول إلى خلف المحلِّ إلَّا عبر الالْتِفاف عند ركن الشارع عبر شارعٍ خلفيٍّ.

وممَّا بدا من منظر الدخان، كانَتِ النار متركِّزةً في الخلف.

---

(1) Gloucester: مدينة بدائرة إيسيكس، ولاية ماساشوستس - المترجم.

جمع الكابتن ثلاثة رجالٍ - ضئيلٌ، والحقيبة، والعضلاتُ السّتُّ - للقيادة نحو خلف المحلّ، الأقرب إلى المصدر. وأمرني أنا ودي ستاسيو وأوين بالبقاء في الجهة الأمامية مع سيَّارة الإسعاف، لتولّي أمرِ الحشدِ، وإرشاد الرئيس وكلّ فرقِ الدعم لبلوغ الجهة الخلفية متى ما وصلُوا. «هذه نارٌ دفاعيةٌ. . .»، قال الكابتن حين استعدُّوا للانطلاق وهو يشير إلينا، «لا عمليَّاتٍ داخليةٌ».

بمعنى، لا تدخلُوا.

لا جدال من طرفي، فكان ذلك المبنى عبارةً عن فَخٍّ مميتٍ.

انتظرْنا أمام المحلّ، ثلاثتنا، لكنَّنا ظللْنا منشغلين. أبقى المبتدئ ناظريه على الحشد، وتولَّيتُ أمر اللّلاسلكي، ومضى دي ستاسيو لتفقُّدِ المبنى.

لا أذكر الآن كيف اهتديْنا إلى تقسيم المهامّ بتلك الطريقة. لا أذكر أيّة محادثةٍ بخصوص ذلك، برغم أنّني سأتمنّى لاحقاً لو أنَّ دي ستاسيو أخذ أيّة مهمّةٍ أخرى غير تلك.

لأنَّ دي ستاسيو، وهو يتفقَّدُ المدخل والنوافذ، رأى شيئاً سيغيِّر كلَّ حيواتنا.

رأى طفلاً صغيراً داخل المبنى.

يرى الناس «شخصاً داخل المبنى» طوال الوقت.

الدخان، الحرارة، الطريقة التي يشوّهان بها الهواء. . . قد تجعلك تظن أنّك ترى أشياءَ. قد تحسب أنك ترى وجهاً خلف النافذة، لكنّه لا يكون إلّا دخاناً. قد تظنُّ أنّك تسمع شخصاً يصرخ النجدة، لكنّه لا يكون إلّا صفيراً يُحدثه المجرى الهوائيُّ. قد يشُلُّ الهلع دماغك. رأيتُ الأمر يحدث مرّةً تِلْوَ الأخرى، وسمعْتُ قصصاً

عديدةً، فحين يرى أحدُ المدنيين أحداً داخل المبنى، تشكره وتواصل القيام بما كنتَ تقوم به.

لكنْ حين يقول إطفائيٌّ ذلك، فتلكَ قصَّةٌ مُختلفةٌ تماماً.

ظهر دي ستاسيو أمامنا مجدَّداً، بأنفاسٍ مقطوعةٍ، كأنَّه كان يجري. والإطفائيون لا يجرون أبداً. «لقد رأيتِه، أليس كذلك؟»، قال دي ستاسيو ذاهلاً: «أرأيتِه؟».

«مَنْ تقصد؟».

«داخل المبنى، خلف النافذة مباشرةً. طفلٌ صغيرٌ».

تفحَّصْتُ النوافذ. لم أرَ أيَّ شيءٍ. «أنا لا أرى أحداً».

الْتفتَ باتِّجاه أوين. «رأيتَهُ، أليس كذلك، يا مبتدئ؟».

حرَّكَ أوين رأسه نافياً.

لكنَّ دي ستاسيو كان قد شرع في ارتداء معطف الإطفاء. «فلْنتحرَّكْ، هيَّا بنا».

بدأ يعتريني شعورٌ سيِّئٌ. «أتريد الدخول؟».

«هناك طفلٌ في الداخل»، قال دي ستاسيو بطريقةٍ مفادها أنَّه أمرٌ غير قابلٍ للنِّقاشِ.

«لا نملك العدَّة المناسبة»، قلتُ وأنا أحرِّكُ رأسي رافضةً، «يجب أنْ ننتظرَ وصول الدعم».

شيءٌ ما اتَّقدَ في وجه دي ستاسيو، نوعٌ من الاغتياظ لم تسبقْ لي رؤيته من قبل قطُّ. إذا كان لا بدَّ أنْ أحزرَ، سأقول إنَّ ما استفزّه هو أنْ يتمَّ إخباره بأنَّه «يجب أنْ» يقوم بشيءٍ ما، من طرف عضوٍ من طاقمه يدنوه رتبةً، أو بالأحرى عضوٍ كانَتْ في الحقيقة امرأةً. ومحتملٌ أيضاً أنَّه أحسَّ أنَّني أشكِّكُ فيه بخصوص الطفل، لكنَّني

تفحَّصْتُ النوافذ ولم أرَ شيئاً. ثمَّ لِمَ قد يكون طفلٌ في محلٍّ بقالةٍ في هذه الساعة من الصباح؟ لم يبدُ ذلك معقولاً.

«ما يجب أنْ نقوم به»، تابع دي ستاسيو بصوتٍ منقبضٍ ملؤُهُ الحَنَقُ، «هو أنْ ندخلَ إلى هناك. فوراً!».

تشبَّثْتُ بموقفي. «لدينا أوامرُ بالبقاء خارجاً. سيصل الدعم في غضون عشر دقائق».

«لا»، ردَّ دي ستاسيو، «لا يوجد وقتٌ للانتظار».

جزءٌ من المشكلة كان يتمثَّل في الآتي: دي ستاسيو، كما كان يذكِّرني طوال الوقت، كانتْ له خبرةُ سنين طويلةٍ في الإطفاء، أكثر منِّي بكثيرٍ. كان يعلوني رتبةً ومقاماً بكلِّ الطرق الممكنة... باستثناء واحدةٍ: كنتُ مُسعِفةً طبِّيَّةً تلقَّتْ تدريباً شاملاً، بينما كان هو مسعفاً أوَّليّاً فقط.

فتقنيّاً، وبرغم أنه كان العضو الأعلى رتبةً، كنتُ أنا المُسعفة الرئيسة في المكان.

وهو ما يحتمل أنْ يكون قد تسبَّب أيضاً في شيءٍ من ذاك الحنق.

الْتفتَ دي ستاسيو باتِّجاه أوين. «ضَعْ قناعَكَ، سوف ندخل».

«لدينا أوامرُ بالبقاء خارجاً»، نبَّهْتُه مجدَّداً.

مال باتِّجاهي بأعينٍ مهتاجةٍ وشرسةٍ. «اتَّصلي بالكابتن على اللاسلكي».

لذا حاولْتُ.

حملْتُ جهاز اللاسلكي اليدويَّ وشغَّلْتُهُ. «كابتن»، ناديْتُ، «لدينا طفلٌ محتملٌ عالقٌ داخل المبنى، حوِّلْ».

انتظرتُ استجابةً، لكنَّ كلَّ ما سمعْتُهُ كان صوتَ رنين.

حاولْتُ مجدَّداً. «كابتن، نطلب الإذن بدخول المبنى وتفقُّد وجود ضحايا، حوِّلْ».

هذه المرة، بُثَّتِ الحياة في جهازه، لكنَّ الخط كان رديئاً، وكلُّ ما استطعْتُ سماعه كان أنصاف كلماتٍ، ولم أستطعِ التَّيقُّن ممَّا قاله، والحق يُقال، بدا الأمر أقرب إلى أصواتٍ مشوَّشةٍ من كونه رسالةً.

نظرتُ إلى دي ستاسيو. «أنا لا أستطيع سماعكَ، يا كابتن»، ثمَّ واصلتُ: «أعدْ من فضلكَ، حوِّلْ».

موجةُ رنين طويلةٌ أخرى. أيستطيع سماعي؟

«لقد ضِقْتُ ذرعاً»، قال دي ستاسيو، «سندخل».

«لدينا أوامر بعدم **الدخول**»، كرَّرْتُ للمرة السبعين.

«لا أبالي».

«هذا عصيانٌ للأوامر»، نبَّهْتُه مجدَّداً.

«قولي ذلك للطفل في الداخل».

كان دي ستاسيو في طريقه بالفعل نحو المبنى. أمسك بأوين وجذبه معه. أوين، طبعاً، لم يكن له خيارٌ سوى إطاعة أوامر دي ستاسيو. هذا هو أساس النظام التراتبيِّ. ربَّما كان دي ستاسيو أقلَّ منِّي رتبةً، لكن كان أوين أقلُّ من كلينا رتبة.

«لدينا أوامر بالبقاء في الخارج!»، صرخْتُ مجدَّداً وأنا أتبعهما.

«ليس ذلك ما سمعْتُهُ للتَّوِّ».

«لكنَّ كلَّ ما سمعْتَهُ كان صوتَ رنين»، قلت.

«نحن ندخل دائماً. إذا ما كان هنالك احتمالٌ واحدٌ لكون أحدهم في الداخل، وندخل المكان».

«لا تدخلا إلى هناك!»، صرخْتُ.

سبقْتُهُما جَرياً، ثمَّ وضعْتُ جسدي بين دي ستاسيو والمدخل، ووقفتُ بثباتٍ، مدافعةً عن حدودي.

لكنْ كان هنالك ذلك الحنق من جديدٍ. هجم عليَّ دي ستاسيو، يصرخ، وجهُهُ مُحمرٌّ، والبصاق يتجمَّع عند حافتَي فمه.

لم يسبقْ لي سماع دي ستاسيو يصرخ.

«أنا أعمل في هذا المركز قبل أنْ تأتي إلى هذه الحياة!»، تابع ووجهه قناعٌ من اللَّوعة. «حين بدأتُ العمل مع هذا الكابتن، كنتِ ما تزالين في حفَّاضاتكِ! حاربْنا النيران سويَّةً لعددٍ لا يَقدِرُ أحدٌ إحصاءَه، فلا تقولي لي ما يجب علينا فعله! أعلم ما يجب فعله! أستطيع تتبُّع أوامر الكابتن في نومي! هناك طفلٌ داخل ذلك المبنى. لا يوجد وقتٌ للانتظار! 'لنحميَ ونخدمَ'[1]! تريدينني أنْ أترك ذلك الطفل يحترق حتى الموت، لكنَّني لن أفعل ذلك!».

صرختُ في وجهه. «لا يمكنكَ الدخول إلى هناكَ!».

«لا يمكنُكِ مَنْعي». وكزَ أوين على كتفه. «يا مبتدئ، هيَّا بنا».

ثمَّ، وبعرضٍ بطيءٍ، شاهدْتُ المبتدئ يتبعه.

«يا مبتدئُ!»، صرختُ، «ماذا تفعل؟».

الْتفتَ وحرك رأسه. «إنَّه فخٌّ مميتٌ هناك في الداخل».

«أجل»، وافقْتُهُ الرَّأيَ وأنا أرفع ذراعيَّ وأفتحهما، **ما هذه الورطة بحقِّ الجحيم؟** «إنَّه فخٌّ مميتٌ هناك في الداخل».

حرَّكَ أوين رأسه، وقال بنبرةٍ جادَّةٍ تماماً: «لا أستطيع تركَهُ يدخل وحده».

---

(1) شعار قسم شرطة لوس أنجلوس منذ 1963، والذي تم تبنّيه بعد ذلك من طرف أقسام خدمة عمومية أخرى - المترجم.

اللعنة.

تفقَّدْتُ الطريق بحثاً عن أيِّ علامةٍ لاقتراب فِرَقِ الدَّعم. لا شيءَ بعد.

وحينها أدركْتُ صلب الموضوع: لم يكن المبتدئ ليسمح بدخول دي ستاسيو لوحده، ولم أكنْ لأسمح بدخول المبتدئ من دوني.

هذا ما كان يحدث إذاً.

كنَّا هالكين، جميعنا.

ربطْتُ حبل توجيهٍ بأحد الأعمدة قرب المدخل، ثمَّ شغَّلْتُ أجهزة السلامة[1] وتفقَّدْتُ الأقنعة وحاويات الهواء. أحياناً، في مكانٍ ذي تهويةٍ جيدةٍ، لا تكون بحاجة إلى الاستعانة بهوائكَ في الحال، لكنَّ هذا المكان كان عكس ذلك تماماً. أدرْتُ الصَّمَّام على حاوية دي ستاتسيو، بينما أدار هو صمَّام أوين، وقام الأخير بإدارة صمَّامي.

تذكيرٌ سريع: «يا مبتدئ...» سألتُه، «ما متوسِّط الوقت الذي تدومه حاوية ثلاثين دقيقةً وسط نيرانٍ مشتعلةٍ؟».

ردَّ أوين: «خمس عشرة دقيقة وستة أعشارٍ».

«حسنٌ جدّاً». ثمَّ قلتُ وأنا أشدُّ حبل التوجيه لأتأكَّدَ من أنَّه مثبَّتٌ جيداً: «عند الدقيقة الثامنة، نعود من أجل حاويات هواءٍ

---

(1) PASS device (Personal Alert Safety System): جهاز شخصي يستعمل عادة من طرف الإطفائيين لدى دخولهم إلى أماكن خطرة في وضعيات حياة أو موت، ويصدر الجهاز صوتاً قوياً (95 ديسيبل) لتنبيه الآخرين بالمنطقة إلى وجود إطفائي في حالة حرجة، حيث يمثل حالة مستعجلة تتطلب تدخلاً فورياً - المترجم.

جديدةٍ. لا استثناءاتٍ. حتى ولو لم ينطلق إنذارُ انخفاضِ مستوى الهواء بعد. حتى ولو لم يرجع دي ستاسيو معك. أنا لنْ أدعكَ تموت اليوم، مفهومٌ؟».

أومأ المبتدئ.

رمقتُ الجزءَ الخلفي من خوذة دي ستاسيو بنظرةٍ. «هذا أغبى شيءٍ أقوم به أثناء حريقٍ على الإطلاق»، قلتُ لأوين. «ابقَ على تواصلٍ جسدي ولفظيٍّ معي طوال الوقت. وأيّاً كان ما تفعل، لا تتركْ حبل التوجيه».

قد نكون بخيرٍ.

ربَّما.

فتحْنا الأبواب الأمامية المنزلقة، فخرجَتِ الأدخنة متموّجةً كأنَّنا فتحْنا فمَ تنّينٍ.

حين تعمل داخل مبنًى يحترق، لا يجب أنْ تتوقَّع أنْ تكون قادراً على الإبصار، فالدخان السميك الغامق يملأ كلَّ الغرف. وإذا انْفجرَتِ النوافذ، فقدْ يبدأ الدخان بالتلاشي أحياناً، وإذا بقيْت منخفضاً، فستتمكَّن من الرؤية جزئيّاً.. لكن لا تُوجَد ضماناتٌ، وستلتمس طريقك عبر اللمس. تلك مهارةٌ خاصةٌ: القدرة على تصوّر الغرف وبناء مخططٍ ذهني لأماكن غير مألوفةٍ بتاتاً، من دون استعمال عينيكَ، هنالك حتماً عنصر علاقاتٍ مكانيةٍ.

وأيضاً عنصر انعدام الهلع.

تدفعك الحرارة نحو الأسفل على أية حالٍ، وتمشِّط الغرف على أربعٍ، وتبقَى بمحاذاة الجدران. في المباني السكنيَّة، يجب أنْ تنظر أسفلَ الأسِرَّة وداخل الخزانات، لأنَّ الأطفال حين يخافون، يميلون

إلى الاختباء تحت الأثاث أو داخل صناديق الألعاب أو سِلال الغسيل. ولكن أين قد يختبئ طفلٌ داخل محلٍّ بقالةٍ؟ أين من المفترض أنْ نبحث؟

قال دي ستاسيو إنَّه رآه عند النافذة الأمامية. سنبدأ من هناك عند الجدار الأماميّ، وسيتوجَّب علينا أنْ نحافظ على لُحْمَتِنا، فلم يسبق للمبتدئ أنْ كان في وضعٍ بمثل هذه الشِّدَّة من قبل. وبرغم أنَّنا أخضعْناه للعديد من التَّدريبات بأعينٍ معصوبةٍ، فلن يكون الأمر مشابهاً هذه المرة، مع الحرارة، وضغط الوقت، والسواد.

بل الأمر مختلفٌ تماماً حين تقوم به في الواقع.

عادةً لا تدخلُ مبنًى من دون خطِّ خرطوم مياه، بوصفِه مصدراً للماء لإبقاء ألسنة اللهب بعيدةً، وأيضاً بوصفه حبلَ حياةٍ يقودك عائداً من حيث دخلت. لذا تُبقِي على الخرطوم، دوماً، دوماً، أو تجازف بالتَّيَهان في مكانٍ غير مألوفٍ، فأنت بحاجة إلى تلمّس الخرطوم لإيجاد طريق الخروج.

ولكنْ لم يكن لنا خرطومٌ، فخرطوم المياه ذهبَ إلى الخلف مع شاحنة الإطفاء.

إليكَ شيئاً من سخرية القدر: كنا قد طلبْنا أجهزة لاسلكية جديدةً، لكنَّها لم تصلْ بعدُ. وحتى الأجهزة اللاسلكية الجيِّدة كانَتْ تعمل بصعوبةٍ في ظروفٍ شديدةٍ كهذه، لكنَّ صوت الرنين على خطِّ الكابتن لم يكنْ مقبولاً البتَّة.

قرأتُ ذات مرَّة أنَّ معظم حالات موت الإطفائيين مردُّها إلى مشاكلَ في التواصل، ولم يفاجئْني ذلك أبداً.

أكنْتُ أظنُّ أنَّ ما كنَّا نقوم به الآن قد يقود إلى موت إطفائيين؟

أجل.

لكنْ، سيتوجَّبُ علينا أن نعمل بجهدٍ كبيرٍ وأنْ نأمل حدوث الأفضل. . .

وإيجاد الطفل، إذا أمكنَنا.

في الداخل، تلمَّسْنا طريقنا من بين حاملات المجلَّات وصفوف العربات عند المدخل.

أبقيْتُ قفَّازاً واحداً على حبل التوجيه طوال الوقت، بينما ناوبْتُ مهمَّة يدي الأخرى بين تلمُّس المكان من حولي والحفاظ على اتِّصالي بحذاء دي ستاسيو المتقدِّم أمامي. كان المبتدئ خلفي، يقوم بالأمر ذاته.

كنتُ قلقة بشأن إمدادات الهواء.

كنَّا في الداخل منذ خمس دقائقَ. كان الدخان كثيفاً جدّاً، وقد انْفجرَتْ نافذةٌ في مكانٍ ما، لكنَّ كثافة الدخان لم تخفّ.

واصلْنا الزَّحف والتَّقدُّم، وكلُّ ما كان بإمكاني رؤيته هو أضواءٌ خافتةٌ في الأسفل وسوادٌ قاتمٌ في الأعلى.

قريباً، سأتمكَّنُ من رؤية اللهب يتدحرج عبر السقف.

وقت الخروج سيحين قريباً. سبق لي الوجود داخل نيرانٍ أكبر من هذه، ونيرانٍ أعلى حرارةً من هذه، لكنْ لم يسبقْ لي أنْ كنتُ بسوء التجهيز هذا. . . بلا معدَّاتٍ. أتذكَّرُ أحد الرفاق القدامى من أوستن وهو يخبرُني حين كنتُ ما أزال مبتدئةً: «إنَّها حالةُ طوارئ حتى نصل إلى المكان. بعد ذلك يغدو الأمر عبارةً عن عملٍ فقط».

بطريقةٍ ما، بدا لي هذا مثل حالة طوارئ.

ستون ثانيةً أخرى، فكَّرْتُ، وبعدها نخرج من هنا.

حينها سمعْتُ صوت أوين على جهازي اللاسلكي، يضحك.

في الواقع، كان الأمر أقرب إلى قهقهة.

سألته: «ما المضحك، يا مبتدئ؟».

لا جواب، بل المزيد من الضحك. لمَ كان يتحدَّث على اللاسلكي على أية حالٍ؟

استدرْتُ إلى الخلف نحوه، لكنَّه لم يكن هناك.

«يا مبتدئ؟»، ناديْتُ له، «يا مبتدئ، هل أنت على خطِّ التوجيه؟».

«أظنُّ أنني أرى أرنباً»، قال أوين عبر اللاسلكي. أو ذلك ما بدا لي أنَّني سمعته.

«ما الذي يهلوِسُ بشأنه؟» صرخ دي ستاسيو وهو ما يزال يتقدَّم إلى الأمام.

مزيد من الضحك عبر اللاسلكي.

لم يكن هنالك سبب، **على الإطلاق**، ليضحك المبتدئ. فالإطفائيون يمارسون الكثير من الضحك، لكنَّهم لا يضحكون أبداً، مطلقاً، وهم يشتغلون على نارٍ. «قد يكون تسمُّماً بالسيانيد»، قلت. كنتُ قد تعلَّمْتُ كلَّ شيءٍ عن الأمر حين تقدَّمْتُ بطلب عُدَّةِ السيانيد، فتابعْتُ كلامي: «هو يجعل المرءَ أقرب إلى المخمور، قبلْ أنْ تبدأ الأعراض الحقيقية بالظهور».

نظريّاً، كان أوين يتنفَّس الهواء من حاويته، لكنَّنا تحرَّكْنا بسرعةٍ في طريقنا إلى هنا، وقد يكون جهاز تنفُّسه غير مثبّت جيّداً. أو فيه تسرُّبٌ. أو أنَّ أحد الأنابيب قد انفتح من دون أنْ يفطن إلى ذلك.

«يا مبتدئ، أين أنتَ؟». لم أكن قادرةً على رؤيته. وجَّهتُ مصباحي اليدوي لتفقُّد المكان خلفي، لكنَّه لم يكنْ هناك.

أحسسْتُ بوخزة هلعٍ في صدري، فقلتُ: «دي ستاسيو، توقَّفْ! المبتدئ ليس على خطِّ التوجيه!».

توقَّف دي ستاسيو.

أدرْتُ المصباح من حولي. لا شيء سوىء الدخان والسواد.

«يا مبتدئ، أين أنت؟»، قلت في جهاز اللاسلكي. «ماذا تستطيع أنْ ترى؟».

«أشياء ناعمة»، أجاب.

حاولتُ جعل صوتي سُلطوياً حتى يطيعني. «ابحثْ عن شعاع مصباحي اليدوي وسِرْ باتِّجاهه».

ثمَّ رأيْتُه. يزحف باتِّجاهي قرب نهاية أحد الأجنحة. على بعد ثلاثة أمتار ربَّما.

ارتياحٌ. اتِّصالٌ بصريٌّ. كلُّ ما كان عليَّ فعله هو الذهاب إليه وإرجاعه إلى الحدود المحيطة.

بدأْتُ أتحرَّكُ نحوه.

ولكن بعدها حدث شيئان، أحدهما بعد الآخر.

وقف المبتدئ - الذي لا بُدَّ أنَّه لم يكن في كامل قواه العقلية ليقوم بذلك - كأنَّه كان سيتمشَّى نحوي ببساطةٍ.

وبعدها، انهار السَّقف.

25

كان الصوتُ خرافيّاً، كأنَّ ألف مدفعٍ أُطلقُوا دفعةً واحدةً. رُجَّتِ الأرض كأنَّها كانَتْ هزَّةً أرضية، ولوقتٍ أطول بكثيرٍ ممَّا كان يجب أنْ تدوم.

ثمَّ سكونٌ تامٌّ بعد ذلك، وغشيَ الغرفة بياضٌ تامٌّ.

لم أستطع رؤية أيِّ شيءٍ، ولا حتى يدي أمام وجهي. زحفْتُ نحو المكان حيث كان دي ستاسيو، لكنَّني وجدْتُ رفّاً مقلوباً. صرخْتُ في اللاسلكي: «هل أنتَ واعٍ؟».

«أنا بخير»، صرخ مجيباً، ثم أضاف: «لكنَّ شيئاً ما بلغ كتفي».

«ابق هناك، اتَّفقْنا؟ سأحضر المبتدئ، وسأعود من أجلك».

وأنا أزحف وسط البياض، طقطق جهاز اللاسلكي بموجةِ رنين صاخبةٍ. كان الكابتن يسأل الجميع التبليغ عن أوضاعهم. بلَّغْتُ عنّي وأنا أزحف، برغم أنَّني شككْتُ في أنَّ الكابتن لم يكن يستطيع سماعي.

بعد ذلك، موجةُ رنين أخرى، على الأرجح أنها كانَتْ إشارة طوارئ قصوى من الكابتن، ثمَّ، ثوانٍ بعد ذلك، بلغني صوتُ كلِّ الشاحنات في الخارج وهي تنفخ أبواقها الهوائية دفعةً واحدةً لمدَّة

خمسٍ وأربعين ثانيةً. هذا الصوت يعني: اخرجوا من هناك، فوراً!!!

لكنَّ كلَّ تركيزي كان منصبّاً على صوتٍ آخر.

لأنَّه قبل أنْ تنطلق الأبواق، سمعْتُ صوتاً طارئاً أكثر. انطلق صوتُ جهاز سلامة المبتدئ. تصدر أجهزة السلامة زعيقاً حادّاً إذا لم يتحرَّكِ الإطفائيُّ لمدَّةٍ طويلةٍ.

كنتُ قد سمعْتُ الصوت من قبل، لكن ليس بنفس هذه الحِدَّة.

كان ذلك يعني أنَّه لم يتحرَّكْ من مكانه منذ ثلاثين ثانيةً على الأقل.

وكان يمكن لذلك أنْ يعني أيَّ شيءٍ.

واصلْتُ الزحف، غير قادرةٍ على إبصار أيِّ شيءٍ وسط البياض، معتمدةً على ما خزَّنَتْهُ ذاكرتي من معالم المكان قبل الانهيار، شاقَّةً طريقي وسط خريطتي الذهنية تلك. أكنتُ أمضي في الاتِّجاه الصحيح؟ لم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ. هل مررْتُ بجوار أوين من دون أنْ أدركَ ذلك حتى؟ كان كلُّ شيءٍ ممكناً.

لكن، لم يكن بإمكاني تغيير درجة الرؤية. كلُّ ما كان بإمكاني فعله هو التركيز بأقصى درجةٍ ممكنةٍ. كان من الممكن أنْ أكون بعيدةً عنه بعِدَّة أجنحةٍ، لكنَّ كلَّ ما كان بإمكاني فعله هو المحاولة. إذا كنتُ محقَّةً بخصوص تسمُّم السيانيد، فإنَّ كلَّ ثانيةٍ تُغيِّرُ الكثير.

يقول الناس إنَّ المشاعر تعبث بقدرتِكَ على اتِّخاذ القرارات، لكنَّ ذلك لم يطبع تجربتي ذلك اليوم. ما كنتُ أشعر به تجاه أوين، وصوت جهاز سلامته، جعل تركيزي حادّاً للغاية، كسكِّينٍ قاطعةٍ. كان الأمر أشبه بمقالٍ قرأتُهُ ذات مرَّة عن مراهقةٍ رفعَتْ سيَّارةً من فوقِ والدها بعد حادثة سيرٍ وأنقذَتْ حياتَهُ. كانَتْ تلك مشاعرَ جبَّارةً هرقليَّةً مَحضةً.

تذكَّرْتُ قول والدتي: **الحبُّ يجعلكِ أقوى**. ثمَّ لم يَسعْني إلَّا أنْ أفهمَ بجلاءٍ، وبطريقةٍ لا مفرَّ منها، في قلبِ كلِّ ما كان يحصل، أنّني أحبُّ أوين. أحبّه. ولم يكن الأمر غبيّاً، أو بنّاتيّاً، أو مَضيعةً للوقت، بل كان الأمر الذي سينقذ حياته.

كنتُ سأقوم بإخراجه من هنا.

أو سأموت في سبيل ذلك.

بدأ الغبار الأبيض ينجلي. عبْر الضباب الذي بدأ يخفّ، وباستعمال مصباحي اليدوي، لمحْتُ ما بدا لي أنّه حذاء أوين. تحسَّسْتُهُ لأتأكَّدَ، ثمَّ تحسَّسْتُ كلَّ شيءٍ حوله.

لقد كان هو.

كان ركام السقف قد سقط عليه، وكان عليَّ إزالته ودفعه جانباً قبل أنْ أتمكَّنَ من جرِّ جسده نحو المخرج.

الأمر تهكُّميٌّ إلى حدٍّ ما، فمشهدُ «رجل الإطفاء الحامل للضحية على كتفه»، تلك الصُّورة الأيقونيَّة التي تتكرَّرُ في الأفلام، ليسَتْ في الحقيقة تقنيَّةً نستعملها في الإطفاء. فالحرارة ترتفع، فيجب علينا أن نبقى على مستوى منخفض، لذا لا يقف الإطفائي بضحيةٍ فوق كتفه أبداً.

إذاً، كيف تُخرِج الناس من مبنًى يحترق؟

تجرُّهم نحو الخارج.

هذا ما فعلْتُ مع أوين.

زيُّ الإطفاء مجهَّزٌ بإسارٍ معدنيٍّ خلف الرقبة لهذا الغرض بالذات. اجذبه، واربطه على جسم الضحية، وسيتقلَّص حوله. لم أضطرَّ لاستعماله من قبل، لكنّني وجدْتُهُ خلال ثوانٍ، وسحبْتُه.

كان المبتدئ يزنُ طُنّاً، لكنّني لم أشعرْ به إطلاقاً. أبقيْتُ نفسي

منخفضةً، ووجَّهْتُ كاملَ ثقلي نحو الاتِّجاه الذي كان يجب أنْ أمضيَ فيه، أجرُّه زحفاً لفتراتٍ قصيرةٍ، مستعملةً كلَّ ذرَّةِ قوَّةٍ دفينةٍ في عضلات فخذيَّ، ومؤخِّرتي، وجذعي، وكتفيَّ، لدفع جسدينا نحو الخلف وجرِّ وزن جسده الراقد خلفي.

بلغْنا المخرج في اللحظة التي بلغه دي ستاسيو أيضاً.

قلتُ له: «طلبتُ منكَ ألَّا تبرحَ مكانكَ».

«أنا لا آخذُ أوامري من امرأةٍ»، ردَّ دي ستاسيو.

احزرُوا كمْ كان لديَّ من الوقت للخوض بتلك التُّرَّهات؟

كانَتِ الأبواب المنزلقة ما تزال مفتوحةً كما تركْناها، وجذبْنا معاً أوين نحو الهواء لطلق.

كان الدعم قد وصل وبشدَّةٍ. كان المشهد في الخارج مهرجاناً من المسعِفين، والإطفائيين، وقوَّات الإنقاذ، وحين رأوْنا هرعوا نحونا. بعضهم جاء باتِّجاه دي ستاسيو، وآخرون باتِّجاهي، لكنَّني أعذتُ توجيههم.

كنتُ بخيرٍ.

أخذ مسعفان أوين ووضعاه فوق حمَّالةٍ ذات عجلاتٍ.

أخذتُ لمحةً منه فحسبُ قبل أنْ يشرعُوا في العمل عليه، لكنَّني لن أنسى أبداً ما رأيْتُ: كانَتْ خوذتُهُ ذائبةً، وقناعُهُ أيضاً.

وكان الدخان يتصاعد من بذلة الإطفاء خاصته.

لا بُدَّ أنَّ مضةً كهربائيّة حدثت حين هوى السقف.

تحرَّك الطاقم بسرعة البرق، ممزِّقين خوذته وقناعه، نازعين حاوية هوائه، وممزِّقين بذلة الإطفاء ليتفقَّدُوا نبضه. كنتُ أستطيع أنْ أرى سخاماً متفحِّماً حول أنف أوين وفمه، وحروقاً من الدرجة الثانية على الحوافِّ حيث كان قناعُهُ.

صحيح أنَّ الإطفائيين لا يركضون أبداً، لكنَّني كنتُ أعلم أنَّ أفراد هذا الطاقم لا يتوفَّرون على عدَّة السيانيد، لأنَّنا كنَّا الطاقمَ الوحيد في ليليان الذي يملكها. كان يجب على شخصٍ ما أنْ يجلبَها في الحال، وكنتُ أنا ذلك الشخص.

شرعْتُ في الركض، حملْتُ العدَّة، ثمَّ ركضْتُ عائدةً، في حين هبَّ مسعفٌ إلى الحمالة ليبدأ الإنعاش القلبيَّ الرئويَّ: «لا نبض»، صرخ: «لا تنفُّس».

رمقْتُ أوين بنظرةٍ سريعةٍ وأنا أمزِّقُ عدَّة السيانيد بأسناني، أخذْتُ الكيس وأضفْتُ إليه كلوريد الصوديوم، وحرَّكْتُه، من دون أنْ أرجَّه، لخلط المحلول. غيرُ واعٍ. لا يستجيب. كان على الأرجح توقُّفاً قلبيّاً.

سمعْتُ أحدهم يقول إنَّ الإسعاف الجويَّ قادمٌ.

الإنعاش القلبي الرئوي الحقيقي لا يشبه في شيءٍ ما قمْتَ به في القسم على دميةٍ ما. إنَّه أمرٌ قبيحٌ، يكاد يكون همجيّاً، وقد كان ذلك صحيحاً بالخصوص حين يقوم به الإطفائيون على أحدٍ منهم، فهم لا يردعون أنفسهم البتَّة.

تفقَّد مسعفٌ آخر شاشة الصدمات الكهربائية ليرى إنْ كان بإمكاننا وضع المجاديف على صدره لصعقه بالكهرباء. أجل، كان الإيقاع مناسباً. تراجع الجميع. ثلاثُ صعقاتٍ سريعةٍ، ثمَّ شرعُوا في الإنعاش القلبيِّ الرئويِّ مجدَّداً.

أمسكْتُ ذراع أوين ووجدتُ أحدَ عروقه. حقَنْتُهُ عبر أنبوب وريدي، فلا يمكن للترياق أنْ يُحقَنَ دفعةً واحدةً. يجب أنْ يَدخلَ الجسم ببطءٍ، خلال مدَّة عشر دقائق.

لكن، لم يكنْ هنالكَ مجالٌ لأبقى واقفةً هناكَ، ممسكةً بحقيبةِ

المحلول، ولا سيَّما أن المسعفَ الَّذي يحاول ضخَّ الهواء داخل رئتَي أوين باستعمال كيسٍ يُضغَط يدوياً، كان يواجهُ صعوبةً بالغةً، وقد استمع إلى رئتيه باستعمال سمَّاعةٍ طبِّيَّةٍ.

«لا شيءَ يدخل الرئتين»، صرَّح. «لا حركة».

«استعملْ أنبوباً»، أمرْتُه، فاستدار للبحث عن عدَّة الإسعاف التَّنفُّسيّ.

لكنَّني أوقفْتُهُ، وسلَّمْتُه حقيبة الترياق. «أمسكْ هذه».

احتجَّ. «أنا مَن يجب أنْ يُدخل الأنبوب إلى رئتيه!».

«سأتولَّى ذلك!».

تراجع خطوةً إلى الوراء، وأخرجتُ عدَّة إسعافٍ تنفُّسيٍّ. إذا كان المجرى التَّنفُّسيُّ لأوين قدِ احترق، فقد يكون منتَفِخاً، ومن الصعب تَنبيبُ مجرًى تنفُّسيٍّ عاديٍّ أصلاً.

كان المسعف فوقه ما يزال يعمل على صدره.

وكان آخرون قد مزّقوا سروال الإطفاء ولفّوا جزءه السُّفليّ ببطَّانيَّةٍ بها هلامٌ باردٌ، بغرض خفض درجة حرارة جسمه.

في ذاكرتي، يعيد هذا المشهد نفسه باستمرار، وبعرضٍ بطيءٍ. أستطيع رؤية كلِّ تفصيلٍ، وسماع كلِّ كلمةٍ، ممتدَّةً وبطيئةً. في الحقيقة، استمرَّ ذلك بضع دقائق لا أكثر، وكلُّ شيءٍ حدث دفعةً واحدةً.

تقدَّمْتُ نحو جسد المبتدئ، أملْتُ رأسه بالزاوية المناسبة وشرعْتُ في إدخال الأنبوب.

سمعْتُ صوت الإسعاف الجوِّيِّ يصل، لكنَّني حافظْتُ على تركيزي.

أبقى المسعف الذي يتولّى أمر الإنعاش الرئويّ عينيه عليّ.
«هيّا، هيّا»، كان يهمس.
أنْ تقوم بتنبيب شخصٍ ما هو أمرٌ صعبٌ كفايةً، من دون الضغط الإضافي لكونه إطفائياً، شخصاً بنفس وظيفتك، شخصاً تعرفه.
وإذا حدث أنْ كان الشخصُ الذي تحبّه هو مَن تحاول تنبيبه، فالأمر أصعب بكثير.
كان أيُّ أحدٍ سيجدُ الأمر مخيفاً.
لحسن حظِّ المبتدئ، لم أكنْ أيَّ أحدٍ.
دفعْتُ الأنبوب بيُسرٍ مثل مُحترفٍ. ثلاث ثوانٍ بالضبط.
أخبرتك ذلك من قبل. أنت تعلم أنَّك جيّدٌ حين تكون كذلك.
كان مسعفٌ آخر يستمع إلى رئتيه عبر سمّاعةٍ طبّيّةٍ. «لدينا هواءٌ»، صرخ في اللحظة التي حطَّتْ فيها طائرة الإسعاف الجوّيّ في موقف السيارات بجوارنا.
مع وصول الهواء، عادت نبضاتُ القلب.
«لدينا نبضٌ»، صرخ المسعف ذو السَّمّاعة الطّبيّة.
لم تكنْ مروحيَّة تروما هوك تبعد كثيراً، ودفعْنا النَّقّالة، جميعنا، نحو طاقم الإسعاف الجوّيّ. أخذوها مثل عصا سباق التناوب، ولحقْنا بهم هرولةً، نصرخ ونزوِّدُهم بالأرقام والمعلومات حول وضعه، ونشرح تسمُّمَ السيانيد وبروتوكول التّرياق، مسلِّمينَ حقيبة المحلول لهم، ومتأكّدين من أنّهم يعلمون كلَّ ما يجب معرفته.
وحين وضعوه داخل المروحية، أخذْتُ ثانيةً لإمساك يدِ أوين واعتصارِها في يدي.
ثمَّ لم يكنْ أمامي سوى تركِهِ يذهب.

26

أخذ الإسعاف الجوّيّ أورين إلى بوسطن، وكلُّ ما كنتُ أرغب فيه كان اللحاق به.

لكنْ كان ما يزال هنالك حريقٌ يجب إخماده.

مناوبتُنا لم تنتهِ بعد.

عالج مسعفو المحطّة الثالثة دي ستاسيو، الذي اتَّضحَ أنّه تعرَّض لكسرٍ في عظم التُّرقوةِ، ونقلوه إلى مستشفى فيرمونت ميتوديست. كنتُ بخيرٍ، وحين تحقَّقُوا منِّي وأخلَوا سبيلي، عدتُ إلى العمل.

كان ما يزال أمامنا عملٌ علينا القيام به.

لم يكنْ أحدٌ آخر في طاقمنا مصاباً. على الجهة الأخرى من المبنى، يَحولُ بيننا حائطُ الإسمنت السميك ذاك وجهازُ لاسلكي مختلٌّ، كان باقي الرفاق قد أطاعُوا أوامر الكابتن التي لم تتغيَّرْ أبداً: لا عمليَّاتٍ داخليَّةً.

استغرق إخماد الحريق أربع ساعاتٍ، برغم تدخُّل الطاقمين من غلوستر وإيسيكس. وحين أُخمِدَ، كان يتبقَّى أمامنا القيام ببعض اللمسات الأخيرة: التأكُّد من عدم وجود نار مُختبئةٍ في بعض الجيوب، وتأمين المكان.

مبدئياً، كنّا ما نزال في المناوبة.

حين انتشر خبر أنَّ بعض أفراد طاقمنا أُصيبوا، بدأَتِ الأطقم التي كانَتْ خارج الخدمة تأتي إلى مكان الحادث، ولاحقاً، إلى المحطّة. ذلك ما يفعله الإطفائيون. يأتون إلى المكان، ويقفون إلى جانب الرفاق، ويعتنون بهم، ويساعدونهم.

رجعْنا إلى المحطّة حوالي الساعة الرابعة بعد الظُّهر، ووجدْنا طاقم إراحةٍ في انتظارنا، فلم نكنْ نستطيع الذهاب إلى بيوتنا أو تفقُّدَ أوين لو لم يأتوا ليحلّوا محلّنا.

لم أكنْ ممتنّةً لرؤية أحدٍ بحياتي قَطُّ أكثر من رؤيتهم هناك.

مغطاةً بالسخام، مغلّفَةً بالملح والعرق، كنتُ أعلم أنَّه حين ينسحب الأدرينالين من دمي، سأنهار، فلا يُوجَدُ على هذه الأرض شيءٌ أكثر إرهاقاً من حريقٍ ضخمٍ. كلُّ قدمٍ من خرطوم المياه ذاك تزن كيلوغرامين حين تكون مملوءةً بالماء، وقد سحبْنا مئتين وخمسين قدماً من الخراطيم ذلك اليوم، ونحن نحارب اللهب، ونمدُّ الخطَّ بالماء. لا نظامَ تدريبٍ أو حتى «تدريبات الإطفائيين» تُقارن بما تقوم به فعلاً حين تعمل على إخماد حريقٍ. فتعود بجلدٍ متقرِّحٍ وجافٍّ من الداخل والخارج، وبكتفيك، وظهرك، ويديك، وكلُّ خليَّةٍ من جسدك تَخزُ وتُؤلم.

في البداية، تكاد لا تحسُّ بذلك بسبب الأدرينالين.

ثمَّ يحطّ الإرهاق.

وبرغم كلُّ ذلك، بعد أنْ أنهينا مناوبتنا، كان كلُّ الرفاق في طريقهم لتفقُّد أوين. كان الرئيس والكابتن قد وصلا إلى هناك، لأنَّهما انطلقا من مسرح الحادث مباشرةً. توجَّهْتُ نحو شاحنتي التي

كانَتْ تتقدَّم شاحنات الرفاق ببضع خطواتٍ، لكنَّ ضئيلاً والعضلات السِّتَّ لحقا بي وصعدا بجواري، من دون أنْ يسألا حتّى.

قدْتُ في صمتٍ. أمطرتِ السماء رذاذاً طوال الطريق، وأتذكر تفكيري في مدى صخب ماسحات الزجاج. لم ألاحظ أبداً من قبل أنَّها بذلك الصخب.

أرسل الكابتن بضع رسائل نصيةٍ إلى مجموعة أفراد الطاقم، لكنَّها كانت مبهمةً. نبضُ قلب المبتدئ وتنفُّسُه استقرَّا، لكنَّ إحدى رئتيه كانت مصابة. كانُوا يبقونه في غيبوبةٍ مُستحثّةٍ طبّياً. كانُوا سيعالجونه في غرفة الضغط العالي، وبعد ذلك ينقلونه إلى وحدة العناية المركزة.

تقافز ذهني من فكرةٍ إلى أخرى، فأرى المبتدئ نائماً في تمام الصِّحّة والعافية بجواري على السرير، ثمَّ تنتقل القناة لأشاهدَ قناعه الذائب وبذلته التي يتصاعد منها الدخان. وأحسُّ بذكرى شفاهه على شفاهي، ثمَّ أنتقل إلى اللحظة التي أدخلتُ فيها الأنبوب في مجراه التنفسي. وحين أشعرُ بالهلع يكاد يجمِّد صدري، أركِّزُ على العلامات الطبية: «لدينا هواءٌ»، كان المسعف قد قال في مسرح الحادث.

لدينا هواءٌ. لدينا نبضٌ. كانَتْ تلك الكلمات تهدِّئ من روعي.

على حد علمي، كان ذلك لا يزال صحيحاً. وكان عليَّ الآن أنْ أصل إلى بوسطن.

أبقيْتُ أوين في مقدِّمة تفكيري، كأنَّ ذلك كان سيساعده بطريقةٍ ما.

لكن، وبمكانٍ ما في مؤخَّر عقلي، كانَتِ العديد من الأسئلة تنتظر إجاباتٍ: لِمَ دخلْنا المبنى أصلاً؟ ما الذي دها دي ستاسيو؟ ماذا حدث للتَّوِّ بحقِّ الجحيم؟

لم يكنْ هناك أيُّ «طفلٍ صغيرٍ» داخل الحريق، فأمضيْتُ اليوم بطوله أمشِّط المكان بحثاً عن أيِّ أثرٍ لطفلٍ. هل راودَتْ دي ستاسيو هَلْوَسَةٌ بخصوص ذلك؟ هل أصيبَ بالهلع؟ لقد رأى حرائق كثيرة جدّاً وما كان لينخدع بظلالٍ متراقصةٍ في الداخل، وقد ملأني ذلك بسؤالٍ لم أستطع الإجابة عنه.

ما الذي رآه دي ستاسيو، بالضبط، داخل ذلك المبنى؟

عند خروجنا من المصعد في مستشفى ماساتشوستس المركزي ببوسطن، كانت غرفة الانتظار غرفة وقوفٍ، حيث كانَتْ مملوءةً عن آخرها بعائلة أوين بأكملها - وهم أنفسهم مَن كانوا مدعوين إلى الحفل - بشقيقاته وأنسبائه وأصدقائه، بالإضافة إلى قُرابة خمسين إطفائياً متقاعداً في أقمصة الإطفاء وسراويل جينز.

أصدقاء بيغ روبي، افترضتُ.

أتذكَّر ذلك المشهد الآن كلمحةٍ ضبابيةٍ، من قمصان محطَّة إطفاءٍ زرقاءَ غامقةٍ، إلى شواربَ كثَّةٍ للغاية، وأكوابِ دنكن دونتس، وسجائر.

أكان التدخين مسموحاً في غرفة انتظار المستشفى؟

لا.

أكان رجال الإطفاء العنيدون أولئك يعيرون ذلك أدنى اهتمامٍ؟

طبعاً لا.

كانَتِ الزوجات جميعُهنَّ في إحدى جهات الغرفة، جالساتٍ على مقاعد، مائلاتٍ بعضِهنَّ باتِّجاه بعض، يتحدَّثْنَ ويثرثرنَ ويقلقْنَ. وكان الرفاق من محطَّتنا جميعهم متجمِّعين في الرواق، يقفون متقاربين، بوجوهٍ مكفهرَّةٍ.

كنتُ آخر مَنْ خرج من المصعد. رفعْتُ نظري فرأيتُ الحشد بكامله وقد صمت وحدَّق بي.

أقصد، لا كلام، لا سعال، ولا حركة، باستثناء الشخص الوحيد الذي همس: «ها هي ذي».

هي؟ أنثى واحدةٌ فقط كانت قد خطَتْ للتَّوِّ داخل الغرفة.

في البداية، تساءلْتُ إنْ كانوا قد تعرَّفوا عليَّ بصفتي «الفتاة السَّكرى» من الحفل، والآن هويَّتي كإطفائية قد تمَّ كشفُها.

لكن بعدها، تذكَّرْتُ أنَّني كتلةٌ داكنةٌ ممرَّغةٌ في الأدخنة.

لم أكنْ قد استحممْتُ أو غيَّرْتُ ملابسي. كان جلدي رمادياً، ملطَّخاً بالسخام، وعلى قميصي بقعٌ ولطخاتٌ من الملح، وكان شعري لبدةً ملتصقةً على رأسي، وروائح الدخان والعرق والدرن تفوح مني. وكانَتْ بذلة الإطفاء رطبةً ببعض المناطق، ومنقوعةً في العرق ومياه الخرطوم بأخرى.

لم أبدُ على الإطلاق مثل الفتاة التي ظهرَتْ رفقة أوين تلك الليلة.

ولم أشعر بأنَّني مثلها في أيِّ شيءٍ كذلك.

فكرتي التالية، وأنا أرى كلَّ تلك الوجوه الكئيبة، كانَتْ أنَّ أوين قد توفِّي.

حبسْتُ أنفاسي.

لكنْ بعدها، اخترق الكابتن الحشد، وصل إليَّ، لفَّ ذراعه حول كتفيَّ، ثمَّ وجَّهني بالاتِّجاه المعاكس نحو الرواق: «هيَّا بنا نتحدثْ».

«هل هو بخير؟».

أحسَّ الكابتن بقلقي، فقال: «إنَّه بخيرٍ».
أغمضتُ عينيَّ، وأحسستُ كأنَّ كامل جسدي مملوءٌ بالماء.
«مستقرٌ»، صحَّح الكابتن، «ليس بخيرٍ. لقد نقلُوه إلى غرفة الضغط العالي منذ وصل إلى هنا، لكنَّهم أحضروه للتَّوِّ إلى الأعلى لينام. سنرى كيف سيُبلي. لديه وذَمةٌ في الجزء العلويِّ من القصبة الهوائية، وحروقٌ من الدرجة الثانية على وجهه، وبعض الأضلاع المكسورة، ورئةٌ منهارةٌ».
«إذاً»، قلتُ، «عكس بخيرٍ». الأمر أقرب إلى كونه يقاتل من أجل حياته في وحدة العناية المركزة.
«إنَّه فتًى صنديدٌ»، قال الكابتن، ثمَّ أردف: «لديه كلُّ ما يلزمه ليحيا من أجله».
أحسستُ بثقل في صدري. «ماذا تقول التنبؤات؟».
أخرج الكابتن تنهيدةً طويلةً: «ربَّما 50/ 50. يجب أنْ يتجاوز الليلة أولاً».
أخذتُ وهلةً للتركيز على تنفُّسي. كيف يعمل الأمر، ذكّرني؟ إلى الداخل، ثمَّ إلى الخارج... أم العكس؟
وضع الكابتن يده على كتفي واعتصره بطريقةٍ غريبةٍ، ثمَّ أطلقني. «لحسن الحظِّ أنَّ دي ستاسيو تولَّى أمرَ حالة السيانيد تلك، هاه؟».
نظرتُ إليه. «دي ستاسيو؟».
«لو أنَّه لمْ يتدخَّلْ»، تابع الكابتن، وهو يحاول بجلاءٍ أنْ يبدوَ إيجابياً، «كنَّا سنواجه وضعاً مختلفاً تماماً الآن».
«لم يكنْ دي ستاسيو مَنْ تولّى الأمر»، صحَّحْتُ، «أنا مَن فعلتُ».

عبس الكابتن في وجهي كأنّني كنتُ أهذي، ثمَّ قال: «هانويل، دي ستاسيو قام بكتابة تقريره» كأنَّه كان عليَّ التَّوقُّفُ عن العبث.

أكان من المفترض أنْ يشرح ذلك شيئاً؟ «حسنٌ»، قلتُ.

«لقد أرسلَهُ إليَّ عبر البريد الإلكتروني من غرفته في المستشفى، فقرأْتُه على هاتفي».

«لمَ قام دي ستاسيو بكتابة التقرير؟»، سألتُ، «لم يكن المسعف الأعلى رتبةً في المكان».

«كان الإطفائيّ الأعلى رتبةً»، قال الكابتن، كأنَّ ذلك كان يهمُّ.

«وماذا يقول تقريرُه؟».

تفحَّص الكابتن وجهي. «يقول إنَّه تعرَّف على علامات تسمُّم السيانيد حين كان ما يزال داخل المبنى، وإنَّهُ وجَّهَكِ لتجهيز الترياق وإعطائه له بأسرع ما يمكن».

قمْتُ بتحريك رأسي يمنةً ويسرةً في محاولة استيعاب ما سمعْتُ. «هذا ليس صحيحاً. أنا مَنْ شخّصتُ التَّسمُّمَ بالسيانيد».

«ليس هذا ما يقوله التقرير».

«إنَّه خاطئٌ إذاً».

«أتقولين إنَّ دي ستاسيو كتب تقريراً خاطئاً؟».

كان ذلك سيكون اتّهاماً خطيراً بحقٍّ.

قلتُ: «سيتوجَّبُ عليَّ أنْ أراه، فربَّما كانَتْ حواسُّه متأثِّرةً من إثر الإصابة».

«بدا لي متناسقاً للغاية»، ردَّ الكابتن.

«أيمكنني أنْ أرى التقرير؟».

حرَّكَ الكابتن رأسه نافياً، ثمَّ ألقى نظرةً سريعةً على كلِّ أولئك الناس المتجمهرين في غرفة الانتظار في الجهة الأخرى من الرواق.

«هذا ما أريد أنْ أنبّهك بخصوصه، يا هانويل»، قال حينها، وتقدَّم خطوةً نحوي، وخفض صوته. «الأمر مُؤسف».

عبسْتُ في وجهه: «مُؤسف؟».

«لقد ارتكبتِ الكثير من الأخطاء اليوم، أخطاء مبتدئين بصراحة. أنا متفاجئٌ منكِ حقّاً، برغم أنّني أعلم أنَّكِ لم تقصدي أبداً أنْ...».

قاطعْتُهُ: «أيّة أخطاءٍ؟ لم أرتكبْ أيّة أخطاءٍ!».

رمقني الكابتن بنظرةٍ مُحرَجةٍ تحمل من الشفقة الكثير.

«أيَّةُ أخطاءٍ قال دي ستاسيو إنّني ارتكبْتُ؟».

أخذ الكابتن نفساً، ثمَّ وضع نظّاراتِ قراءتِهِ ورفع هاتفه ليقرأ من تقرير دي ستاسيو. «حسنٌ، أولاً وقبل كلِّ شيءٍ، الطريقة التي أصررْتِ بها على دخول المبنى، برغم أنَّ...».

«أنا لم أصرَّ على دخول المبنى! كان ذلك دي ستاسيو! هو مَنْ قال إنَّه رأى طفلاً في الدَّاخل».

«يقول التقرير إنَّكِ أنتِ مَن رأيْتِ الطِّفل».

«بَلْ كانَ هو».

«في الحالَين، كانَتْ لكِ أوامر قائمةٌ بعدم الدخول».

«ذلكَ ما أخبرْتُ به دي ستاسيو!».

«لكنَّكِ دخلْتِ على أية حالٍ».

«دي ستاسيو لم يرغبْ بالانتظار. كان سيدخل بي أو من دوني... وقد أخذ معه المبتدئ».

«كان يجب أنْ تنتظري وصول الأوامر».

«كان الوقت يداهمنا. اتَّصلتُ بكَ عبر اللاسلكي عند كلِّ نقطة قرارٍ».

حرَّكَ الكابتن رأسه نافياً. «لم يبلغني أيُّ اتِّصالٍ لاسلكي من طرفِكِ».

«حاولتُ. وكلُّ ما كنَّا نسمعه موجةُ رنينٍ على جهتنا من الخطّ».

«يقول التقرير إنَّه حين حاول دي ستاسيو منعَكِ من دخول المبنى...».

كان ذلك جنونيّاً. « أنا التي كنْتُ أحاول مَنْعَهُ من الدخول!».

«لم يكنْ لديكِ ماءٌ، أو دعمٌ، أو معدَّاتٌ كافيةٌ... وقمْتِ، بتهوُّرٍ كبيرٍ، بتعريض حيواتِ أعضاء الطاقم الثلاثة للخطر».

ما الذي كان يحدثُ بحقِّ الجحيم؟ «كان هو مَنْ فعل ذلك!».

«كان له من الحضور الذِّهنيِّ ما يكفي لربط حبلِ توجيهٍ بأحد الأعمدة قبل أنْ يتبعكِ...».

«أنا من رَبَطَ حَبْلَ التَّوجيه!».

«... لكن حين بدأ المبتدئ يهذي وأظهر علامات التَّسمُّم بالسيانيد، رفضْتِ الخروج من المبنى برغم ذلك».

«ماذا؟».

«ثمَّ قام دي ستاسيو بسحب المبتدئ إلى برِّ الأمان وأمرَكِ بإعطائه التِّرياق... برغم اعتراضاتِكِ».

«إنَّه يكذبُ!»، صرخْتُ، وحين الْتفَتَ الحشد في آخر الرواق نحونا، خفضْتُ صوتي. «لقدِ الْتَبَسَ عليه الأمر».

بدا أنَّ الكابتن شعر بالإهانة محلَّ دي ستاسيو. «ما الذي تقولينه، يا هانويل؟».

«أقول إنَّ الأمر لمْ يجرِ بتلك الطريقة، سيدي». انتصبْتُ للأعلى قليلاً، ثمَّ تابعْتُ: «أنا مَن حاولْتُ حماية الطاقم وعدم تجاوُزِ

أوامرك. أصرَّ دي ستاسيو على أنَّه رأى وجه طفلٍ في الداخل خلف النافذة، لكنَّني لم أرَ شيئاً. حاولْتُ إقناعه بانتظار وصول الدعم وخرطوم المياه، وحاولْتُ الاتِّصال بك طلباً للأوامر. وحين بدا بما لا يترك مجالاً للشَّكِّ أنَّ دي ستاسيو كان بصدد الدخول بي أو من دوني، وأنَّه سيأخذ معه المبتدئ، قرَّرْتُ الدخول أيضاً، من أجل الحفاظ على تماسُكِ الطاقم. أنا مَن ربطتُ حبلَ التوجيه، وأنا مَن شخَّصتُ أعراض تسمُّمِ السيانيد على المبتدئ. سحبْتُه إلى برِّ الأمان لوحدي، بعد أنِ انهارَ السقف. لَمْ يَقُمْ دي ستاسيو بأيِّ شيءٍ اليوم سوى الكذب، وعِصيان الأوامر، وتعريضنا جميعاً للخطر».

بدا الكابتن متحيّراً. «هذا بالضبط ما يقوله عنكِ تقريرُهُ».

«تبّاً للتقرير!».

شهقَ الحشد. اللغة!

من الواضح أنَّهم كانُوا يستمعون إلينا.

حينها فهمْتُ الأمر. لقد علمُوا بشأن التقرير، وكانُوا يعلمون حين دخلْتُ الغرفة. لا بُدَّ أنَّ الكابتن أخبر بيغ روبي، ثمَّ انتشر ذلك بينهم، كما يحدث دائماً.

هذا ما كان ذاك الصمتُ بخصوصه. كانُوا يظنُّون أنَّ أوين هنا بسببي.

كان الكابتن يعلم كلَّ ذلك بالفعل، فتابع كلامه: «أتتوقَّعين أنْ أصدِّقَ أنَّكِ سحبْتِ المبتدئ خارج مبنًى محترقٍ لوحدِكِ؟ وزنُهُ تسعون كيلوغراماً على الأقل، وأنتِ ببَلَلِكِ بالكاد يصل وزنك إلى ستين كيلوغراماً».

«أتظنُّ أنَّ دي ستاسيو فعل ذلك؟ عجوزٌ كئيبٌ، بعظم ترقوةٍ مكسورٍ؟».

«هو يدَّعي أنَّ إصابته حدثَتْ بعدَ أنْ أوصل المبتدئ إلى الخارج».

«كيف بالضبط حدث ذلك؟»، سألتُ، «انزلقَ على قشر موزةٍ في موقف السيارات؟».

حدجني الكابتن بنظرةٍ حادَّةٍ.

تابعْتُ كلامي بإصرارٍ: «أصيبَ دي ستاسيو والمبتدئ في الوقت نفسه، حين هوى السقف. وجدْتُ دي ستاسيو تحت رفّ أحد الأجنحة المقلوب، ووجدْتُ المبتدئ، بالتلمّس، تحت ركام السقف، سيدي».

لكنْ، كنتُ كلَّما تحدَّثْتُ أكثر، جعلتُ الأمور أسوأ.

كان الكابتن رجلاً عقلانياً، لكنَّني كنتُ أدعو صديقَهُ بالكاذب، وكلَّما واصلْتُ القيام بذلك، زاد إصرارُه على الدفاع عنه.

«لقد عرفْتُ دي ستاسيو لما يقارب أربعين سنةً، يا هانويل. التقيْنا في الأكاديمية، وقد رأيْتُه كلَّ يومٍ تقريباً منذ ذلك الحين. كنتُ برفقته حين فقدَ ابنه. كنتُ أوَّلَ شخصٍ يتَّصلُ به بعدما رحلتْ زوجتُهُ. لم أعرفْ عنه الكذب يوماً قطُّ، بخصوص أيِّ شيءٍ».

حدَّق بي الكابتن وحدجني بنظراتٍ عنيفةٍ، فحدَّقْتُ فيه بالشِّدَّة ذاتها.

«سيكون هناك تحقيقٌ، بالطبع»، تابع الكابتن. «بغضِّ النظر» - ألقى نظرة على جناح العناية المركَّزة - «عن كيف ستنتهي الأمور. لكنْ يجب أنْ أحذِّرَكِ، يا هانويل. حتى نعلم القصة الحقيقية لما حصل، أنا مضطر لتوقيفِكِ عن العمل. وإذا ثبتَ أنَّ تقرير دي ستاسيو صحيحٌ، فنحن أمام حالة عصيان متمرِّد، وإذا ما حدث أنَّ المبتدئ...»، تردَّد لوهلةٍ، «إذا لم ينجُ المبتدئ، فقد نكون أمام

حالة القتل غير العمد أيضاً، وسيكون لك الكثير لتقلقي بشأنه، أكثر من مجرَّد وظيفتِكِ. في كلتا الحالتين، ستحتاجين إلى محامٍ على الأرجح».

محامٍ؟ كيف يمكن أنْ يكون هذا بصدد الوقوع؟ كيف صارَتْ أكاذيبُ دي ستاسيو حقيقةً؟ ألمْ يكن من المفترض أنْ تحرِّرَنا الحقيقة؟ الأفلام التي شاهدتها طوال حياتي، حيث يفوز الأخيار في النهاية، لم تحضِّرْني لهذا. كيف، بالضبط، أمكن للكاذب أنْ يكون صاحب السُّلطة هنا؟

للكثير من الأسباب، بطبيعة الحال. إذْ ينحدر دي ستاسيو من المنطقة، وقدْ أمضى كلَّ حياته هنا، بل إنَّه ربَّى ابنه هنا. كان هنا منذ الأزل، وكان منخرطاً تماماً في هذا العالم، بكلِّ الأصدقاء القدامى والأقارب. أمَّا أنا فكنتُ دخيلةً وقادمةً حديثةً وفتاةً متكبّرةً. أيٌّ من تلك الأسباب كان كفيلاً بإمالة الكفَّة إلى روايته للقصة.

لكنَّ الأهم من ذلك كلِّه أنه وصل إلى هنا أوَّلاً.

«لن يتمَّ إثباتُ صحَّته، لأنَّ كلَّ تفصيلٍ في ذلك التقرير خاطئٌ».

«لمصلحتِكِ»، أضاف الكابتن وهو يبدو متعباً حتى أعمق نقطةٍ في كيانه، «أتمنَّى ذلك».

أخذتُ نفساً طويلاً. كنتُ أشعر بالدوار. ثم قلتُ: «سأكتب تقريري الليلة، التقرير الصحيح، وأوافيك به صباح الغد».

«لا بأس بذلك، يا هانويل».

والآن، أخيراً، حان وقت السؤال الذي أتى بي إلى هنا. «أأستطيع رؤية المبتدئ؟».

حرَّك الكابتن رأسه نافياً. «العائلة فقط».

حرَّكْتُ رأسي لاإرادياً. «أنا بحاجة إلى رؤيته». وقبل أنْ أعي

ذلك، وجدْتُ نفسي أمضي بعيداً عن الكابتن، عبر الرواق، عائدةً نحو الحشد.

«حتى أنا لم يسمحُوا لي برؤيته، يا هانوبل»، قال الكابتن، وهو يتبعُني.

«لكنّني أنا مَنْ أنقذَتهُ».

«حسب زعمِكِ»، قال الكابتن وقد أدركني، «لكنَّكِ أيضاً سبب وجودِه هنا».

كان ذلك كلَّ ما أستطيع فِعْلَهُ كي لا ألكمَ الحائط: «أنا لسْتُ سبب وجوده هنا».

«على أيَّة حالٍ، سمحُوا فقط لوالديه وشقيقاته بالدخول»، ثمَّ بدا أنَّه تذكَّر. «وحبيبته».

تجمَّدْتُ في مكاني. الْتفتُّ. «حبيبةٌ؟ أيَّة حبيبةٍ؟».

نظر الكابتن فوق كتفي ليرصدها.

«ليسَتْ للمبتدئ حبيبةٌ»، قلتُ، ثمَّ أضفْتُ في سرِّي: عداي طبعاً.

نظر الكابتن في اتجاه فتاةٍ تقف بجانب الباب الدَّوَّار لقسم العناية المركَّزة، وأشار إليها. «حبيبتُهُ قد تخالفُكِ الرأي».

«تلكَ ليسَتْ حبيبتَهُ».

«قد لا تكون كذلك بالفعل. يُقالُ إنَّهما على مشارف الخطوبة».

لا بدَّ أنَّها إيمي، إيمي اللطيفة، إيمي التي لا خطبَ بها بتاتاً. صورة الأنوثة النظيفة، والمكويَّة بعنايةٍ. كانَتْ ترتدي قميصاً وردياً عاري الكتفين، وسروالاً قصيراً كاكي اللون.

كرهْتُها لحظة وقوع نظري عليها.

«إيمي؟»، قلتُ وأنا أقترب منها.

نظرتْ إليّ، لكنَّها لم تعرفْني بالطبع. فما الذي رأَتْهُ في تلك اللحظة؟ أنثى كَدِرةً، مُتَّسخةً، مكسوَّةً بالسخام، في زيٍّ إطفائيةٍ. بدا أنَّ رؤيتي صدمَتْها شيئاً ما.

كان من الواضح أنَّها لم تكن مهتمَّةً بالحديث إليّ. بدوْتُ مثل شخصٍ عديم الأهمية بالنسبة إليها.

بالنسبة إلى الجميع في الغرفة، في الواقع.

«ظننْتُ أنَّكِ انتقلتِ إلى كاليفورنيا»، قلتُ، ذاهلةً من هذا المنعطف الذي اتَّخذَتْهُ الأحداث.

نظرَتْ حولها ولسان حالها يقول: **مَنْ تكون هذه؟** ثمَّ ردَّتْ: «لقد رجعْتُ إلى البيت لقضاء عطلتي».

«لمَ أنتِ هنا؟».

في الثانية التي تلَتْ ذلك، تساءَلَتِ الغرفة برمَّتها، بما في ذلك أنا، إنْ كان من حقِّي طرح هذا السؤال، لكنَّها أجابَتْ عنه على أية حالٍ: «اتَّصلَتْ بي كولين».

راودني شعورٌ غريبٌ بالخيانة من طرف كولين. كانَتْ تعلم أنَّ أوين مرتبطٌ بكريستابيل، ولو أنَّ كريستابيل ليستْ موجودةً. ولو أن لا أحد في هذه الغرفة بدا أنه تعرّف إليها من دون شعرها المنفوش وثوبها المنديلي.

أحسستُ بوخزةٍ في قلبي بتذكُّري تلك الليلةَ.

الْتفتُّ نحو الكابتن من جديدٍ. «أنا بحاجة إلى رؤيته».

«لا يمكنك ذلك».

لكنَّني كنتُ بحاجة إلى رؤيته فعلاً. مَنْ كان يهتمُّ بقوانين المستشفى؟

توجَّهتُ نحو أبواب قسم العناية المركَّزة، لكنَّني أحسستُ بيدِ الكابتن تُطبق على ذراعي.

سأخبركم شيئاً: أنا قويَّةٌ، لكنَّ الكابتن أقوى. ولم يكنْ هناك مجالٌ لأفلتَ من قبضته تلك.

الآن كنتُ بمحاذاة حبيبته السابقة، قريبة كفايةً لأؤكِّد أنَّها كانت بالفعل عاديَّةً للغاية كما زعم المبتدئ، وكان الحشد بأكمله مشرئبّاً يترقَّب ما سيحصل بعد ذلك.

لم أكن أعلم ما سيحصل بعد ذلك.

لم أستطع فَهْمَ ما كان يجري. بدا الوضع برمَّتِه أقرب إلى حلمٍ. . . أو بالأحرى كابوسٍ. لم يكنْ أيُّ شيءٍ يبدو حقيقيّاً. خشخشة مفاتيحَ، أصوات غمغماتٍ بعيدةٍ. حدَّقَتْ بي الحبيبة السابقة كأنَّني فارَّةٌ من مصحَّةِ مجانين.

بضعةُ أشياء فقط كانَتْ واضحةً:

ألقى دي ستاسيو اللوم عليَّ في كلِّ شيءٍ قام به.

وكلُّ الأشخاص الذين يهمُّني أمرهم صدَّقُوه.

كنتُ مفصولةً من عملي، وكنتُ سأحتاج إلى محامٍ.

كانَتْ والدتي تموت، وكان والدي على بعد خمسة آلاف كيلومتر.

وأوين، حبيبي أوين، الرجل الوحيد الذي كان دائماً إلى جانبي، كان موصولاً بجهاز تنفُّسٍ اصطناعيٍّ وفي غيبوبةٍ مستحثّةٍ، فُرَصُ نجاتِهِ تعادل فُرَصَ هلاكه.

«أنا فقط بحاجة إلى رؤيتِهِ»، قلتُ بصوتٍ لم أستطع التَّعرُّف إليه أنا نفسي. «أرجوكَ».

«هانويل، أنت مرهَقةٌ»، قال الكابتن، «كلُّنا مرهقون. اذهبي إلى البيت واحظَي بقسطٍ من الراحة».

«أنا بحاجة إلى مساعدتكَ»، قلتُ حينئذٍ.

لكنَّه كان يحرِّكُ رأسه. «لا أستطيع مساعدتكِ. سيكون هناك تحقيقٌ، وأيّاً كان ما سيحدث، فسيحدث».

«ليس بخصوص ذلك، أنا بحاجة إلى رؤية المبتدئ».

«لا أستطيع القيام بشيءٍ»، قال بنبرةٍ مفادها: **لقد تحدّثنا بخصوص ذلك.**

لم يبدُ أنَّني سأصل إلى نتيجةٍ.

كان وقتَ القيام بعملٍ جَسورٍ.

أخذْتُ نفسَاً عميقاً: «أنا أحبُّه»، قلتُ للكابتن.

عبس في وجهي. «مَنْ؟».

«المبتدئ!».

«الجميع يحبُّون المبتدئ».

«لا»، حدَّقْتُ إليه ولسانُ حالي يقول: **أنا. أحبُّ. المبتدئ.**

لكنَّ الكابتن لم يفهمْ ما كنْتُ أرمي إليه. «كفاكِ، يا هانويل. حافظي على رباطةِ جأشكِ. الآن ليس الوقت المناسب للافتتان بالمبتدئ».

انتصبْتُ واعتدلْتُ في وقفتي وقلتُ: «ليس افتتاناً». ثمَّ بعد ذلك، وأنا أعلم تمام العلم كمْ ستبدو تلك الكلمات سخيفةً للكابتن، ولكلِّ شخصٍ في الغرفة، بما في ذلك الرفاق من طاقمنا، بل حتى أنا نفسي، قلتُ بأقصى ما أستطيع من ثباتٍ: «حين أقولُ إنَّني أحبُّه، أقصد أنَّني واقعةٌ في غرامه».

اصطخب الحشد بتنهيداتٍ وهمساتٍ وصرخاتٍ. «ماذا؟!».

ردَّةُ فعلٍ متفاوتةٌ، لكنَّني سأقول إنَّ الإجماع العامَّ كان على أنَّني جعلتُ من نفسي أضحوكةً أبديَّةً.

كنتُ أستطيع قراءة ردَّةِ فعل الكابتن على وجهه: **ما كان يجبُ علينا توظيف فتاةٍ.**

لا طريق آخر غير المواصلة إلى الأمام: «تلك»، قلتُ وأنا أشير إلى إيمي، «ليسَتْ حبيبتَهُ. أنا حبيبتُهُ. ليس افتتاناً. ولم أكنْ أنا من بدأ ذلك».

عبس الكابتن. «أتقولين إنَّكِ والمبتدئ وقعْتُما في حبٍّ بعضكما بالمناوبة 'س'؟ في محطتي؟».

وأنا على علمٍ بأنَّني كنتُ سأنهي مسيرتي في مركز ليليان للإطفاء باعترافي بذلك، بغضِّ النظر عمَّا سيحدث بشأن تقرير دي ستاسيو، أومأت بالإيجاب.

حرَّكَ رأسه في حنقٍ واضحٍ. «ما الذي دهاكُما؟».

كان عليَّ أنْ أردَّ على ذلك. «أستقوم حقّاً بالوقوف هنا، أنتَ، المتزوج منذ ستّ وثلاثين سنةً، الرجل الذي قد يقوم بأيِّ شيءٍ من أجل زوجتِهِ وأطفاله الأربعة، وتقول لي إنَّ الحبَّ لا يهمُّ؟».

نجح ذلك في شدِّ انتباهه.

«حين أقول إنَّني واقعةٌ في غرامه» تابعْتُ قولي بصوتٍ مرتجفٍ، «فأنا أقصد أنَّه الشخص الذي أودُّ الزَّواج منه وإمضاءَ حياتي معه. هو الشخص الذي يجعل لكلِّ شيءٍ معنًى. لكنَّني لمْ أخبرْهُ بذلك قَطُّ. كنتُ خائفةً من فقدان وظيفتي، أو فقدان احترام الرفاق. أعلمُ ما تظنُّونَهُ جميعُكم، أنَّ الحبَّ ضعفٌ، لأنَّني كنتُ أظنُّ ذلك أيضاً، وكنتُ مقتنعةً به تماماً. لكنَّني سأخبركم شيئاً: منذ اليوم، أنا متيقِّنةٌ أنَّه عكس ذلك تماماً. كنتُ سأرفع كلَّ ذلك المبنى عن الأرض

لأُخرجَ المبتدئ من هناك اليوم، وسأقوم بالشيء ذاتِهِ لأدخل قسم العناية المركّزة ذاك الآن».

أغمض الكابتن عينيه وحرّكَ رأسه نافياً.

«أنا بحاجة إلى رؤيتِهِ»، قلتُ وصوتي قد بدأ ينهار.

«أوه، لا»، قال الكابتن، «لا تبكِي».

«أنا لا أبكي»، قلتُ وأنا أمسح وجهي.

كانَتِ الأمور تمضي من سيّئ إلى أسوأ. لا تزال كلماتُ كابتن محطّتي السابقة محفورةً في ذهني: **لا تحّسي بأيّ مشاعر، لا تتحدّثي عنها، لا تحاولي اكتشافها، ومهما يكن أو يحصل، لا تبكِي.**

أنا لا أبكي أبداً، كنت سأقول، فخورةً للغاية، إلّا أنّ الحياة علّمتني غير ذلك.

«النساء»، قال الكابتن وهو يملأ ناظريه بي، ويحرّكُ رأسه في امتعاضٍ، «هذا ما أقوله».

تقدّمْتُ نحوه. «لا، لا تفعل ذلك، لا تُدِرْ مقلتَيكَ، ساعدْني على الدخول، أو اطلبْ منّي الذهاب إلى البيت، لكنْ لا تقفْ هنا صادّاً الباب في وجهي، بينما المبتدئ يحارب من أجل حياته، وأنتَ تتصرّف كأنَّ الاهتمام بإنسانٍ آخر ليس أمراً ذا قيمةٍ».

رمش الكابتن، تنحنح، ثمّ قال: «حسنٌ، إذاً».

للحظةٍ، ظننتُ أنّه كان سيساعدني على الدخول.

لكنّه تنهّد وقال: «هانويل، اذهبي إلى البيت».

ذهبتُ، لكنّني فعلتُ ذلك مكرَهةً.

ذهبتُ، لكنْ فقط لأنَّ الكابتن أخذ بمرفقي وسحبني إلى موقف السيارات في الأسفل، وجادل بأنَّه بغضّ النظر عمَّا حدث أثناء الحريق، وأياً كانت مشاعري تجاه المبتدئ أو لم تكن، وبغضّ النظر عن كون الروابط الإنسانية ذات معنًى أو لا، فقد كان والدا المبتدئ في حاجةٍ إلى كامل قواهما وعزمهما وتركيزهما، لا إلى ما يشتّتها، لإخراجه من هناك على قيد الحياة.

«أأنا مَن سيشتّت تركيزهما؟».

«بكلّ تأكيد».

«أستطيع المساعدة، لقد كنْتُ هناكَ».

«لا شيءَ من ذلك يهمُّ في هذه المرحلة»، قال الكابتن، «سواءٌ أحببتِ ذلك أم لا، فالمبتدئ في حاجةٍ إلى والديه في هذه اللحظة. هنالك قراراتٌ كُبرى يجب اتّخاذها، وبيغ روبي ليس في حالةٍ صحّيَّةٍ جيدةٍ، أمَّا كولين فهي قاب قوسين من فقدان صوابها. وإذا بقيتِ في الأرجاء، ستسرّعين حدوث ذلك، هذا أكيدٌ، فأنا أعرف هذه المرأة منذ زمنٍ طويلٍ. اذهبي إلى البيت. دعيهم يتعاملون مع الأمر. سأكون هنا، وسأتّصلُ بكِ حالما تكون هنالك أخبارٌ جديدةٌ».

ذهبتُ إلى البيت. ماذا يسعني القول؟ كان تأثير الأدرينالين قد تلاشى، وكنتُ متعَبةً جدّاً، غير قادرة على الجدال.

لكنّني تسلّلْتُ راجعةً لاحقاً.

وصلتُ إلى البيت، تحمّمْتُ، ارتديْتُ أنعم ملابسي، واستلقيْتُ على السرير، السرير الذي نمْتُ فيه مع أوين، أوين الذي كان الآن يحارب من أجل حياته في قسم العناية المركّزة، أوين الذي لم أكنْ أقوى على تحمُّل فقدانه.

لم أنمْ. انتهى بي الأمر بكتابة تقريري المفصَّل جدّاً للكابتن عِوَضَ ذلك، وإرساله له في منتصف الليل.

كانُوا يُبقونَهُ في غيبوبةٍ مُستحثّةٍ ليسمحُوا للأنسجة بالتّعافي وليسمحوا له أيضاً بأن ينعم بالنوم رغم الألم. أعدْتُ التّفكير فيما كنْتُ أعلمُهُ بخصوص ما حدث. بالإضافة إلى التسمُّم بالسيانيد، احترق مجراهُ التّنفُّسيُّ بفعل هواء اللهيب الحارّ، وأدّى الانتفاخ إلى توقُّفٍ تنفُّسيٍّ، الذي أدّى بدورِهِ إلى توقُّفٍ قلبيٍّ. لم تكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن الوقت الذي أمضاه من دون تنفُّسٍ. خمس دقائق؟ عشر؟ يصعب جدّاً أنْ تحافظَ على الإحساس بالوقت داخل حريقٍ.

يقال إنَّ المرء يستطيع الصُّمود لسِتِّ دقائقَ فقط من دون تنفُّسٍ، قبل حدوث أضرار في الدماغ، لكنَّ ذلك يختلف في الواقع، وبشكلٍ كبيرٍ، من شخصٍ إلى آخر. وشخصٌ بلياقة أوين البدنية العالية، ظللْتُ أردِّدُ لنفسي، سيدهشُنا جميعاً. وتذكَّرتُ قصَّة رضيعٍ غرق في نهرٍ متجمِّدٍ لمدةٍ نصف ساعةٍ، لكنَّه خرج منه سالماً.

قد يكون المبتدئ بخيرٍ. لم يكن ذلكَ الشيءَ الأكثر استحالةً الذي تمنَّيْتُ حصوله.

أو ربَّما كان كذلك.

في النهاية، عند الثانية صباحاً، ضقْتُ ذرعاً، وما عدْتُ أقوى على تحمُّل الأمر أكثر من ذلك.

تسلَّلْتُ أسفل السلالم، ومررْتُ بجوار صوت آلة الضوضاء البيضاء، وصعدْتُ إلى شاحنتي، وقدْتُ عائدةً إلى بوسطن.

كانَتْ قاعة الانتظار الآن خاليةً تقريباً. كان والدا المبتدئ نائمَين على الأريكة الوحيدة الموجودة في المكان، والدتُه جانبيّاً، برأسِها على فخذ والده، ووالدُه برأسٍ مستندٍ إلى الحائط. كان أحدهم قد وضع بطّانيةً عليهما.

تسلّلْتُ على رؤوس أصابع قدمي، ودفعْتُ الباب المزدوج نحو المنطقة المحظورة.

ليسَتْ هناك غُرَفٌ في قسم العناية المركزة، فقط أسرَّةٌ تفصل بينها ستائرُ. تفقّدْتُ الأسامي واحداً تلو الآخر، حتى وجدْتُ اسم **كالاغان**. لكنْ، قبل أنْ أتمكَّنَ من سحب السّتارة، أوقفَتْني إحدى الممرِّضات.

«لا يُسمَحُ بزائرين في هذا الوقت»، قالَتْ واضعةً نفسها حائلاً بيني وبين الستارة.

«مرحباً. نعم، أنا فقط...».

«يجب عليكِ أنْ ترجعي في الصباح». نظرَتْ إليَّ بتمعّن، «وفقط إذا كنتِ فرداً من عائلتِهِ».

كيف أصفُ نفسي؟ «أنا حبيبتُهُ».

«إذاً بإمكانِكِ القدوم خلال ساعات الزيارة».

«الأمر مُعَقَّدٌ... لسْتُ متأكِّدةً أنّني أستطيع ذلك».

رجعَتْ إلى الخلف وحدجَتْني بنظرةٍ. «أنتِ عشيقتُهُ؟».

«لا!».

«عائلتَهُ لا تحبُّكِ؟».

تنهَّدْتُ، ثمَّ قلتُ: «يظنُّون أنَّني سببُ وجوده هنا».

ارتفع حاجباها، كأنَّها تسأل: **هل أنتِ كذلكَ فعلاً؟**

فأجبْتُ: «لكنَّني لسْتُ كذلك! أنا مَنْ أنقذَهُ!».

كنتُ أستعدُّ للاسترسال في قَصِّ كلِّ ما جرى، لكنَّ نظرةً إلى وجهها أخبرَتْني أنَّها لم ترغبْ بسماع القصة. كان لديها عملٌ للقيام به، وكانَتْ تريد من الشخص الذي يخرق القوانين أنْ يبتعدَ عن الطريق.

عوض ذلك، قمْتُ بالتلخيص: «لا أستطيع الحضور إلى هنا خلال ساعات الزيارة، لكنَّني بحاجة إلى رؤيتِهِ. خمس دقائق فقط... أرجوك. هنالكَ شيءٌ يجب أن أخبره به».

انقبض وجهُها. لم يكنْ لديها وقتٌ لهذا الهراء. لكنْ وأنا أنتظر حُكْمها، فاضَتْ عينايَ بالدموع، وانهمرَتْ لتغطِّي وجهي. فبالنسبة إلى شخصٍ لا يبكي أبداً، اتَّضحَ بما لا يتركُ مجالاً للشَّكِّ أنّني أُجيدُ ذلك.

أخيراً، بدا أنَّ صبرها قد نفد. «خمسُ دقائقَ»، قالت وهي تشير إليَّ. «ولا تتسلَّلي إلى هنا مجدَّداً».

خلف الستار، كان المبتدئ موصولاً بكلِّ ما أمكن من أنابيب وأجهزة. كان موصولاً بجهاز تنفُّسٍ اصطناعيٍّ، وكان الشريط الورقي الذي يثبِّتُ الأنبوب يغطِّي معظم وجهه. وكانَتْ عيناه ملصَقتَين، ووجهه محمرّاً إثر الحروق من الدرجة الثانية حيث كانَتْ حوافُّ قناعِهِ.

حمداً لله على حركة آلة التَّنفُّس الاصطناعي وصوتها؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ في المكان كان بجمودِ الموت.

لكنَّ يدَهُ كانَتْ هناكَ. كان أحدُهم قد دسَّ البطَّانية تحت ذراعيه بعنايةٍ وأبقى يديه على جانبيه. مددْتُ يدي فوق حاجز السرير. كانَتْ يدُهُ دافئةً وناعمةً. حيّةً.

ثمَّ لم أعرف ما أقول. أمام فرصتي للتَّحدُّث إليه، توقف عقلي عن العمل. كنْتُ قد هيَّأْتُ خطاباً طويلاً أثناء طريقي إلى هنا... خطاباً مُلهماً وقويّاً ومحفِّزاً، خطاباً يستطيع سماعه عبر ضباب الغيبوبة، والتَّشبُّثَ به من أجل إرادة العيش.

لكنَّني كنتُ هنا الآن، وكانَتْ عقارب الساعة تدقُّ: تيك تاك.

«هذه أنا»، بدأْتُ، «لم يسمحُوا لي بالدخول لرؤيتكَ. كتبَ دي ستاسيو تقريراً مغالطاً، والآن، الجميع يظنُّون أنَّني سببُ وجودِكَ هنا. يبدو أنَّني سأفقد وظيفتي، لكنَّني لا أهتمُّ بأيٍّ من ذلك. كلُّ ما أهتمُّ به هو نجاتُكَ من هذه المحنة». اقتربْتُ خطوةً، وأنا ما أزال ممسكةً بيدِهِ، ومددْتُ يدي الأخرى لتداعب جبينِهِ: «أنتَ حقّاً شخصٌ استثنائيٌّ، يا مبتدئ. العالم بحاجةٍ إليك. أعلم أنَّكَ تقاتل. واصلِ القتال. لا تستسلمْ».

انحنيْتُ وقبَّلْتُ جبينَهُ.

«لقد منحوني خمس دقائق فقط... وليس مسموحاً لي أنْ أعود. لكنِ اعْلَمْ أنَّ قلبي كلَّهُ معكَ. يبدو أنَّني كنتُ بحاجةٍ إلى غيبوبةٍ مُستحثّةٍ حتى أقدحَ زناد شجاعتي وأقول ذلك، ولكنْ...»، أخذْتُ نفساً مرتبكاً، «أحبُّكَ. لقد أخبرْتُ الكابتن، وكلَّ الطاقم، وغرفةَ الانتظار برمَّتِها. فالكلُّ يعلم ذلك الآن إلّا أنتَ. لذلكَ يجب أنْ تتحسَّنَ، حتَّى أتمكَّن من إخبارِكَ وجهاً لوجهٍ».

بعد ذلك، بقيتُ بعيدةً.

حملْتُ هاتفي معي في كلِّ حينٍ، في انتظار رسائل الكابتن. كان يُرسل رسائل نصِّيَّةً لمجموعة الطاقم حين يحصل على معلوماتٍ، لكنْ بعد اعترافي الضخم والمفاجئ في غرفة الانتظار، ظللْتُ أعتقد أنَّني قد أتلقَّى شيئاً ذا طبيعةٍ شخصيةٍ أكثر.

لم يحصلْ ذلك.

لا في اليوم الأول، ولا في الثاني، ولا في الثالث.

تلقَّيْتُ الأخبار الأساسية المرسَلة إلى المجموعة: كان والداه بجانبه في قسم العناية المركَّزة طوال الوقت. لمْ تغيِّرْ والدته ملابسَها منذ أيَّام. كانَتْ حالتُهُ الصِّحِّيَّةُ متأرجحةً، وكانَتْ هناك لحظاتٌ مشجِّعةٌ، وأخرى مُقلِقةٌ. كانَتِ الرِّئةُ المنهارة والحروق في وجهه تتحسَّنُ، لكنَّ القلق الأكبر كان بخصوص قصبتِهِ الهوائية.

تساءلْتُ إنْ كانَتْ إيمي ما زالت تحوم في الأرجاء، مستغلَّةً صفتَها المغالطة «كفردٍ من العائلة». لكنَّ الكابتن لم يُشِرْ إليها.

لم أسمع كثيراً من الرفاق، فلْنقلْ إنَّ أوجاع القلب لم تكنْ من اختصاصاتهم.

في تلك الأيام الأولى في البيت، ممنوعةً من زيارة المستشفى، كنتُ غارقةً في ضبابٍ من الأرق، والقلق، والغضب. وارتياعٍ شديدٍ ومؤلم بشأن كلِّ ذاك الحُطام من حولي.

أردْتُ الإغلاق على نفسي في غرفتي، وإقفال الباب، والامتناعَ عن الأكل، والتكوُّر على السرير في وضعية الجنين.

أردْتُ ذلك فعلاً... ولكنْ، والفضل يعود إلى دواخلي، لم أفعل ذلك. وحين أتتْ ديانا لتجلس بجانبي، لم أطلبْ منها المغادرة. وحين أتتْ جوسي بمخفوق سموذي منزليِّ التحضير،

أخذْتُ بضعَ رشفاتٍ. حاولْتُ من قبلُ معالجة الأمور عن طريق الانعزال، وأعلمُ من تجربتي الشخصية أنَّ ذلك لا يفلح.

كنتُ يائسةً، قلقةً، وضائعةً. كنتُ بحاجة إلى أنْ أُساعِدَ بطريقةٍ ما، لكنْ لم يكن هنالك شيءٌ لأفعلَهُ. كنتُ بحاجة إلى الحركة، لكنْ لم يكنْ هنالكَ مكانٌ للذهاب إليه. كنتُ مرهقةً أكثر من أي وقت مضى، لكنّني لم أستطعْ جَعْلَ نفسي أرتاحُ.

عندما يحينُ وقت نادي الكروشيه، كنتُ أُرغم نفسي على الجلوس بجوار ديانا وجوسي.

أرادَتا الوصول إلى خلاصة ما حدث في الحريق. أرادَتا معرفة لِمَ قدْ يقوم شخصٌ بحنكة دي ستاسيو بتعريضِنا جميعاً للخطر بتلك الطريقة. ولِمَ قد يكذب بخصوص الأمر بعد ذلك. جمَّعَتا الأدلّة معاً، وحلَّلَتا التَّفاصيل، ووضعَتا الفرضيَّات. شاركْتُهما الحديث، وأجبت عن الأسئلة، ووفّرت الأدلّة، ولكنْ بلامبالاة غريبة، كأنَّني كنتُ في حالة صدمةٍ. كان كلُّ ذلك مهمّاً، من دون شكّ، لكنْ لم أكن لأهتم بشيء حتَّى أعرف أنَّ أوين بخير.

ومع ذلك، كانَتْ لنا الآن فرضيَّةٌ متينةٌ بخصوص هويَّة المتربِّص. إلّا أنَّه كانَتْ تنقصُني الطَّاقة لأهتمَّ بالأمر.

كان ذلك كلَّ ما أستطيع القيام به للبقاء بعيداً عن المستشفى.

مرَّ أسبوعٌ على تلك الحال.

بقيتُ في البيت. حدّثتُ معلوماتي عن حالة أوين الصحية. انتظرتُ وصول رسائل نصية، ونمْتُ متأخّرةً، وسهرْتُ لوقتٍ متأخّرٍ قلقةً للغاية، غير قادرة على النوم.

ثمَّ يوم الجمعة، كان لوالدتي موعدٌ مع الطبيب. مراجعةٌ تفقُّديَّةٌ.

وأصرَّتْ على حاجتها إلى أنْ أرافقَها.

«لا أستطيع»، قلت وأنا أحرِّكُ رأسي رافضةً الذهاب.

«بل تستطيعين... وستفعلين».

لم أكن قد استحممتُ منذ أسبوعٍ. «أنا عديمة النفع».

«انظري»، قالت، «إذا لم تقودي بي، فلن أذهب».

لعبةٌ ذكيةٌ.

قدْتُ بها. كان قد حان الوقت لخضوع ديانا لتصويرٍ بالأشعة، لتقييم حالتها، وكانت مستاءةً من ذلك. «لا معنى لكلِّ هذا»، قالتْ ونحن في غرفة الانتظار.

«بل يجب أنْ نعرف وضعَكِ. يجب أنْ نعرف ما يجري».

«لماذا؟ لماذا يجبُ أنْ نعرف ذلك؟».

لماذا يجب أن يعرف أيٌّ كان أيَّ شيءٍ؟ «لأنَّه يجب علينا ذلك».

«هذه مَضْيَعةٌ لصباحٍ بأكمله»، قالتْ.

«بل سيزوِّدُنا ذلك بمعلوماتٍ مهمّةٍ عن حالتك».

«مهمّةٍ، كيف؟ أيوجَدُ أدنى احتمالٍ لأنْ نقومَ بالأمور بطريقةٍ مختلفةٍ؟».

كان هناك احتمالٌ، على ما أظنُّ. كان من الممكن أنْ يحفِّزَها سماعُ كم أنَّ الورم قد كَبر على الموافقة على الخضوع للعلاج التجريبيّ. قد يكون بعض الخوف محفِّزاً أحياناً. وقد يكون ممكناً أنْ يجعلها ذلك العلاج تكسب بعض الوقت.

لم يسعْني إلَّا أنْ أشجِّع ذلك الآن، بعد أن أمضيتُ كلَّ هذه الشهور برفقتها. أكان خطأً أنْ أرغبَ في المزيد من الوقت، برغم أنه كانت هنالك سلبياتٌ لذلك؟ ربما كانت أنانيةً منّي، فقدِ اختارَتْ

جودة الحياة عوض طولها من دون تردُّدٍ. نظرياً، كان الأمر معقولاً. لكن تطبيقيّاً، أردْتُها أنْ تبقى معي لأطول وقتٍ ممكنٍ.

«لقد اشترَوا كلَّ هذه الآلات الباذخة»، واصلتْ تذمُّرها، «وعليهم الآن إيجاد طريقةٍ لدفع ثمنها».

«أأنتِ حقّاً تعترضين على أجهزة التصوير المقطعيّ؟ إنَّها معجزة التكنولوجيا الحديثة، إنَّها تنقذ حيوات الناس طوال الوقت».

«ليس حياتي»، قالتْ.

في المجمل، بإضافة وقت القيادة إلى المركز الطبيّ الصغير، ووقت غرفة الانتظار، ووقت التصوير بالأشعة، استغرق الأمر حوالي ساعتين قبل أنْ ينادي علينا طبيب الأشعة ليزوِّدَنا ببعض المعلومات.

كانتْ والدتي قد أعادَتِ ارتداء ملابسها، وكانَتْ متحمِّسةً للذهاب إلى البيت لدرجة أنَّها كادَتْ تغادر من دون انتظار تقرير الطبيبة.

حين عُرِضَ علينا، لم يكنِ التقرير بتاتاً كما كنَّا نتوقَّع.

حرَّكَتِ الطبيبة، التي كانتْ في عُمْرِ والدتي تقريباً، رأسها في حيرةٍ، وهي تعرض علينا الصور. «لن تصدِّقا ذلك»، قالَتِ الطبيبة قبل أنْ تُردِفَ: «أنا نفسي لا أصدِّقُهُ». ثمَّ أخرجتْ صورتين ووضعتهما جنباً إلى جنبٍ وأشارَتْ بينهما: «لم يحدثْ أيُّ نموٍّ منذ آخر تصويرٍ»، قالت.

رمشتُ أنا وديانا ونحن ننظر إلى الشاشة.

«متى خضعتِ لآخر تصويرٍ بالأشعة؟»، سألتُ أمي أخيراً.

«قبل أنْ أتَّصلَ بكِ في أوستن»، ردَّتْ.

«لم يحدثْ أيُّ نموٍّ بتاتاً طوال كلِّ هذه المدَّة؟» سألتُ الطبيبة.

«ليس حسب ما نستطيع قياسه».

«أنا لا أفهم. ورمٌ 'خبيثٌ جداً' توقَّف عن النُّموِّ هكذا؟».

«يحدث ذلك أحياناً، لكن في حالات نادرة جداً»، علَّقَتِ الطبيبة.

«ماذا يحدث أحياناً؟»، سألتُ.

«أن يأخذ ورمٌ خبيثٌ كهذا استراحةً».

«لِكم من الوقت؟».

حرَّكَتْ رأسها، كأنَّه ليسَتْ هنالك طريقةٌ لمعرفة ذلك. «إنَّه أمرٌ نادرٌ للغاية، فلا نتوفَّر على بياناتٍ كثيرةٍ، بل رواياتٍ متداولةٍ بخصوصه فقط».

نظرْتُ إلى ديانا ورقعة عينها الزرقاء المُزهَّرة. لو أنَّكَ لا تعرفها، لحسبْتَها تستمع بسلبيَّةٍ، وتستقبل المعلومات فحسب، لكنَّني كنتُ أستطيع الجزم، من خلال التجعُّدات الصغيرة عند طرف عينها السليمة، أنَّها كانَتْ مسرورةً.

«لا يمكنُكِ أنْ تأخذي الفضل في ذلك»، قلتُ في طريق العودة. «أعلم ما تفكِّرين فيه».

«بل أستطيع أخذَ كلِّ الفضل فيه، وسأفعل».

«أليس في ذلك شيءٌ من الغرور؟»، سألتها، «أنْ تظنِّي أنَّكِ تستطيعين أنْ تقولي لورمٍ خبيثٍ ما يجب عليه فعله؟».

وضعَتْ أصابعها على زجاج نافذة السيارة. «أظنُّ أنَّه عكس الغرور. أنا أشعر بالتواضع أمام حكمة الجسد في الاعتناء بنفسه».

«لا نعلم ما الذي تسبَّب في توقُّف الورم»، قلت.

«هذا صحيحٌ. لا نعلم ذلك»، قالت، ثمَّ أضافت بابتهاجٍ طفيفٍ: «وهذا يمنحني حرِّيَّة اختيار تفسيرٍ يروقني».

«ربَّما أنتِ محظوظةٌ جدّاً، جدّاً».

«أنا حتماً محظوظةٌ جدّاً، جدّاً».

أعطَتْها الطبيبة وصفةً جديدةً لمسكِّنات ألمٍ قويةٍ جدّاً، غير مصدّقةٍ أنَّها لم تفتح القارورة الأولى أبداً.

ونحن في السيارة، طوَتِ الورقة وشكَّلتْ منها طائر أوريغامي. حين انتبهْتُ لما كانَتْ تقوم به، قلت: «قد تحتاجين إلى ذلك».

«لا. هذه الأشياء تقتلكِ».

«وكذلكَ يفعل ورمٌ دماغيٌّ».

حدجَتْني بنظرةٍ. «لقد قرأتُ عن هذه الحبوب أشياءَ بغيضةً. تدمنين عليها، حتى ولو اتَّبعْتِ كلَّ القواعد، ثمَّ تصيرين غاضبةً، وتبدئين في الكذب. كُلُّ شخصيَّتِكِ تتغيَّر».

«أعلم ذلك»، قلتُ، ثمَّ أومأتُ. لقد درستها من أجل شهادة المسعف الطِّبِّيِّ. لم تكنْ مخطئةً، فأكَّدْتُ كلامها: «حتى أولئك الذين هم على درايةٍ بمخاطرها يقعون في فخّ الإدمان».

أومأَتْ، ولسان حالها يقول: **أوليس هذا مخجلاً؟** لكنَّني وجدتُ نفسي فجأةً جالسةً مستقيمة الظهر، أنظر مباشرةً إلى الجواب لسؤالٍ لم أكنْ أعلم حتى أنَّني طرحْتُه.

حتى أولئكَ الذين هم على درايةٍ بمخاطرها يقعون في فخّ الإدمان.

ربَّما كان دي ستاسيو مُدمناً على مسكِّنات الألم.

لم يكن ذلك أمراً نادر الحدوث مع الإطفائيين، بالنظر إلى كلِّ الإصابات التي يتعرَّضون لها في العمل. ألمُ ظهر دي ستاسيو كان أسطوريّاً... وكذلك كانَتْ قدرتُهُ على تحمُّله. أضف إلى ذلك

فقدان ابنه، ومشكلة تناوله الكحول، ورحيل زوجته... وستبدو القطع تأخذُ مكانها بعضها بجوار بعضٍ. ممكن جدّاً.

أحسسْتُ بطعنةِ قلقٍ غريبةٍ في صدري، لا يستحقها دي ستاسيو حتى.

«لقد انتبهْتُ للتَّوِّ فقط إلى أنَّ دي ستاسيو قد يكون مدمناً لمسكِّناتِ الألم»، قلتُ حينها بصوتٍ عالٍ.

نظرَتْ أمي باتِّجاهي. «لماذا؟».

شرحْتُ لها مسار تفكيري.

«مقنع»، علَّقَتْ.

قلتُ بعدها: «ربَّما يجب أنْ أذهب لتفقُّده عشيَّة اليوم».

«تريدين الذهاب لتفقُّد الشخص الذي تربَّص بك، وكذب بخصوصك، وأنهى مسيرتَكِ المهنية؟».

«كنتُ أعتزم الذهاب على أيَّة حالٍ»، قلتُ وأنا أومئ أمام تغيُّر الأحداث، «لكن لأصرخ فيه وأوبِّخه».

«يمكنكِ أنْ تأخذي له بعض الحساء، عوض ذلك».

كانَتْ تنتابُني مشاعر متضاربةٌ بشأن دي ستاسيو في تلك اللحظة، لكنَّني كنتُ أعرفه بما فيه الكفاية لأقول إنَّه شرِّيرٌ وأتركَ الأمر عند ذلك الحدِّ. لم يكنْ مسموحاً، وبشكلٍ لا لُبْسَ فيه، أنْ يفجّر كلَّ غضبه فيَّ، لكنَّني كنتُ أستطيع إدراك ذلك، وإدراك أنَّه يتألَّم. قد يكون الأمران صحيحين، بالآن ذاته.

لم أكنْ متأكّدةً أنَّه يستحقُّ تعاطُفي، لكنَّني كنتُ أودُّ أنْ أكونَ من نوع الأشخاص الذين يمنحون تعاطفهم، فليسَتِ اللحظات السَّهلة هي التي تحدِّدُ مَنْ نكون، وإنَّما اللحظات الصعبة.

من الجليِّ أنَّ دي ستاسيو قد بلغ الحضيض. الإدمان،

الفقدان، الهجر، ، الوحدة، الانعزال. لم يتبقَّ له شيءٌ ليعيشَ من أجلِهِ في هذه الحياة سوى أنقاض الماضي. حاولْتُ تخيُّلَ أنْ أكُونَه، أنْ أكون مكانه، ويظهر شخصٌ مثلي في المحطَّة ليحطّم آخر قراميد أساسات عالمه.

لو أنَّني كنتُ مكانه، لكنتُ اتَّخذتُ بعض القرارات السيئة أيضاً.

لكن ليس بذلك السوء.

«أظنُّ»، قلتُ بتأنٍّ، «أنَّه لديَّ خطَّةٌ قابلةٌ للتطبيق. أولاً، سأذهب إليه وألكمُهُ في فكِّهِ، ثمَّ سأجبره على مواجهة سلوكه الوحشيِّ والغبيِّ، وتحمُّلِ مسؤوليّاتِهِ، وبعد ذلك سأعطيه بعض الحساء منزليِّ الصنع، فقط ليتمَّ الأمر على أكمل وجهٍ».

علَّقَتْ ديانا: «أنتِ تَنسَينَ شيئاً مهمّاً».

الْتفتُّ نحوها، ورفعْتُ حاجبيَّ في حيرةٍ.

«ماذا ستفعلين بعد أنْ تصرخي فيه، وقبل أنْ تعطيه الحساء؟».

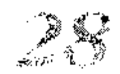
«ماذا؟».

«أظنُّ أنَّكِ تعلمين»، قالتْ ديانا وهي تضع عصفورها الصغير على لوحة القيادة. ثمَّ مدَّتْ ذراعها ووضعتْ يدها على يدي، وقالتْ: «سوف تسامحينه».

حرَّكْتُ رأسي نافيةً. «أنا لمْ أُتقِنْ المغفرة بَعْدُ».

«حسنٌ، إذاً»، قالَتْ بعدها. «هذه فرصةٌ عظيمةٌ للتَّمرُّن».





لـم يـستجبْ دي ستاسيو للطَّرق على بابه.

وقفتُ على العتبة أمام بابه، أحمل على وركي ترمساً ضخماً فيه حساءُ لحم العجل بالخضار، وطرقْتُ، وطرقْتُ.

شيءٌ ما لم يكن على ما يرام. كانَتْ سيَّارتُهُ مركونةً بعنايةٍ في الممشى أمام البيت.

وضعتُ ترمس الحساء على الدَّرج وتوجَّهْتُ نحو النافذة لأسترقَ نظرةً.

في الداخل، كان المكان مظلماً، وكانَتِ الفوضى عارمةً. أوراقٌ في كلِّ مكانٍ، نفاياتٌ، بقايا وجباتٍ عديدةٍ على طاولة الطعام. شكوكي بشأن نمط حياة دي ستاسيو تأكّدت: لم يكن على ما يرام.

حينها، لمحْتُهُ في الطرف القصيِّ من غرفة المعيشة، مستلقياً إلى الوراء الخلف على كرسي له مَسندٌ للقدمين.

لم يكن يتجاهلني فحسب، بل كان فاقداً الوعيَ، والجلد حول شفتيه أزرق اللون.

حين تكون قد سبقَتْ لك رؤية الأمر مرَّاتٍ عديدةً، فأنت تعلم ذلك فحسب.

لقد أخذ جرعةً زائدةً.

أسرعْتُ نحو عُدَّة الإسعافات الأوَّليَّة في سيَّارتي، ثمَّ بعد ذلك، وقبل أنْ أقتحم البيت عبر النافذة، ذهبتُ لتفقُّدِ الباب أوَّلاً. لم يكنْ مقفلاً، وهو شيءٌ قد يفعله إطفائيٌّ: تسهيلُ المأمورية على المسعِفين حين يكتشفون الجثَّة.

وصلْتُ إليه في ثوانٍ، وقد كان أكثر زرقةً ممَّا بدا لي عبر النافذة. كانَتْ هناك رسالةٌ على الطاولة بجوارِهِ، عليها كلمتان: **أنا آسفٌ.**

أعطيْتُهُ حقنةً وريديَّةً من الناركان، وهو ترياقٌ للأفيونات. إنَّه أمرٌ عجيبٌ حقاً، فثوانٍ فقط بعد حقنه، يستيقظُ المريض مترنِّحاً شيئاً ما، لكنَّه في تمام العافية، إذا حقنْتَهُ في الوقت المناسب.

وهذا ما حدث مع دي ستاسيو.

فتح عينيه، رمش لوهلةٍ، وأخذ نفساً عميقاً عدَّة مرَّاتٍ.

كان الأمر بهذه السهولة.

ثمَّ نظر إليّ. «ما الذي تفعلينه هنا؟».

«أُنقِذُ حياتَكَ، على ما يبدو».

أخذتُ رسالتَه وأريْتُه إيَّاها. لو كنتُ أملك مهارة والدتي في صنع الأوريغامي، كنتُ لأصنع منها طائراً.

قال دي ستاسيو: «هذا أمرٌ خاصٌّ».

تحت الرسالة كان ظرفٌ مغلقٌ مُوَجَّهٌ إلى الكابتن جيري مورفي. حدَّقْتُ به لوهلةٍ، وأنا ألاحظ الخطَّ الذي كُتِبَ به: رسالةٌ إلى

الكابتن موروفي. كانَتِ التاء المربوطة في كلمة «رسالة» تشبه الرقم 6.
أنْ تكون قد حزرْت هويَّتَهُ، هذا شيءٌ، أمَّا أنْ تكون متأكِّداً تماماً أنَّه هو، فذلك شيءٌ آخر تماماً. أحسسْتُ بشرارة غضبٍ تسري في دواخلي. كان هو، طوال هذا الوقت.

حملْتُ الظرف عالياً. «أهذا خاصٌّ أيضاً؟».

تفرَّس في وجهي. أدركَ أنَّني كنْتُ أعلم. «اخرجي من بيتي».

«لقد أنقذْتُ حياتَكَ للتَّوِّ. أتدري مدى حظِّكَ لظهوري في المكان بذاك الوقت بالضبط؟ ساعةٌ أخرى ولم نكنْ لنستطيع إرجاعكَ».

«لم أكنْ أريد أنْ أُنقَذَ».

«يا لسوءِ حظِّكَ اللعين».

نظر دي ستاسيو نحو الحائط وأبقى نظره مثبَّتاً هناك.

«لا تريد أن تُنقَذَ؟ أتظنُّ أنَّه يمكنُكَ أنْ تفلت من عواقب أعمالك؟ كدْتَ تقتُلنا نحن الثلاثةَ. المبتدئ ما زال في قسم العناية المركَّزة، في غيبوبةٍ».

«لقد قرأتُ الرسائل النصية».

«ثمَّ إنَّكَ كذبْتَ بخصوص ذلك. كذبْتَ بخصوصي، والكلُّ صدَّقوكَ. الرفاق صدَّقُوكَ. والدا المبتدئ صدَّقاكَ، والآن لا أستطيع حتى الذهاب إلى المستشفى لأطمئنَّ عليه. الكابتن صدَّقَكَ، والآن أنا موقوفةٌ عن العمل، ومسيرتي المهنية انتهتْ على الأرجح، وقد أخبروني أنَّني في حاجةٍ إلى محامٍ. لكنَّنا نعلم الحقيقة كلانا، أليس كذلك؟».

«اخرجي من بيتي، أو سأتَّصل بالشرطة. أتريدين توقيفاً على سجلِّكِ، أيضاً؟».

«اتَّصلْ بالشُّرطة! ليس لديَّ ما أخسرُهُ! ماذا ستخبرُهم؟ 'فتاةٌ لئيمةٌ قامتْ للتَّوِّ بإنقاذِ حياتي البائسة'؟».

أغلق دي ستاسيو عينيه.

لوَّحْتُ بظرفِ الكابتن في وجهه. «أهذا اعترافُكَ؟».

«في أحلامكِ».

«لكنْ ليس هذا كلُّ شيءٍ. لم يكنِ الأمر مجرَّد يومٍ سيِّئٍ، فقد كنْتَ تتعقَّبُني منذ أسابيع. تعبثُ بخزانتي في المحطة، تمزِّقُ عجلاتي». أشرْتُ إلى حرف 'ة' على الظرف. «هذا تربُّصٌ سيِّئٌ للغاية. خَطُّ يدِكَ مكشوفٌ. كان بإمكاني القيام بتعقُّبِ نفسي بطريقةٍ أفضل ممَّا فعلْتَ. إنَّها أساسيَّاتُ التَّعقُّب للمبتدئين! قُمْ بقصِّ الحُروفِ من عناوين الجرائد». قلتُ ذلك كأنَّ الأمر بديهي.

لم ينظر إليَّ دي ستاسيو.

انحنيْتُ نحوَهُ. «وقفْتَ أمام بيتِ والدتي التي تموت ورميْتَ قرميدةً عبر نافذتِها».

«لم أكن أعلم أنَّها تموت».

«ما خطبُكَ، يا رجل؟». حرَّكْتُ رأسي، كأنَّني لا أصدِّق ما يجري. «يُفترَضُ بالإطفائيين أنْ يكونُوا الأخيار».

ظلَّ دي ستاسيو صامتاً وقتاً طويلاً. ظننتُ أنَّه كان يوشكُ على مشاركتي شيئاً صادقاً بخصوص ما مرَّ به في السنوات الماضية، لكنَّه عِوَضَ ذلك أطلق العنان لغضبه ولَومه. «المحطَّة هي الشيء الوحيد الذي بَقِيَ لديَّ... وقد أخذْتِه منِّي».

«لم أكن أحاول أخذَهُ منكَ».

«لكنَّكِ فعلْتِ».

إذاً، كان يحاول جعل كلَّ ذلك خطئي. قلتُ: «لمَ لمْ يكن بإمكاننا مشاركتُهُ؟».

«بمجرَّد قدومك إلى هنا، غيَّرْتِ الأمور. المحطة التي كنتُ أحبُّها اختفتْ».

حدجْتُهُ بنظرةٍ قائلةً: «في الأمر شيءٌ من المبالغة، ألا تظنُّ ذلك؟».

«دخلتِ المكان، وتصرّفتِ كسيّدة...».

الآن، شعرتُ بالإهانة: «أكادُ لا أتصرّف كسيّدة».

«وغيَّرْتِ كلَّ شيءٍ».

«أمم»، قلتُ وأنا أعدُّ على أصابعي، «البناء ما زال هناك، الناس ما زالُوا هناك، وحتى المجلّاتُ الإباحية ما زالت هناك».

أشار إليَّ. «لكنَّها مُخبَّأةٌ. لم يكن علينا قطُّ أنْ نخبِّئَها في السابق».

«أهذا ما جعلَ جانبَكَ المظلم يظهر، يا رجل؟ لأنَّك اضطررتَ أنْ تخبِّئَ مجلّاتِكَ الإباحية؟».

«ليس ذلك فقط! كنتُ هناك منذ ثمانيةٍ وثلاثين سنةً. كنتُ في هذه المحطة، يوماً بعد آخر، لمدَّةٍ أطول ممَّا كنتِ فيها على قيد الحياة».

«سمعْتُكَ تقول ذلك مرَّاتٍ عديدةً».

«كنتُ فخوراً بالذهاب إلى تلك المحطة. كنتُ فخوراً بكوني جزءاً من تلك الأخوية».

أطلقْتُ تنهيدةً. «لمَ لا يمكن للأخوية أنْ تتَّخذَ أختاً؟».

«لأنَّها لا تستطيع ذلك».

«أظنُّ أنَّه يجب عليكَ كبح تحيُّزِكَ الجنسيِّ ذاك، يا رفيق».

«الأمر مختلف بوجود امرأةٍ في الأرجاء»، أصرَّ.
تنهَّدْتُ مجدَّداً.
مهما بدا ذلك غريباً، كنْتُ في الواقع أعلم قصده.
محطَّةٌ تعمل فيها امرأةٌ لا يمكن أنْ تكون «مهرجاناً رجوليّاً» على الطريقة القديمة. سيتوجَّبُ عليها أنْ تكون شيئاً مختلفاً. لكن يمكن، برغم ذلك، أنْ تكون مكاناً رائعاً، فقد رأيْتُ ذلك في أوستن. مكانٌ أفضل، بل أقوى، حيث كلُّ شخصٍ يُسهِمُ بمهاراته ومواهبه الخاصة حسب جنسه. لكنَّه لم يكن مخطئاً. فالأمر مختلف.
«أفهمكَ»، قلتُ، «قد أكون غيَّرْتُ طاقة المكان قليلاً».
أغضبَهُ تعاطُفي. «اللعنة، كم أنتِ مُصيبةٌ في ذلك! لقد غيَّرْتِها فعلاً! وأنا أريدُها على الحال التي كانَتْ عليها من قبلُ!».
بدا الآن تصرُّفُه طفوليّاً، فتبدَّدَ تعاطُفي. «هناكَ العديد من الأشياء التي أرغب فيها ولا أستطيع الحصول عليها»، قلتُ جاعلةً صوتي هادئاً لدرجة الاستفزاز، «لكنَّني لا أتجوَّل في الأرجاء لأُرهبَ الناس وأنشر الأكاذيب».
«ليس بعدُ»، قال قبلَ أنْ يردفَ: «امنحي نفسَكِ بعض الوقت».
«ربَّما. ربَّما عندما أبلغ عمرَكَ، سأصبح عجوزاً ممتعضةً كذَّابةً. لكنَّني أتمنَّى ألَّا أفعل. سأقاتل بكلِّ ما أوتيْتُ من قوةٍ كي لا أسمح لذلك أن يحصل».
«حظّاً طيِّباً إذاً».
«ربَّما أنتَ في حاجةٍ إلى شيءٍ جديدٍ تضيفُهُ إلى حياتك، بدل التشبُّث بالماضي إلى أنْ تخنُقَهُ».
«أنا لم أخنق الماضي»، قال من دون أنْ ينظر باتِّجاهي. «لقد خنقْتُكِ أنتِ».

«بل خنقْتَ نفسَكَ»، قلت. «سمحْتَ لحزنكَ بأنْ يجعلَكَ حانقاً. سمحت لمعاناتك بأنْ تجعلك قاسياً. أتعلم ما يجعلُكَ ذلك؟ شرِّيراً، مثل أولئك الأشرار في القصص المصوَّرةِ! يعانون، ثمَّ يجعلون الآخرين يعانون. أما الأخيار فيفعلون نقيض ذلك. الأخيار يعانون، هم أيضاً، لكنَّهم يستجيبون لذلك بتقديم المساعدة. أعلمُ أنَّكَ بدأْتَ كشخصٍ خيِّرٍ، وإلّا ما كنْتَ لتنضمَّ إلى خدمة الإطفاء. لكنَّكَ تخلَّيْتَ عن كلِّ ذلك في اللحظة التي اقتحمْتَ فيها خزانتي وتركْتَ تلك الخربشة داخلها».

لم يكن دي ستاسيو ينظر إليّ، بل أبقى نظرَهُ مثبَّتاً على النافذة.

رؤيتُهُ على تلك الحال، في قمَّة التَّحدِّي، عازماً على عدم الاعتراف بدوره فيما حصل، جعلَتْني أرغب في دفعه نحو حالةٍ من التعاطف. بدا حيويّاً ألَّا أضيِّعَ تلك اللحظة. وقبلَ أنْ أدركَ ما كنْتُ أفعلُهُ، وجدْتُ نفسي أقول: «أتعلم؟ لم تكنْ تلك أوّلَ مرَّةٍ يكتبُ فيها أحدُهُمْ تلك الكلمة في خزانتي. بعض الفتيات في مدرستي الثانوية سبقْنَكَ إلى كتابتها بعشر سنواتٍ. فلست سوى مقلِّدٍ حزينٍ لفتاةٍ لئيمةٍ».

لم يتفاعلْ دي ستاسيو.

«أتساءلُ لمَ قد يكون الأطفال في المدارس طالحين وقساةً تجاه طفلٍ آخر؟»، تابعْتُ كلامي، «أو ربَّما أنَّ ذلك لا يفاجِئُكَ. ربَّما حين تنظر إلى ما مضى من حياتك، لا ترى إلا القسوة. لكن دعني أخبرك شيئاً: الأمر ما زال يصدمني حدَّ الفزع. أرى تلك الفتاة ذات الستة عشر ربيعاً التي كُنتها، وقد كانتْ صغيرةً جدّاً، وغير محصّنةٍ تماماً».

سمحْتُ لبصري بأنْ يطفو بعيداً عن دي ستاسيو. كنتُ أستطيع رؤيتها حقّاً.

«هذا ما أراه حين أنظر إلى الماضي. إنَّه عيد ميلادها السادس عشر، يوم سبت، ووالدتها على أعتاب مغادرة البلدة ذلك اليوم، ذلك اليوم بالذات، لتنتقل إلى الجهة القصيَّة من البلد. والدتها تهجر والدها من أجل شخصٍ آخر، وذلك هو اليوم الذي تختاره من أجل الرحيل، بسبب 'الجدوَلة'، تقول. ما أعظمها هديَّةَ عيد ميلادٍ.

أتستطيع تخيُّل كم كانَتْ تلك الفتاة غاضبةً؟ كمْ كانَتْ مُحبَطةً ويائسةً؟ حين حاولَتْ أمُّها أنْ تخبزَ لها كعكةً وتعطيها هداياها في الليلة السابقة، معتذرةً مرَّةً تِلْوَ الأخرى أنَّ 'الوقت ليس الأنسب، يا حُلوتي'، لم تستطعْ لمسَ أيٍّ منها. لن تفتحَ تلك الهدايا، أو تتذوَّقَ تلك الكعكة. ستلبثُ على طاولة المطبخ لأسبوعٍ على الأقلِّ، أو ربَّما أطول من ذلك، قبلَ أنْ ترميَ الفتاة كلَّ محتوى تلك الطاولة في سلَّةِ نفايات المطبخ.

«أيمكنك أن تتخيَّل ما قد تحسُّ به إذا تخلَّتْ عنك والدتك، فما بالك بأنْ تفعل ذلك يوم عيد ميلادك؟ أيمكنك أنْ تتصوَّر مقدار الشعور بالتخلِّي الذي أحسَّتْ به تلك الفتاة وهي ترى والدتها تقود سيارتها بعيداً؟».

من بين كلِّ الناس الذين كان بإمكاني مشاركتهم ذكرى تلك اللحظة... وقع اختيارها على دي ستاسيو! لكنَّني كنتُ في حاجةٍ إلى جعله يفهم.

تابعت: «لكنْ تخيَّل الآتي: لاحقاً ذلك اليوم، تتلقَّى رسالةً نصِّيَّةً من ولدٍ كانَتْ مفتونةً به لشهورٍ... تسترق نظراتٍ إليه وتخربش اسمه على مذكِّراتها. هو يكبرها سنّاً. شابٌّ، وسيمٌ، واثقٌ من نفسه، في سنته الأخيرة. وبعيدٌ عن منالها بكلِّ المقاييس. لكنَّه يخبرُها أنَّه انتبه إليها وهي تسترق نظراتٍ إليه في أروقة المدرسة، ثمَّ يدعوها إلى حفلٍ

في بيته تلك الليلة. فتتساءل ما إذا كان الكون يعتذر إليها بطريقةٍ ما، وتضع أكياساً مثلَّجةً على عينيها المنتفختين، وتستحمُّ، وتنظِّف أسنانها، وتصفِّفُ شعرها. قال إنَّه سيلتقيها هناك، لذا تمشي إلى بيته الذي يبعد نحو عشرين تجمُّعاً سكنيّاً على الأقل، لكنْ لم يكن لها من يُقلُّها. والداه خارج البلدة، وكلُّ الثانوية حجَّتْ إلى بيته، مثل لقطةٍ من فيلمٍ، إلّا أنها أكثر صخباً ورعباً بكثيرٍ. ثمَّ حين يراها، يحيط كتفيها بذراعه الثقيلة، ويظلُّ على تلك الحال طوال السهرة، وهو يتحدَّثُ إلى أصحابه ويقدِّم إليها كؤوس عصيرٍ مطعَّمٍ بالكحول، كأنَّها شيءٌ يملكه.

«والأمر كلُّه كان غريباً وشاذّاً، ولم يكن كما أرادَتْهُ، لكنَّها كانَتْ ضائعةً ومفطورة القلب، وأحسَّتْ بشعورٍ طيِّبٍ أنْ تكون ملكَ أحدٍ ما... فبقيت.

«تعلم أنَّ الأمر لن ينتهي بشكلٍ جيِّدٍ، أليس كذلك؟ ليسَتْ هنالك قصَّة حبٍّ تبتدئ بهذه الطريقة. لقد استجبْتَ لعددٍ كافٍ من الاتِّصالات لتعرف إلى أين كانت تمضي تلك الليلة. لكنَّها لا تعلم. لم تحصل على قبلتها الأولى بعد. تظنُّ أنَّها على موعدٍ غراميٍّ معه. تظنُّ أنَّ الحظَّ ابتسم لها أخيراً. أريدُ أنْ أخطوَ إلى هناك وأمسك يدَها الغبية الساذجة وأجرَّها إلى الخارج، إلى برِّ الأمان. فتاةٌ خرقاءُ. كنتُ سأصفعها الآن، لو أنَّني أستطيع ذلك. كنتُ سأصرخ في وجهها لتعيَ ما يحصل.

«ولكنْ بعدما بدت دائخةً وجاهزةً، يقول لها إنَّه سيوصلها إلى البيت. تظنُّ أنَّه سيأخذها بالسيارة، وتأمل أنْ تحصلَ على قبلةٍ بعد أنْ يتمنَّى لها ليلةً طيِّبةً، قبلتُها الأولى. ولكنَّه عوضَ ذلك، يقودها خلف الكاراج. تُقهقهُ في البداية، كأنَّه ارتكب زلَّةً مضحكةً، لكنَّه بعدها، يدفعها لتسقط في الوحل بجوار شجيرة وردٍ ميتةٍ، وحين

تحاول الهرب، يمسكُ شعرَها بقبضته، ويدير رأسها إلى الخلف لدرجة أنَّها تحسب أنَّه سيكسر عنقها.

«ذلك ما تفكِّر فيه، في عيد ميلادها السادس العشر، وهي في الوحل: **هكذا سأموت**».

«أيجب عليَّ أنْ أخبرَكَ بما سيفعله بعد ذلك؟ يدفع وجهها إلى الأسفل ليصير نصف مغمورٍ بالوحل. الوحل يملأ أنفها وفمها وعينيها، بينما يتوقَّفُ عن الضحك ويشرع في العمل. كان يمكن أنْ تختنق في ذلك الوحل، وما كان ليبالي أو يهتمَّ. لكنَّها لم تختنقْ.

«لن تذكرَ كيف عادت إلى البيت. ذلك الجزء من ذاكرتها ظلامٌ دامسٌ. ولكنْ حين تجدُ نفسها أمام نافذة غرفة المعيشة، ترى والدها هناك، يشاهد التلفاز وينتظر عودتها. تنتظر، متكوِّرةً على نفسها بجوار درجات الباب الخلفيِّ، إلى أن يستسلم، ويطفئ الأضواء، ويذهب إلى الفراش.

«تظنُّ أنَّه سيتوجب عليها الذهاب إلى المستشفى، أو إلى ممرِّضةِ المدرسة، إذا لا يتوقف النزيف... لكنَّهُ يتوقَّفُ في النهاية. لنْ تمرضَ، أو تحبل، لكنَّها لنْ تخرج في موعدٍ غراميٍّ مجدَّداً، أو ترغب في ذلك، أبداً. ولن تخبرَ أيَّ أحدٍ، مطلقاً، أبداً، بما حصل لها. حتى الآن، حتى هذه اللحظة، في هذا المكان، لعجوزٍ ممتعضٍ وشرِّيرٍ.

«لكن الشاب أخبر الناس بما حصل. الكثير منهم في الواقع. إلَّا أنَّه اختلق قصَّةً حيث 'ترجّته أن يفعل ذلك'. واحزرْ ما كانَتِ الكلمة التي استعملَها؟ **عاهرة**. احزرْ كمْ عدد الناس الذين أخبرهم؟ الكل. الجميع. واحزرْ ماذا قرَّرَتِ الفتيات اللئيمات أنْ يخربشْنَ بمجموعة مفاتيح على الباب المعدني لخزانتها؟».

انتظرتُ حينها، كأنَّ دي ستاسيو كان سيحزر.

وهو ما لم يفعله.

لكنَّني منحته دقيقةً.

منحتُ كلينا دقيقةً.

ثمَّ قلتُ: «نعم، عاهرة. إرهاب الثانويات المبتذل حتى الموت، الذي أُعيد آلاف المرَّات».

أبقيتُ نظري موجَّهاً على شكلٍ بعيدٍ لشجرةٍ خارج النافذة. من بين كلِّ الناس في العالم الذين كان بإمكاني أن أكشف لهم ذلك السِّرَّ الدفين، لِمَ بحقِّ الجحيم، اخترْتُ دي ستاسيو في نهاية المطاف؟

انتظرتُ أنْ يساورني النَّدم على ذلك، توقَّعْتُ أنْ يغمرَني مثل ارتطامٍ عنيفٍ.

ظلَّ دي ستاسيو صامتاً لوقت طويل، فبدأتُ أتساءل إنْ كان قد غفا، أو شيئاً من ذاك القبيل.

أخيراً، وفي همسةٍ مثل الحشرجة، قال: «أنا آسفٌ».

«ماذا؟».

«لم أكن أعلم».

أومأتُ.

ثمَّ قال دي ستاسيو، بنبرةٍ جِدِّ ناعمةٍ تكاد لا تُسمع: «كان توني مَنْ رأيْتُ في ذلك الحريق: طفلي. كان توني وهو في العاشرة أو الحادية عشرة، السنة التي كان بقصَّة شعرٍ قصيرةٍ جدّاً. كان يرتدي قبَّعة بيسبول، وقلادة ضرس القرش التي اشتريناها من الشاطئ ذلك الصيف. لقد رأيْتُهُ. كان هناك، على الجهة الأخرى من النافذة. لقد رأيْتُه. طفلي الصغير. كان يناديني لأساعدَه».

وجَّهتُ نظري نحو دي ستاسيو، بدا هزيلاً ذابلاً.

تابع كلامه: «حين يناديكَ طفلكَ للمساعدة، تمضي نحوه. حتى ولو كنتَ تعلم أنَّه لا يمكنك المساعدة، تمضي. حتى ولو كنتَ تعلم أنَّه ليس هناك حقّاً، تمضي. تمضي مهما كلَّف الأمر». كانَتْ هناك دموعٌ على خدَّي دي ستاسيو الآن. «انسلَّتْ حياتي من بين يديَّ بطريقة ما. فقدْتُ زمامها. فقدتُ الجميعَ، كلَّ من كان عزيزاً». أغمض عينيه. «ثمَّ ظهر أمامي هناك. لم أستطعْ تركَهُ في الداخل. لم أستطع تركَهُ يموت».

لم يكن ينظر باتِّجاهي، لكنْ لم يكنْ بحاجة إلى ذلك. شيءٌ ما بخصوص فكرة أنّ دي ستاسيو جاهد لينقذَ طفلاً قد فُقِدَ بالفعل، جعلَني أشعر بِأساه كأنَّه أساي.

إنه لأمرٌ جللٌ أنْ يشاركَ الواحد منَّا حسرته مع الآخرين، أن يمنحَهم ومضةً من الألم الذي يحمله بداخله. فهذا يجعلُنا نرتبط على مستوىً عميقٍ، لذا نقوم بذلك مع الأصدقاء فقط. وأنا ودي ستاسيو. . . لم نكنْ صديقين. بل غالباً ما كنَّا نقيض ذلك.

لكنَّ جزءاً كبيراً ممَّا جعلنا عدوَّين في الأساس كان هذا الألم الذي يصفه الآن. لم تكن هذه المحادثة فقط هي ما سيقرِّبُنا أحدنا من الآخر، بل كلُّ ما حدث قبل ذلك، فكانَتْ حياتانا متشابكتين بالفعل. لكنَّ ما أخبرْتُهُ به للتَّوِّ، وما كان يخبرني به في هذه اللحظة، كانا حقيقتين بمثابة حجرَي أساسٍ لحياتينا. فهما نوعُ الحقائق التي تجبرنا على فَهْمِ الآخر بطريقةٍ أفضل، النوع الذي له قوةٌ خالصةٌ تغيّر رؤيتنا للآخر، بل تحوّل حتى كلّ ذلك الغضب إلى شيءٍ مختلفٍ. . . شيءٍ أقرب إلى التفهُّم.

أكان ذلك ليحدث؟ أكنَّا سنصير أنا ودي ستاسيو صديقين؟ أكان

بإمكاني أن أفكّر حتى في عدم كره الشخص الذي عاملني بكلّ هذا اللؤم والشرّ؟

لم أكنْ متأكّدةً، لكنّني أحسسْتُ بالكثير من التعاطف تجاهه في تلك اللحظة كي أوصد الباب على تلك الاحتمالية.

«لم تستطعْ تركه هناك»، قلتُ، جاعلةً صوتي مريحاً إلى أقصى حدٍّ، مصادِقةً على قرارِهِ بتعريضنا جميعاً للخطر بطريقةٍ لم أكنْ متأكّدةً حتى أنّني أوافق عليها. ربّما كان فقط بحاجةٍ إلى شخصٍ يفهمُهُ. «أتفهّمُ ذلك»، كرّرْتُ.

ربّما كان بإمكان كلينا تجاوز امتعاضنا.

ثمّ، وبعد صمتٍ دام بعض الوقت، قال دي ستاسيو: «اغربي عن وجهي، لست بحاجة إلى مصادقتكِ».

ربّما لا.

كان بإمكاني الآن أنْ أرى كيف كانَتْ علاقةُ صداقةٍ بيننا لتكون. جزءان متساويان من العدائية والتقبُّل المكره. جزءان متساويان من الفهم وسوء الفهم. عِلمٌ متساوٍ بأنّني أنقذْتُ حياته، وبأنّه كان شاهداً على أسوأ لحظاتِ حياتي، وبغضّ النظر عمّا يحدث، فذلك كان سيجعلنا متّصلَين.

بالطبع، ربّما نجحَتْ محادثةٌ واحدةٌ في إنشاء رابطٍ بيننا، لكنّها حتماً لن تغيّرَ شخصيّتَه من عجوز ممتعضٍ حقودٍ إلى حساسٍ متصالحٍ مع نفسه.

«لا بأس. كُنْ نفسَكَ الممتعضة. لمْ آتِ إلى هنا من أجل ذلك، على أية حالٍ».

«ولمَ أتيتِ؟»، سأل.

«لأُحضِر لك الحساء»، قلتُ وأنا أهزُّ كتفَي، ثمَّ أضفتُ:

«لأتفقَّدَ حال عظم ترقوتكَ. لأكونَ كائناً بشريّاً». لاقَتْ نظراتي نظراتِه. «وأيضاً، لأنَّه خطر لي فجأةً أنَّكَ تعاني من إدمان مسكِّناتِ الألم».

سمح دي ستاسيو لنفسه بأنْ يستوعب ذلك، ثمَّ قال: «عليكِ اللعنة».

«عليكَ اللعنة، أنتَ».

أغمض عينيه.

«الأمر الآن واضحٌ بجلاءٍ في نظري»، تابعتُ، «الكذب، العدائية، السِّرِّيَّة، الهلوسات... لمَ استغرقْتُ كلَّ ذلك الوقت لأفهم؟».

حدجني دي ستاسيو بنظراته من دون أنْ ينبس ببنتْ شفةٍ.

«لا أحتاج منْكَ أنْ تُقرَّ بذلك»، قلتُ. «الأمر واضحٌ للعيان».

«لن أعترفَ بالحقيقة أمام الكابتن، إذا كان ذلك ما تفكِّرين فيه»، قال دي ستاسيو. «أنا على بُعْدِ سنتين فقط من التقاعد. أتظنِّينَ أنَّني سأتخلَّى عن تقاعدي؟».

«لم أتوقَّعْ منكَ قطُّ أنْ تعترفَ».

كان ذلك بمثابة اعترافٍ. لو كانَتْ هذه إحدى حيواتي الموازية، كُنتُ سأضع جهاز تنصُّتٍ، ولكان اعترافه يتمُّ تسجيله على شريطِ الآن. كنتُ سآخذُهُ إلى الكابتن، فأبرِّئُ ذمَّتي، وأستعيد وظيفتي، وأنتصر، وأتلقَّى التَّهاني على ما فعلْتُ في الحريق.

لكنَّ الحياة ليستْ كالأفلام، ولم يكنْ ذلك الغرض من مجيئي إلى هنا.

ما كنتُ أحاول القيام به كان أكبر من ذلك.

حاول دي ستاسيو التظاهر بأنَّني كنتُ هنا فقط من أجل مصلحتي الشخصية. «ترمس حساءٍ لن يجعلَني أقفُ بصفِّكِ».

لكنّني ما كنتُ لأتقبَّلَ ذلك. «أنتَ بصفِّي بالفعل، لكنَّكَ فقط لا تعلم ذلك بعد».

ظننْتُ أنَّني رأيْتُ بصيصَ ابتسامةٍ عند طرف شفتيه. أو كشرةً ربّما.

«وعلى ذكر ذلك»، قلتُ، «أحمل لكَ خبراً سارّاً: أنا أسامحُكَ».

ردَّ بنخيرٍ أقرب ما يكون إلى السخرية، وأدار مُقلتَيه إلى الأعلى. «على ماذا؟».

«على كلِّ ما حدث: على عدم تقبُّلكَ لي. على كونك لئيماً وحقوداً. على تربُّصكَ بي، وإخافتي، وجعلي الهدف الذي تصبُّ عليه جلّ غضبكَ. على لومي على ألمك. على أخذكَ الشيء الوحيد في حياتي الذي يجعلني أشعر بالقوة والأمان والسعادة، ومحاولتكَ تدميره. أسامحُكَ على كلِّ ذلك».

ظلَّ يتفرَّس فيَّ بعض الوقت، وأخيراً، قال: «لماذا تفعلين ذلك، بحقِّ الجحيم؟».

«لأنَّ هذا هو الشخص الذي أودُّ أنْ أكونه».

وقد كان ذلك صحيحاً.

«واحزرْ ماذا بعد؟» قلتُ، في استرسالٍ الآن. «لا أسامحُكَ فقطْ بل أسامح نفسي أيضاً».

لوهلةٍ، بدا وكأنَّه ممتنٌّ، قبل أنْ يلتفتَ. «لا يمكنُكِ أن تسامحيني. لن أسمحَ لكِ بذلكَ».

«الأمر ليس مَنوطاً بكَ».

«أنا أحرّمُ ذلكَ».

«أنا لا أفعل ذلك من أجلك»، قلتُ حينها. «أنا أفعله من أجلي».

«اخرجي من بيتي»، قال، ثمَّ أضاف: «وخذي حساءكِ اللعين معكِ».

«لن آخذ الحساء».

«حسنٌ إذاً، وأنا لن أتناوله».

«حسنٌ»، قلتُ، «ارمِهِ في سلة النفايات. إنَّه منزليُّ الصنع. من يدَي والدتي التي تموت، أيها العجوز الهرم الممتعض... ارمِهِ كاملاً إذا شئتَ».

«اخرجي من بيتي!».

«أنا ذاهبةٌ»، قلتُ وأنا أحزم حقيبتي.

«وخذي مغفرتكِ معكِ!».

«لا مجال لذلك أبداً. المغفرة تبقى هنا!».

«غادري، الآن».

«أنا مغادرةٌ»، قلتُ، ولكنّني عِوَضَ أنْ أبتعد، اقتربْتُ منه خطوةً، «سأغادر، لكنّني سآخذُكَ معي».

تفرَّس دي ستاسيو في وجهي ليتحقَّقَ إنْ كنتُ أعني ذلك حقّاً.

وقد عنيْتُه فعلاً.

توقَّعْتُ منه أنْ يتعنَّتَ، لكنّني حين مددْتُ يدي نحوه، خَبتْ كلُّ قواه ورغبتُهُ في المقاومة. كأنّه كان يقاتل بشدَّةٍ، ولوقتٍ طويلٍ جدّاً، وفي تلك اللحظة، قرَّرَ أنْ يستسلم.

أكان مقبولاً، ما فعله بي؟ أو بأوين؟ أو بنفسه؟ أكان الإدمان

يبرّرُ فعل كلٍّ ذلك؟ أكان فقدان ابنه، ثمَّ زوجته، يجيز له خرق كلِّ معايير التعامل بإنسانيةٍ؟ بالطبع لا.

لكنْ، هل رغبْتُ فجأةً في القيام بكلِّ ما في وسعي كي لا أسمح أبداً لحزني وغضبي وخيبة أملي بأنْ تجعلني مثله؟

بكل تأكيد.

«هيًّا بنا»، قلتُ وأنا أساعده على الوقوف.

لم يقاومْ. «أين نحن ذاهبان؟».

«أظنُّكَ تعلمُ جيّداً إلى أين نحن ذاهبان»، أجبْتُ بهدوءٍ.

أخذ وهلةً للوقوف على قدميه بثباتٍ. «ستأخذينني إلى الكابتن، أهذا ما في الأمر؟ أو إلى الشرطة؟».

«لا هذا ولا ذاك، أيها العجوزُ الهرمُ»، قلتُ وأنا أحرِّكُ رأسي نافيةً. «سآخذُكَ إلى مصحّة إعادة تأهيلٍ».

29

أنهيتُ ذلك اليوم وأنا أشعر بالقوة.

صحيحٌ أنَّ دي ستاسيو لم يكنْ سيعترف بأيِّ شيءٍ، وصحيحٌ أنَّني لم أكنْ سأستعيد وظيفتي. فعمليّاً، وباستثناءِ أنَّ دي ستاسيو لم يمتْ، لم أحقِّقِ الكثير في مواجهته.

لكن لم يكن ذلك مهمّاً؛ فكنتُ فخورةً بنفسي. كنتُ فخورةً بكيفيَّة تعاملي مع الأمر برمَّتِهِ. فقدْ أحضرتُ له الحساء، وذهبتُ لتفقُّدِهِ، واخترْتُ، مرَّةً تِلْوَ الأخرى، أنْ أكونَ متعاطفةً، وأنْ أكونَ إنسانةً، وأنْ أقومَ بالأمر الصائب، بغضِّ النظر عن كونِهِ يستحقُّ ذلك أم لا.

سمَوْتُ فوق غضبي. لم يكن قد تبدَّدَ كلُّه بعد، لكنَّه لم يكنْ من الضروري أن يفعل.

لقد سامحْتُهُ، أو حاولتُ على الأقل.

حين نطقتُ تلك الكلمات، صدقاً، كنتُ أدَّعيها. قلتُها من حيث المبدأ، من دون أنْ أتوقَّع أنْ أحسَّ بها. توقَّعْتُ أنَّ الإحساس سيأتي لاحقاً، ربَّما بعد سنواتٍ، إذا حدث أصلاً.

لكنَّ نُطْقَ تلك الكلمات قام، بطريقةٍ ما، بقدح الإحساس في داخلي.

فالكلماتُ قويّةٌ، وأدركْتُ ذلك بطريقةٍ جديدةٍ.

لا مجال لإنكار الأمر الآن.

لقد رويْتُ قصّتي. وضعتُها في كلماتٍ. وكان ذلك لدي ستاسيو، من بين كلِّ الناس، لكنْ لا يمكنك الحصول على كلِّ شيءٍ. لم يكنِ الشَّخصَ الوحيد الذي شهد تلك اللحظة، على كلِّ حالٍ.

فقد كنْتُ هناكَ.

رواية القصة غيَّرَتِ القصَّة بالنسبة إليّ. لم تغيِّر ما حدث، فهذا يستحيل تغييره، وإنما غيَّرت الطريقةَ التي استجبتُ بها لما حدث.

الأمر كأنَّني كنتُ أحيد ببصري عن تلك الذكرى لعشر سنواتٍ طويلةٍ، لكنَّني أُجبرتُ نفسي أخيراً على النظر إليها من جديد. وما رأيْتُهُ، في سنِّ السادسة والعشرين، كان مختلفاً تماماً ممَّا أذكرُهُ وأنا في السادسة عشرة من عمري.

فلا شيءَ بخصوص القصة تغيَّر، بل أنا مَن تغيَّرْتُ.

بدأتُ أروي تلك القصة لدي ستاسيو ليشعر بي. أردْتُ إجباره على إدراك مقدار الأذى الذي حملَتْهُ أفعاله. ربَّما فعل، وربَّما لم يفعل. لكنَّ ما أعلمُهُ عِلْمَ اليقين هو أنَّني شعرْتُ بشيءٍ وأنا أسمع تلك القصَّة، شيءٍ لم أكنْ أتوقَّعُ أنْ أشعرَ به إطلاقاً تجاه تلك الفتاة الساذجة الغبية التي كُنتُ عليها : التَّعاطُف.

وأنا أستعيد تلك الذكرى، رأيْتُها - نفسي المراهقة - بعيونٍ مختلفةٍ. رأيْتُها في القصة فتاةً شابَّةً، تثق بالناس، عديمة التجربة، لكنَّها ليستْ غبيةً. ليست وضيعةً. الآن، وبعد كلِّ هذه السنوات،

كانَتْ شخصاً أستطيع دَعْمَهُ، وفَهْمَهُ، والتَّألُّمَ من أجله. وبهذه الطريقةِ الغريبةِ، حقيقةُ أنَّني كنتُ أستطيع رؤيتها، والاستماع إليها، والاهتمام لأمرها، والتألُّم لألمها، والدفاع عنها - حتى ولو لم يكن بإمكاني تغيير أيِّ شيءٍ على الإطلاق - حقيقة أنَّ أحداً سَمِعها، وبقي معها في تلك اللحظة، وشهد على ما حصل، عنى أنَّها لم تكن وحيدةً.

ما عادَتْ وحيدةً بعد الآن.

كانَتْ وحيدةً طوال هذه السنين، تواجِهُ، بشكلٍ لا نهائيٍّ، أسوأَ لحظةٍ في حياتها، وحيدةً تماماً، ومتخلًّى عنها من طرف الجميع، بمن فيهم أنا.

كلُّ ذلك تغيَّر حين رويْتُ قصَّتها.

الآن، كنتُ بصفِّها، وهذا شيءٌ ضئيلٌ ومتأخِّرٌ للغاية، لكنَّني كنتُ هناك معها، في كلِّ الأحوال.

إفشاءُ ما حدث في تلك الليلة، ونسجُه في كلماتٍ، غيَّر الذِّكرى. ما عاد الأمر مثل غازٍ مسمومٍ يتسلَّلُ إلى لاوعيي، سامٍّ، بلا شكلٍ، وغير قابلٍ للاحتواء، بل كان الآن مسجوناً في كلماتٍ، وكان له شكلٌ.

بدايةٌ، ووسطٌ... والأهم، نهايةٌ.

يتطلَّبُ منك الأمر الكثير، أنْ تُفصح عن سرِّك الأعمق. لذا ذهبْتُ إلى البيت ورقدْتُ مثل جثَّةٍ هامدةٍ.

وحين حلَّ الصباح، شيءٌ ما في داخلي انبعثَ من جديد.

مُستلقيةً على سريري، تحت أنماطٍ رسمَتْها أشعةُ الشمس القادمة من نافذتي، تأمَّلتُ قدرتي على فعل المستحيل. لقد رويْتُ

قصَّة هيث تومسون. رويْتُ تلك القصة المدمِّرة للروح بكاملها، وعشْتُ بعدها لأرى الشفق. من بين كلِّ الأمور الجسورة التي قمْتُ بها في حياتي، كانَتْ تلك أجسرَها.

إذا فعلتُ ذلك، فبإمكاني حقّاً فعل أيِّ شيءٍ.

والآن كنتُ في طريقي إلى المستشفى لرؤية المبتدئ، بغضِّ النظر عمَّا قد يقوله أيٌّ كان.

فلْيحاولُوا رَدْعي.

لكنْ، حين نزلْتُ إلى الطابق السُّفليِّ، وجدْتُ بيت والدتي غاصّاً بالإطفائيين.

ليسَ أيَّ إطفائيِّين، بل المحطة الثانية، المناوبة 'س'. طاقمي. كانُوا يقومون بأعمال البيت.

كان العضلات السِّتُّ والحقيبة في المطبخ، يصلحون نافذة والدتي المكسورة. أمَّا ضئيلٌ فقد كان يتسلَّقُ سلَّماً وسط غرفة المعيشة ويغيِّر المصابيح في السقف، بينما كان الكابتن يحتسي القهوة رفقة والدتي التي كانَتْ في لباس منزليّ.

«أوه، يا حلوتي»، قالَتْ والدتي حين رأتْني، «لقد استيقظْتِ».

الْتفتَ الكابتن، رآني هو الآخر، فوقفَ وحيَّاني. «صباح الخير، هانويل».

حين سمعَهُ الرفاق صرخُوا جميعاً بصوتٍ موحَّدٍ: «صباح الخير، هانويل!».

لم أكنْ متأكِّدةً ممَّا يعنيه كلُّ ذلك. «ماذا تفعلون هنا؟».

«إنَّها قصَّةٌ طويلةٌ»، قال الكابتن.

«لقد ظهرُوا في المكان على الساعة السابعة وخمسٍ وأربعين دقيقةً، وشرعُوا في إصلاح نافذتي المكسورة»، قالتْ أمي. «ثمَّ

طلبُوا منِّي إعداد لائحةٍ بكلِّ ما يجب القيام به في البيت ليتكفَّلُوا بأمره، وقد انخرطُوا في عملٍ جادٍّ منذ ذلك الحين».

نظرْتُ إلى الكابتن، ولسان حالي يقول: ماذا يجري بحقِّ الجحيم؟

«هذان»، تابعَتْ أمِّي كلامَها مغرِّدةً وهي تشير إلى العضلات السِّتّ والحقيبة، «سيصلحان سياج الحديقة، أمَّا هذا»، أشارَتْ إلى ضئيلٍ، «فقد أصلح قفل البوَّابة الأمامية وقام بتشحيم باب الخزانة، كما أنه أصلح التسرُّب خلف كرسي الحمَّام».

بدَتْ مسرورةً للغاية.

عبستُ في وجه الكابتن. «الماذا؟».

نظر إلى عينيَّ. «طريقةٌ للاعتذار».

«ما الذي تعتذر بخصوصه؟»، سألتُه.

كانتْ هنالك احتمالاتٌ عديدةٌ.

«بادئ ذي بدءٍ، على رَمْيِ دي ستاسيو للقرميدة عبر تلك النافذة»، قال الكابتن وهو يومئ باتِّجاهها.

رمشْتُ: «كنتَ تعلم أنَّه هو؟».

«أنا أعلم الآن».

«كيف؟».

«قمْتُ أنا والمبتدئ بتجميع القطع معاً».

اقتربْتُ منه. «هل هو صاحٍ؟ هل هو بخيرٍ؟ هل رأيتَهُ؟».

أومأ بالإيجاب. «ليلة أمس. كانوا قد نقلوه للتَّوِّ من قسم العناية المركَّزة».

بدرَتْ منِّي زفرةُ ارتياحٍ لطيفةٌ، واغرورقَتْ عيناي بالدموع، لكنَّني اعتصرْتُ رمشةً سريعةً لأدفعَها إلى الداخل: «كيف حاله؟».

«إنَّه في طور التعافي»، قال الكابتن، ثمَّ حرَّكَ رأسه وهو ينظر إلى ديانا. «الشباب».

ابتسمْتُ وضممتُ ذراعَي حول خصري. «أتحدَّثْتَ إليه؟».

«أجل، وقد سأل عنكِ».

«هل فعل حقّاً؟».

«أراد أنْ يعلم إذا ما كنتِ قد ذهبتِ لزيارته».

أحسستُ بملامحي تنقبض وأنا أسأله: «أأخبرتَه لمَ لمْ أذهبْ لزيارته؟».

«أجل، فعلتُ».

«وماذا قال؟».

«قال بخصوص رواية دي ستاسيو لما جرى في الحريق - وأنقل كلماتِهِ هنا - إنَّها 'حزمة مغالطةٍ من أكاذيب عجوزٍ ممتعضٍ'. ثمَّ ثار المبتدئ واهتاج دفاعاً عنك، واتَّهم دي ستاسيو بالكذب وبأنَّه وغدٌ وضيعٌ. كان ثائراً جدّاً لدرجة أنَّه تسبّب لنفسه في نوبة سعالٍ».

ابتسمتُ قليلاً: «أحقّاً وَصَمَ دي ستاسيو بالوغد الوضيع؟».

ابتسم الكابتن قليلاً كذلك، ثمَّ قال: «إنَّه يأخذ الكثير من الأدوية».

«يبدو أنَّه غدا بحالٍ أفضل»، علَّقْتُ.

تابع الكابتن كلامه: «حين استقرَّ وضعُه، أخبرْتُهُ أنَّ المركز يتولَّى الأمر، وأنَّه سيفتحُ تحقيقاً شاملاً، وأنَّنا سنصل إلى الحقيقة الكاملة لما حصل، بكل تأكيدٍ. قصدْتُ طمأنَتَهُ، لكنَّهُ ضغط عليَّ من أجل الحصول على معلوماتٍ إضافية، وحين أخبرته بأنَّكِ قد فُصِلْتِ، استقالَ».

«استقال؟!».

أومأ الكابتن، وقد بدا عليه الإعجاب بفعله ذاك. «احتجاجاً».

أمرٌ جيّدٌ أنَّ الكابتن لم يعلم أنَّه كان يعتزم أنْ يستقيل في كلِّ الأحوال.

«على أية حالٍ، ظننتُكِ مجنونةً حين اعترفْتِ»، تنحنح، «بِ... امم... مشاعرِكِ تجاه المبتدئ، لكنَّني الآن أقول، بناءً على تلك المحادثة، ولغة جسده، إن تلك المشاعر تبدو... امم... متبادَلةً».

هذا يكفي. يجب أن أذهب. يجب أن أرتدي ملابسي.

استدرتُ واتَّجهتُ نحو السلالم.

«انتظري»، قال الكابتن.

واصلتُ المَشْيَ. «أنا ذاهبةٌ إلى بوسطن. لقد انتظرتُ أكثر من اللازم».

«نحن هنا من أجل ذلك»، قال الكابتن.

توقَّفْتُ واستدرْتُ: «من أجل ماذا؟».

«أخذكِ إلى بوسطن».

أملتُ رأسي باتّجاهه: «انتظر لحظة... ماذا؟ لمَ أنتم هنا؟».

«للاعتذارِ لكِ»، تابع الكابتن، «ولوالِدَيْكِ، ومحاولة إصلاح الأمور».

«ما الذي تعتذرُ لي بخصوصه؟».

«توقيفُكِ عن العمل، أولاً وقبل كلِّ شيءٍ، فأنتِ غير موقوفةٍ، بالمناسبة».

«ما الذي يعنيه ذلك: ’غير موقوفة‘؟».

هزَّ كتفيه قليلاً. «لقد استعدْتِ وظيفتَكِ، إذا كنتِ تريدينها».

لم يكن ذلك سؤالاً أستطيع الإجابة عنه بعد. نظرْتُ في الأرجاء إلى الرفاق. كانُوا قد توقَّفُوا جميعهم عن العمل، وكانوا يشاهدوننا.

تابع الكابتن: «أنا أعتذرُ لكِ كذلك لأنَّني شككْتُ في كلامكِ حين كنتِ تقولين الحقيقة».

حدَّقْتُ به. كيف علم أنَّني كنتُ أقول الحقيقة؟

«أكَّدَ المبتدئ كلَّ تفصيلٍ صغيرٍ في روايتِكِ»، قال الكابتن، «كلَّ تفصيلٍ كان واعياً فيه على أيَّة حالٍ. لكنْ بعدها، وعلاوةً على ذلك، تلقَّيْتُ اتِّصالاً من دي ستاسيو ليلة أمس، من مركز إعادة التأهيل».

اتَّصل دي ستاسيو بالكابتن من مركز إعادة التأهيل؟ أيسمحون بالاتِّصالات الهاتفية هناك؟

«لقد اعترف بكلِّ شيءٍ: التقرير المغالط، والخزانة، والعجلات، والقرميدة، وجرعته الزائدة، ومسكِّنات الألم. كان يسرقها من إمداداتنا منذ شهورٍ».

«واو»، قلت، «لقد اعترف بكلِّ شيءٍ فعلاً».

«اعترفَ أيضاً بأنَّكِ أنقذْتِ حياتَهُ».

كان ذلك غيرَ متوقَّعٍ. «مرَّتين» أكَّدْتُ، إذا ما حسبْنا عدم السماح له بأنْ يُشوى داخل محلٍّ بقالة يحترق.

تابع الكابتن: «لقد سحب تقريره الأولي عمَّا حدث في الحريق وسيقدِّم تقريراً جديداً».

رفعْتُ حاجبيَّ.

أومأ. «سأعزِّزُ تقريرَكِ، وأوضِّحُ أنَّك وضعْتِ سلامتَكِ على

المحكّ من أجل آخرين، متصرّفةً بشجاعةٍ بالغةٍ، ومنقذَةً حياتَهُ وحياة المبتدئ».

«هل يعني ذلك أنه اعترف بكلّ شيءٍ طالحٍ قام به؟».

«أظنُّ ذلك»، قال الكابتن.

«لقد أقسمَ أنَّه لن يعترف أبداً»، قلت.

«أظنُّ أنَّه غيَّر رأيه».

«ولكنْ... هل سيتمُّ توقيفُه عن العمل؟».

«أجل».

«وهل سيفقدُ تقاعده؟».

أومأ الكابتن. «على الأرجح».

«لِمَ قد يضحِّي بكلِّ ذلك؟ لقد كاد يفلتُ بفعلته».

«قال إنَّه يدين لكِ بالكثير» ردَّ الكابتن، ثمَّ أضاف: «وقال إنَّه لا يريد أنْ يكون شرِّيراً».

لم أعرف ما كنتُ أشعر به، صراحةً.

«كنتُ غبيّاً للغاية»، قال الكابتن حينها، «كنَّا أغبياءَ جميعنا. لقد قلَّلْنا من شأنِكِ ولم نثقْ بِكِ. والآن سنقوم بتصحيح الأمور».

لم أكن متأكِّدةً من أنَّ الأمور يمكن أن تصحّح أبداً. فشعرتُ بنوعٍ من الاستياء وأنا أسمعه يعترف بذلك. «وكيف ستفعل ذلك بالضبط؟»، سألتُ.

«لستُ متأكِّداً تماماً»، قال الكابتن، «لكنَّني أعلم أنَّنا سنبدأ باصطحابك إلى بوسطن، بالأضواء والصفَّارات».

في الطريق، أفرغْنا كلَّ ما بجعبتنا. تكدَّسْنا جميعنا داخل سيَّارة الكابتن من طراز سوبربان: الكابتن وضئيلٌ في المقدمة، بينما

انحشرْتُ بين العضلات السّتّ وضئيلٍ. شرحْتُ لهم تسلسل أفكاري، وكيف توصَّلْتُ إلى ما كان يجري مع دي ستاسيو، واصفةً كلَّ المؤشِّرات، وكيف اتَّسقَتْ جميعها لتشكِّلَ الصُّورة العامّة.

«كان سيموتُ لو لم تظهري في المكان»، قال الكابتن.

«على الأرجح».

«كان سيموت لو أنَّه دخل ذاك المبنى لوحده»، قال العضلاتُ السّتُّ.

«بكلِّ تأكيدٍ».

في الطريق، تصرَّف الرفاق كأنَّ الأمور كانت تجري بشكلٍ طبيعيٍّ تماماً، كأنَّني لم أكنْ قد أوقفت عن العمل أو تمَّ تجنُّبي أو التشكيك فيَّ قَطُّ. وفي الواقع، كانَتِ الأمور تجري بشكلٍ أفضل من الطبيعي، فشيءٌ ما في تلك المِحنة بدا أنَّه أزال الحاجز اللامرئيَّ الأخير الذي لم أكنْ أعي أنَّه كان قائماً بيننا. كان الرفاق يُلقون النكات والدعابات، وقد ضايقوني، وشكروني، واعتذرُوا لي، ووصمُوا أنفسهم بالغباء مرَّةً بعد أخرى.

وضايقوني بخصوص المبتدئ بالذات، فلم يكن هناك مجالٌ لأفلتَ من ذلك على الإطلاق.

«لقد تنبَّأْتُ بذلك منذ البداية»، قال العضلات السّتُّ.

«لم تتوقَّعْ ذلك قَطُّ»، قال الحقيبة وهو يمدُّ ذراعه من خلفي ليلكمَهُ.

«أوقفا نُباحَكما»، قال ضئيلٌ. «إنه حبٌّ سرّيٌّ أسطوريٌّ. لم يتنبّأ به أحدٌ».

«ذهنيّاً»، ردَّ الحقيبة، «قلتُ لنفسي: 'هذان الاثنان سيقعان في شباك بعضهما قبل أن يعيا ذلك»'.

«لا أحد واقعٌ في شباكِ أحدٍ»، قلتُ وقدْ أحسسْتُ بأذنيَّ تحمرَّان.

«ليس في هذه اللحظة، على أيةِ حالٍ»، قال العضلات السِّتُّ.

«ليس قبل عدَّة أسابيع»، أشار الكابتن من كرسيِّه في الأمام. «امنحي المسكين وقتاً ليتعافى».

«العاشق المسكين»، صرخ الرفاق دفعةً واحدةً.

«يا إلهي، أرجوكم لا تقولوا لي إنَّكم ستُلقِّبونه بالعاشق المسكين».

«فاتَ الأوان»، أجاب الرفاق، وشرعُوا يمازحون بعضهم ويصرخون أكثر فأكثر.

كانَتْ غرفةُ أوين الصغيرة في المستشفى غاصَّةً بالزوار: والديه، وشقيقاته، وأزواجهنَّ، وبضعة أنسباء، ورهطٍ من الإطفائيين المتقاعدين... كان الأمر أشبه بالدخول إلى مصعدٍ ضيِّقٍ مكتظٍّ بالناس.

اخترق الكابتن والرفاق الحشد، مهلِّلين: «لقد أحضرنا لكَ هديَّةً»، فتفرَّق الحشد، ووجدْتُ نفسي واقفةً بجوار سريرِ أوين.

كان حيّاً، كان صاحياً، وكان على ما يُرام.

كان أجمل مشهدٍ في العالم تبصرُهُ عيناي.

أخذتُ نفَساً عميقاً.

رفع عينيه ولاقى نظري.

«مرحباً، يا مبتدئ»، قلتُ.

«مرحباً، كاسي».

كان صوته ما يزال أجشَّ بسبب الأنبوب. كانَتْ آثار الحروق ما تزال على وجهه المحمرّ في بعض المناطق، لكنَّ الأمر لم يكن سيِّئاً. وكان شعره أشعثَ بطريقةٍ لطيفةٍ.

مدَّ يده فوق حاجز السرير، فأمسكْتُ بها.

لكنْ، في تلك اللحظة، سمعْتُ كولين تقول: «ماذا تفعل هذه هنا؟ أخبرْتُكُم أنَّني لا أريد رؤية تلك الفتاة هنا مجدَّداً».

نظرتُ إليها وحدَّقتُ في وجهها، وأدركْتُ أنَّ الكابتن كان محقّاً: لم تكن تتعامل مع الوضع بشكلٍ جيِّدٍ. كانت عيناها حمراوين ومحتقنتَين، وكان شعرها ملبداً، ومن الجليّ أنَّها لم تنَمْ لأسابيع.

«لا بأس» قال الكابتن، «نحن مَن أحضرناها».

حدجَتْه كولين بنظرةٍ مستفسِرةٍ. «ولِمَ قد تفعلون ذلك؟».

«كنَّا مخطئين، يا كولين»، ردَّ الكابتن، قبل أنْ يسترسل: «دي ستاسيو كتب تقريراً مغالطاً. ليسَتْ هي سببَ تعرُّض ابنكِ للأذى، بل هي، في الواقع، سببُ بقائه على قيدِ الحياة».

وجَّهَتْ إليَّ كولين نظرةً متوجِّسةً.

«أتذكرين حين آذى دي ستاسيو ظهرَهُ في حادثة انهيار السقف تلك؟»، سأل الكابتن.

إيماءاتٌ وغمغماتٌ في كلِّ الغرفة.

«يبدو أنَّه وقع في الإدمان على مسكِّناتِ الألم التي أعطوه إيَّاها. ثمَّ بعد ذلك، مات توني، وهجرتْهُ آنيت، وساءَتِ الأمور أكثر. ساءتْ لدرجة أنَّ ذهنَهُ تشوَّش. ساءتْ لدرجة أنَّه بدأ يكذب. ساءتْ لدرجة أنَّه هلوَسَ برؤية طفلٍ داخل المبنى. جرَّ المبتدئ معه إلى هناك وهي...»، أشار الكابتن إليَّ، «... سحبَتْهُ إلى الخارج، وشخَّصَتْ أعراض التسمُّمِ بالسيانيد. لقد وضعَتْ حياتَها على

المحكّ لإيجاد المبتدئ تحت الأنقاض، فاقداً الوعيَ، وجهاز السلامة خاصته يصرخ. أعدّتِ التِّرياقَ، وحقنَتْهُ به، وقامَتْ بتنبيهِ في مسرح الحادث وهو فاقدُ الوعيَ، لا يستجيب، بلا هواءٍ ولا نبضٍ».

جعلَني أبدو بطلةً خارقةً.

«صدّقيني، يا كولين»، تابع الكابتن، «لو لم تعتَنِ هذه الفتاة به، ما كنّا لنكونَ في المستشفى الآن، بل كنا سنكون في مأتمٍ».

حدَّقَتْ بي كولين لوهلةٍ.

ثمَّ دارَتْ حول طرف سرير المبتدئ، تشقُّ طريقها عبر الحشد. وحين وصلتْ إليَّ، كان وجهها مغطًّى بالدموع. سحبتني نحوها في عناقٍ قويّ، ولم تُفلِتْني. كنتُ أشعر بها ترتجف. تشبَّثَتْ بي أكثر، وهمسَتْ في أذني: «شكراً لكِ».

عانقْتُها أيضاً لكن بذراعٍ واحدةٍ، مبقيةً يدي الثانية في يد المبتدئ.

«انتظروا لحظةً»، قالَتْ إحدى شقيقات المبتدئ وهي تنظر إلى ذلك المشهد. «أليسَتْ تلك هي كريستابيل؟».

أفلتَتْني كولين.

حرَّكَ الكابتن رأسه نافياً. «اسمها كاسي».

«إنَّها كلتاهما»، قال المبتدئ وقد بدا صوته أقرب إلى صريرٍ، فالْتَفَتَ الجميع نحوه ليحدِّقُوا به. «إنَّها أفضلُ إطفائيٍّ في مناوبتنا» - لاقى نظراتِ الكابتن، ثمَّ وجَّه نظرَه نحو أهله - «وأيضاً رفيقتي تلك الليلة بموعد حفل الزواج».

«لم يكنْ موعداً»، قلتُ له وأنا أبتسم بعينَي فقط.

«لم يبدأْ كموعدٍ غراميٍّ»، قال بطريقةٍ لَعُوبٍ، «لكنَّه، بالتأكيد، انتهى على ذلك المنوال».

بدأ رفاق مناوبتنا بالصُّراخ والهتاف في اهتياجٍ كبيرٍ.

طأطأتُ رأسي.

«ظننّا أنَّ الطريق سالكةٌ»، قال المبتدئ للحضور، «لكنْ ظهر الكابتن بعدها».

حدَّق الكابتن بي وهو يسأله: «أكانَتْ هانويل تلك الفتاة السَّكرى؟».

أومأ أوين بالإيجاب. «نعم، إلّا أنَّها لم تكنْ سَكْرى، فقد تظاهَرَتْ بذلك فقط كي لا تعرفها».

«لقد أفلحَ الأمرُ»، علَّق الكابتن بإعجابٍ.

«منحناها اسماً مزيَّفاً كي لا يصلَ الخبر إلى المحطَّة».

فَهِمَ الجميع سبب ذلك. فكان كلُّ فردٍ في تلك الغرفة يعرف أن ذلك كان سيُحدِثُ فضيحةً، فالإطفائيون لا يُواعد بعضُهم بعضاً.

«لكن، لمَ أحضرْتَها أساساً، يا بنيَّ؟ لمَ قمتَ بمجازفةٍ كتلك؟»، سأل الكابتن.

نظر المبتدئ في أرجاء الغرفة، ولسان حاله يقول: أليسَ ذلك جليّاً؟ وإذا كان محرجاً من أنْ يقول ذلك، أنْ يعترف بصوتٍ مسموعٍ للجميع، فلم يُظهِر ذلك مطلقاً: «لأنَّني أحبُّها بجنونٍ»، ثمَّ أضاف بهزَّة كتفين خفيفةٍ: «أحببتها منذ أوَّل يومٍ رأيتها فيه».

خيَّم الصمت على الغرفة.

ثمَّ بدا أنَّ الجميع ينظرون إلينا وكلٌّ منَّا يمسك يدَ الآخر.

بعد ذلك، انفجرَ الرفاق في صياحٍ وهتافٍ، وأخذوا يضربون بعضهم ظهور بعض، كأنَّنا فزْنا للتَّوِّ باليانصيب.

«حدث الأمر في حصصِ سحب الدم تلك»، صرخ العضلات السِّتُّ.

«بل حدث حين لففْناهما بالشريط اللاصق على العمود».

«أو حين أبقيْناهما على سطح المحطّة».

إليك ما فاجأني: كم أنَّ الرفاق كانُوا مبتهجين بخصوص ذلك. بدَوا سعداءَ لفكرة أن أوين وأنا حبيبان، ومتحمسين لأخذ الفضل في ذلك. فكلّ هذا الوقت، كنتُ أظنُّ أنَّني سأُوبَّخ، على أقلّ تقديرٍ، أو سيتمُّ عزلي إذا عرفوا بالأمر. لكنَّ الرفاق لم يكونوا موافقين على علاقتنا فحسب، بل كانُوا مسرورين. طاقمٌ كاملٌ من الإطفائيين المشجّعين.

ربَّما كانُوا فقط سعداءَ لأنَّ المبتدئ كان حيّاً.

أو ربَّما كنتُ قد أسأتُ الحكم عليهم، أنا أيضاً، بطريقتي.

فنحن لا نرى إلَّا ما نتوقَّع رؤيته.

سحبَني المبتدئ نحوه. «تعالي إلى هنا».

صمتَتِ الغرفة وأنا أخطو نحوه.

«لديَّ شيءٌ من أجلكِ»، قال المبتدئ. ثمَّ مدَّ ذراعه نحو الصينية حيث كان فطوره ما يزال راقداً، والتقط خاتماً فضّيّاً.

مصنوعاً من ورق الألومنيوم.

حدّقْتُ بالخاتم.

«صنعْتُهُ من غطاء علبة صلصة التفاح»، أضاف وهو يلاقي عينيّ، «قد يكون دَبِقاً شيئاً ما».

انتصبْتُ في مكاني بلا حراكٍ. «ما الغرض منه؟».

رفعه، ثم قال: «وعدْتُ نفسي أنَّني إذا نجوْتُ، فإنَّ أوَّلَ شيءٍ سأقوم به هو أنْ أطلب يدك للزواج».

«يبدو أنَّه يبادِلُكِ الإعجاب، يا هانويل»، صرخ أحدهم.

«أتتزوَّجينني؟»، سأل المبتدئ وهو يحمل خاتم ورق الألومنيوم، ونظرتُهُ مثبّتةٌ على عينيَّ.

أومأتُ قبل أنْ أستطيع إيجاد الكلمات. «نعم».

ثمَّ جذبني أقرب إليه، وأدخل ذلك الخاتم منزليَّ الصنع بإصبعي، وقبّل يدي بطريقةٍ ألهمَتِ الكابتن ليبدأ بدفع الجميع خارج الغرفة.

«حسنٌ، حسنٌ»، قال الكابتن، «فلْنمنحْ هذين الصغيرين بعض الخصوصية». لكنْ كانَتْ تصعب قيادة ثلّةِ الفضولين أولئك. «أنتَ»، أشار الكابتن إلى أقربهم إلى الباب، «فلْنتحرَّكْ، هيَّا!»، ثمَّ إلى الذي يليه، «أنتَ، إلى الخارج، هيَّا!».

حين انسحب الحشد خارج الغرفة، وضع الكابتن ذراعيه على آخر المتخلّفين عن المجموعة، بيغ روبي وكولين، «فلْنمنحِ العاشق المسكين دقيقةً، ولنمضِ لنحتسيَ بعض القهوة».

أُغلق الباب خلفهم، وصِرْنا وحدنا.

أشار إليَّ المبتدئ للجلوس إلى جانبه. «تعالي إلى هنا».

أنزلْتُ الحاجز الجانبيَّ، وجلستُ بجواره على السرير. «لمْ يسمحُوا لي برؤيتِكَ، لكنَّني تسلَّلْتُ في الليل، على أيَّةِ حالٍ».

«ظننْتُ أنَّني حلمْتُ بذلك»، قال.

«لا، لقد كان حقيقيّاً».

لم أعِ أنَّ الدموع كانَتْ تغطّي وجهي حتى مدَّ المبتدئ يده ليمسحها.

«أنا ممتنَّةٌ للغاية لكونِكَ بخيرٍ»، قلت وقد بدا صوتي مرتجفاً.

«شكراً لأنَّكِ لم تتركيني هناك لأموت»، قال أوين.

«شكراً لأنَّكَ لم تمُتْ».

«شكراً لأنَّكِ وافقْتِ على الزواج بي».

«شكراً لأنَّكَ طلبْتَ منِّي ذلك».

«لو أنَّني أستطيع الانحناء لتقبيلك في هذه اللحظة لفعلتُ».

ابتسمْتُ. «كنتُ سأقبِّلُكَ أنا أيضاً».

أومأ. «لكنَّني لا أستطيع ذلك... بسبب ضلوعي».

«أفهم ذلك»، قلتُ.

«لذا، إذا كنتِ تودِّين أنْ يتمَّ تقبيلُكِ، فسيتوجَّبُ عليكِ أنْ تقومي بكل العمل لوحدِكِ».

انحنيْتُ نحوه. «لا أريد إيذاءكَ»، قلتُ.

«لكنَّكِ تريدين تقبيلي».

«أنا حقّاً، حتماً، أفعل».

«كوني حذرةً، إذاً»، قال.

فقبَّلْتُهُ. بحذرٍ. مسندةً وزني على إحدى ذراعيَّ، وواضعةً راحة يدي الأخرى على محيط عنقه غير الحليق. كنتُ أستطيع الشعور بنبضه هادئاً وثابتاً، وسمحْتُ لنفسي بالإحساس بامتنانٍ بالغٍ، امتنانٌ لا يَلجمُه أدنى خجلٍ، لمجرّد وجود ذلك النبض.

حين تراجعْتُ لأحظى بنظرةٍ إلى وجهه، قال: «لا تتوقَّفي».

«قال الكابتن إنَّه يجب عليَّ منحك وقتاً لتتعافى».

«لا تمنحيني وقتاً لأتعافى».

«من الأفضل أنْ أدعك ترتاح».

«لا تدعيني أرتاح».

«من الأفضل أنْ أذهبَ».

«حتماً، لا تذهبي»، قال.

بدا متعباً، كأنَّ شيئاً يسيراً من المغازلة والتقبيل كان كافياً لهَدِّه. لكنَّني لم أرغب في الذهاب، فتمدَّدتُ بجواره على ذلك السرير الضَّيِّق، ببطءٍ وحذرٍ شديدين كي لا أؤذيه بأيِّ مكانٍ، واتّخذتُ لنفسي عشّاً بينه وبين حاجز السرير.

حين استقررْتُ في مكاني أخيراً، رأسي على كتفه، وكأنَّها كانَتِ الخطوة التلقائية التالية من المحادثة، قال أوين: «يجب أنْ نفعل ذلك اليوم».

رفعتُ نفسي على مرفقي. «نفعل ماذا؟».

ابتسم وهو يلاقي بنظرته عينيَّ: «نتزوَّج».

«هنا؟ في المستشفى؟».

«أنا متأكِّد من أنَّ هناك قسّيساً أو شيئاً مشابهاً في المكان».

«لا»، قلتُ.

نظر إلى عينيّ. «لا، لا تريدين أنْ تتزوَّجيني؟».

«لا، لن أتزوَّجَكَ اليوم، في مستشفًى».

«لمَ لا؟».

«لأنَّ أشياءَ طَيِّبَةً كثيرةً حصلت دفعةً واحدةً. أريدُ أنْ أُبقي شيئاً أتطلَّع إليه».

ابتسم، واستلقى إلى الخلف على المخدَّة، وأغمض عينيه. وضعتُ رأسي بجواره، وظننْتُ أنَّه كان نائماً حين قال: «صدِّقيني، لديك الكثير الكثير لتتطلَّعي إليه».

«أنا أعلم ذلك»، قلت.

لكنْ كان يمكن أن يحدث أيُّ شيءٍ. كنتُ أعلم ذلك أيضاً.

كنتُ أعلم عن الحياة كفايةً كي أوقن أنَّها «نصف تراجيديا»، فنحن نفقد الأشخاص الذين نحبُّهم، ويتسبَّب بعضُنا في خيبات أملٍ

لبعضنا الآخر، ونسيء فهم بعضنا البعض، فنغدو ضائعين ووحيدين وغاضبين.

لكن الآن، وفي هذه اللحظة، كنَّا بخيرٍ.

بل أفضلَ من بخيرٍ.

كانتْ والدتي في حديقتها، مع مشروع للقاء جوسي على الغداء، ونافذةٍ أُعيدَ إصلاحُها حديثاً. كان الرفاق من محطَّة الإطفاء في غرفة الانتظار يلقون النكاتِ البذيئة. كان دي ستاسيو يحظى بفرصةٍ ثانيةٍ لجمع شتات نفسه. كان بيغ روبي وكولين يحتسيان كوبَي قهوةٍ مستحَقَّين بجدارةٍ. وكنتُ قد استعدْتُ وظيفتي... إذا ما اخترتُ قبولها.

وكان المبتدئ على قيد الحياة. وكنتُ بجواره أمسك بيده، وأحسُّ بصدره يصعد ويهبط كأعظم معجزةٍ على الإطلاق. سأقبل بذلك. لن أتذمَّرَ.

لقد سامحْتُنا جميعاً، وسأفعل ذلك مجدَّداً لو تطلَّب الأمر.

ربَّما كان الجميع حمقى ومحكوماً عليهم. ربَّما لم يحظَ أحدٌ بنهايةٍ سعيدةٍ في النهاية. ربَّما كانَتْ كلُّ السعادة المرجوَّة لا تعدو كونها توقُّفاً ضئيلاً للأسى.

لكن، لم يكن بالإمكان إنكار أنَّ هذه اللحظة كانَتْ لحظةً حقَّةً ومباركةً. لحظة سعادة خالصة.

لم تكن لتدوم، لكنَّ هذا ما يُضفي عليها القيمة والأهمِّيَّة.

وقد يكون ذلك كافياً.

خاتمة

لـم أرجع إلى تكساس بعد ذلك أبداً.

لكنّني رأيْتُ طاقمي من محطّة أوستن بعد ذلك بسنةٍ، حين تزوَّجْتُ المبتدئ في روكبورت ذات مساءٍ صيفيٍّ دافئٍ، عند الغروب. قادَتِ المجموعة بأكملها من تكساس في موكبٍ مهيبٍ من شاحنات الـ«بيك-آب» بعد أنْ وافقُوا على أنْ يكونوا وصيفاتي. أراد هيرنانديز أنْ يكون الوصيفة الشَّرفيَّة، لكنَّ جوسي تفوَّقَتْ عليه في اقتناص المركز.

صمّمت جوسي فستان زفافي أيضاً. كان رقيقاً للغاية، لكنْ بالكثير من الكشاكش. وانتهى زوجُها الغامض بالظُّهور أخيراً في الحفل حاملاً رضيعهما المكتنز، بينما حملَتْ هي باقة الورد. أقنع هيرنانديز أحد أقربائه باستعارة شاحنته التي كانَتْ مطعماً متنقِّلاً لبيع التاكو، وقيادتها عبر البلاد لتقديم الطعام في حفلِنا، وبذلك انتهى به المطاف فعلاً في موضعٍ شرفيٍّ هو الآخر. قريب صاحب شاحنة بيع التاكو. أرادَنا أنْ نكتب ذلك على بطاقات الدعوة.

لكنّنا لم نفعلْ.

أحضرَ لنا روزنامةً حديثةً لمحطَّة إطفاء أوستن هديَّةَ عرسٍ.

جعلْنا طاقَمنا من ليليان أشابين للعريس، وكلُّ شقيقاته وقفْنَ بجواره أيضاً.

كانَتْ هنالك مسيرةٌ من الأطفال الصغار الحاملين للورود، ولم نستطع حسمَ أمرنا بين الكابتن مورفي من ليليان والكابتن هاريس من أوستن لترَؤُّس المراسم، لذا طلبنا من كليهما، وتناوبا على ذلك.

ماذا يسعني القول؟ حين حلَّ الوقت لنقفَ أحدنا في وجه الآخر لتقديم النذور، كان الكثير من الأشخاص الرائعين واقفين معنا.

استقلَّ والدي وكارول طائرةً لحضور حفل الزفاف، ومشى بي والداي نحو العريس. كانَتْ أمِّي ترتدي رقعة عينٍ حريريَّةً بيضاءَ صنعَتْها جوسي ممَّا بقي من قماش فستاني.

لاحقاً، أخبرَتْني أمِّي أنَّها وجدَتْ لحظةً مناسبةً للاختلاء بأبي والاعتذار له؛ لأنَّها تركتْهُ طبعاً، وأيضاً للطريقة التي تركَتْه بها، مع أسئلة كثيرة ظلَّتْ من دون جوابٍ لوقتٍ طويلٍ. «تعلمُ أنَّني لم أخنْكَ قطُّ، أليس كذلك؟» سألَته وهي تميل لترى التعبير في عينيه.

لكنَّه لم يكن يعلم ذلك. فطوال ذلك الوقت، كان يظنُّ أنَّها لا بُدَّ أنْ تكون قد خانَتْهُ. لسنين طوالٍ، كان يفترض أنَّها خانَتْهُ ثم هجرَتْهُ.

«لا»، قالَتْ وهي تأخذ يدَهُ وتعتصرها في يديها. «لقد تمَّ هجرُكَ، لكنْ لم تتمَّ خيانَتُكَ». ثمَّ حرَّكَتْ رأسها وهي تنظر إلى المحيط: «إلّا أن الأمرُ لا يشكِّلُ فرقاً فعلاً الآن».

«بل يشكِّلُ فرقاً»، أجاب أبي، واعتصر يدَها هو الآخر. لا يغيِّر ذلك ما حدث في الماضي، لكنَّهُ يهمُّ.

كان بيغ روبي وكولين هناك أيضاً، بالطبع، وأليكس، ابن عم المبتدئ، سقى كامل الحفل بالمجّان. لقد دعوْتُ ممرِّضةَ قسم العناية المركَّزة التي سمحَتْ لي بالتَّسلُّل، وأنا متأكِّدةٌ أنَّ شرارةً انطلقَتْ بين هذين الاثنين.

أقُمْنا بدعوة دي ستاسيو؟

أجل، فعلْنا.

سلوكه تجاهي تغيَّر كثيراً بعد أنْ أنقذْتُ حياته.

وسلوكي تجاهه تغيَّر بعد أنْ خرج من مصحّة إعادة التأهيل، وأتى إلى بيتي للاعتذار بصدقٍ، بدموعِ ندمٍ حقيقيَّةٍ، ونذر أنْ يُمضي سنواتِ تقاعده في مساعدة ملجأ النسوة المحلّيّ للتّكفير عن أخطائه.

واعترافاً بنموِّه الشَّخصيّ، أهديته قميصاً كُتب عليه: **الشخص الذي يرتديني داعمٌ للنسوية.**

لم يغيِّرْ ذلك أيّاً ممَّا فعله، بطبيعة الحال، لكنَّه كان ذا أهمِّيَّةٍ.

كما أنَّه بدأ مواعدة إحداهنَّ، رئيسة ملجأ النسوة في الواقع، وهو ما جعل شخصيَّتَهُ تتحسَّنُ تحسُّناً ملحوظاً، فصرْتُ أرى الآن لمَ كان الناس يحبُّونَهُ. إلى حدٍّ ما.

كان بودّي أنْ أخبركُمْ أنَّ ديانا تمكَّنَتْ من التغلب على سرطانها إلى الأبد، بفعل خفّة روحها وقوَّةِ إرادتها المَحضة، لكنَّها لم تفعل. فقبل حتى حفل الزفاف، بدأ الورم ينمو من جديد، وحصلَتْ على تشخيصٍ قاتمٍ.

لكن، وبطريقتها المعتادة، لم تخبرْني بذلك.

سمحَتْ لي بأنْ أحظى بتلك الأمسية الجميلة ذات النسيم البحريِّ العليل الدافئ، في فستاني الأبيض الحريريِّ المكشكش، وأن أشرب الشامبانيا وأتطلّع إلى كلِّ تلك النِّعم التي تحملها لي الأيام القادمة.

لم تخبرْني رسميّاً قَطُّ، في الواقع. لم تنبس بالكلمات قَطُّ. كانَتْ تعلم أنَّه حين يبدأ الورم في النُّموِّ مجدَّداً، فسأكتشف ذلك. في نهاية المطاف، حظيْنا بسنةٍ أكثر ممَّا كنَّا نأمل، وكانَتْ تعلم أنَّه

لم نكنْ - أنا وهي - نعتبر أيَّ يومٍ إضافيٍّ كأمرٍ مسلَّم به.

كانَتْ تأمل أنْ ترى حفيداً قبل أنْ ترحلَ، لكنَّنا لم نتمكن من تحقيق ذلك. لكنني نجحْتُ في أنْ أحمل بالكاد قبل أنْ ترحل عنَّا، وبطريقةٍ ما، علمَتْ بحملي قبل أنْ أفعل.

«احزري ما الأمر؟» قالَتْ في اليوم السابق لوفاتها.

«ما الأمر؟».

«أنتِ حاملٌ».

كنتُ أنا والمبتدئ نحاول الإنجابِ، وبحماسٍ شديدٍ، لكنَّنا لم نكنْ قد أفلحنا بعدُ. وكانت تلك الشهورِ من العمل والإعداد وترقُّب المواقيت المناسبة قد أرهقتني شيئاً ما.

جعَّدْتُ أنفي. «لا أحسُّ بأنَّني حاملٌ».

«لكنَّكِ كذلكَ»، قالت وهي تغمض عينيها. «إنها بنتٌ، وستحبِّينها أكثر من نفسكِ، وستخذلينها أنتِ أيضاً، ولن ترتقي إلى المعايير التي وضعتِ لنفسك. لكنْ لا تقلقي، ستكون بخيرٍ».

«أَجَل»، قلتُ وأنا أمسح الدموع المنهمرة على خدّي. «ستكون كذلك».

انتهَتْ ديانا بترك منزل والاس لي، وانتهى بنا المطاف أنا والمبتدئ بالانتقال إليه، والآن لدينا طفلان صغيران يُغيِّرانِ على كلِّ شيءٍ في البيت يومياً. لكنَّنا فكَّرْنا في أنَّه إذا كان هذا المكان استطاع احتواء صامويل وتشاستتي ماكْكي، وأطفالهما الثمانية، وكلَّ تلك الأسماك التي كانُوا يخلّلونها، فبإمكانه تحمُّل بعض الـ«هانويل-كالاغان» الصغار.

أبقَيْنا محلَّ الفخَّار مفتوحاً بعض الوقت، لبيع ما تبقى من مخزون ديانا للمعجبين والأصحاب، واحتفظْنا ببعض تلك القطع

المميَّزة في خزانةٍ أثريَّةٍ ذات أبوابٍ زجاجيةٍ، لها مفتاحٌ على شكل جمجمةٍ. حافظنا على هذه وقمنا باستعمال الباقي كما أرادتنا أن نفعل: إنها الصحون والسلطانيات والجفنات التي سيكبر أبناؤنا وهم يتناولون طعامهم فيها.

في النهاية، حوَّل المبتدئ محلَّ ديانا القديم إلى مطعمٍ صغير يعجُّ بالحياة، بسبع طاولاتٍ، أبوابه مفتوحة على طول السنة. هنالك دوماً طابورٌ عند المدخل، ويساعد دي ستاسيو خلال الصيف، حين يكون المكان مكتظّاً. إنّه عملٌ شاقٌّ، لكنَّ المبتدئ لا يمانع.

أجل، ما زلْنا نسمّيه بالمبتدئ.

عدتُ إلى وظيفتي في محطَّة ليليان في النهاية، بعد أنْ تذلَّلوا لي بعض الوقت.

إنَّه في الواقع توقيتُ عملٍ مناسبٌ لأمٍّ مثلي. أعمل يومين فقط في الأسبوع: يومان من أربع وعشرين ساعة، لكنني لا أمانع.

نجحَتْ جوسي في إنجاب طفلين آخرين، وانتهى زوجُها الغامض بتغيير وظيفتِهِ ليتمكَّن من قضاء المزيد من الوقت في البيت. كان تاريخا ولادة ابنتها الصغرى وابنتي الكبرى على بُعدِ أيامٍ قليلة فقط، واستطعْنا تدبُّر تعاونٍ ثنائيٍّ للاعتناء بأطفالنا، حيث تغطِّي هي الأمسيات التي أعمل فيها، بينما أغطِّي أنا الصباحات التي تعمل فيها. بيننا جميعاً - أنا وهي وطاقم المناوبة 'س' العالميِّ من جالسي الأطفال البواسل - نقوم بالمهمة على أكمل وجهٍ.

يتطلَّب الأمر حقّاً بلدةً بأكملها. ونصف بلدة.

إذاً، لقد سامحتُ والدتي، وكذلك فعل والدي أيضاً. والمبتدئ سامح نفسه لكونه كان طفلاً غبيّاً ذات مرَّةٍ. وسامحتُ دي ستاسيو

لكونه تصرّف كبالغٍ أخرقَ في الآونة الأخيرة. وفي مجمل الأمر، صرْنا مجموعةً تتقنُ ممارسة المغفرة.

بل إنَّني قرأتُ كتاباً كاملاً عن سيكولوجية النُّموِّ ما بعد الصدمة، وكيف أنَّنا، في خضمِّ الجروح الفظيعة، والمفجعة، والجائرة، والقاسية التي تُوقعها الحياة بنا، يمكن أنْ نغدوَ أكثر حكمةً وأكثر قوَّةً ممَّا كنَّا عليه من قبل.

أكنتُ أكثر حكمةً وقوَّةً الآن؟

من دون شكٍّ. حتى في خضمِّ كلِّ تلك التَّقلُّبات.

أمضيْتُ وقتاً طويلاً أتمنَّى لو أنَّ ما حصل لم يحصل.

لكنَّهُ حصل. والسؤال الذي أحاول التركيز عليه الآن هو:

وماذا الآن؟

الآن، وقد صرْتُ أكبر سناً، وأفضل حالاً، وسعيتُ كثيراً إلى التعافي، أحاول التفكير في الصورة الأكبر. أنتبه لما يجري في عالم السياسة، وأصوِّتُ للمرشَّحين الذين يهتمُّون بحماية النساء. كنتُ أعطي دروساً في الدفاع عن النَّفس في تكساس، وسأشرع في ذلك مجدَّداً، حين يصير أطفالي أكبر قليلاً وأحظى بوقتٍ أكثر. وفي عملي سوف أحرص دوماً على معاملة الضحايا بتعاطفٍ ورقَّةٍ خاصَّين.

كما بدأتُ عملاً تطوُّعيّاً مع مجموعةٍ غير ربحيَّةٍ تطلب من ضحايا الاغتصاب زيارة المدارس والسُّجون والجامعات، لرواية قصصهم للفتيات، وللفتيان، بالأهمية ذاتها.

إنَّهُ أمرٌ مرعبٌ.

أحضر مرَّةً كلَّ شهر، من دون أنْ أتغيَّب قَطُّ، وأتوقَّف في طريق عودتي إلى البيت، كلَّ مرَّةٍ، لأفرغ محتوى معدتي على جانب الطريق.

لكنَّني أواصل فعل ذلك، على أية حالٍ.

أفعل ذلك لأنَّني أؤمن أنَّ الترابط البشريَّ هو الشيء الوحيد الذي سينقذنا. أفعل ذلك لأنَّني أؤمن بأنَّنا نتعلَّم التعاطف حين نستمع إلى قصص الآخرين ونشعر معهم بألمهم. أفعل ذلك لأنَّني أعلم علمَ اليقين أنَّ العالم يعاني من مشكلة تعاطفٍ مع النساء، وهذا أمرٌ جَسُورٌ واحدٌ أستطيع فعله للمساعدة في تغيير ذلك.

صدقاً، أقول لنفسي، إنَّني إذا كنتُ أستطيع مشاركة قصَّتي مع دي ستاسيو، فأنا أستطيع مشاركتها مع أيٍّ كان.

أتمنَّى أنْ يستمع الأطفال إليَّ. أتمنَّى أنْ يخرجُوا من سماع قصَّتي وقد قرَّرُوا أنْ يصيرُوا أشخاصاً أفضل، أنْ يصيرُوا أكثر حذراً في معاملة بعضهم لبعضٍ، وأنْ يحاولُوا باستماتةٍ أنْ يستعملُوا ألمَهم لمساعدة الآخرين، عوضَ إيذائهم.

ربَّما سيفهمون ذلك، وربَّما لن يفعلوا. كلُّ ما بإمكاني فعله هو المحاولة.

وحين أرجع إلى البيت، يكون أوين في انتظاري، دائماً. يحرص على أن يكون العشاء جاهزاً. شيءٌ دافئٌ، ومهدِّئٌ، ولذيذٌ. في تلك الليالي، ألعب مع أطفالنا وأقبِّل بطونهم الصغيرة المكتنزة حتى وقت النوم، ثمَّ يأخذهم إلى الطابق العلويِّ، إلى غرفتهم في العلِّيَّة بالستائر ذات الكريَّات، ويضعهم في سريرهم. حين ينزل إليَّ، يحضر لي بطَّانيةً وكوبَ شايٍ، ونجلس على الأريكة لنتحدَّثَ عن يومنا. يحاول إضحاكي قدر الإمكان، ويقوم أحياناً بتدليك قدمَي بمرهمٍ برائحة الليمون، وشاهد برامج تلفزيونية سخيفة أحياناً أخرى.

ثمَّ بعد ذلك، حين يحلُّ وقت نومنا أخيراً، ينام بين ذراعيَّ وأنام بين ذراعيه.

إلَّا إذا جافاني النوم لبعض الوقت، ولم أستطع النوم في الحال.

حينها، وكما كنتُ أفعل منذ زمنٍ طويلٍ، أغمض عينيَّ، وأتخيَّل أنني أخبز الحلوى، أقيس مكوّناتها، أكسر البيض، أشاهد العجين وهو يدور في الخلَّاط. إنَّه الشَّيءُ ذاته كما كان دوماً. إلّا أنَّ الأمر مختلفٌ الآن، فالآن لا أخبز الحلوى لوحدي، بل أتخيَّل نفسي ذات الستة عشر ربيعاً، هناك أيضاً، إلى جانبي.

حين تصير الحلوى جاهزةً، نخرجها من الفرن، ونجلس جنباً إلى جنبٍ على الأريكة، ونتناولها، وهي ما تزال ساخنةً ولزجةً، ونشرب كؤوساً من الحليب البارد بمكعبات الثلج. ألفُّ ذراعي حولها أحياناً، وأقول لها كلماتٍ متعاطفةً، متفهِّمةً، ومشجِّعةً أحياناً، وأنحني نحوها أحياناً أخرى، وأقول لها بكلِّ اليقين الذي أملكه، إنَّ ما حدث لها لنْ يدمِّرَ حياتها، وإنَّها ستُشفَى في النهاية، وستجد طريقةً جديدةً لتكون بخيرٍ.

لا تصدِّقُني أبداً، لكنَّني أقول لها ذلك على أيَّة حالٍ.

أعلم أنَّ هذه اللحظات لا تَحدثُ فعلاً. أعلم أنَّه لا يمكنُني أنْ أخطوَ في نهر الزمن الجاري وأعود إلى الوراء وأواسيَ نفسي الضائعة. أعلم أنَّ نفسي المراهقة ونفسي الحاليَّة لا يمكنهما فعلاً أنْ تُمضيا وقتاً طيّباً معاً بتلك الطريقة، تتناولان الحلوى، وتديران مقلتيهما وهما تشاهدان العالم يجري، كصديقتين مقرَّبتين.

إنَّه خيالٌ محضٌ بالطبع، فأنا فقط أحكي لنفسي بعض القصص.

لكنَّ هذا هو الشيء العجيب بخصوص القصص.

إنَّنا نصدِّقُها على أيّة حال.

لكن، انتظِروا لحظةً - هل سامحْتُ هيث تومسون؟

ليس فعلاً.

سامحْتُ نفسي أخيراً، برغم أنَّني لم أفعل شيئاً يتطلَّب المسامحة.

لكنني لم أسامح هيث تومسون فعلاً.

معه، يمكنكم القول إنَّني اخترْتُ الانتقام في النهاية.

لا أعلم إذا كنْتُمْ قد قرأْتُمْ ذلك في الجرائد، لكنِ انتهى به المطاف إلى السِّجن لمدَّةٍ طويلةٍ.

وليس بسبب ما قد تتوقَّعون.

احتيالٌ ضريبيٌّ.

برغم أنَّه في الشهر ذاته، وحسب مقالٍ في الصفحةِ الأولى لإحدى الجرائد، تمَّ فضحُهُ كرئيس إحدى عصابات الدعارة الباذخة، وخلال ذلك الزخم، تمَّتْ مقاضاته من طرف ثلاثَ عشرةَ امرأةً بتهمة الاعتداء، ثمَّ تركَتْه زوجتُهُ. . . لكن ليس قبل أنْ تنشرَ بعض الصُّور الفاضحة له في ملابسَ محرجةٍ للغاية على شبكة الإنترنيت.

سنترك الأمر عند ذلك الحدِّ. استعملُوا مخيِّلاتكم. ثمَّ اجعلُوا أيّاً كان ما تخيَّلْتُموه أكثر إحراجاً بمئة مرَّةٍ، ثمَّ حاولوا مجدَّداً.

لكن، ما كان سبب دخوله السجن؟ **احتيالٌ ضريبيٌّ.**

فعلاوةً على ذلك، اتَّضح أنَّه كان يختلس أموال المدينة للرَّشوة ودفع تسوياتٍ للنساء اللاتي كُنَّ يُقاضِينْه.

وهو ما لم يتقبَّلْهُ أهل أوستن الطيِّبون.

أجل، سقط سقوطاً مدوِّياً.

إحدى تلك النساء اللاتي اعتدى عليهنَّ ترشَّحَتْ لخلافته على مقعدِهِ في مجلس المدينة، وفازَتْ به.

كلُّ هذا كان في الجرائد، وعلى قنوات التلفاز على مدار شهورٍ طوالٍ، لكنَّني بطريقةٍ ما فوَّتُّ رؤيتَهُ.

لا بُدَّ أنَّني كنتُ منشغلةً بكوني سعيدةً.

صدقاً، لم أسمع بالأمر إلَّا بعد ذلك بسنواتٍ، حين تقدَّم هيث تومسون باستعطافٍ للمحكمة من أجل طلب إطلاق سراح مشروطٍ، لكنَّه قُوبِلَ برفضٍ حاسمٍ، فأعاد ذلك إحياءَ سلسلة فضائحه لتعود إلى الواجهة على كلِّ الصحف والجرائد وقنوات التلفاز.

أمضيْتُ بعض الوقتِ بعد ذلك في التفكير ما إذا كان عليّ أن أفصح عمَّا حدث... وأتساءل عن السبب الذي منعني عن ذلك. جزءٌ من السب هو أنني لم أكنْ أعلم بالدعاوى القضائية المقامة ضده في تكساس. وأظنُّ، أو أودُّ أنْ أظنَّ، أنَّني كنتُ سأنضمُّ إليها لو أنَّني علمتُ بها.

لكنَّني ما كنتُ لأعرف بيقينٍ.

لوقتٍ طويلٍ جدّاً، كان تكتُّمي عن الأمر كلَّ ما يمكنني فعله لإبقاء رأسي فوق مستوى الماء.

أحياناً أتساءل: لو أنَّني استطعتُ إخبار أحدهم باكراً عمَّا فعل بي، أكان بإمكاني حماية النساء اللاتي آذاهنَّ من بعدي؟ ربَّما. ربَّما كان صوتٌ جَسورٌ واحدٌ لأوقفه. أو ربَّما، وبالاحتمالية نفسها، كان سيتمُّ إهانتي وإلقاء اللوم عليّ، وكان سيفلت بفعلته.

أعلم لماذا لا تبوح النساء بهذه الأمور. فمن الصعب عليهنّ مجرّد البقاء على قيد الحياة بعد ذلك.

كما أنَّ اللوم، بالمناسبة، على ما فعله هيث تومسون بنا جميعاً، لا يقع إلَّا على كتفيه.

صباح اليوم الذي اكتشفْتُ فيه كلَّ تلك الأخبار بشأن فضائحه،

أخذتُ بضع دقائق للتلذُّذ بسقوطه المدوِّي والبهيّ، ثمَّ عدتُ لإعداد فطائر «بانكيك» على شكل قلوب للفطور.

كان لديَّ أشخاصٌ أهمُّ لأفكِّرَ فيهم.

أظنُّ أنَّ ذلك يؤكِّد المقولة القائلة: «أفضل انتقامٍ هو أنْ تتزوَّجي رجلاً ذا قلبٍ حنونٍ وعضلاتِ بطنٍ مشدودةٍ، يحضر لك القهوة إلى السرير كلَّ صباحٍ».

انتظروا لحظة... أتلك هي المقولة؟

ربَّما هي: «أفضلُ انتقامٍ هو قضاء حياتِكِ في بيتٍ صغيرٍ لطيفٍ يطلُّ على المحيط، مع حاملٍ لبطولة العالم في التقبيل، والذي يتَّبع عبارة 'بجسدي، أبجِّلُكِ'[1] حرفيّاً».

ربَّما ليسَتْ تلك أيضاً.

ماذا عن: «أفضل انتقامٍ هو إطلاق طائراتٍ ورقيةٍ على الشاطئ رفقة أطفالك ذوي الأجسام الصغيرة المكتنزة»، أو «أفضل انتقامٍ هو الرَّقص على أنغام أغانٍ قديمةٍ في المطبخ رفقة صديقاتك المقرَّبات».

أو ربَّما: «أفضل انتقامٍ هو أن تحبِّي بجنونٍ».

إلهي، ما هي تلك المقولة اللعينة؟ «أفضل انتقامٍ هو...».

حسنٌ،

نسيتُ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

---

(1) 'With my body, I thee worship': جملة من كتاب (The Book of Common Prayer - 1552) والذي تقام مراسم الزواج وفقه، أمام قسيس - المترجم.

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر لصديقيَّ تْلَيْتْمَاسْ سَعُّو القَضاوي وعبد المجيد سباطة لاقتراحهما اسمي على المركز الثقافي العربي، الأمر الذي عجَّل بصدور أول أعمالي.

كما أتقدم بالشكر للخال رضوان زروق على مساعدته بخصوص التدقيق اللغوي وكذا اقتراحاته بخصوص جوانب أخرى من العمل والترجمة.

وأخيراً، وأولاً، والدي... الذي أدين له بسلامة لغتي العربية... وشغفي بها.

كاثرين سنتر

أشياء ننقذها من النيران

«لقد رويتُ قصتي. وضعتها في كلمات... رواية القصة غيّرتِ القصةَ بالنسبة إليّ. لم تغيّر ما حدث، فهذا يستحيل تغييره، وإنما غيّرت الطريقةَ التي استجبتُ بها لما حدث».

كاسي امرأة وُلدت من أجل حالات الطوارئ. إنها إطفائية من الطراز الأول، بارعة في التعامل مع مآسي الآخرين. فإنقاذ حيوات الناس أمرٌ هيّنٌ بالنسبة إليها، لكن إنقاذ حياتها هي، أمرٌ مختلف تماماً...

تركت تجربتُها الأولى مع الحب نُدوباً في أعماقها فنذرتْ على نفسها ألا تحب مجدداً. لكنها أدركت، وهي تمضي في حياتها، أن المرءَ يجب أن يغفر إذا أراد أن يحِب. تعلّمت «أن نختار أن نحب، رغم كل الطرق التي تخلّى عنا بها الناس، ورحلوا، وفطروا قلوبنا؛ أن نعرف كم أن الحياة قاسيةٌ، وأن نختار أن نحبّ على أيّ حال، فهذا ليس ضعفاً، بل شجاعة». وتعلّمت أيضاً أن «كلَّ تلك المصاعب والإهانات والخذلان في الحياة لا تجعل نعيم هذه اللحظة أقل أهمّية، بل تجعلها أكثر أهمّية. أجل، العالم مليء بوحشيّة لا توصف، لكن الردّ على ذلك لا يكون بألّا نشعر بالأمل، أو السعادة، أو الحبّ، بل أن نتذوّق كل ثانية عابرة ثمينة من تلك المشاعر حين تأتي، وأن نحبّ بجنون كلما أمكننا ذلك».

رواية كاثرين سنتر هذه نابعة من قلبها لا من قلمها، تلامسُ شغاف قلبِ كلّ من يقرأها. رواية تساعدنا على إعادة ترتيب أولوياتنا بطريقة صحيحة، وتستحق بكل المعايير أن تكون من بين الأشياء التي ننقذها من النيران.





الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com